أدب
الدّول المتتابعة
الزنكيّة والأيوبيّة والمماليك

الدكتور
سامي يوسف أبو زيد

أدب
الدّول المتتابعة
الزنكيّة والأيوبيّة والمماليك

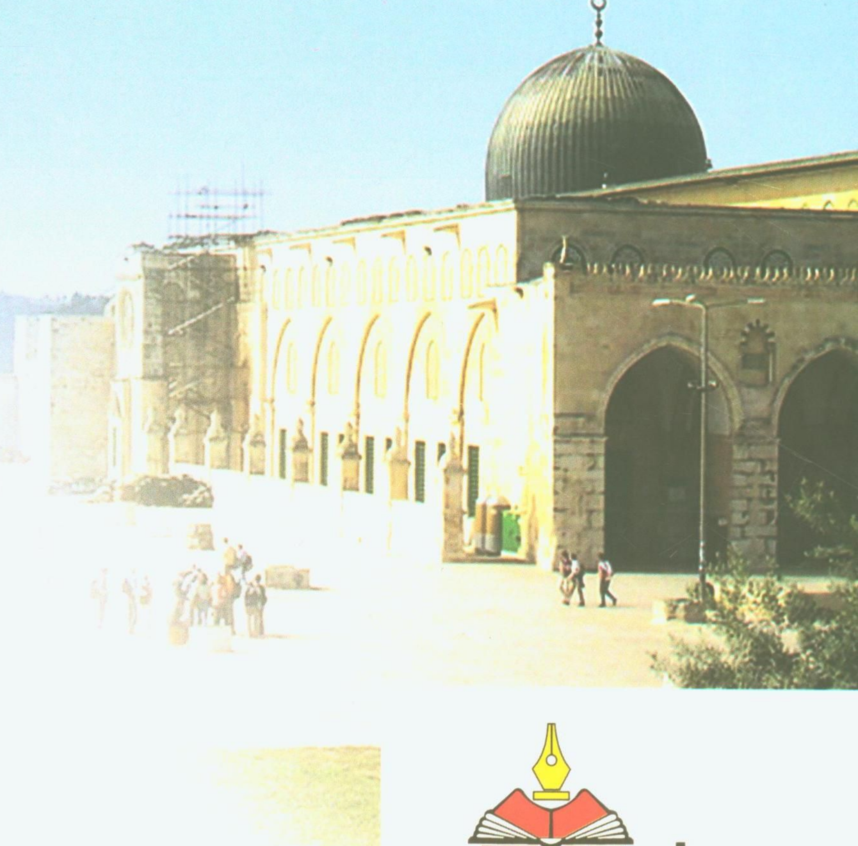

9789957068660

دار
المسيرة
للنشر والتوزيع والطباعة
www.massira.jo

أدب الدّول المتتابعة الزنكيّة والأيوبيّة والمماليك

الدكتـ
سامي يوسف

ادبيات
عرب
٩
٥
٣١

دار المسيرة
للنشر والتوزيع والطباعة

كتابخانه تخصصي
تاريخ اسلام و ايران
۱۳۷۴

بسم الله الرحمن الرحيم

کتابخانه تخصصی
تاریخ اسلام و ایران
۱۳۷۴

أدب
الدّول المتتابعة
الزنكيّة والأيوبيّة والمماليك

رقـــــــم التصـــــنيف : 810.09

المؤلف ومن هو في حكمه : سامي يوسف أبو زيد

عنـــــوان الكـــــتاب : أدب الدول المتتابعة

رقـــــم الإيـــــداع : 2011/6/2285

الـــــواصـــــفـــــات : الأدب العربي/ النقد الأدبي/ التحليل الأدبي

بـــيانـــــات الـــنشـــر : عمان - دار المسيرة للنشر والتوزيع

تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

حقوق الطبع محفوظة للناشر

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار المسيرة للنشر والتوزيع عمّان – الأردن ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على اشرطة كاسيت او إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على إسطوانات ضوئية إلا بموافقة الناشر خطياً

Copyright © All rights reserved

No part of this publication my be translated,
reproduced, distributed in any from or buy any means,or stored in a data base or retrieval system , without the prior written permisson of the publisher

الطبعة الأولى 2012م – 1433هـ

دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة

عنوان الدار

الرئيسي : عمان - العبدلي - مقابل البنك العربي هاتف : 5627049 6 962+ فاكس : 5627059 6 962+

الفرع : عمان - ساحة المسجد الحسيني - سوق البتراء هاتف : 4640950 6 962+ فاكس : 4617640 6 962+

صندوق بريد 7218 عمان - 11118 الأردن

E-mail: Info@massira.jo . Website: www.massira.jo

أدب الدّول المتتابعة

الزنكيّة والأيوبيّة والمماليك

الدكتور
سامي يوسف أبو زيد

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى
بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: 1]

الفهرس

المقدمة........ 11

الفصل الأول
الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية
في عصور الدول المتتابعة

المبحث الأول: الحياة السياسية 17
المبحث الثاني: الحياة الاجتماعية........ 27
المبحث الثالث: الحياة الثقافية 34

الفصل الثاني
الفنون الشعرية التقليدية

المبحث الأول: المديح 43
المبحث الثاني: الرثاء 49
المبحث الثالث: الغزل........ 56
المبحث الرابع: الفخر والحماسة........ 61
المبحث الخامس: الهجاء والفكاهة 68
المبحث السادس: شعر الزهد........ 73
المبحث السابع: الوصف 75

الفصل الثالث

الفنون الشعرية المستحدثة

المبحث الأول: المدائح النبوية 83

شرف الدين البوصيري 86

المبحث الثاني: الأدب الصوفي.. 91

المبحث الثالث: الشعر الصوفي 95

أولا: عمر بن الفارض.. 96

ثانيا: ابن عربي 98

ثالثا: عفيف الدين التلمساني 101

الفصل الرابع

الأشكال الشعرية المستحدثة

المبحث الأول: الموّشحات.. 105

المبحث الثاني: الرباعيات 111

المبحث الثالث: المسّمطات 114

المبحث الرابع: البديعيات 116

الفصل الخامس

أعلام الشعر: شعراء القرن السادس

المبحث الأول: ابن القيسراني 123

المبحث الثاني: ابن منير الطرابلسي.. 141

المبحث الثالث: ابن قُسيم الحموي 151

المبحث الرابع: أسامة بن منقذ.. 158

الفصل السادس

أعلام الشعر: شعراء القرن السابع

المبحث الأول: ابن الساعاتي 179
المبحث الثاني: الشهاب الشاغوري 189
المبحث الثالث: ابن عُنين 198
المبحث الرابع: علي بن المقرَّب العيوني 208
المبحث الخامس: بهاء الدين زهير 225
المبحث السادس: الشرف الأنصاري 231
المبحث السابع: الشاب الظريف 237

الفصل السابع

أعلام الشعر: شعراء القرن الثامن

المبحث الأول: الشهاب محمود 247
المبحث الثاني: صفيّ الدين الحلّي 252
المبحث الثالث: جمال الدين بن نُباتة 267

الفصل الثامن

فنون النثر الشفاهي

الخطابة 277
أنواع الخطابة 277

الفصل التاسع

فنون النثر الكتابي

المبحث الأول: الكتابة والرسائل 289

المبحث الثاني: الإخوانيات وما شابهها.. 296

الفصل العاشر

السّرديّات القصيرة (المقامات)

المقامات 301

المبحث الأول: عمر بن الوردي وأنموذج من مقاماته: «المقامة الدمشقية» 303

المبحث الثاني: السيوطي وأنموذج من مقاماته: «مقامة الرياحين» 308

الفصل الحادي عشر

السرديات القصيرة (ألوان أخرى)

المبحث الأول: الحكايات والمنامات 337

المبحث الثاني: كتب السِّيَر والقصص الشعبية 340

المبحث الثالث: كتب النوادر 342

الفصل الثاني عشر

أدب الرحلات

المبحث الأول: ابن جبير وأنموذج من رحلته 346

المبحث الثاني: ابن بطوطة وأنموذج من رحلته.. 352

الفصل الثالث عشر

الموسوعات

تمهيد 357

أسباب ظهور الموسوعات 357

أنواع الموسوعات 358

الموسوعات اللغوية 359

الموسوعات الأدبية 360

الموسوعات الجغرافية 361

الموسوعات التاريخية 362

موسوعات الدواوين 363

الفصل الرابع عشر

أعلام النثر في عصور الدول المتتابعة

المبحث الأول: الخطيب الحصكفي 367

المبحث الثاني: القاضي الفاضل 370

المبحث الثالث: العماد الكاتب 378

المبحث الرابع: صلاح الدين الصفدي 383

المبحث الخامس: محيي الدين بن عبد الظاهر 387

المصادر والمراجع 391

المقدمة

هذا الكتاب الموسوم بـ «أدب الدول المتتابعة» هـو في أصـوله الأولى محاضـرات جامعية، ألقيناها طوال عقد من السنين على طلبة قسم اللغة العربيـة وآدابهـا في كليـة الآداب بجامعة الإسراء الخاصة (2001-2010 م)، حاولنا فيها أن نرصد مسيرة الأدب في عصور الدول المتتابعة، من تاريخ الأدب العربي، من خلال نظرة جديدة تغطي هذه الحقبة التي تشمل عهود الزنكيين والأيوبيين والمماليك.

وتجدر الإشارة إلى أن أول من استعمل مصطلح «الـدول المتتابعـة» هـو حسن توفيق العدل في كتابه المسمى «تاريخ آداب اللغـة العربيـة» المطبـوع سـنة 1960 م، إذ وزّع الأدب على خمسة عصور، سمّى آخرها «عصر الدول المتتابعة»؛ وأراد بـه الـدول التي ظهرت بعد سقوط بغداد سنة 656 هـ على أيدي التتار، في مـصر والـشام وشـبه الجزيرة العربية. وأدخل الدكتور عمر موسى باشا في كتابـه الموسـوم بــ «أدب الدولـة المتابعة» الدولة الزنكية والدولة الأيوبية في هـذا المـصطلح وهـو مـا ارتأينـاه في هـذه الدراسة.

وإذ أخذت هذه المحاضرات طريقها إلى النشر، كان لا بُدّ من إعادة النظـر فيهـا، ذلـك أنهـا لم تعـدْ مُلكـاً للطالـب الجـامعي وحـده، بـل غَـدَتْ مُلكـاً للقـارئ العـام والمتخصص معاً. ومن ثمّ أعدنا كتابتها، وأضفنا إليها المزيد من المادة التعليميـة، ومـن النصوص بالقدر الذي يحتمله الكتاب المطبوع.

وغيرُ خافٍ على دارس هذا الأدب أنه مظلوم، فقـد وُصـف بأنـه «أدب عـصر الانحطاط»، وهذا حكم جائر، يفتقر إلى الموضوعية، ليس مـردّه إلى مـا في هـذا الأدب من صناعة لفظية، ولا إلى ما فيه من اتّباعيّة وتقليد، وقلة ما فيـه مـن إبـداع وابتكـار، وإنما يعود لأسباب أخرى، من دينيـة وسياسـية؛ فقـد واكـب هـذا الأدب الأحـداث الكبرى التي شهدتها هذه العصور بدءاً من وقـوع الـسهل الـساحلي المـسمى بـالطراز

الأخضر وبيت المقدس على وجه الخصوص بأيدي الفرنجة تحت شعار الصليب، ثم سقوط بغداد على أيدي المغول، وما تلا هذه الأحداث الجسام من صحوة المسلمين في الشام ومصر، حيث ظهر القادة العظام من أمثال نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي وقطز وبيبرس وغيرهم، فتوحّدت في عهودهم البلاد، وتحرّرت القدس، ودُحر التتار، وطُرد الفرنجة.

وقد واكب الأدب هذه الأحداث، وساهم في معارك التحرير جنباً إلى جنب مع سيوف المجاهدين، وأية ذلك ما خاطب به صلاح الدين جنوده، بقوله: «لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضي».

من هنا برزت الحاجة لتقديم هذا الأدب الذي يغطي هذه الأحداث الكبرى، في فترة زمنية مهمة في التاريخ الإسلامي، في مصر وبلاد الشام.

أما خطة هذا الكتاب فتقوم على توزيع مادته في أربع عشرة وحدة، على النحو التالي:

بدأنا بعرض عام للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في عصور الدول المتابعة، لتكون أساساً للدراسة، ثم انطلقنا إلى دراسة الشعر، فتناولنا فنونه القديمة التي سار فيها الشعراء على سنن الأقدمين، وما جدّ فيه من فنون وأشكال، ووقفنا عند أعلام الشعر في ثلاثة قرون، هي: السادس والسابع والثامن الهجرية (تراجمهم وفنونهم الشعرية ونماذج نصيّة من أشعارهم).

وتناولنا النثر بشيء من التفصيل في فنونه والتركيز عليه، فدرسنا النثر الشفاهي، فالكتابي، فالسرديات القصيرة وبخاصة فن المقامة، فالوصفي (أدب الرحلات)، وتحدّثنا بإيجاز عن الموسوعات التي عُرفت في العصر المملوكي، ثم وقفنا عند أعلام الكُتّاب والأدباء (تراجمهم ونماذج نصيّة من إبداعاتهم النثرية).

ولما كان هذا المقرر يغطي تاريخيا مساحة زمنية تمتد من العصر الزنكي حتى نهاية عصر المماليك، كما أنه يُغطي – جغرافيا – مساحة مكانية عريضة هي مساحة تلك الدول، لما كانت فنون الشعر والنثر متعددة فقد اعتمدنا على كثير من المصادر والمراجع، ولا بُدّ من التنويه بطائفة منها، أولها «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين»

لأبي شامة، إذ حوى كثيراً من الأخبار التاريخية والأدبية. وكتاب «أدب الدول المتتابعة» للدكتور عمر موسى باشا الذي يعد أوفى دراسة معاصرة لأدب هذه العصور.

كل ما نأمله، أن نكون قد قدّمنا عملاً مفيداً، يخدم لغتنا العربية الجميلة، وأسهمنا بجهد يسير في تعريف أبنائنا بصفحات مشرقة بالأمجاد والبطولات.

فإذا وُفّقنا في دراستنا هذه، فذلك ما نبتغيه، وإلا فعذرنا أننا بشر نُخطئ ونصيب وأننا اجتهدنا مخلصين.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل لدار المسيرة التي ساعدت على إنجاز هذا الكتاب ونشره، وأيضا الشكر موصول إلى القائمين على مكتبة جامعة الإسراء الذين بذلوا قصارى جهدهم في توفير مصادر هذا الكتاب ومراجعه.

والله نسأل أن يقبل منا هذا العمل المتواضع، وأن ينفع به، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

المؤلف

الفصل الأول

الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في عصور الدول المتتابعة

المبحث الأول: الحياة السياسية

المبحث الثاني: الحياة الاجتماعية

المبحث الثالث: الحياة الثقافية

الفصل الأول

الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في عصور الدول المتتابعة

المبحث الأول

الحالة السياسية

شهد العالم الإسلامي وبلاد الشام على وجه الخصوص، إبّان القرنين السادس والسابع الهجريين، أخطاراً خارجية كُبرى، تمثّلت في الغزو الصليبي القادم من أوربا، والغزو المغولي القادم من أواسط آسيا. أما الغزو الصليبي فيطلق على الحملات التي بدأت من أواخر القرن الخامس إلى السابع للهجرة (الحادي عشر إلى الثالث عشر للميلاد)، وشنّتها أوربا للاستيلاء على بيت المقدس وبلاد الشام ومصر من أيدي المسلمين، لأسباب متعددة أفاضت بها كتب التاريخ.

فكانت الحملة الأولى التي نظمها البابا أريان الثاني سنة 489 هـ/ 1095 وقادها «جود فروي God Froy وعدد من الأمراء، ونجحت في الاستيلاء على بيت المقدس سنة 429 هـ وذبح سبعين ألفاً من سكانها واستولوا على الطراز الأخضر السوري وثغوره المنيعة، وتوالت هذه الحملات دون أن تفلح في الاستيلاء على بلدان الشام الداخلية مثل دمشق وحمص وحماة وحلب. وقد هبَّ المسلمون للذّود عن أوطانهم ومقدّساتهم في هذا العصر، وأدى ذلك إلى ظهور قادة عظام من أمثال عماد الدين وابنه نور الدين، وصلاح الدين الأيوبي، وقطز وبيبرس على مسرح الأحداث في مصر والشّام.

وأما الغزو المغولي فتمثل في اجتياح العالم الإسلامي من جهة الشرق، إذ انطلقت جموع المغول كالوحوش الضّارية، تجتاح المدن الإسلامية وتُلحق بها دماراً شاملاً، كان أشدّها ضراوة سقوط بغداد على أيديهم في التاسع عشر من محرم سنة

656هـ الموافق للتاسع من شباط 1258م؛ فقد زحفوا إلى بغداد بمائتي ألـف محـارب[1]، وحاصروها ثم اقتحموا أسـوارها. وقـد اختلـف المؤرخـون في عـدد القتلـى ببغـداد، فذهب ابن كثير إلى أنه بلغ مليوناً وثمانمائة ألف[2]. منهم الخليفة وحاشيته وكـثير مـن العلماء والفقهاء ثمّ اندفعوا نحو الشام، فألحقوا بها الموت والدمار ولم يلبثوا أن زحفوا نحو مصر فتصدّى لهم الجيش المصري عند عين جالوت شمالي فلسطين بقيـادة قُطـز وبيبرس من أمراء المماليك سـنة 658هــ/ 1260م، وكانـت عاقبتهـا أن هُـزم المغـول، فابتهجت النفوس، ونجت البلاد من شرورهم.

وانطلاقا من هذه المرحلة الخطيرة من التاريخ الإسلامي سنتحدّث عـن الـدول المتتابعة التي ظهرت على مسرح هذه الأحداث.

أولاً: الزنكيّون (489-577 هـ)

وهم من أتابكة السلاجقة، الذين حكموا بلاد الـشام، وكـان لهـم دور كـبير في توحيد بعض الأقاليم العربيـة والتـصدّي للـصليبين وتحريـر كـثير مـن البلـدان، وقـد اتسعت دولتهم. فكان يُخطب لملوكهـا في الـشام ومـصر والـيمن والحـرمين، وكـانوا يستمدّون سلطتهم من الخليفة العباسي، مع الاحتفاظ باستقلالهم.

وقد بدأ عهـدهم بظهـور قـسيم الدولـة آق سـنقر، إذ نـشأ في كنـف الـسلطان السلجوقي ألب أرسلان، وتربّى مع ابنه جلال الدين ملكاشاه، واستمرَّت صحبته لـه حتى ولي السلطنة بعد وفاة سيده، فارتفعت منزلته، وسمت مكانته، ونبه شأنه فلُقـب بقسيم الدّولة[3].

استطاع قسيم الدولة أن يضع يده على شيزر وأفامية وحمص والرحبة[4]. وشدّد قبضته على المفسدين والعابثين، فكان كلما سمع بمفـسد عابـث أو قـاطع طريـق أمـر بالقبض عليه، وصلبه على أبواب المدينة ليكون عبرة لغيره[5].

(1) البداية والنهاية، 13/ 200.

(2) م.ن، ص 202

(3) أبو شامة، الروضتين، 1/ 24.

(4) م.ن، ص 25.

(5) ابن واصل، مُفرّج الكروب، 1/ 19.

لكنه تورّط في النزاع الذي دار بين ابن ملكاشاه وعمه تاج الدين صاحب دمشق، ووقف مع الأول وفاءً له، وإذ احتدم القتال بين الطرفين وأسفر عن وقوعه أسيراً، فلما مَثُل بين يدي تاج الدين قال له: «لو ظفرت بي ما كنت صنعت بي؟ فأجابه: كنت أرى قتلك. قال: أحكم عليك بما كنت تحكمُ عليَّ فقتله صبراً»[1].

وخلفه عماد الدين، وكان إذ ذاك في العاشرة من عمره،[2] وتعهّده مماليك والده، ثم دعاه أمراء الموصل وبخاصة الأمير شمس الدين جكرمش، إذ وقف إلى جانبه طوال حياته.

وكان الخطر الصليبي يُهدّد البلاد، ولكن الداء كان يكمن في تفرّق البلدان الإسلامية واحتدام النزاع بين أمرائها، وقد أدرك ذلك بثاقب نظره إذ يقول: «كل يوم يملك البلد أمير، ويؤمّر بالتصرّف على اختياره وإرادته، فتارة نحن بالعراق، وتارة بالشام، وتارة بالموصل، وتارة بالجزيرة [3]» ومن ثمَّ فقد صمَّم على جمع الكلمة وتوحيد البلاد، فانطلق من الموصل وضمّ إليه حلب وحماة وحمص وبعلبك، وأخذ يُنازل الصليبيين، فاستولى منهم على معرّة النعمان وكفر طاب، وكان ذروة انتصاراته عليهم الاستيلاء على مدينة الرّها سنة 539هـ، وبذلك قضى على هذه الإمارة الصليبية، التي كانت، تعدّ مقرّهم المقدّس بعد القدس وأنطاكية وورومية والقسطنطينية[4]. وقد ضجَّ الفرنجة من هذا البطل الذي استردّ منهم أعزّ قلاعهم، وحاولوا التخلّص منه، ولم تكد تمضي سنتان على هذا الإنجاز حتى امتدت إليه أيدٍ آثمة سفكت دمه الزّكي.

وتوزعت مملكة عماد الدين بين ولديه نور الدين محمود الذي تولى حلب، وغازي الذي تولى الموصل، وكادت تقع بينهما الحرب، ولكنهما اتفقا في نهاية المطاف وتصالحا، ومن ثمَّ تفرَّغ نور الدين لمقاومة الصليبيين، فاستولى منهم على حصن أرتاح

---

(1) أبو شامة، الروضتين ، 1/ 26.

(2) م.ن، ص27.

(3) م.ن، ص29.

(4) ابن الأثير، الكامل، 11/ 38

من أعمال حلب، ثم توجّه إلى حصن حارم سنة 544هـ فهزمهم هزيمة ساحقة، إذ قُتل منهم ألف وخمسمائة على رأسهم البرنس صاحب أنطاكية. وتوالت انتصاراته فاستولى على دمشق سنة 549هـ، وفي سنة 552هـ ملك حصن شيزر بعد الزلزال العظيم الذي أصابه، وفي سنة 560هـ فتح بانياس عنوة.

كان نور الدين يتطلّع إلى استرجاع بيت المقدس، موقناً بأن ذلك لن يتم إلا بتوحيد مصر وبلاد الشام. وقد واتته الفرصة حين احتدم النزاع في مصر الفاطمية بين الوزيرين ضرغام وشاور، ولاذ به شاور مستغيثاً، وسيّر أميرين أيوبيين: شيركوه وابن أخيه صلاح الدين. وتتطور الأحداث فتصبح مصر خالصة لصلاح الدين، بعد اجتثاث الدولة الفاطمية.

وكان نور الدين قد عزم على غزو مصر والتخلص من عامله الذي لم يُذعن له، إلا أن المنية عاجلته سنة 569هـ، وانتهى النزاع بوفاته[1].

وخلفه ابنه الصالح إسماعيل، وكان صغير السن، واتفق الأمراء على تمليكه، وأبلغ ولاة الأطراف بما حدث، وطُلب إليهم الحلف للملك الجديد وإقامة الخطبة باسمه، وعلى رأسهم صلاح الدين.

وتوالت الأحداث، فإذا الأمراء يتنافسون فيما بينهم وينازع بعضهم بعضاً على السلطة، وأخذ الفرنجة يُهدّدون بلاد الشام، ورأى صلاح الدين أن يقوم بحركة تصحيحيّة، فتوجَّه إلى دمشق بعد أن استدعاه أصحاب الأمر فيها، واستولى عليها وعلى حمص وحماة، ولم يلبث أن توفى الصالح إسماعيل، وخلفه صلاح الدين؛ فكان ذلك إيذانا بقيام الدولة الأيوبية في مصر والشام وغيرها من البلاد.

ثانياً: الأيوبيون

يعود الأيوبيون إلى أصول كرديّة، وهم من أشرف الأكراد وأقدم سكان العراق[2]. وقد ولد نجم الدين أيوب بن شادي، الذي تنسب إليه الدولة الأيوبية، ببلد

(1) انظر: ابن شدّاد، النوادر السلطانية، ص37.

(2) أبو شامة: الروضتين، 1/ 28 أو 210.

شبختان[1]، وأقام في بادئ أمره مع أخيه أسد الدين شيركوه في دُوين، وهي في أدنى بلاد أذربيجان. وقد هاجروا منها إلى بغداد، ولم يلبث أيوب أن خدم السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه، فولاّه قلعة تكريت، وإذ اختلف مع صاحبها يهروز، فقد غادرها بصحبة أخيه أسد الدين شيركوه، قاصدين عماد الدين زنكي، فلقيهما وأكرمهما إكراماً عظيماً. وتجدر الإشارة إلى أن صلاح الدين ولد سنة 532هـ، في الليلة التي خرج فيها والده طريداً شريداً من قلعة تكريت، مما جعله يتشاءم من ولادته.

التحق شيركوه بعماد الدين زنكي ثم عمل مع ابنه نور الدين، وتحوّل أيوب إلى العمل مع حاكم دمشق، وإذ حاصر عسكر نور الدين دمشق بقيادة شيركوه، وكان أخوه أيوب على رأس حاميتها، فقد اتّفق معه على تسليمها لنور الدين، وقد عزّز ذلك من مكانتهما لديه، فعيّن أيوب حاكما عليها، وأقطع شيركوه حمصاً، وقرّبه منه.

وقد بزغ نجم صلاح الدين حين أرسل نور الدين حملته الأولى إلى مصر سنة 559هـ بقيادة أسد الدين شيركوه وبصحبته شاور وصلاح الدين – ابن أخيه – وكان في السابعة والعشرين من عمره، فانتصر على جيش ضرغام الذي استنجد بالصليبيين، ولم يلبث أن قتل أثناء محاولته الفرار وتولى شاور الوزارة.

وصحبه أيضاً في حملته الثانية، وأظهر فيها شجاعة منقطعة النظير حينما حوصر في الإسكندرية سنة 562هـ كما صحبه في حملته الثالثة سنة 564 هـ، لاستنقاذ مصر من الصليبيين وشاور الذي تحالف معهم. ويتولى شيركوه الوزارة للعاضد شهوراً، ويتوفّى، فيخلفه صلاح الدين. وكان الدعاء في خُطب الجمعة للخليفة العاضد الذي ائتمنه، ولكنّ نور الدين يكتب إليه مراراً، ويأمره بتحويل الخلافة في مصر من الفاطميين إلى العباسيين، فيصدع بالأمر، ويقيم الخطبة لبني العباس. في أول المحرم سنة 567هـ. أما الخليفة العاضد فكان مريضا، ولم يلبث أن توفي في يوم عاشوراء، وبذلك انتهت الدولة الفاطمية، وأقيمت الاحتفالات ببغداد، وأرسل الخليفة العباسي المستضيء الخِلَع إلى نور الدين وصلاح الدين، ومعها الأعلام والرايات السود شعار العباسيين.

---

(1) أبو شامة، الروضتين، 2/ 210 و 211.

ورُدّت مصر إلى الخلافة العباسية، وبسط صلاح الدين نفوذه عليها وعلى النوبة والحجاز واليمن وأراد أن يستقر بمصر، فاستدعى أهله وأقرباءه إليها.

ولم تلبث أن دبَّت الرّيبة بين صلاح الدين ونور الدين، فكان صلاح الدين يتخوف من أن يغدر به سيّده، وحاول نور الدين أن يستدرجه ليتمكن منه، وإذ ذاك صمَّم على فتح مصر والقيام بعمل حاسم للقضاء على صلاح الدين، إلا أن وفاة نور الدين سنة 569هـ حالت دون ذلك.

بيد أن الجوّ لم يصفُ لصلاح الدين، إذ دُبّرت مؤامرة لتصفيته سنة 569هـ وإعادة الخلافة الفاطمية واشترك فيها داعي دعاة الفاطميين ابن عبد القوي، والشاعر عمارة اليمني، والكاتب عبد الصمد، والقاضي العويرس، وهي مؤامرة دبّرتها الطائفة الإسماعيلية الباطنية ببلاد الشام بالتواطؤ مع الصليبيين وإذ أخفقت فقد ألقي القبض على المتآمرين وصُلبوا بين القصرين بالقاهرة [1].

وإذ مضى نور الدين إلى ربه، فقد عزم صلاح الدين على تحقيق حلم الوحدة بين مصر والشام، فسار إلى دمشق وتسلّم قلعتها، ثم أبلغ الخليفة العباسي بما آلت إليه الأمور، فأقرّه على عمله، وأطلق يده في مُلك مولاه نور الدين، ولم يلبث أن وصلته خلع الخليفة ومرسومه بتولي مصر والشام وغيرهما، وبذلك تمّ الاعتراف بشرعية حكمه.

وكان ذلك إيذانا بمواجهة الصليبيين الذين تحدّوه فأخذ يُجهّز قواته استعداداً لحرب شاملة معهم، فزحف على طبرية ودخلها عام 538هـ/ 1187م، ثم تابع تقدمه نحو حطين، وألحق هزيمة نكراء بالصليبيين، وسجد لله شكراً، وبكى فرحاً بهذا النصر. وسيق الأسرى ومن بينهم أمير الكرك أرناط، إلى معسكر المسلمين، وأحسن استقبالهم، سوى أرناط الذي أطاح برأسه، لجرائمه وخيانته للعهود[2].

استولى صلاح الدين على ساحل الشام، ولم يبق أمامه سوى بيت المقدس ففتحها يوم الجمعة 27 رجب سنة 583هـ/ 1187م ونقل المنبر النوري من حلب ليقام

(1) انظر: ابن واصل، مفرّج الكروب، 1/ 235.

(2) انظر: ابن الأثير، الكامل، 11/ 201-203.

في المسجد الأقصى، وقد أشاد ابن الأثير بهذا الفتح، فذكر بأن هذه المكرمة لم يفعلها بعد عمر بن الخطاب غير صلاح الدين(1).

كان صلاح الدين يُسرُّ في نفسه مواصلة الجهاد، بيد أن المنية عاجلته سنة 589هـ، فقد مات بدمشق بعد صلح الرملة ببضعة أشهر، فكان موته خسارة كبرى للعالم الإسلامي والشام على وجه الخصوص، وهو بشهادة المؤرخين المسلمين والأوربيين أعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية.

كان رحيل صلاح الدين إيذاناً بتفكك الدولة الأيوبية، إذ توزعت مملكته بين أبنائه وبعض أقربائه وأخيه. ولعلّ أعظمهم خبرة وكفاءة الملك العادل، إذ سعى إلى إنقاذ الدولة حين احتدم النزاع بين أبناء صلاح الدين، ونجح في توحيد السلطنة. وقد حزن القاضي الفاضل لاختلاف أبناء هذا البيت، بقوله: «أما هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإنّ الأبناء اختلفوا فهلكوا»(2).

وكذلك اشتد التنافس بين أبناء العادل، فتولّى الملك الكامل السلطنة. واستطاع الملك الصالح نجم الدين أيوب أن يؤسس جيشا قويا، مكّنه من التصدّي للصليبيين. وإذ مات خلفه توران شاه الذي تمّت تصفيته على أيدي المماليك وزوجة أبيه شجرة الدر- كما سيمرّ بنا – سنة 648 هـ/ 1249م. وبذلك انتهت هذه الدولة وقامت على أنقاضها دولة المماليك.

ثالثاً: المماليك (648-923هـ/1250-1517م)

قامت دولة المماليك بعد أفول شمس الدولة الأيوبية عام 648هـ. ويذكر المؤرخون بعض الأسباب التي أدت إلى انتهاء حكم الأيوبيين، منها استكثارهم من المماليك من أواسط آسيا وتكوين فِرق عسكرية منهم في جيوشهم، وكانوا خليطا من الأتراك والشراكسة والأكراد، فضلاً عن عناصر أخرى. وقد أكثر من جلبهم السلطان نجم الدين أيوب. وإذ دخل هؤلاء في خدمة الدولة الأيوبية فقد احتلّ بعضهم مناصب قيادية رفيعة، فكان ذلك تمهيداً لاستيلائهم على مقاليد الحكم وكأن الأيوبيين لم

(1) انظر: ابن الاثير، الكامل، ص 209.

(2) أبو شامة، الروضتين، 2/ 231، و232.

يتعظوا مما جرى لخلفاء بغداد الذين استكثروا من استخدام الأرقاء الأجانب حرسا لهم، فجنوا من ذلك ما جناه بنو العباس، وانطبق عليهم قول المتنبي:

ومن يجعل الضّرغام للصيد بازه تصيَّده الضّرغام فيمن تصيَّدا

ومن هذه الأسباب تورّط خلفاء السلطان صلاح في نزاعات فيما بينهم على السلطة، وتدهور الأحوال الاجتماعية والاقتصادية وانتشار الأوبئة والطواعين والكوارث الطبيعية، ناهيك عن إهمالهم شؤون الرعية وسوء معاملة مماليكهم للناس. ويرى المؤرخون أن دولة المماليك مرّت بدورين:

المماليك البحرية

وهم من الحرس الذين جلبهم الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأسكنهم في ثكنات بجزيرة الروضة في النيل وكان أكثرهم من الترك والمغول. قامت شجرة الدرّ بدور كبير في تأسيس هذه الدولة وأصلها من جواري الملك الصالح نجم الدين أيوب، ولم يلبث أن تزوّجها، وقد اشتهرت بالذكاء والدّهاء، فكانت تدير الملك عند غيابه في الغزوات، ولما توفي والحرب دائرة بين الأيوبيين والصليبيين أخفت خبر موته، ثم استدعت توران شاه – ابن زوجها – من خارج مصر، فتسلّم القيادة حتى انتصر على الصليبيين، على أنه أساء معاملة زوجة أبيه وقادة الجيش، فقتله المماليك، وتولت شجرة الدر الحكم، فحكمت ثمانين يوما، إذ لم يقبل الخليفة العباسي أن تتولى مقاليد مصر امرأة. فتزوّجت وزيرها عز الدين أيبك التركماني، ولما بلغها أنه يريد الزواج من امرأة ثانية دبّرت لمكيدة، قُتل فيها بالحمّام الملكي بقلعة صلاح الدين غير أنها نفسها لم يطل عمرها بعد ذلك إذ قتلت هي بدورها بأيدي جواري زوجة أيبك الأولى ضرباً بالقباقيب والنعال وطُرحت جثتها من برج القلعة سنة 655هـ(1).

استمرّ عصر المماليك البحرية قرابة قرن ونصف من سنة 648هـ حتى زالت دولتهم سنة 784هـ/ 1382م. تولى الحكم فيها خمسة وعشرون سلطانا، ومن أبرزهم السلطان سيف الدين قطز بطل معركة عين جالوت، وفيها أحرز انتصاراً رائعا على

(1) انظر: السيوطي، حُسن المحاضرة، 2/ 39.

التتار، غير أنه قُتل غيلة أثناء عودته إلى القاهرة، على يدي مولاه بيبرس وبذلك لم يحكم سوى سنة واحدة، تولّى الحكم سنة 657هـ وقتل سنة 658هـ. فخلفه الظاهر بيبرس الذي حكم بين (658-676هـ)، ويعد من أعظم سلاطين المماليك عدلاً وفروسية وإقداماً، وقد أحيا الخلافة العباسية في مصر، إذ استدعى أحد أمراء البيت العباسي إلى القاهرة، فبويع بالخلافة، في حين بويع بيبرس بالسلطنة. غير أن الخليفة العباسي في القاهرة عاش مهيض الجناح تحت سيطرة سلطان المماليك، مما جعل خلافته «ليس فيها أمر ولا نهي وحسبه أن يُقال له أمير المؤمنين»[1].

وأيا كان الأمر، فقد تحققت بعض الانتصارات في عهد هذه الدولة، على التتار والصليبيين معاً، فقد هزم التتار في غير معركة، وفتُحت عكا سنة 690هـ على يدي السلطان خليل بن قلاوون. وكذلك تحققت إنجازات إدارية وعمرانية، فكان عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون أزهى عصور هذه الدولة، ففيه تطورت أساليب الحكم والإدارة ونُظمت دواوين الحكومة، وأنشئت المكتبات والمدارس، وازدهرت الفنون وانتعشت الموارد الاقتصادية.

وظل سلاطين هذه الدولة يحكمون حتى سنة 783هـ/ 1381م، فكان السلطان الصالح صلاح الدين حاجي بن شعبان آخر السلاطين.

المماليك البرجية

وقد جُلبوا إلى مصر بعد المماليك البحرية، وكانوا في أول أمرهم حرساً خاصاً لقلاوون، وهم في معظمهم أرقاء شراكسة. وقد عرفوا بالبرجية لأنهم كانوا يقيمون في أبراج القلعة بالقاهرة.

يتولى الحكم أقواهم، وأكثرهم جندا، واحتدم التنافس بين أمرائهم، فكان عدد سلاطينهم ثلاثة وعشرين سلطانا، وقد بدأ عهدهم بقيام السلطان برقوق الذي ولي السلطنة سنة 784هـ، ومن أشهرهم السلطان قايتباي الذي امتد حكمه من سنة 872هـ. إلى سنة 901هـ ، وقد عُرف بسداد الرأي وسهره على الدولة وتنقله في أرجائها، واهتم ببناء المدارس والمساجد وترميم المنشآت. والسلطان قانصوه الغوري

(1) خطط المقريزي، 3/ 394.

الذي تولى السلطنة سنة 906هـ وعُرف بتصدّيه للبرتغاليين الذين شكلوا خطراً اقتصاديا على مصر، وكذلك اشتُهر بمجالسه الأدبية.

أخذت أحوال المماليك تضعف على الصعيدين الداخلي والخارجي، ففي أواخر عهدهم كثرت الفتن وتدهور الاقتصاد، واستحكم العداء بينهم وبين العثمانيين، إذ زحف السلطان العثماني سليم الأول على بلاد الشام والتقى جيش المماليك بقيادة السلطان الغوري سنة 922هـ/ 1516م في موقعة مرج دابق قرب حلب، هزم فيها المماليك وقتل السلطان الغوري.

وواصل السلطان العثماني زحفه إلى مصر، حيث التقى بالسلطان طومان باي، الذي قاوم الغزو، لكنه هزم، ودخل العثمانيون القاهرة، وأمر السلطان سليم بإعدامه شنقاً عند باب زُويلة، وبذلك سقطت دولة المماليك.

وأيّاً كان الأمر، فقد وقف المماليك أمام أكبر خطرين واجههما العالم الإسلامي، فقد طهّروا مصر وبلاد الشام من بقايا الغزو الصليبي، وصدّوا جحافل المغول التي قادها هولاكو وتيمورلنك، وكذلك حافظوا على مصر التي سلمت من الويلات التي نزلت بالعراق والشام، وكانت لهم أيادٍ بيضاء – على الرغم من أخطائهم – على العالم الإسلامي، وعلى مصر والشام على وجه الخصوص.

المبحث الثاني
الحياة الاجتماعية

أولاً: طبقات المجتمع

شهدت الحياة الاجتماعية في عهود الدول المتتابعة تطوراً كبيراً، فقد تألف المجتمع من طوائف متعددة، صنّفها المقريزي في سبع: الأولى أهل الدولة من المماليك، والثانية أهل اليسار من التجار والثالثة متوسطو الحال من السوقة والباعة، والرابعة أهل الفلح، والخامسة الفقهاء وطلاب العلم، والسادسة أرباب الصنائع وأصحاب المهن، والسابعة ذوو الحاجة والمسكنة، فضلاً عن طوائف أخرى هي: طائفة الأعراب، وأهل الذمة من اليهود والنصارى[1].

أما الطبقة الحاكمة فقد ضمَّت مزيجاً من الشعوب، فالزنكيون أتراك، وهم من مماليك السلاجقة الأتراك الذين كانت بيدهم السلطة في الخلافة العباسية، والأيوبيون أكراد وهم من سكان العراق، وكانوا أحراراً يعتمدون في تصريف شؤونهم على أنفسهم وعلى غيرهم من المماليك. والمماليك ينتمون إلى أصول متباينة، منهم الأتراك والشركس والروم والأرمن، وغيرهم وشكّل هؤلاء طبقة عسكرية ممتازة، كانت تُعدّ إعداداً خاصاً.

وأما سائر طبقات المجتمع، فكانت «محرومة من كل نفوذ وبعيدة عن الحكم، وليس بيدها غير بعض الوظائف الدينية أو القضائية، وعليها واجب العمل في فلاحة الأرض ودفع الضرائب الباهظة»[2] فقد تولى رجال الدين وظائف الدواوين السلطانية والقضاء والتدريس. وكان كثير منهم يقف في وجه السلاطين إذا ما رأوا منهم انحرافا، وكان في طليعة هؤلاء العزّ بن عبد السلام، الذي ترك الدعاء على المنبر لسلطان دمشق الصالح إسماعيل: لتحالفه مع الفرنجة على أخيه صاحب مصر، وسماحه لهم

(1) إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص 72.

(2) انظر: سعيد عاشور، دراسات في الحياة الاجتماعية، ص10.

بدخول دمشق وابتياع السلاح منها، واتفق معهم على تسليمهم صيدا والشقيف[1] وغيرهما من ثغور الساحل سنة 638هـ.

ووقف الإمام السيوطي موقفاً حازماً من أغلب سلاطين المماليك الذين عاصرهم، فقد أفتى بهدم بيت من بيوت الفاحشة، وتصدّى لمن تعرّض منهم للصحابة. وكادت تصيبه محنة من السلطان طومان باي الذي عُرف بطغيانه وكانت أيامه شروراً وفتناً[2].

أما الفلاحون، وهم أغلبية الشعب، فقد تعرضوا للظلم والازدراء، ذلك أن النظام الاجتماعي في هذه العهود كان يقوم على أساس الإقطاع، فكانوا يُعاملون كالعبيد، وكانوا مضطهدين، فقد ذكر ابن خلدون أن الفلاحة معاش المستضعفين، ويختص منتحلها بالذل والمسكنة[3]. وكان أصحاب الإقطاع يُلزمونهم بالفلاحة إلزاماً، ويأخذون نصف محاصيلهم، في حين يتوزّع النصف الآخر بين الدولة والفلاح، مما أدى إلى خراب القرى وتشرّد أبنائها من الفلاحين في المدن، فانتشرت بسبب ذلك فئات مختلفة من اللصوص[4].

أما الأعراب فكانوا ينتشرون في البوادي، يتنقلون فيها بحثاً عن الماء والكلأ، فإذا انحبست الأمطار وجفّت المراعي أخذوا يقطعون الطرقات ويسفكون الدماء. وقد كانت القبائل تعيش في صراع دائم فيما بينها. وكان لبعضها دور في مؤازرة الحكام والسلاطين. وذكر الدكتور عمر موسى باشا أشهر القبائل العربية في بلاد الشام. ومنها[5]: آل فضل وآل مرعي وآل عقبة، وتعود أصولهم إلى قبائل عربية كبرى في شبه جزيرة العرب، مثل قبيلة طي وبني مر.

(1) ابن حجر، رفع الإصرار (مخطوط) و 168.

(2) انظر: ابن إياس؛ بدائع الزهور، 3/ 477.

(3) المقدمة، ص 294.

(4) انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 145.

(5) انظر: أدب الدول المتتابعة، ص 76-78.

وأياً كان الأمر، فقد كانوا مهمشين يعيشون على أطراف المدن، يرحلون وراء مساقط الغيث، وكثيرا ما يتعرّضون للمجاعات فيأكلون الميتة[1].

وتلقانا طبقة أرباب الصناعات والحرف الحرة، وكانت لها نقابات تنظر في أمور أعضائها العاملين وتدافع عن مصالحها لدى المسؤولين إذ ازدهرت الصناعة في العصر المملوكي، ومنها صناعة الملابس والفرش والأثاث والجلود والحلي والمعادن والزجاج الملوّن. واهتمت الدولة بصناعة الأسلحة وسفن الأساطيل، فضلاً عن المصانع الخاصة بالخلع السنيّة التي يخلعها السلاطين على الأمراء وكبار رجال الدولة.

وكانت طبقة التجار أحسن حالاً، فكان التجار يمُدون السلاطين بالمال ويُقرضون الدولة لإعداد الجيوش وشراء السلاح كما جرى لصلاح الدين عندما طلب مساعدة الخليفة ليدرأ عن البلاد هجوم الفرنجة[2]، ولكنهم كانوا يدفعون الضرائب والمكوس، وهي تتفاوت من عهد لآخر. وقد تصادر الأموال أو جزء منها.

وتجدر الإشارة إلى قيام النشاط التجاري بين أهل الشام والفرنجة، فقد عرض أسامة في اعتباره صوراً من تواصل الحياة بين العرب المدنيين و الصليبيين[3]. وكذلك أشار ابن جبير إلى تبادل السلع وعروض التجارة بينهم.

وقد شهدت مصر ازدهاراً تجارياً، إذ كانت تُمسك بزمام التجارة العالمية بين الشرق والغرب، مما زاد في دخل الدولة من مكوس التجارة. فلما اكتشف فاسكودي جاما طريق رأس الرجاء الصالح، قلّت موارد الدولة، وكان ذلك إيذاناً بأفولها.

أما أهل الذمة من النصارى واليهود، فقد عوملوا معاملة حسنة في معظم العهود، فقد عاملهم الزنكيون بإحسان، وكذلك سلاطين بني أيوب، فقد أدخل صلاح الدين كثيراً منهم في خدمته، إلا أنهم عوملوا معاملة سيئة في العصر المملوكي؛ فقد أصدر السلطان الناصر قلاوون مرسوماً سنة 1689 أمرهم فيه بتصغير عمائمهم،

(1) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص 12.

(2) ابن شداد، النوادر السلطانية، ص102.

(3) أسامة بن منقذ، م.س.

فلا تتجاوز سبع أذرع أو عشر، على أن تكون عمائم النصارى زُرقاً، وعمائم اليهود صُفراً، وعمائم السامريين حُمراً[1].

وقد أدى تضييق المماليك على أهل الذمة على إلى دخول أفراد منهم في الإسلام، حفاظا على مناصبهم في الدواوين، وتخلصا مما لحق بهم. وهذا لا ينفي المعاملة الحسنة التي وُجدت في هذا العصر، فقد أشار ابن تيمية في رسالته القبرصية التي بعث بها إلى ملك قبرص إلى أنه خاطب قائد التتار غازان في إطلاق سراح جميع من معه من اليهود والنصارى، وبيّن له رحمة المسلمين بالأسرى، كما أوصى النبي ﷺ[2].

ثانياً: وسائل الترويح واللهو

انتشرت وسائل الترويح والتسلية، فكانت للخاصة الملاهي والملاعب مثل سباق الخيل، ولعبة الصولجان، والنرد والشطرنج والرمّاية، والخروج للصيد في البراري وحول البحيرات، وكانوا يصحبون معهم الخدم والأعوان ويُخيمون الأيام والليالي. ويحدثنا أسامة بن منقذ في اعتباره عن الصيد في ذلك الزمن بالبازي والصقر وبمعونة الكلاب، على شواطئ دجلة والفرات والعاصي والنيل، فقد خرج والده ذات يوم ومعه أولاده وغلمانه وأدوات صيده، حتى إذا صار في المُتصيَّد «أمر الغلمان فتفرّق بعضهم من البازباريّة، فلما طارت الحجل كان في ذلك الجانب بازٍ يُرسل عليه، ومعه من مماليكه وأصحابه أربعون فارساً أخبر الناس بالصّيد، فلا يكاد يطير طير ولا يثور أرنب ولا غزال إلا اصطدناه وننتهي في الجبل نصيد إلى العصر ثم نعود وقد أشبعنا البزاة وطرحناها على القلوات[3] في الجبل شربتْ واستحمّت، ونعود إلى البلد بعد عتمة»[4].

(1) انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، 1/ 143.

(2) البيطار، حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص 191.

(3) القلوات: جمع قَلْت، وهي النقرة في الأرض يُستنقع فيها الماء.

(4) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص258.

وكان للعامة ملاهيهم، فكان الناس يخرجون للتنزه في الحدائق والمتنزّهات والشُّطآن، فكانوا يستأجرون القوارب والسفن الشراعية، وكانوا يحارشون أحيانا بين الكباش والكلاب وتطيير الحمام.

وكان الناس ينتهزون فُرص الأعياد والمناسبات لإقامة الأفراح، كعيدي الفطر والأضحى، وأعياد الطوائف الأخرى، فقد ذكر أسامة بن منقذ أن أهله كانوا ينزلون من حصن شيزر للتفرّج على النصارى في عيد الفصح[1]. وهذا فضلاً عن الموالد النبوية، وهي من البدع التي وُجدت في العصر الفاطمي، وأضاف إليها المماليك عيد محمل الحج.

ولم يخل هذا العصر من وسائل اللهو غير البريء، وساعد على ذلك عوامل متعدّدة، منها كثرة الأديرة وكروم العنب، وانتشار مجالس الغناء والطرب والجواري الإفرنجيّات، وكانت تغصّ بهن دور النخاسة، ومن ثمّ كثرت بيوت الفساد، والتساهل أحيانا في ارتكاب الأعمال المخلّة بالآداب. فكان هناك من يتعاطون الخمر وكذلك الحشيش التي أفسدت الناس، وتنسب إلى رجل يدعى الشيخ حيدر (-618هـ). وكان يقيم في خراسان، وقد «أوصى جماعته بصيانة هذا النبات الذي يُدخل النشاط والسرور في أنفسهم، وأخذ طائفة الفقراء الأيمان ألاّ يعلم به أحد من عوّام الناس، وطلب منهم عدم إخفائه عن كل متصوف»[2]. وقد سُمّي هذا النبات حشيشة الفقراء[3]. وأصبحت داء العصر، فقد أدخلتها الطائفة القلندرية. إلى سائر الطوائف وقد أمر السلطان بيبرس بهدم دور الخمر والحشيش جميعاً، وأقام الحد على من يتعاطونهما.

ثالثاً: العلاقة بين الحاكم والرعيّة

حرص الملوك والسلاطين على إقامة العدل، فكان نور الدين زنكي يقف أمام قاضيه كمال الدين الشهرزوري، كأي فرد من أفراد الرعية، إلى جانب خصمه لئلا يُظنّ أنه ظلمه.

---

(1) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص 258.

(2) انظر: شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات (قسم الشام)، ص65.

(3) انظر: ابن شدّاد، النوادر السلطانية ص 148.

وكان يفصل في الحكومات والخصومات في دار العدل التي بناها، ويجلس فيها عند القاضي والفقهاء. وكذلك عامل هو وسائر الزنكيين أهل الذمة خير معاملة. وأبطل الضرائب الاستثنائية، على أسواق دمشق وحلب وبعلبك حيث خضعت له. وسار الأيوبيون على نهج أسلافهم في التسامح وإقامة العدل بين الناس، وبخاصة السلطان صلاح الدين الأيوبي، فقد كان ورعاً تقياً، وقد حطّ عن كواهل المسلمين الضرائب الباهظة، فألغى جميع المكوس والمغارم في ديار الشام وكان تسامحه ونبله في معاملة الفرنجة مضرب الأمثال. وإذ مات سنة 589هـ لم يُخلّف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهما ناصريّة، وديناراً واحداً ذهباً صُوريّاً، ولم يُخلّف مُلكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستانا ولا مزرعة[1].

أما المماليك، فقد أداروا شؤون البلاد وأقام بعضهم العدل بين الناس من أمثال الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون، وعُرف السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالبر والتقوى، وكذلك عُرف السلطان برقوق أما المماليك فقد عُرف بعضهم بُحسن السيرة وإقامة العدل بين الناس من أمثال الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون، والسلطان برقوق في فترة حكمه الثانية. وكان السلطان قايتباي سديد الرأي شجاعاً وكان يُعنّف في جمع الأموال والضرائب.

لقد أدار المماليك شؤون البلاد وكانوا الدرع الحصينة على العالم الإسلامي، فقد دافعوا عنه بشجاعة فائقة، لكنهم احتكروا السلطة لأنفسهم، فكانوا هم الطبقة الحاكمة، غير أنهم في آخر عهدهم تخلّوا عن صفات الفروسية، فمالوا إلى الترف وانغمسوا في المفاسد والفتن، وظلموا الرعيّة؛ واختلسوا الأموال، فيتحدّث ابن إياس عن ثروة الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة في عهد السلطان بيبرس الجاشنكير، فإذا هي مئات ملايين الدنانير الذهبية، ومئات القناطير الفضّية، وكميات هائلة من المعادن الكريمة والملابس الرفيعة. ويرى أنه أخذها من خزائن بيت المال سرقة واغتصابا[2]. ولاشك أن هذه الأموال انتُزعت من الناس، من خلال الضرائب

(1) انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 148.

(2) علي حسن إبراهيم، دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ص322.

المفروضة عليهم. فكان الجباة يأخذونها بالقوة والإهانة الشديدة، ويطلبون الناس بالرسل الغلاظ الشّداد[1].

وتبع ذلك ظهور المجاعات والأوبئة التي فتكت بالناس فتكاً، منها مجاعة حدثت سنة 659 هـ، فقد شحَّ ماء النيل، وهبت ريح سوداء حملت معها الأتربة، واشتدّت الأزمة فأكل الناس الميتة من الكلاب والمواشي وبني آدم، ونهب الأهالي الخبز من الأفران والحوانيت. وانتشر الوباء فكثر عدد الموتى، فكان يخرج من كل باب من أبواب القاهرة في كل يوم ما يزيد على سبعمائة ميت[2]. وظهرت مجاعة أخرى سنة 749هـ ، فكانت أشد بلاءً.

وفوق ذلك، فإن السلطان المنصور قلاوون تجاوز الحد في الاعتداء على الناس فقد «أمر مماليكه أن يضعوا السيف في رقاب العوام لأنهم خالفوا أمره في بعض ما أمر، فاستعمل السيف في قتلهم ثلاثة أيام، وقتل منهم عدداً لا يُحصى. وذهب البريء منهم مع المسيء والصالح مع الطالح؛ ومازالوا حتى ضجَّ الناس، وعلا الصّراخ، وعمّت الشكوى، وطفحت الكأس؛ فشفع فيهم القضاة وعلماء الدين؛ فعفا عنهم المنصور. ثم ندم على ما فعل وتقرّب إلى الله بهذا المستشفى»[3] وهو المستشفى الذي أنشأه سنة 682هـ.

(1) انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، 3/ 394.

(2) انظر: خطط المقريزي، 1/ 814.

(3) ابن إياس، م.س، 1/ 116.

المبحث الثالث

الحياة الثقافية

ازدهرت الحياة الثقافية في هذا العصر، فكانت امتداداً للنهضة العلمية في العصر العباسي، على الرغم من الأحداث الكبرى التي دهمت العالم الإسلامي آنذاك، ووضعت المسلمين في صراعٍ ضارٍ مع الفرنجة القادمين من الغرب، والمغول القادمين من الشرق. وساعد على ازدهارها عاملان:

أولهما هجرة العلماء من بغداد إثر اجتياحها على أيدي المغول بقيادة هولاكو سنة 656هـ، إذ قُتل عدد كبير من العلماء والفقهاء. وقد وجد المهاجرون ملاذاً في مصر وبلاد الشام.

وثانيهما تنافس الملوك والسلاطين في نشر العلم، وبناء دوره، وتشجيع العلماء. فقد استقدم نور الدين العلماء من البلاد الشاسعة[1]. وكفاهم مئونة عيشهم فأجرى عليهم الإدرارات الكثيرة والصلات العظيمة.[2] وكذلك خصّص صلاح الدين لأرباب العمائم -وهم رجال الدين- إقطاعاً وراتباً يتجاوز مائتي ألف دينار، وربما كانت ثلاثمائة ألف دينار[3].

وأبدى المماليك غيرة على الإسلام وعلومه ولغته، فبنوا المدارس ودور العلم في الشام ومصر والحجاز، مع أنهم ينتمون إلى أصول غير عربية.

وقد كثرت حواضر العلم، فأصبحت القاهرة ودمشق قطبين للحركة الفكرية والثقافية، ويعد الجامع الأزهر أشهر معاهد العلوم الإسلامية إذ قصده طلبة العلم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي. وأنشأ نور الدين دوراً خاصة لدراسة الحديث النبوي الشريف في دمشق وحلب، وكذلك أنشأ صلاح الدين المدارس الكثيرة في الشام ومصر، منها المدرسة الصلاحية في القدس الشريف، وأخرى في القاهرة. ولم يتوقف

---

(1) ابن واصل، مُفرّج الكروب، 1/ 283و 284.

(2) م ن 1/ 136.

(3) محمد كردي علي، خطط الشام، 4/ 39.

إنشاء المدارس بعد صلاح الدين، فقد سار خلفاؤه على سُنّته. وبنى سلاطين المماليك من المدارس ما ملأ البلاد، وبخاصة الظاهر بيبرس، وتأسست مدارس للطب في غير مدينة.

ومن المراكز الثقافية المكتبات، وكانت تزخر بمختلف الكتب. ويذكر المقريزي لنا أربع عشرة مكتبة عامة بمدينة القاهرة وحدها[1]. وتوافرت في مكة المكرمة والمدينة المنورة المكتبات النفيسة، وأنشئت المكتبات العامة في المساجد الكبرى والمدارس والمكتبات الخاصة كدار الكتب بآمد وكانت تضمّ مليون وأربعين ألف كتاب.

واهتم الملوك والسلاطين باقتناء الكتب في خزائنهم وفي الخزائن العامة، وكانوا يجزلون العطاء للمؤلفين والمصنّفين. وقد ساعدت هذه العوامل على ازدهار العلم بمختلف فروعه، وكثرة التأليف والتصنيف في علوم الدين، والعلوم اللسانية، والبلاغة والنقد والعلوم الاجتماعية والتاريخية.

أولاً: علوم الدين

ازدهرت العلوم الدينية في هذا العصر، وشهدت تطورا كبيراً، في الأصول والفروع. وكان على رأس المجددين فيه الإمام الأكبر ابن تيمية. وتجلى ذلك في حركة التأليف في علوم القرآن والقراءات، والتفسير، والحديث الشريف، والفقه.

1. القرآن الكريم والقراءات

وأشهر المصنفين فيهما:

- الإمام الشاطبي (-590هـ) وله قصيدة في علم القراءات سُميّت «الشاطبيّة» نسبة إليه، وعني بشرحها كثيرون من أئمة القُرّاء كالسخاوي والسيوطي.
- الإمام شهاب الدين القسطلاني (-923هـ)، وله كتاب «لطائف الإشارات لفنون القراءات» وقد جمع فيه طرق القراءات الأربع عشرة.

وكذلك اشتهر عدد من المصنّفين في علوم القرآن، نذكر منهم: بدر الدين الزركشي (-794هـ)، وله كتاب «البرهان في علوم القرآن»؛ والإمام السيوطي وله كتاب «الإتقان في علوم القرآن».

---

(1) الخطط، 4/ 57-254.

2. التفسير

اشتهر بين مفسري القرآن الكريم:

- الإمام القرطبي محمد بن أحمد (-671هـ) وله التفسير المشهور المسمى «جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمَّن من السُّنّة وآي القرآن».
- الإمام جلال الدين المحلي محمد بن أحمد (-864هـ) وجلال الدين السيوطي، وينسب إليهما التفسير الموسوم بـ «تفسير الجلالين».

3. الحديث الشريف

ازدهر علم الحديث في هذا العصر، ومن أشهر مُحدّثيه:

- شمس الدين بن قيّم الجوزية (-751هـ) صاحب «كتاب زاد المعاد».
- الحافظ أبو القاسم علي بن عساكر الدمشقي (-571هـ)، واهتم بحفظ الأحاديث وحُسن الكلام عليها[1] وله جملة كتب تتعلق برواياتها.
- ابن حجر (-852هـ) وقد انتهت إليه الرحلة والرياسة في الحديث في الدنيا بأسرها[2] ومن كتبه «فتح الباري في شرح صحيح البخاري».
- محيي الدين بن شرف الدين النووي: ومن تصانيفه «متن الأربعين حديثاً النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية» و«شرح مسلم» و«الإرشاد في علوم الحديث» وغيرها من التصانيف.
- الإمام السيوطي: وله شروح على الموطأ لمالك وصحيح البخاري وصحيح مسلم وسُنن أبي داود وابن ماجة، فضلاً عن كتبه الأخرى في الحديث ومصطلحه وتخريجاته.

4. الفقه

اشتهر فيه تقي الدين أحمد بن تيمية، وتبلغ تصانيفه في الفقه وغيره خمسمائة مجلد ومن أشهر مصنفاته «رسالة الفرقان بين الحق والباطل» و«الجمع بين العقل

(1) انظر ابن خلكان، وفيات الأعيان، 2/ 235.

(2) انظر: حسن المحاضرة، 1/ 340.

والنقل» و«مجموعة الرسائل الكبرى». وتميّز بآرائه واجتهاداته، التي حُبس من أجلها في سجن القلعة بدمشق. وقد جُمعت فتاواه في ستة مجلدات كبار. وابن الهمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد (-861هـ)، وله مُصنّفات أهمها «فتح القدير».

ثانياً: العلوم اللسانية

وهي اللغة، والنحو الصرف، وتقوم على الجمع والشرح والتفصيل، وقد قلّ فيها الإبداع والابتكار.

1. اللغة

صنّفت في هذا العصر المعاجم الكبرى، وكتب في اللغويات،و من أشهر المصنفين فيها:

- ابن منظور جمال الدين بن مكرّم (-711هـ) صاحب «لسان العرب» وهو معجم مطوّل رتبت فيه الألفاظ بحسب أواخرها (الباب فالفصل)، وجمعه من مصادر متعددة.
- الفيروز أبادي مجد الدين محمد (-816هـ) صاحب «القاموس المحيط»، وهو معجم مختصر ومرتب بحسب أواخر الكلم.
- عبد الله بن مالك صاحب «الإعلام بمثلث الكلام» وهو أرجوزة تضم مجموعة كبيرة من الألفاظ التي لكل منها ثلاثة معانٍ..
- جلال الدين السيوطي: وله كتاب «المزهر في علوم اللغة وأنواعها»، وهو من خير المصنّفات اللغوية.

2. النحو والصرف

ومن أشهر المصنفين فيهما:

- محمد بن عبد الله بن مالك (672هـ) صاحب «الألفية» المعروفة، وهي أرجوزة من ألف بيت مطلعها:

قال محمدٌ هوَ ابنُ مالكِ   أحمد ربي خيرَ مالكِ

وقد شُرحت مراراً، أشهرها شرح بهاء الدين بن عقيل. ومن مصنَّفاته الأخرى «لاميّة الأفعال» في أبنية الأفعال، و«إيجاز التعريف في علم التصريف».

- عبد الله بن هشام (-761هـ) صاحب «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» و«أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» و«شذور الذهب» و«قطر الندى»، وغيرها.
- محمد الصنهاجي ابن آجرّوم (-723هـ) صاحب «المقدمة الآجرّومية في مبادئ علم العربية».
- جلال الدين السيوطي صاحب كتاب «الأشباه والنظائر».

ثالثا: البلاغة والنقد

وممن صنّف في البلاغة:

- بدر الدين بن مالك (686هـ) صاحب كتاب «المصباح».
- جلال الدين القزويني (-739هـ) صاحب «تلخيص المفتاح» و«إيضاح التخليص».

وأما في النقد فقد صنِّف فيه:

- ابن وكيع التنيسي (-623هـ) صاحب «المنصف في بيان سرقات المتنبي ومشكل شعره».
- ابن نباته المصري (-768هـ) صاحب «خبز الشعير» وهو في السرقات الشعرية.

رابعاً: العلوم التاريخية والجغرافية

عُرف هذا العصر بوفرة المصنَّفات في التاريخ وعلم البلدان، التي جمعت بين العلم والأدب. وقد توّج ابن خلدون هذه العلوم بمقدمته الشهيرة التي تتسم بالإبداع والابتكار.

1. التاريخ

ظهرت في هذا العصر مؤلفات تاريخية منها ما هو خاص بحدود الموضوع، ومنها ما هو عامٌّ جامع. ومنها ما هو في التراجم والطبقات. أما في التاريخ الخاص فقد اشتهر:

- العماد الكاتب (-597هـ): وقد صنّف كتابين هما: «الفتح القسّي في الفتح القدسي» و«البرق الشامي» وتحدث فيهما عن حروب صلاح الدين وسيرته.

- بهاء الدين يوسف بن شداد (-362هـ): وصنف كتابه المسمى «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» في سيرة مولاه صلاح الدين وحروبه مع الصليبيين.
- أبو شامة المقدسي (-665 هـ/ 1267م) وصنّف كتاب «الروضتين في أخبار الدولتين».
- جمال الدين بن واصل (-697هـ): وصنّف كتابه المشهور «مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب».وصنعه إثر زوال الدولة الأيوبية.
- ابن عربشاه (-854هـ) صاحب كتاب «عجائب المقدور في نوائب تيمور» وصف فيه حروب تيمورلنك وأحوال البلاد في أيام حكمه ولاسيما سمرقند.

وأما في التاريخ العام فقد اشتهر:

- عز الدين علي بن الأثير (-606 هـ/ 1210م) فقد اشتهر في تصنيفه «الكامل في التاريخ».
- سبط ابن الجوزي (-654هـ) صاحب «مرآة الزمان».
- الملك المؤيّد أبو الفداء (732هـ) صاحب حماة وله «المختصر في تاريخ البشر».
- عبد الرحمن بن خلدون (-808هـ): صاحب «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر..» ويقع في عدّة كتب، أشهرها الكتاب الأول الموسوم بـ «مقدمة ابن خلدون» وهو في فلسفة التاريخ والاجتماع.

وأما في التراجم والطبقات، فتلقانا عدة مصنّفات تضم مشاهير الأعلام. وأهم من صنّف فيها:

- أبو القاسم علي بن عساكر (-571هـ) صاحب «تاريخ دمشق» وهو كتاب جامع لتراجم علماء دمشق.
- ابن أبي أُصيبعة الدمشقي الطيب (-668هـ) صاحب كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء».
- علي بن يونس القفطي (-646هـ) صاحب كتاب «تاريخ الحكماء».

- ابن خلّكان (-681هـ) صاحب الكتاب المشهور «وفيات الأعيان في وفيات أهل الزمان» جمع فيه تراجم العلماء والأدباء والملوك ومشاهير الناس. وقد ذيّله ابن شاكر الكتبي (-702هـ) بـ «فوات الوفيات».

2. الجغرافيا

ومن مشاهير الجغرافيين في هذا العصر:

- ياقوت الحموي (-626هـ) له كتاب «معجم البلدان»، وقد كان فيه جامعاً ومُلخّصاً لأقوال من سبقوه، أكثر مما كان مؤلفاً.
- القزويني زكريا بن محمد (-682هـ) صاحب «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، وهو في قسمين: القسم الأول العلويات تحدّث فيه عن الكواكب وحركاتها وفصول السنة، والقسم الثاني تحدّث فيه عن الأرض.
- النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (-732هـ) صاحب موسوعة «نهاية الأرب في فنون الأدب» وهو مكتظ بالمعلومات الجغرافية.
- ابن فضل الله العمري (-749هـ) صاحب «مسالك الأبصار في عجائب الأمصار» تحدّث فيه عن جغرافية كثير من البلدان.
- المقريزي تقي الدين أحمد بن علي (-845هـ) وله موسوعة كبرى لمصر وجغرافيتها وخططها، هي «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» وتعرف بخطط المقريزي الثلاث وسندخر الحديث عن هذه الموسوعات في مبحث خاص بها.
- ابن إياس محمد بن أحمد (-930هـ) صاحب كتاب «نشق الأزهار في عجائب الأقطار» تحدّث فيه عن الجغرافيا الفلكية والطبيعية لمصر والعالم.

الفصل الثاني

الفنون الشعرية التقليدية

المبحث الأول: المديح

المبحث الثاني: الرثاء

المبحث الثالث: الغزل

المبحث الرابع: الفخر والحماسة

المبحث الخامس: الهجاء والفكاهة

المبحث السادس: الزهد

المبحث السابع: الوصف

الفصل الثاني

الفنون الشعرية التقليدية

المبحث الأول

المديح

يعد المديح من أبرز الموضوعات التقليدية في دواوين الشعر العربي، على مرّ العصور الأدبية، أنفق فيه الشعراء طاقاتهم الشعرية، بقصد التكسب والحصول على الجوائز والعطايا من الملوك والخلفاء والولاة وغيرهم. وتربّع على هذا الفن عدد من الشعراء الكبار أمثال زهير بن أبي سلمى والأعشى والنابغة الذبياني في العصر الجاهلي، وحسان بن ثابت والحُطيئة في الجاهلية وصدر الإسلام، وجرير والفرزدق والأخطل في العصر الأموي، وبشار بن برد ومروان بن أبي حفصة وأبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام والبحتري وابن الرومي والمتنبي في العصر العباسي. وكان شعر المديح في هذه العصور يتسم بالجودة والرصانة والتجديد في صوره ومعانيه.

فإذا انتقلنا إلى عهود أدب الدول المتتابعة وجدنا هذا الشعر يعيش في إطار التقليد سواء في ألفاظه أو في معانيه، أو في صوره، ولكنه واكب الأحداث الكبرى، وسجل الانتصارات المجيدة في معارك الشرف والبطولة، وأشاد بالقادة والأبطال الذين سطروا هذه الأمجاد.

فقد تحدّث الشعراء عن الحروب الصليبية، والحروب التترية وخلّدوا المعارك التي خاضها القادة والأبطال، وقد استحوذ الزنكيون والأيوبيون وأبطال هذه الحروب من المماليك على شعر المديح في عصرهم، وبخاصة السلطان الناصر صلاح الدين، ولم يضنّ الشعراء بمديحهم على كل من شارك في هذه المعارك، من القادة الآخرين.

فبادئ ذي بدء، أخذ الشعراء يدعون إلى الجهاد بعامة وإلى تحرير بيت المقدس بخاصة. فلما فتح عماد الدين زنكي إمارة الرّها سنة (539هـ) أنشده ابن القيسراني قصيدة يهنئه بهذا الفتح، مطلعها[(1)]:

هو السيف لا يُغنيك إلا جِلادُه   وهل طوّق الأملاكَ إلا نجاده

ويشير في قصيدة أخرى إلى فتح بيت المقدس[(2)]:

فإن يكُ فتحُ الرُّها لُجَّةً   فساحلها القدس والساحلُ

فهل علمتْ علم تلك الديار   بأنّ المقيم بها راحل

ويهنئه بتخليص حصن حارم من الفرنجة، وبقتل صاحب أنطاكية عند حصن إنّب عام 544هـ، بقصيدة مطلعها:

هذى العزائمُ لا ما تدّعي القُضُبُ   وذي المكارم لا ما قالت الكتبُ

ويحثه على تحرير بيت المقدس والمسجد الأقصى، فيقول[(3)]:

فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجب   يوليك أقصى المنى فالقدسُ مرتقبُ

وتتكرر هذه الدعوة لصلاح الدين، بالنهوض إلى بيت المقدس والسير إليه، فقد مدحه العماد الكاتب بقصيدة، ومنها قوله[(4)]:

نهوضاً إلى القدس يشفي الغليـ   ـلَ، بفتح الفتوحِ، وماذا عسيرُ؟

سلِ اللهَ تسهيلَ صعب الخطو   بِ، فَهْوَ على كلّ شيءٍ قدير

ويدعوه في أخرى إلى فتح السواحل، فيقول[(5)]:

فاسلمْ، صلاح الدين، وابقَ الدولةٍ   ذلّتْ لدولتها ملوك زمانها

وانهض إلى فتحِ السواحلِ نهضة   قادتْ لك الأعداءَ بعد حِرانها

---

(1) كتاب الروضتين، 1/ 37.

(2) خريدة القصر، قسم شعراء الشام، 1/ 108-110.

(3) ديوان ابن منير، ص207.

(4) كتاب الروضتين، 1/ 247.

(5) م.ن، 260.

فلما تهيأ النصر، وتوالت الانتصارات، أخذ الشعراء يزفّون إلى القادة التهاني والتبريك بها، فحين انتصر صلاح الدين في معركة حطين عام 538هـ، أطرى الشعراء النصر وقائده وجنده، حتى بلغ عددهم خمسين شاعراً[1]، ومما جاء في قصيدة العماد الكاتب قوله[2]:

يـا يـومَ حطـينَ والأيـامُ عابـسةٌ ... وبالعجاجة وجهُ الشَّمس قد عَبَسا

رأيـتَ فيهـا عظـيمَ الكفـر محتقـراً ... مُعفّـراً خـدُّه والأنـفَ قـد تعِـسا

فلما فتح بيت المقدس (583هـ) تحقّق الأمل المنشود الذي انتظره المسلمون طويلاً. يقول رشيد بن بدر النابلسي في هذا الفتح[3]:

هـذا الـذي كانـت الآمـالَ تنتظـرُ ... فَلْيـوفِ لله أقـوام بمـا نـذروا

بمثـل ذا الفـتحِ، لا والله، مـا حُكيـتْ ... في سـالف الـدهر، أخبـارٌ ولا سِـيَرُ

الآن قـرَّتْ جُنـوبٌ في مـضاجعها ... ونـام مـن لم يـزلْ حِلفـاً لـه السهر

وجاء في المدحة التي هنّأ بها الشريف محمد بن أسعد بن معمر، نقيب الأشراف بمصر قوله[4]:

أتـرى منامـاً مـا بعـيني أنظـرُ؟ ... القُـدسُ يُفـتح والفرنجـةُ تُكـسَرُ!

ومنها:

قـد جـاء نـصر الله والفـتح الـذي ... وُعِـدَ الرسـولُ فـسبَّحوا واسـتغفروا

فُـتح الـشآم وُطهِّـرَ القـدسُ الـذي ... هـو في القيامـةِ للأنـامِ المحـشَرُ

مـن كـان هـذا فتحـه لمحمـدٍ ... مـاذا يُقـال لـه، ومـاذا يـذكر؟

(1) الروضتين، 1/ 84.

(2) م.ن،2/ 102.

(3) م.ن، 2/ 118.

(4) م. ن، 2/ 105.

ونمضي إلى سلاطين المماليك، لنشهد اندحار الفرنجة على أيديهم، وقد سجل لهم الشعراء هذا الإنجاز الكبير الذي تمثل في تطهير ما تبقى من ثغور تحت حكمهم، وطردهم نهائيا من بلاد الشام. وكان الشهاب محمود قد شهد فلول الفرنجة وهم يُولّون الأدبار، بعد أن فتح الملك الأشرف صلاح الدين خليل عكا، إذ يقول[1]:

الحمد لله، زالتْ دولةُ الصُّلُبِ وعزَّ بالتركِ دينُ المصطفى العربي
ما بعد عكا، وقد هُدَّت قواعدها في البحر للشّرك عند البرّ من أدبِ
عقيلةٌ ذهبتْ أيدي الخطوب بها دهراً، وشُدَّت عليها كفٌّ مختضب
لم يبق من بعدها للكفر إذ خربتْ في البرّ والبحرِ ما يُنجي سوى الهربِ

وسجل الشعراء انتصار المسلمين على التتار، وهم غزاة قدموا من قلب آسيا، فلم يكد المسلمون يتخلصون من الفرنجة حتى جاء التتار على حين غرة، فاحتلّوا بغداد سنة 656هـ وألحقوا بها الخراب والدمار، ثم توجهوا نحو بلاد الشام، ليكملوا مخططهم التخريبي، لكنهم أخفقوا في ذلك إذ توالت عليهم الهزائم بعد اندحارهم في عين جالوت على يد المماليك بقيادة السلطان قطز. وكان ذلك مبعث بهجة غامرة. وقد أسهم الأيوبيون في هذه المعركة، فقد خرج المنصور الثاني ملك حماة، مع السلطان قطز. ووصف الشرف الأنصاري معركة عين جالوت مادحاً المنصور إذ يقول[2]:

بعين جالوتَ خُضْتَ بحر وغىً يُخالُ فُلكاً بالأسد مشحونا
وكنتَ للجيشِ غرّةٌ شَدَختْ أنوفهمْ، فانثنوا مُهابينا
أخذتَ ثأر الإمامِ إذ فتكوا به، ومالوا عليه عادينا

(1) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، 2/ 75-77.

(2) الديوان، ص 276.

وكان انتصار المسلمين سنة 671هـ بقيادة الظاهر بيبرس على الفرات مبعث بهجة وسرور، حيث استأصل شأفة التتار وأغرق معظم جيشهم وأجهز على من بقي منهم. ويصف الشهاب محمود هذه الموقعة، مادحاً إياه، بقوله(1):

حملتكَ أمواجُ الفراتِ ومن رأى ... بحراً سواكَ تُقلُّه الأنهارُ

وتقطّعتْ فِرقاً ولم يكُ طودَها ... إذ ذاكَ إلا جيشُكَ الجرّارُ

رشَّتْ دماؤهمُ الصعيدَ فلم يَطرْ ... منهم على الجيشِ السعيدِ غُبارُ

شكرتْ مساعيكَ المعاقلُ والورى ... والتُّربُ والآسادُ والأطيارُ

هذي منعتَ، وهؤلاء حميتهمْ ... وسقيتَ تلك وعمّ ذا الإيسارُ

فلأملأنَّ الدّهرَ فيك مدائحاً ... تبقى، بقيتَ وتذهبُ الأعصارُ

ويلقانا المديح الشخصي الذي جرى فيه الشعراء على نهج القدماء، فالمعاني متداولة، مكرورة، لا جديد فيها، سوى هذه الصنعة اللفظية.

مدح ابن القيسراني نور الدين، فقال(2):

يغشى الوغى أفرسُ فُرسانها ... وفي التُّقى أزهدُ زُهّادها

فأنت – نُسكاً – غيثُ أبدالها ... وأنت – فتكاً – ليث آسادها

في أمةٍ أنتَ حمى دينها ... حيناً، وحيناً شمسُ عُبادها

يُلاحظ أنّه يركز على معانٍ معروفة لدى الشعراء منذ القديم، كالشجاعة والتقوى والزهد، فنور الدين هو غَيث الأبدال، وحامي الدين.

نذكر من ذلك مثلا النُّعوت التي وُصف بها صلاح الدين، فعمارة اليمني يشبهه بيوسف الصّدّيق عدلاً وحُسنا واتفاق تسمية(3):

ياشبيه الصِّدِّيقِ، عدلاً وحُسناً ... وسَميًّا حكاه معنى ومبنى

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 7/ 159.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 2/ 16.

(3) الروضتين،1/ 568.

ويمدحه العماد الكاتب فيضيف إليه الكرم والسخاء، بقوله[1]:

ولما صَبَتْ مصر إلى عصر يوسف   أعاد إليها الله يوسفَ والعصرا
فأجرى بها من راحيته بجوده   بحاراً، فسمّاها الورى أنملا عشرا

الخلاصة، إن معاني المديح التي استخدمها الشعراء في هذا العصر لا تختلف عن معاني القدماء، بل إنهم عجزوا عن محاكاتهم، وسيرد كثير منها في معرض الحديث عن تراجم الشعراء في الفصل القادم.

(1) انظر: بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ص91.

المبحث الثاني

الرثاء

يقترن الرثاء بالموت والزوال، على مستوى الأفراد، وعلى مستوى الدول، وفي ساعة الموت نبكي الميت ونتفجّع عليه. وكذلك الدول تولد وتموت، فهي كالأفراد لها أعمار وآجال، فتلك سُنَّة الله في مخلوقاته، وتلك الأيام يُداولها بين الناس. نفرح ساعة الميلاد ونحزن ساعة الموت، وشتان ما بين الساعتين، وقد أدرك المعريّ ذلك بحسِّه المرهف وتأمله في سيرورة الزمن، إذ يقول:

إنّ حزناً في ساعة الموت أضعا   فُ سُرورٍ في ساعة الميلاد

فالرثاء هو بكاء الميت والتفجع عليه والتمجيد لخصاله[1] وقد ملأ الشعراء الأسماع بمراثيهم التي كانوا يُنشدونها وأكبادهم تحترق، على مدى الزمن.

ويُعدُّ من الأغراض الرئيسة في عهود الدول المتتابعة التي شهدت الحروب الصليبية والمغولية، ويتوزّع الرثاء فيها على فئات كثيرة، هي: الدول البائدة، والمدن المنكوبة، والملوك والسلاطين.

أولاً: رثاء الدول والمدن

وأول ما يطالعنا في هذه الحقبة زوال الدولة الفاطمية على يدي صلاح الدين، فيتكفل برثائها شاعر من شيعتها هو عمارة اليمني[2]: (-569هـ) ويبكيها بلوعة وحنين، وقد اشتدَّ بها الزمان[3]:

رميتَ يادهرُ كفَّ المجدِ بالشَلل   وجيدَهُ بعد حُسْنِ الحُلْيِ بالعَطَلِ

---

(1) انظر: ابن رشيق، العمدة، 2/ 47.

(2) عمارة بن علي بن زيدان اليمني، شاعر يمني، قدم إلى مصر في أيام وزارة طلائع بن رُزيك، فأكرمه الفاطميون، وحين دالت دولتهم، شارك في مؤامرة على صلاح الدين، وإذ أخفق، حُكم عليه بالإعدام صلبا. له ديوان شعر.

(3) النجوم الزاهرة، 5/ 200.

هـدمتَ قاعـدةَ المعـروفِ عـن عَجَـلٍ   شقيتَ، مهلاً، أما تمـشي علـى مَهَـلِ؟
أسبلتُ من أسفي دمعي غـداةَ خَلَـتْ   رحـابكمْ، وغَـدَتْ مهجـورةَ الـسُّبُلِ

وهذه أبيات من قصيدة طويلة يرثي الشاعر بها الدولة الفاطمية التي قوّض أركانها صلاح الدين، ونراه يتجرّع الأسى والمرارة لفقدها، ويلقي التبعة في ذلك على الدهر الذي لم يهملها طويلاً. وهو في ذلك يسير على ما دأب عليه الشعراء من قبل في الرثاء.

وأدى استيلاء الفرنجة على القدس في الثالث والعشرين من شعبان سنة 492هـ، إلى مذبحة فظيعة، جعلت المدينة المقدسة «مخاضة واسعة من ارتكاب دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم»[1] فلما وصلت أخبار المذبحة إلى دمشق، هاج الناس فيها وماجوا، وخرج وفد منها بصحبة قاضيها زين الدين أبي أسعد الهروي (-519هـ) ووصلوا إلى بغداد، وحضروا في الديوان، وقطّعوا شعورهم، واستغاثوا وبكوا، وقام القاضي في الديوان، وأورد كلاما أبكى الحاضرين، وندب من الديوان من يمضي إلى المعسكر السلطاني (جيش الخلافة) ويُعرِّفهم بهذه المصيبة[2]. ومن الشعر الذي قيل إذ ذاك قصيدة تنسب إلى أبي المظفر الأبيوردي، أولها:

مزجنـا دمـاءً بالـدموعِ الـسّواجمِ   فلـم يبـق منـا عُرضـة للمـراجمِ
وشـرُّ سـلاحِ المـرءِ دمـعُ يُفيـضُه   إذا الحـربُ شُـبَّتْ نارهـا بالـصوّارمِ

فهو، في هذا المطلع يركز على أمرين:

أ. تصوير مدى الفاجعة التي لحقت بالمسلمين، التي امتزجت فيها الدماء والدموع.

ب. الدموع لا تُعيد حقاً، وإنما الحرب والسيوف القواطع، ومنها:

وكم من دماءٍ قد أبيحتْ، ومن دُمـىً   تُـواري حيـاءً حُـسنها بالمعاصـم
بحيث السيوفُ البيضُ مُحمـرّةُ الظُّبـا   وسُـمْرُ العـوالي داميـاتُ اللـهاذمِ
وبين اختلاسِ الطّعنِ والضّربِ وقفـةٌ   تظـلُّ لهـا الولـدان شـيبَ القـوادمِ

(1) ديوان الأبيوردي، 2/ 156.

(2) انظر: الكامل في التاريخ، ج 10 في حوادث سنة 492هـ، ص 284 و 285.

فهو يُصوّر ما لحق المسلمين من إراقة دماء، وذلّ وهوان، وهتك أعراض. ويتحدث عن ضراوة الحرب التي بَدَتْ فيها السيوف والرماح حمراء لاهبة، والولدان شيبا.

ويختمها بهذا النداء:

دعوناكم والحربُ ترنو مُلِحّةً　　إلينا بألحاظ النسور القشاعم

تُراقب فينا غارة عربية　　تطيلُ عليها الروم عضَّ الأباهمِ

فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه　　رُمينا إلى أعدائنا بالجرائمِ

ومن الأسف أن هذا النداء لم يُلامسْ نخوة المعتصم، فقد قال التاريخ: ولكن القاضي ورفقته عادوا من بغداد إلى الشام بغير نجدة، ولا قوة إلا بالله[1].

وقال شهاب الدين يعقوب بن المجاور في وقوع بيت المقدس مرة أخرى بأيدي الفرنجة سنة 626هـ[2]:

أعينيّ لا ترقَيْ من العَبَراتِ　　صِلي في البكا الآصالَ بالبُكرات

إلى أن يقول:

لتبكِ على القدسِ البلادُ بأسرِها　　وتعلن بالأحزان والتّرَحاتِ

لتبكِ عليها مكّةٌ فَهْيَ أختها　　وتشكو الذي لاقَتْ إلى عَرَفاتِ

لتبكِ على ما حلَّ بالقدسِ طيبةٌ　　وتشرحه في أكرم الحجرات

فهو يُلحُّ على عينيه بالبكاء، لعل الدمع يخففُ أحزانه وآلامه، ثم تمضي به العاطفة حدّ الاستغاثة بمكة والمدينة ويدعوهما إلى أن تشاركاه البكاء، ويطالب مكة بإيصال البكاء إلى عرفات، ويدعو المدينة لشرح موضوع القدس في الروضة الشريفة بالمسجد النبوي.

(1) النجوم الزاهرة، 5/ 152.

(2) كتاب الروضتين، 2/ 205.

ولتقي الدين إسماعيل بن أبي اليُسر التنوخي مرثية لبغداد في نكبتها على أيدي المغول سنة 656، إذ استباحتها جحافل هولاكو أربعين يوما، ثم تركوها خراباً يبابا، وقتلوا الخليفة المستعصم بالله وحاشيته وقد شهد الشاعر هذه النكبة، فرثاها بقصيدة مطلعها[1]:

لسائلِ الدّمع عن بغدادَ أخبارُ   فما وقوفكَ والأحبابُ قد ساروا؟

وتبع سقوط بغداد زوال الخلافة العباسية؛ مما جعل المسلمين يعتقدون- ومنهم الشاعر - «أن العالم على وشك الانحلال وأن الساعة آتية عن قريب»[2] فنسمعه يقول:

إنّ القيامة في بغدادَ قد وُجدتْ   وحدّها حين للإقبال إدبار

آل النبيّ وأهل العلمِ قد سُبيُوا   فمن تُرى بعدهم تحويه أمصار؟

ما كنتُ آملُ أن أبقى وقد ذهبوا   لكن أبى دون ما أختار أقدار

وإذا تركنا بغداد ونكبتها على أيدي المغول، وانتقلنا إلى دمشق بعد سقوطها في أيدي التتار، مرّة على يد غازان سنة 699هـ، ومرة أخرى على يد تيمورلنك، فقد قال ابن حبيب في سقوطها الأول، وهي تدعو بالنصر[3]:

تقول دمشقُ الشامُ وهي كئيبةٌ   وقد أصبحت بعد المسرّة عَزّا

أيا ربّ نصراً منك أرجو ورحمةً   فغازان في أهلي وفي جيرتي غُرّا

وقال الغزولي في سقوطها على يد تيمورلنك[4]:

أعروسَنا لكِ أسوةٌ بحماتنا   في ذا المُصَابِ فأنتما أُختانِ

غابتْ بدورُ الحُسْنِ عن هالاتها   فاستبدلتْ من عزّها بهوانِ

ناحت نواعيرُ الرّياض لفقدهم   فكأنها الأفلاكُ في الدّورانِ

(1) النجوم الزاهرة، 7/ 51.

(2) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 309.

(3) انظر: محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي (الشعر والشعراء)، ص38.

(4) مطالع البدور، 1/ 43.

ثانياً: رثاء الحكام

وتلقانا مراتٍ لأبطال المسلمين من حكام وسلاطين وأمراء، فلما توفي نور الدين محمود سنة 570هـ حزن المسلمون لموته، فقد كانت تراودهم آمال الفتح على يديه، ومن روائع ما رُثي به مرثية العماد الكاتب، وقد جاء فيها(1):

مَن ينصر الإسلام في غزواته ... فلقد أصيب بركنه وظهيره؟
مَن للخطوب، مُذلّلاً لجماحها ... من للزمان مُسهّلاً لوعوره؟
أو ما وعدْتَ القدس أنك منجزٌ ... ميعاده في فتحه وظهوره؟
فمتى تُجيرُ القدسَ من دَنَسِ العدا ... وتقدَّسَ الرحمنُ في تطهيره؟

ومات صلاح الدين، فاهتزّت البلاد لفقده، وأُقيمت عليه المآتم، ورثاه كثير من الشعراء، فتحدثوا عن بطولاته ومآثره وأخلاقه، من ذلك قول العماد الكاتب(2):

لا تحسبوه مات شخصاً واحداً ... قد عَمَّ كل العالمين مَماتُهُ
ملكٌ عن الإسلام كان محامياً ... أبدًا إذا ما أسلمته حُماتُه
قد أظلمت مذ غاب عنها دوره ... لما خَلَتْ من بدره داراته
يا راعياً للدين حين تمكّنتْ - ... من كل قلب مؤمن روعاتُه
فعلى صلاح الدين يوسفَ دائماً ... رضوان رب العرش بل صلواته

وفي رثاء الظاهر بيبرس الذي توفي سنة 678هـ، يظهر ما تحقق من آمال كبار على يديه، فقد سحق التتار في عين جالوت، ودكّ كثيرا من حصون الفرنجة في الشام. ومن المراثي التي قيلت فيه مرثية محيي الدين بن عبد الظاهر، وجاء فيها(3):

هذا الذي هزم التتارَ فأصبحوا ... تغتالهم عند الكرى الأحلامُ
هذا الذي قهر الفرنج فكلّهمْ ... تُريهمُ من رعبه الأوهامُ

(1) خريدة القصر، قسم شعراء الشام.

(2) النجوم الزاهرة، 6/ 60.

(3) انظر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور قلاوون، ص25.

وحين قضى السلطان سليم الأول على دولة المماليك سنة 932هـ/ 1516، تكفّل برثائها عدد من الشعراء، منهم ابن إياس الذي يحسّ أنها ضاعت في غمضة عين[1]:

نوحوا على مصرَ لأمرٍ جرى   من حادث عمّت مصيبته الورى
زالتْ عساكرها من الأتراك في   غمض العيون كأنها سِنَة الكرى

وتحدّث الشعراء عن الزلزال الذي وقع سنة، 552هـ/ 1157م ودمّر بعض البلدان، ومنها مدينة شيزر التي كانت على موعد مع القدر، ولم ينجُ أحد من أهلها، فرثاها أسامة بن منقذ وبكى أهله، إذ يقول[2]:

درستْ منازلهمْ، وأوحشَ منهمُ   مأنوسُ أنديةٍ، وعزُّ محافلِ
ذهبوا ذهابَ الأمسِ ما من مُخبرٍ   عنهمْ، وزالوا كالظلالِ الزائلِ
هذي قصورهمُ أمستْ قبورهمُ   كذلكَ كانوا بها من قبلُ سُكّانا

ثالثا: رثاء الأهل والعلماء

ويلقانا لون آخر من الرثاء هو رثاء الأهل والعلماء والأفاضل، وهو لون يميل أحياناً إلى المبالغة والتهويل ولأسامة بن منقذ مرثية رائعة لأهله وأقربائه الذين أخذتهم رجفة الزلزال، فيبكيهم ويرثي لحالهم[3]:

ما استدرج الموتُ قومي في هلاكهمُ   ولاتخرَّمهمْ مثنى ووحدانا
ماتوا جميعا كرجعِ الطرفِ وانقرضُوا   هل، ما ترى، تارك للعين إنسانا
لم يتركِ الموتُ منهمْ مَنْ يُخبّرني   عنهم فيوضحَ ما لاقوه تِبيانا

(1) انظر: بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر.
(2) ديوان أسامة بن منقذ، ص304 و 305.
(3) م.ن، ص307 -309.

ورثى صفي الدين الحلي جماعة من أقربائه قُتلوا فقال[1]:

جبـــالٌ بأريـــاحِ المنيّـــةِ تُنـــسَفُ غَدَتْ وهي قاعٌ في الوقـائع صفـصفُ

محتهـــا ريـــاحٌ للمنـــون عواصـــفٌ علــى أنهــا لا تتقــى حــين تعـصفُ

ورثا خاله أيضاً، فقال[2]:

سَـــفَهاً إذا شُـــقَّتْ عليـــكَ جيـــوبُ إن لم تُـــشَقَّ مرائــــرٌ وقلــــوبُ

وتملّقـاً سَـكْبُ الـدموعِ علـى الثـرى إنْ لم يمازجْهـــا الـــدّمُ المـــسكوبُ

ورثى الشعراء أعلام عصرهم كالعلماء والأفاضل، فقد رثـى الـشهاب محمـود قاضي دمشق ابن صصرى المتوفّى سنة 723هـ، بقصيدة، منها[3]:

شيخ الشيوخ العارفين ومن حوى رُتباً سَمَتْ عن أن تُسامَ سناً وبـزّت مـن سـعى

حــاوي العلــوم بمــا تفـرّق في الــورى إلا الـــذي منهـــا إليـــه تجمّعـــا

ورثى الشهاب الشاغوري شيخه الحافظ المؤرخ ابن عساكر المتوفى سنة 571هـ منها[4]:

أقفـــرتْ بعـــده ربـــوع الأحاديــــــثِ وأقـــوتْ معـــالمُ الأبنـــاء

كـــــان عَلّامـــــةً ونـــــسَّابةً لم يخــفَ عنــه شــيءٌ مــن الأشــياء

ولا شك في أن هذه المراثي تميل إلى التهويل والمبالغة، وتـضخيم الحـدث، فهـم يبكون بدمائهم لا بدموعهم، حتى ليزعم بعضهم أن المرائر والقلوب تُشقُّ على الفقيد قبل أن تُشقَّ الجيوب والملابس. ولكننا لا نعدم التصوير الرائع فيه والعاطفة الـصادقة في رثاء الدول والمدن وبعض الملوك والسلاطين.

(1) ديوان صفي الدين الحلي، ص231.

(2) الديوان، ص333.

(3) السبكي، طبقات الشافعية، 9/ 22.

(4) ديوانه، ص117.

المبحث الثالث

الغزل

يشغل الغزل في هذا العصر حيّزاً واسعاً في دواوين الشعراء، فمنهم من جعله في مقدمات قصائده، يتوصل بها إلى غرضه الرئيس، وهم غالبية الشعراء، ومنهم من أفرد له قصائد ومقطوعات مستقلة كالشاب الظريف، وابن النبيه، والبهاء زهير، وابن مطروح، وابن التعاويذي وغيرهم.

ولاشكّ في أن الغزل يحتل مكانة رئيسة عند هؤلاء الشعراء، بوصفة عاطفة إنسانية، تلبي نداء القلب المعنى، وهتاف النفس البشرية، وهو كما يرى ابن رشيق «إلفُ النساء، والتخلّق بما يوافقهنّ»[1] والغزل في هذا العصر يتوزّعه اتجاهان: اتجاه تقليدي ترسَّم فيه الشعراء خطا الأقدمين، وصفوا فيه المحبوبة وصفاً مادياً بدءاً من شعرها وانتهاءً بخصرها وأردافها، مستخدمين تشبيهات واستعارات مألوفة؛ فالعين نرجس، والخد وردّ، والأسنان لؤلؤ والقوام غصن إلخ.

واتجاه جديد تفرّدوا فيه عن الأقدمين يبدو في التشبيب بالفرنجيات والروميات وبعض العناصر الأخرى، والمفاهيم الجمالية التي عُرفت عند الشعوب الأخرى، وإضفاء النعوت الخاصة والمعاني الدينية التي ظهرت في بيئتهم وعصرهم.

ومن المعروف أن الفرنجة وفدوا إلى المشرق العربي إبان عصر الحروب الصليبية، وقد عُرفوا بسمات مميزة، كالوجوه البيض والعيون الزرق مما يعدّ نموذجاً للجمال الأوربي.

وإذ نستعرض الأوصاف التي وردت في غزل هذا العصر الذي ندرسه، فلا نقع على جديد فيها. لقد وصفوا تقاطيع المرأة، من شعر، وجبين، وعينين، وخدود، وقدود وأرداف.

---

(1) العمدة، 2/ 117.

هذا ابن قسيم يرسم لنا صورة خد المحبوبة، فنراه يترسّم خُطا ابن الرومي دون أن يبلغ شأوه إذ يقول[1]:

كــأنّ بخــده مــاءً ونــاراً   تولّــد منهمــا ليــل العــذار
ســقاكَ علــى تــورّد جُلنّــار الـ   ـخدود مدامــة كالجُلُنّــار

وهذه صورة تقليدية لتورّد الخدّين، يختلط فيها الماء والنار، والمدامة والجُلنّار. وكثيراً ما يتحدّث الشعراء عن الخصر والأرداف في غزلهم، ويسيرون في رسمها على نهج الأقدمين. وما أشبه محبوبة أسامة بن منقذ بغيرها من محبوبات القدماء[2]:

غـصنٌ ودعـصٌ فالغُـصنُ مـن هَيَـفٍ   يمـيسُ لينـاً، والـدّعصُ يـرتجُّ

ويصف المحبوبة بقوله:

ومُحجَّـبٍ كالبـدرِ يـدنو نـوره   مـن عـين رائيـه وتنـأى داره
يحكـي الغزالـةَ والقـضيبَ قَوامُـه   ولحاظُـه وبهـاؤه ونفـاره

ويتحدث ابن الساعاتي عن العيون، فيقول[3]:

وأحـورَ في عينيـه هـاروتُ بابـلٍ   رمـى فاتّقينـا نَبْلَـهُ بالمقاتِـل
يـدافع عـن ألحاظـه بجفونـه   ولم أر جفنـاً صـال دون المناصـلِ

وبرع الشعراء في وصف الخيلان، وفي طليعتهم ابن منير القيسراني، في مثل قوله[4]:

نقـش الحـسنُ علـى وجنتـه   شـامةً أشْـمَتَ حُـسّادي بهـا
كـان قـد أعوزهـا بـستانه   ثـم لمـا أشـرقت فيـه انتهـى

ولشرف الدين الأنصاري وابن الساعاتي أوصاف جميلة للخال[5]: وأيّاً كان الأمر، فهذه صور للمحبوبة تكاد تقترب من صور ما جاء به الأقدمون، من خدودٍ

(1) العماد الكاتب، الخريدة، قسم شعر الشام، 1/ 446.

(2) الديوان، ص9.

(3) ديوان ابن الساعاتي، 2/ 27

(4) العماد الكاتب، م.س.

(5) انظر: عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، ص544 و445.

تتلّهب إلى خصور دقيقة، وأرداف ممتلئة، وعينين فيهما حور وغيرها من ملامح تمثل جمال المرأة العربية رسمها الشعراء منذ امرئ القيس.

وهم لا يُجارون الأقدمين في ألفاظهم وصورهم فحسب، وإنما يجارونهم في التعبير عما يكابدونه من حب. ويأتي على رأس قائمة الشعراء عرقلة، إذ تصوّر نفسه وقد غدا شبحاً[1]:

عندي إليكمْ من الأشواقِ والبُرَحا ... ما صيَّر الجسم من فرط الضَّنى شَبَحا

أحبابنا لا تظنّوني سلوتكمُ ... الحالُ ما حالَ والتبريحُ ما برحا

لو كان يسبحُ صَبٌّ في مدامعهِ ... لكنتُ أوّلَ مَنْ في دمعه سَبَحا

صنو ذلك ابن منير الذي يخاطب حبيبه بقوله: «مولاي»[2]:

مولايَ قد ذُبتُ صبرًا ... وكم تُذيبُ مِطالا

ما كان عهدُكَ إلا ... مثلَ السُّلُوِّ مُحالا

لم يقف شعراء الغزل في هذا العصر عند الجمال العربي أو المرأة العربية، وإنما امتد غزلهم إلى الجمال التركي وغير التركي، فتغزّلوا بالفرنجيات والروميات والكرديات، يسعفهم في ذلك بيئة مفتوحة على كل هذه الألوان من العناصر التي عاشت في هذه البلاد وتولّت مقاليد الحكم فيها.

فقد جمع بعض الشعراء بين الجمال العربي والجمال التركي، ففي هذا العصر كثرت الجواري التركيات؛ وهذا ابن نُباتة يرسم لنا صورة المحبوبة التركية، التي حلّت في قلبه، بعيونها الضيّقة، وهو ما يعد خروجاً على جمال العيون العربية فنسمعه يقول[3]:

على ضيّقِ العينين تُسفح مُقلتي ... ويطربني لا زينبٌ وربابُ

---

(1) العماد الكاتب، الخريدة، قسم شعراء الشام، 1/ 182.

(2) م.ن، ص83.

(3) ديوان ابن نباتة، ص 28.

فيا رشأ الأتراكِ لا سِرْبَ عامرٍ فؤاديَ من سُكنى السّلوّ خرابُ
بوجهكِ من ماء الملاحةِ موردٌ لِظامٍ وسربُ العامريّ سرابُ

وهكذا أصبح الشاعر في هذا العصر يهيم بالعيون الضيّقة وهي من سمات بعض الشعوب الآسيوية كالأتراك والتتار، وقد كثر هؤلاء في بلدان المشرق الإسلامية، إذ امتلأت بهم أسواق الرقيق.

ولم يمنعه ذلك من أن تكون محبوبته عربية، سواء أكانت مصرية أم سوريّة، فيختار محبوبة سمّاها لمياء، فيقول(1):

بروحي من لمياءَ عطفٌ إذا زَها على الغصنِ، قال الغصنُ: ما أنا والقدُّ
وعُنُقٌ قد استحسنتْ دمعي لأجلها وفي عُنقِ الحسناءِ يُستحسن العِقْدُ
من العُرب إلا أنّ بين جفونها أحدُّ شباً مما يُجرّده الهندُ

فالشاعر يلتفت إلى عواطف هذه الفتاة العربية، وقد صدّت عنه، وابتعدت. وتغلي فيه العاطفة عند هجرانها، ثم نراه يسترسل في وصف جمالها الذي يعد مثالاً لجمال العربية، فإذا هي كحبيبة الأمس من حيث الصفات الجسدية التي رددها الشعراء العرب، من قدٌ ميّاس، وعنق طويل يُستحسن فيه العِقدُ، ونظرات أشد فتكاً من السيوف الهندية.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الشاب الظريف كان يتعصّب في غزله إلى المحبوبة العربية التي صوّرها في نطاق تقليدي، مخالفاً بذلك ما دأب عليه شعراء الغزل الذين تداولوا ذِكر المحبوب التركي، في مثل قولهم: «بدرٌ من الترك»(2) و«ظباء الترك»(3) و«ميّاس القوام من الترك»(4). ولم يقتصر الأمر على العنصر التركي، وإنما امتد إلى الفرنجيات،

(1) ديوان ابن نُباتة، ص135.

(2) العماد الكاتب، الخريدة، قسم شعراء الشام، 2/ 295.

(3) ديوان ابن عنين، ص34.

(4) م.ن.

إبان الاحتلال الصليبي، وهذا ابن القيسراني يتغزل بهنّ في قصائده الموسومة بـ «الثغريات» ولا سيما المغنيّة ماريّا التي أحبّها، ومن غزله فيها قوله[1]:

تقضّى زماني بينَ بينٍ وهجرةٍ فحتامَ لا يصحو فؤاديَ من حُبٍّ

وأهوى الذي يهوي له البدر ساجداً ألست ترى في وجهه أثر التُّربِ

فهو يتحدّث في البيت الأول عن ألم الحرمان وهجران المحبوبة، ويربط في البيت الثاني بين كلفة البدر وآثار السجود على جبينه. ويرى العماد الكاتب أن الشاعر في البيت الثاني قد ألم ببيت المعرّي:

وما كُلفةُ البدرِ القديم قديمةً ولكنها في وجهه أثر اللطم

فأخذه وشبهه بأثر الترب[2]:

ويكثر الغزل بالمذكر في هذا العصر كثرة مفرطة، فقد أورد ابن حجة في كتابه «خزانة الأدب» شواهد عليه. وعُرف أن الشاعر المعروف بـ «ابن دفتر خوان» قد نظم ديوانا تغزل فيه بألف غلام سمّاه «الغلمان» وتورّط فيه عدد من الشعراء، منهم ابن منير الطرابلسي، وعرقلة، وصفي الدين الحِلّي وغيرهم.

ومن طريف هذا الغزل قول ابن القيسراني في غُلام يهودي صيرفي[3]:

في بني الأسباطِ ظبيٌ مالِكٌ رِقَّ الأسودِ

صيرفي في غرامي في صروفٍ ونقودِ

أنا في الدين حنيفيٌّ وفي الحبّ يهودي

---

(1) العماد الكاتب، الخريدة، قسم شعراء الشام، 97.

(2) م.ن.

(3) م.ن، 1/ 145.

المبحث الرابع
الفخر والحماسة

من الأغراض الرئيسة في الشعر الفخر والحماسة، فقد سمّى أبو تمام اختياراته الشعرية الحماسة، وهي الموسومة بـ «كتاب الحماسة» ورتبها على عشرة أبواب، خصّ كل باب بفن، وكان باب الحماسة أولها.

وإذ بدأ الشعر الحماسي في العصر الجاهلي فإنه لم ينقطع طوال العصور اللاحقة، وقد ازداد توجها خلال هذه العصور، إذ ارتبط بالعاطفة الدينية التي اتقدت إبان عصر الحروب الصليبية فقد كانت انتصارات المسلمين على الفرنجة تشعل الحماس في نفوس الناس جميعاً، والأبطال بخاصة، والملوك والسلاطين بوجه أخص. وفي المقابل كانت الهزائم مبعث حزن وألم في النفوس، «تحث الشعراء على أن يشجعوا القادة على متابعة النضال، والبقاء على صهوات الجياد، ورفع رايات الجهاد، وترديد شعارات المعركة»[1].

انتصر صلاح الدين على الصليبيين في موقعة حطين، وتعقب فلولهم حتى تمّ فتح بيت المقدس، مما اضطر ملوك الفرنجة إلى عقد صُلح معه عرف بـ «صلح الرملة» الذي حفظ للمسلمين بيت المقدس واستمرت حملات الصليبيين زُهاء قرن من الزمان، اشترك فيها لويس التاسع ملك فرنسا الذي أسر في معركة المنصورة. ولمع في تلك الحروب الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون، وابنه السلطان الأشرف خليل الذي استولى على عكا آخر معاقل الصليبيين، وبذلك انتهت الحروب الصليبية وقد كان لهذه الحروب أثر في نهضة شعر الحماسة، بحيث أصبح هذا العصر أكثر العصور غزارة بهذا الشعر.

كانت انتصارات عماد الدين زنكي حافزاً للشعراء على التغني ببطولة هذا القائد، فكان فتح الرها عام 539هـ من أعظم الفتوحات التي ألهمت ابن القيسراني على أن ينشد قصيدته المشهورة[2]:

---

(1) انظر: أحمد بدوي، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية، ص 498.

(2) الروضتين، 1/ 37.

هــو الــسيفُ لا يغنيــكَ إلا جِــلادُهُ   وهــل طــوّق الأمــلاكَ إلا نجــادُهُ
وعن ثغـرِ هـذا النـصرِ فلتأخـذ الظُّبـا   ســناها وإن فــاتَ العيــونَ اتّقــادُهُ
سَــمَتْ قُبّــهُ الإســلامِ فخــرا بطولــه   ولم يــكُ يــسمو الــدينُ لــولا عِمــادُهُ
لقــد كــان في فــتح الرُّهــا دلالــةً   علــى غــير مــا عنــد العُلــوج اعتقــادُهُ

فالشاعر يُمجّد القوة بوصفها الوسيلة الوحيدة لتخليص البلاد وتحريرها من الغُزاة، والاعتماد على الله لا يتعارض مع الإعداد لقتال الأعداء، فالله ﷻ هو القائل سبحانه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[1].

ومن القصائد التي أعقبت هذا الفتح قصيدة ابن منير التي مدح بها عماد الدين، ومنها:

والرّهــا لــو لم تكــنْ إلا الرّهــا   لكفــتْ قطعــاً لــشك الممتريــن
هــمَّ قــسطنطينُ أن يُفزعهــا   ومــضى لم يحــوِ منهــا قــسط طــين

نلاحظ أن قصيدة ابن القيسراني أقوى وأجمل، في حين كانت قصيدة ابن منير أكثر اهتماما بالصنعة اللفظية، وبخاصة الجناس.

وحين استرجع نور الدين «الرّها» من الفرنجة الذين استولوا عليها بعد وفاة أبيه، انطلق صوت ابن قسيم يهنئه بذلك، فيقول[2]:

هــذا الــذي في الله صــحَّ جهــاده   هــذا الــذي بــالله صــحَّ يقينُــهُ
والــدهرُ خــاذلٌ مــن أراد عنــادَهُ   أبــداً وجبّــارُ الــسماءِ مُعينــه
والــدينُ يــشهدُ إنّــهُ لَمعــزُّهُ   والــشركُ يعلــمُ إنــه لمهينُــهُ
مــازال يقُــسمُ أن يُبــدّدَ شملــهم   والله يكــرهُ أن تمــينَ يمينُــهُ
فــتح الرُّهــا بــالأمسِ فانفتحــتْ لــه   أبــوابَ مُلْــكٍ لا يــزالُ مــصونُه

(1) سورة الأنفال، من الآية 60.
(2) الروضتين، ص 34.

كذلك الشأن في عدّه مواقع منها «حصن يغراء» و«إنّب» و«حصن فامية» وفي غيرها من المدن والحصون.

ويلقانا طلائع بن رُزّيك وأسامة بن منقذ اللذين تغنيا بالأمجاد والبطولات، وكانت تربطهما صداقة متينة، وكانا يتبالان الرسائل الشعرية التي تدور حول انتصارات المسلمين على الفرنجة. وكان طلائع يُخبر صديقه بها، فتحدث عن معركة خاضها الجيش المصري سنة 553هـ، وانتصر على الصليبيين، استهلها بقوله[1]:

ألا هكذا في الله تمضي العزائم   وتمضي لدى الحربِ السيوفُ الصوارمُ
وتُغزى جيوشُ الكفرِ في عقر دارها   ويوطا حماها، والأنوف رواغمُ
خيولٌ، إذا ما فارقَتْ مصر تبتغي   عِداً فلها النصرُ المبينُ ملازمُ

فينظم أسامة قصيدة على لسان نور الدين مفاخرا بانتصارات هذا البطل على الصليبيين، ومنها[2]:

أبى اللهُ إلا أن يكونَ لنا الأمرُ   لتحيا بنا الدنيا ويفتخر العصرُ
جعلنا الجهادَ همَّنا واشتغالنا   ولم يُلهنا عنه السماعُ والا الخمرُ
بنا أيّدَ الإسلامُ وازدادَ عزّةً   وذل لنا من بعد عزّته الكفرُ
بنا استرجعَ اللهُ البلادَ وأمّنَ الـ   ـعبادَ فلا خوفٌ عليهم ولا قهرُ

فكلاهما يفخر بجهاده ووقائعه التي انتصر فيها على العدو المشترك، وذلك في معرض التنافس بين الفاطميين والزنكيين، ومحاولات أخفقت في توحيد مصر والشام.

وهذا عُمارة اليمني الذي كان محسوباً على الفاطميين، نراه يصوّر بيت المقدس مشتاقا إلى قائد التحرير صلاح الدين، ويحثه على فتحه، إذ يقول[3]:

---

(1) انظر: ديوان أسامة، ص 200.

(2) م.ن، 2.4.

(3) الروضتين، 1/ 193.

وهيَّجْتَ للبيتِ المقدَّسِ لوعةً   يطولُ بها منه إليكَ التشوُّقُ
تنشّقُ من مَلقاكَ أعظمُ نفحةٍ   تطيبُ على قلب العِدا حين تُنْشَقُ
هو البيت، إن تفتحْهُ واللهِ فاعلٌ   فما بعده من الشام مُغلقُ

ولابن الساعاتي قصيدة نظمها في المحرم من سنة 579هـ يدعو فيها صلاح الدين إلى تخليص بيت المقدس مما حلَّ به، فيقول[1]:

فليعلم القدسُ أنّ الفتحَ منتظرٌ   حلولُه وعلى الآفاق فليطُلِ
وافاكَ يوسفُ يا بيتَ الخليل فلا   تيأسْ فإنكَ فيه صادقُ الأملِ
وما السواحلُ إلا كالفُراتِ إذا   وافى فإنْ لم تُحِطْ علماً به فَسَلِ

وحين خلَّصَ صلاح الدين بيت المقدس من أيدي الصليبيين سنة 583هـ، انطلق صوت ابن سناء الملك من مصر يُنشد هذا النشيد الرائع[2]:

سواي يخافُ الدهرَ أو يرهبُ الردّى   وغيريَ يَهوى أن يكونَ مُخلّدا
ولكنني لا أرهبُ الدهرَ إن سطا   ولا أحذرُ الموت الزؤام إذا عدا
ولو مدّ حادثُ الدّهرِ طرفه   لحدّثتُ نفسي أن أمدَّ له يدا
توقُّدُ عزمي يتركُ الماءَ جمرةً   وحِليةُ حلمي تترك السيف مبردا
وأظمأُ إن أبدى ليَ الماءُ مِنَّةً   ولو كان لي نهرُ المجرّة موردا

فالشاعر يفخر بنفسه، فلا يرهب الدهر ولا الموت الزؤام، حتى إنه لينازل الدهر بعزيمته المتّقدة التي تشعلُ الماء جمراً، وبحلمه الجميل الذي يردُّ السيف كليلا لا يقطع.

وحين دكَّ صلاح الدين «حصن المخاض» وأراح المسلمين من شرّه، وكان الفرنجة قد التهمتهم النار وأُحرقت بيوتهم وطائفة منهم، فاضطروا إلى طلب الأمان،

(1) الديوان، 2/ 384.

(2) م.ن، ص165.

وأسر منهم المئات انطلقت أصوات الشعراء تهنئ السلطان بهذا النصر، وكان الأمير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان العراقي، من أهل الحِلّة قد شهد هذا النصر، فقال[1]:

هنيئاً صلاح الدين بالفتح والنّصرِ ... ونيل الأماني الغُرّ والفتكةِ البكرِ
وما حُزْت فيها من فخارٍ ومن عُلا ... وحُسنِ ثنا يبقى إلى آخر الدهرِ
سموتَ لها بالمشرفيّة والقنا ... سموَّ أبيٍّ لا ينامُ على وِتْرِ
وقد عرفَ الإفرنجُ بأسكَ في الوغى ... وجرّعتهمْ منه أمَرَّ من الصّبرِ
فيا آل أيوب حويتم مناقباً ... بأخمصها تعلو على الأنجمُ الزُّهرِ
إذا عُدَّ أربابُ الفخار فأنتم ... ذوو الفَعَلاتِ الغُرُّ والنائلِ الغَمْرِ

كذلك الشأن في غير موقعه، منها «مرج عيون» و«طبريّة» و«آمد» و«حلب»، وفي غيرها من مواقع، عُرفت فيما بعد في أدبيات هذا الشعر بـ «القدسيات».

وينطلق صوت رشيد بن بدر النابلسي في هذه المناسبة مرددا صوت «الله أكبر»، ومخاطباً صلاح الدين[2]:

الله أكبرُ صوتٌ تقشعرُّ له ... شُمُّ الذّرا وتكاد الأرضُ تنفطرُ
ما اخضرَّ هذا الطرازُ الساحليُّ ثرىً ... إلا لتعلو به أعلامُكَ الصُّفْرُ
أضحى بنو الأصفر الأنكاس موعظةً ... فيها لأعدائكَ الآياتُ والنُّذُرُ[3]
صاروا حديثاً! وكانوا، قبل، حادثةً ... على الورى يتّقيها البدو والحضرُ
سلبتهمْ دولة الدنيا وعيشتها ... حتى لقد ضجرتْ من وفدهم سقرُ[4]

(1) الروضتين، 2/ 12.
(2) انظر: م.ن، 2/ 118.
(3) بنو الأصفر: الروم الشُقر البشرة، الأنكاس: جمع نكس وهو الضعيف المهزول.
(4) وفدهم: قتلاهم الذين دخلوا جهنم.

أما ملك الفرنجة لويس التاسع الذي قاد الحملة الصليبية الثالثة على مصر فقد وقع أسيراً، وألقي به في دار ابن لقمان بالمنصورة، إلى أن فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار وأطلق سراحه، فلما وصل إلى عكا عزم على العودة إلى مصر، فسخر منه المصريون، ونظم ابن مطروح قصيدة في هذه المناسبة متهكما به، ومنها[1]:

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال صدقٍ من قؤول فصيح
أتيتَ مصراً تبتغي ملكها ... تحسبُ أنّ الزّمر يا طبلُ ريح!
فساقكَ الَحيْنُ إلى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم ... بقُبح أفعالك بطن الضريح
خمسون ألفاً لا يُرى منهم ... إلا قتيل أو أسيرٌ جريح

ولم يلبث أن غزا تونس، فدار قتال استمر ستة أشهر، وكاد المسلمون فيها أن يُهزموا، لولا وفاة الملك لويس نفسه، مما أضعف الفرنجة، وفي هذه المناسبة يقول شاعر تونسي:

يافرنسيس هذه أختُ مصر ... فتأهَّبْ لما إليه تصير
لك فيها دارُ ابنِ لقمانَ قبراً ... وطواشيك منكر ونكير[2]

فكان هذا فألاً عليه ومات.

وتلقانا أيامٌ بين بعض العشائر العربية، يسقط فيها رجال من هذه العشيرة أو تلك، وتنشأ بينها أحقاد وثارات، من ذلك الاقتتال بين عشيرة صفي الدين الحلي وبعض العشائر الأخرى، قُتل فيها خال الشاعر وبعض أقربائه، مما دعاه إلى التحريض على الأخذ بثأره، فدارت وقائع بينهما، شارك فيها الشاعر نفسه، ذكر الصفدي أنه كان من الشجعان الأبطال، قُتل خاله فأدرك ثأره[3].

(1) النجوم الزاهرة، 6/ 369.

(2) المملوك، 1/ 365.

(3) الوافي بالوفيات، 8/ 481.

فقال[1]:

سَلي الرّماحَ العوالي عن معالينا ... واستشهدي البيضَ هل خاب الرَّجا فينا
بيضٌ صنائعنا، سودٌ وقائعنا ... خُضرٌ مرابعنا، حُمرٌ مواضينا
لا يظهرُ العجزُ منا دون نيلِ مُنىً ... ولو رأينا المنايا في أمانينا

وبعد، فإن شعر الحماسة من أهم أغراض الشعر في عهود الدول المتتابعة، وهو في معظمه يدور حول بيت المقدس وقد اتسم بجملة خصائص وسمات، هي:

1. سيطرة الطابع الديني عليه، فقد ألهبت هذه الحروب العاطفة الدينية، إذ اتقدت المشاعر وامتزجت بدماء الشهداء، وكان من ذلك التحريض على الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، والتغني بالانتصارات والإشادة بأبطال التحرير وصلاح الدين الأيوبي على وجه الخصوص.
2. حاول الشعراء أن يحتذوا حذو الشعراء العباسيين في القوة والجزالة، كأبي تمام والمتنبي، وأخذ معانيهم وتحويرها في قوالب جديدة، وتحليتها بالبديع، دون اهتمام بتصيّد المعاني المبتكرة.
3. يميل إلى المبالغة والتكرار وتأجيج العاطفة الدينية.
4. استعمال ألفاظ ومصطلحات دينية، إسلامية ونصرانية.
5. تصوير هزائم الفرنجة، والتهكم والشماتة بهم.
6. واكب الحرب التي فُرضت على المسلمين طوال قرنين من الزمان، وشهد صعوداً في عصر الأيوبيين، ثم أخذ يضعف ويتلاشى بعد أوائل عصر المماليك.

(1)ديوان صفي الدين الحلي، ص 20.

المبحث الخامس
الهجاء والفكاهة

عُرف الهجاء في هذا العصر، وكان استمراراً للهجاء القديم بكل ألوانه، والفرق بين هجاء الأقدمين وهجاء هذا العصر هو ما نلحظه من تدنّي مستوى هذا الفن، فقد بدا باهتا وغلب عليه التقليد، ونافسته فنون أخرى كالغزل والمديح.

ومن الألوان التي وُجدت في هذا العصر الهجاء الساخر، والتهكم، والهجاء السياسي والاجتماعي. وكان من أبرز شعراء الهجاء ابن عُنين، والبوصيري، والبهاء زهير وغيرهم.

فكان الهجاء الساخر الذي نضج على يدي ابن الرومي، هو اللون الذي أولع به الشعراء دون اللحاق به، فهذا مجير الدين بن تميم (-684هـ) يسخر من كحّال، يعمي كُحله الأبصار ويقضي على سواد العيون، فيقول[1]:

دعوا الشيخ من كُحل العيون فكفُّه ... يسوق إلى الطرف الصحيح الدواهيا
فكم ذهبتْ من ناظرٍ بسوادهِ ... وألقتْ بياضاً خلفها ومآقيا

وهذا شاعر دمشقي يهجو القاضي شهاب الدين أحمد الباعوني (-816هـ) بقوله[2]:

قضاءُ الشامِ أنشدني ... بديني لا تبيعوني
صُفعتُ بكل مَصْفَعَةٍ ... وبعد الكل باعوني

فهو يسخر به لما ألحقه من صفعات بقضاء الشام. وفي البيت الثاني تورية جميلة في كلمة باعوني، قصد بها القاضي نفسه.

(1) انظر: فوات الوفيات، 1/ 540

(2) النجوم الزاهرة، 14/ 124.

وعُرف التهاجي بين الشعراء أنفسهم، دون أن يرقى إلى مستوى شعر النقائض في العصر الأموي. ومنه هجاء مجاهد الخياط الشاعر الشعبي لأبي الحسين الجزار، إذ يقول:

أبـا الحسين تـأدّبْ ... ما الفخرُ بالشعر فخرُ
ومـا تبلَلْتَ منه ... بقطرةٍ وهو بحرُ
وإن أتيت ببيتٍ ... وما لبيتكَ قدْرُ
لم تأتِ بالبيت إلا ... عليه للناسِ حِكْرُ

فهو يتهمه بسرقة شعره، قال ابن شاكر: «وكان قد سلّطه الله على أبي الحسين الجزّار شاعر الديار المصرية»[1].

وكان للفكاهة نصيب كبير من الشعر، فقد سخر البهاء زهير من بغلة صديق له، فيقول[2]:

لكَ يا صديقي بغلةٌ ... ليست تساوي خردلهْ
تمشي فتحسبها العيو ... نُ على الطريقِ مُشكّلَهْ
وتُخال مدبرةً إذا ... ما أقبلتْ مُستعجِلهْ
مقدارُ خُطوتها الطو ... يلةِ حين تُسرعُ أنملهْ
تهتزُّ وَهْيَ مكانَها ... فكأنّما هي زلزلهْ

فيا لها من بغلة مسكينة، متناهية في الصّغر، تكاد تتحركُ وقد بَدَتْ مدبرة حينُ تقبل، فخطوتها قصيرة. ومن المفارقات أنها تهتز وهي مكانها كالزلزلة.

ويتحدّث عن فلانة، فيقول[3]:

فُلانةٌ من تيهها ... تغصُّ بها مقلتي

---

(1) انظر: فوات الوفيات، 3/ 236.

(2) انظر: مصطفى عبد الرزاق، البهاء زهير، ص54.

(3) انظر: بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ص145.

وقـــد زعمـــت أنهـــا وليـــست بتلـــك الـــتي
فـــلا وجـــه إن أقبلـــتْ ولا يـــردُفَ إنْ ولَّـــتِ

ولابن مكنسة (-510هـ) ميل شديد إلى الفكاهة والدُّعابة، وله قصائد كثيرة في هذا المجال، ومنها قصيدة وصف بها داره، على طريقة أبي الشمقمق في العصر العباسي، إذ يقول[1]:

لـــيَ بيـــتٌ كأنّـــه بيـــتُ شِـــعرٍ لابـن حجّـاجَ مـن قـصيد سـخيفِ
أيـــن للعنكبـــوتِ بيـــتٌ ضـــعيفٌ مثلـهُ وهـو مثـلُ عقلـي الـضعيفِ
بُقعـــةٌ صـــدَّ مطلـــعُ الـــشمس عنهـــا فأنـا – مـن سـكنتها – في الكسوف

فيصوره تارة بيت من الشعر السخيف، وطوراً ببيت العنكبوت. وفي البيت الأخير تورية جميلة، فقد ورّى بكلمة «الكسوف» وهو لا يرى كسوف الشمس وإنما يريد الصّفة.

كذلك عُرف التهكم، وهو أشد إقذاعاً من الهجاء، لكونه يحمل طابع السخرية. فهذا ابن سناء الملك يسخط على رجل يسمى ابن عثمان، ويودّ أن يصفعه بالنّعال[2]:

وكـــم لـــه مـــن وقعـــةٍ لم تُبـــق منـــك باقيـــهْ
ومـــا عليـــه قـــطُّ مـــن صَـــفْعِ النعـــالِ واقيـــهْ

وهذا ابن مطروح يهجو الوزير هبة الله بن صاعد، فيقول[3]:

لعـــن الله صـــاعدًا وأبـــاه فـــصاعدًا
وبنيـــه فنـــازلا واحـــدًا ثـــم واحـــدا

فقد هجاه متلاعباً باسم أبيه، ووظَّف لهجائه، الجناس في البيت الأول بين «صاعد» و«صاعد» والطباق في البيتين بين «صاعد» و«نازل».

(1) انظر: شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات (مصر)، ص373.
(2) الديوان، ص876.
(3) النجوم الزاهرة، 7/ 58.

ولقد تحدث الشعراء في هذا العصر عن بعض مظاهر الفساد الاجتماعي، وللبوصيري قصائد كثيرة في هذا المجال، وأشهرها تلك التي هجا فيها فئات من الموظفين من قُضاة وكُتّاب خراج، إذ يقول[1]:

تكلّــتُ طوائــف المــستخدمينا   فلــم أرَ فــيهم رجــلاً أمينــا
أقــاموا في الــبلادِ لهــم جُبــاةً   لقــبضِ مُغَلّهــا كالمُقْطَعينــا
تحيّلــت القــضاةُ فخــانَ كــلٌّ   أمانتــه وسمّــوه الأمينــا
وكــم جعــلَ الفقيــهُ العــدل ظلمــاً   وصــيَّرَ بــاطلاً حقّــا مُبينــا!

فهو يسخر من هؤلاء الذين يخونون الأمانة، ويستغلون الفتاوى في قلب الحقائق ويوجه ابن التعاويذي هجاءه لوزير حجّ خوفاً من السلطان لا رغبة في الحج، فقال[2]:

يــاربّ قــد حــجَّ الــوزيرُ   ومــا لــه في الحــجّ رغبــهْ
لكــن مخافــةَ أن يحُــلَّ   بــه مــن الــسلطان نكبــهْ
يــاربّ قــد وافــاك منــه   ومــن ذويــه شــرّ عــصبهْ
فاسُــدُدْ مــسالكهمْ ولا   تــردُدْ لهــم يــاربّ غُربــهْ

وعُرف في هذا العصر شُرب الحشيش بين أرذال الناس، وقد نشره فقراء المتصوفة في بلاد الشام، ونُسبت إلى رجل يدعى حيدرة (-618هـ)، ومن ثمَّ فقد أصدر الظاهر أمراً بمنعه وشددّ العقوبة على من يتعاطونه. وكذلك ذمّ الشعراء الحشيشة وقبّحوها، لمساوئها وآثارها المدمّرة، كقول الشاب الظريف[3]:

مــا للحشيــشةِ فــضلٌ عنــد آكلــها   لكنــه غــيرُ مــصروفٍ إلى رَشَــدِهْ
صــفراءُ في وجهــه خــضراءُ في فمــه   حمــراءُ في عينــهِ ســوداءُ في كبــدهْ

(1) ديوان البوصيري، ص 218.
(2) ابن التعاويذي، ص 245.
(3) النجوم الزاهرة، 7/ 381.

وقد تجرَّأ بعض الشعراء على السخرية من دولة صلاح الدين وما فيها من وزراء وحكام، فقد نَظَمَ ابن عُنين قصيدة هجائية تتألف من خمسمائة بيت سمّاها «مقراض الأعراض»، ومنها قوله[1]:

سُلطاننا أعرجٌ وكاتبهُ ذو عَمَشٍ والوزيرُ مُنحدب
وصاحب الأمرِ خُلقهُ شَرِسٌ وعارضُ الجيشِ داؤه عجبُ
عيوبُ قومٍ لو أنها جُمعتْ في فَلَكٍ ما سَرَتْ به شُهْبُ

مما أشعل غضب السلطان وحاشيته، فأصدر أمراً بنفيه إلى الهند مدى الحياة.

والخلاصة، فإن شعر الهجاء في هذا العصر لم يخرج في مضامينه وشكله عن أساليب الأقدمين، ولكنه نأى بنفسه عن المظالم التي انتشرت في العصر المملوكي بخاصّة.

(1) ديوان ابن عنين، ص 210 و211.

المبحث السادس

شعر الزهد

يعد الزّهد نزعة نقيضة لتيار اللهو وطلب المتعة والإقبال على الحياة امتدت إلى شعراء هذا العصر. وقد ساعد انتشاره تدهور الأوضاع الاقتصادية إذ كثرت المجاعات وانتشرت الأوبئة والطواعين، وكذلك كان الزهد ردّة فعل على انتشار الفاحشة، وتأكيد التمسك بقيم الدين ومكارم الأخلاق.

وتناول شعر الزهد موضوعات متعدّدة منها:

1. **التذكير بالموت وزوال الدنيا**، وفي ذلك يقول ظافر الحداد[1]:

كُنْ من الدُّنيا على وَجَلِ   وتوقّعْ سُرعة الأَجَلِ
تخدعُ الإنسانَ لذّتُها   فَهْيَ مثلُ السُّمِّ في العَسَلِ
أنتَ في دنياكَ في عملٍ   والليالي فيكَ في عَمَلِ

فهو يسير على نهج أبي العتاهية، فالدنيا خدّاعة، وهي كالسُّم في العسل، تمرّ الأيام والليالي بالإنسان حتى يأتيه الموت فجأة.

ويتوسّل ابن سناء الملك برحمة الله الواسعة، فنسمعه يحدثنا عن وحشة القبر والبرّ[2]، ويدعو إلى الزهد:

أقول داري وجيراني مغالطةً   والقبرُ داريَ والأمواتُ جيراني
في وحشة القبر والدودِ المقيم به   شُغْلٌ لنفسيَ عن داري وبستاني
سأوسعُ القبر بالأعمال أصلحها   جهدي وألبسُ زهدي قبل أكفاني

2. **التضرّع إلى الله**، وقد أكثر ابن مطروح من مناجياته لربه، كقوله[3]:

يا مَنْ علا في مُلكه فاقتَربْ   ومن بدا في نوره فاحتجَبْ

---

(1) الخريدة، 2/ 92.

(2) الديوان، ص787.

(3) ديوان ابن مطروح، ص212.

ومَـــنْ هـــو القَـــصدُ لأهـــلِ النُّهـــى والمطلـــبُ الأســـنى وكـــلُّ الأَرَبْ
عـــوّدتني الأُنْـــسَ فـــلا تنـــسني وهـــبنيَ الرّحمـــةَ فيمـــا تهَـــبْ

فهو يدعو ربه ويتوسل إليه لأن رحمته واسعة، وهو أقرب من حبل الوريد يملأ نوره الآفاق، وهو محتجب لا يراه أحد. وهو المقصد والمطلب الأسنى لأصحاب العقول.

3. **الإيمان بقضاء الله وقدره**، من ذلك قول الحافظ المحدّث شمس الدين أبو المعالي ابن القماح (-741هـ)[1]:

اصـــبرْ علـــى حُلـــو القـــضاءِ ومُـــرّه واعلـــمْ بـــأنّ الله بـــالغُ أمـــرِه
واثبُـــتْ فكـــم أمـــضّكَ عُـــسْرُهُ لـــيلاً فبـــشّركَ الـــصباحُ بيُـــسرهِ
واضـــرعْ إلى الله الكـــريمِ ولا تَـــسَلْ بـــشراً فلـــيس ســـواهُ كاشـــفُ ضُـــرّه

فالشاعر يدعونا إلى الصبر على قضاء الله خيره وشرّه، فلا رادّ لأمره، وينصحنا بالصبر على المكاره حتى تنجلي الغُمّة. والله وحده هو مُفرّج الكروب.

(1) السبكي، طبقات الشافية الكبرى، 9/ 93.

المبحث السابع
الوصف

من الفنون القديمة التي وجدت في هذا العصر فن الوصف، وهو فن مُتشعِّب يشمل كثيراً من الموضوعات. ويرى ابن رشيق أنّ «الشعر إلا أقلّه راجع إلى باب الوصف، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه»[1]. وأول ما نلقاه في هذا الباب وصف الطبيعة. بما فيها من ورود وأزهار ورياحين وأشجار وأطيار، ووصف مجالس الشراب والغناء، ووصف الحياة العامة في المنازل والأسواق، كما وصفوا بعض المهن وأعمال الباعة وصُنّاع الحلوى والخبز وما إلى ذلك. ولم ينسوا أن يصفوا زحام السوق وما يموج به من المارة والحواة وبعض المحتالين، ووصف بعضهم الكوارث التي كانت تحلّ بالبلاد من زلازل، أو مجاعات أو احتلال على أيدي الغزاة.

وقد تأتي أوصافهم على شكل مقطوعات قصيرة في بضعة أبيات، وقد تكثر فتكون قصيدة كاملة، ومن أبرز شعراء الوصف في هذا العصر صفي الدين الحلي، والبهاء زهير، وفتيان الشاغوري، وابن الصائغ، وغيرهم.

فقد افتنَّ صفي الدين الحلي بوصف الربيع وسائر مظاهر الطبيعة، ووصف مجالس الشراب والغناء، ومن جميل وصفه للربيع قوله[2]:

وردَ الربيعُ فمرحباً بوروده ... وبنور بهجته ونُور وروده
وبحُسن منظره وطيب نسيمه ... وأنيقِ ملبسه وَوَشْيِ بُروده
فصلٌ إذا افتخرَ الزمانُ فإنه ... إنسان مُقلته وبيتُ قصيده
يُغني المزاجَ عن العلاج نسيمُه ... باللُّطفِ عند هُبوبه وركوده
ياحبذا أزهارُهُ وثمارُهُ ... ونباتُ ناجِمه وحَبُّ حصيده[3]

(1) ابن رشيق، العمدة، 2/ 294.

(2) ديوان الحلي، ص551.

(3) النّجم من النبات: ما لم يكن على ساق، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ [الرحمن: 6] والحصيد: الزرع المحصود، وقال أيضا ﴿ فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾ [ق: 9].

وتجـــاوبُ الأطيـــار في أشـــجاره　　كبنـات معبـدَ في مواجـب عـوده[1]
والغـصنُ قـد كُسِيَ الغلائـل بعـدما　　أخــذت يــدا كـانون في تجريـده[2]
نال الـصِّبا بعـد المشيبِ وقـد جرى　　مـاءُ الـشبيبةِ في منابـت عُـوده
والـوردُ في أعلـى الغـصون كأنـه　　ملـكٌ تحـفُّ بـه سَـراة جنـوده

فهو يُشخّص الربيع ويذكر مباهجه ومحاسنه، ويبثُّ الحياة فيه، وفي كـل مظـاهر الطبيعة من ورود وأزهار وأطيـار ونـسيم، وكأنما هـي كائنـات حيّـة تـصدح وتغـني وترقص وتتزين بأجمل الحُلل، وعملية التشخيص هذه عرفها الأقدمون وقد سار عليها شاعرنا.

ونراه يصف النرجس والورود والسوسن ويعقد حواراً بينها، ويجعل كـلا منهـا يفتخر بحسنه ولونه[3]:

قــد نــشر الزنبــق أعلامــه　　وقــال: كــل الزهــر في خــدمتي
لــو لم أكــن في الحُــسن سـلطانه　　مــا رُفعــت مــن دونهــم رايــتي
فقهقـــه الـــورد بـــه هازئـــاً　　وقــال: مــا تحـذرُ مــن ســطوتي؟
وقــال للــسوسن: مــاذا الــذي　　يقولــه الأشــيبُ في حــضرتي؟
وامــتعض الزنبــق مــن قولــه　　وقــال للأزهـــار: ياعـــصبتي
يكــون هــذا الجــيش بــي مُحــدقاً　　ويــضحكُ الــوردُ علــى شــيبتي؟

فهو يجعل هذه الأزهـار كائنـات حيّـة يحـاور بعـضها بعـضا، وهـو مـا يُعـرف بالتشخيص.

---

(1) معبد: مُغنٍّ مشهور من العصر الأموي، وبناته: وغناؤه وألحانه. والمواجب في الأصل ما يوجب الجنة من الحسنات أو النار من السيئات. والمراد هنا بمواجب العود: مـا يـصدر عنـه مـن ألحـان وأنغام.
(2) الغلائل: جمع غُلالة وهي ما يُلبس تحت الثياب. والمراد هنا أوراق الأغصان.
(3) ديوان الحِلّي، ص 554.

ونخرج من هذا الوصف العام لمباهج الروض في الربيع إلى ذكر بعض معالم الطبيعة في مصر ونهرها الخالد، فيتشوق البهاء زهير إلى النيل ورحلاته النّيليّة، وهو بنواحي الفرات، فينشد[1]:

حبّذا النيلُ والمراكبُ فيه مُصعداتٍ بنا ومُنحدراتِ
ولياليَّ بالجزيرة والجيزةِ فيما اشتهيت من لذّاتي
بين روضٍ حكى ظُهور الطّواويسِ وجوٌّ حكى بُطون البُزاةِ
حيث مجرى الخليج كالحيّة الرّقطاءِ بين الرّياض والجنّاتِ
هاتِ زدني من الحديثِ عن النّيلِ ودعني من دِجلةَ والفُراتِ

فهو يتحدّث عن رحلاته النبيلة، وأمواج النيل تصعد بالمراكب وتنحدر، ويتذكر مجالس لهوه في الجيزة وجزيرة الروضة. ثم يفتنُّ بالطبيعة وهي مزدانة بالورود والأزهار بألوانها المتعددة كألوان الطواويس، في جوٍّ صافٍ صفاء بطون البزاة الطائرة، والنيل ينساب كالحيّات التي تنفث السم بل تنفث الحياة في ربوعه. ومن ثمَّ نراه شديد الشوق والالتياع إليه.

كذلك وصف فتيان الشاغوري الطبيعة في فصل الشتاء، والثلوج تتراكم على الأشجار والنبات في شهر كانون، من خلال وصف بلدة الزبداني، إذ يقول[2]:

يا جنَّة الزّبداني أنتِ مسفرةٌ عن وجهِ حُسْنٍ إذا وجه الزمان كَلَحْ
فالثلجُ قطنٌ عليكِ السُّحبُ تندِفُهُ والجوّ يحلجه والقوسُ قوسُ قُزَحْ

فهو يصف جمال بلدة الزبداني، فإذا هي جنة من جنان الدنيا، قد أسفرت عن حسنها في الزمن الكالح. ثم يمضي في وصف الثلج المتساقط ويشبهه بالقطن المندوف بقوس قُزح. وهي صورة جميلة مستمدّة من الطبيعة.

(1) ديوان البهاء زهير، ص 2.

(2) م.ن، ص 94، وابن خلكان، 4/ 25.

ويتشوّق ابن الصائغ (-271هـ) إلى دمشق، فيصف ما بها من جمال البشر والسكن والطبيعة، فينشد[1]:

فلكمْ حكتْ تلك المنازلُ صورةً ... فيها الجمالُ مُجمَّعٌ ومُفَرَّقُ
فمُعَصَّبٌ ومؤزَّرٌ ومُعمَّمٌ ... ومزنَّرٌ ومُبرقَعُ ومُقرطَقُ
والريح تكتبُ والجدوالُ أسطرٌ ... خطٌّ له نسجُ الرّبيعِ مُحَقَّقُ
والطيرُ يقرأ والنسيم مُرَدّدٌ ... والغصنُ يرقصُ والغدير يُصفّقُ
ومعاطفُ الأغصان غنّتها الصَّبا ... طرباً، فذا عارٍ وهذا مورقُ
وكأنّ زهر اللوزِ أصدافٌ إلى الـ ... ـزوّار من خلل الغصون تُحدِقُ
وكأن أشجار الرّياضِ سُرادِقٌ ... في ظلّها من كل لونٍ نُمْرُقُ
والوردُ بالألوان يحلو منظراً ... ونسيمه عطرٌ كمسكٍ يعبقُ

ويلفتنا – في هذا الوصف – تشخيص الطبيعة، بما فيها من منازل، ورياح، وجداول، وطير، ونسيم، وأغصان، وصَبا، وورد وأزهار. ويبث فيها حياة، فيجعلها تحكي، أو تكتب، أو تُسطّر، أو تقرأ، أو تُردّد، أو ترقص، أو تصفق، أو تغني، أو تحدق النظر، كأنما هي كائنات حيّة تشعر كما يشعر كل ذي روح.

أما وصف المرأة فهو تقليدي لا يخرج عن أوصاف الأقدمين، في مثل قول البهاء زهير[2]:

أغُصْنَ النَّقا لولا القَوامُ المهفهفُ ... لما كان يهواكَ المُعنّى المعنَّفُ
ويا ظبيُ لولا أنّ فيك محاسناً ... حكَيْنَ الذي أهوى لما كنت تُوصَفُ
كَلفْتُ بغصنٍ وهو غصنُ ممنطقٌ ... وهِمْتُ بظبيٍ وهو ظَبْيٌ مُشَنَّفُ
وذلك أيضاً مثل بستان خدّه ... به الوردُ يُسمَى مُضَعّفاً وهو مضعف

(1) فوات الوفيات، 2/ 280-281.

(2) ديوان بهاء الدين زهير، ص 160.

فهو يمزج محاسن المرأة بالطبيعة، من قوام ومحاسن وخدود، فإذا هي غصن نقاً إلا أنها ذات قوام رشيق، وإذا هي ظبي في محاسنها إلا أنها ذات شنف وأقراط، وإذا خدودها تماثل الورد حمرة، إلا أنها تسبي العيون وتجعل الناظرين إليها ضعفاء. وهذه أوصاف عهدناها عند ابن الرومي الذي جسّد المرأة في الطبيعة.

والخلاصة، أن الشعراء في عهود الدول المتتابعة، لم يُقصّروا ولم يبخلوا في شعر الوصف، فكانوا مُقلّدين حينا، ومُجدّدين حينا آخر، ولكنّ أوصافهم ظلّت تلامس ظاهر الأشياء، لا عمق فيها ولا نفاذ، ولم يبلغوا شأن أبي تمام والبحتري وابن الرومي في هذا الصدّد، وقد تنبَّه الباحثون إلى أن شعراء الشام كانوا أكثر إقبالاً على الحياة ووصف الطبيعة[1]، من شعراء مصر، ولعلّ ذلك يعود إلى الأحوال الاجتماعية القاسية التي يعيشها هؤلاء الشعراء، وهي أحوال لم تفسح لهم مجال الاستمتاع بجمال الحياة.

(1) انظر: محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 3/ 53.

الفصل الثالث

الفنون الشعرية المستحدثة

المبحث الأول: المدائح النبوية

شرف الدين البوصيري

المبحث الثاني: الأدب الصوفي

المبحث الثالث: الشعر الصوفي

أولا: عمر بن الفارض

ثانيا: ابن عربي

ثالثا: عفيف الدين التلمساني

كتابخانه تخصصي تاريخ اسلام وايران
تاسيس ١٣٧٤

الفصل الثالث

الفنون الشعرية المستحدثة

المبحث الأول

المدائح النبوية

وهي لون من ألوان المديح، تركزّت في شخصية النبي ﷺ، وكثرت في هذا العصر كثرة مفرطة، إذ ترعرعت وازدهرت في بيئة حاضنة لها من أحوال سياسية واجتماعية واقتصادية في منتهى السوء، فعلى الصعيد السياسي تعرّض العالم الإسلامي إلى حروب مريرة شنّها الفرنجة من أوربا والمغول من أواسط آسيا، فأحسّ الناس بعامة والشعراء بخاصة أن هذه الحروب تشنّ على الإسلام والنبي ﷺ، فأخذوا يلوذون إلى الله ليفرج عنهم الكرب ويكشف عنهم الغمة، وكانت وسيلتهم تلك المدائح النبوية للرسول ﷺ. وقد أنكر الإمام أحمد بن تيمية هذه التوسلات ورمى أصحابها بالكفر الصّراح[1]، وتبعه في ذلك الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة الإصلاحية بنجد، في حين أجازها آخرون، مستمدين حجتهم من قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: 35].

وقد عزّز هذه المدائح للرسول ﷺ قصيدة البردة للبوصيري التي نُسجت حولها الحكايات والأساطير التي شاعت بين الناس. وقد حاول الساسة منذ العهدين الفاطمي والأيوبي على تشجيع هذا الاتجاه.

ثمة عامل آخر ساعد على ذيوع هذا الشعر، فقد علمنا أن المؤرخين تحدّثوا عن نار قد ظهرت عند المدينة «لم يكن لها حر على عظمها وشدّة ضوئها، ودامت أياما،

(1) انظر: بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ص 274.

وتواتر شأن هذه النار، ونظمت عند ظهورها مدائح في النبي ﷺ[1]، وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصحَّ، فإنها تشير إلى حالة الذعر التي أصابت المسلمين، وتؤكد مدى الجهل الذي وصلوا إليه.

فقد نظم في هذه النار المشد سيف الدين بن علي بن قزعل، إذ يقول[2]:

لها شررٌ كالبرقِ لكنْ شهيقُها ... فكالرعدِ عند السامعِ المتأمّلِ

وأصبح وجهُ الأرضِ كالليلِ كاسفاً ... وبدر الدّجى في ظُلمة ليس ينجلي

ومن ثم أخذ الشعراء يمدحون النبي ﷺ ويشيدون بسيرته، فيلقانا ابن الساعاتي بمدحة يُعارض فيها بردة كعب بن زهير، يقول فيها[3]:

وكيف أحملُ في دنيا وآخرةٍ ... ومنطقي ورسولُ اللهِ مأمولُ

هو البشيرُ النذيرُ العدلُ شاهدُهُ ... وللشهادةِ تجريحٌ وتعديلُ

أضاءَ هدياً وجُنح الكفرِ مُعتكرٌ ... ووجهُ حقٍ وسترُ الشّكِّ معدولُ

وللشهاب محمود الحلبي ولع بهذا المديح، فنراه يصف العقيق والرّوضة الزّكية، إذ يقول:

وإذ شارفوا العقيق تراءتْ ... من رُباه سنا القِباب الزُّهر

وتلقّاهمُ بشير التلاقي ... بقبولٍ تسري قُبيل الفجرِ

وشذا الرّوضةِ التي بين أزكى ... منبرٍ في الدُّنى وأشرفِ قبرِ

فهو يصوّر جو الابتهاج بقرب لقاء الرسول ﷺ حين أشرفوا على العقيق، ورأوا قباب المسجد النبوي قبيل الفجر، وقد هبّت ريح الصبا مُبشرة باللقاء، وعطر

---

(1) ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، 2/ 194 و 195.

(2) م.ن.

(3) ديوان ابن الساعاتي، 1/ 48 و 49.

الروضة يفوح. وكأنه يشير إلى الحديث النبوي: «ما بين قبري والمنبر روضة من رياض الجنة»(1).

وفي مدحه نبوية يُنّوه الشاب الظريف بمثوى النبي ﷺ، وبالعنصر العربي في زمنٍ عَظُم فيه نفوذ الترك والكُرد، فنسمعه يقول(2):

أرضَ الأحبّةِ مِن سَفْحٍ ومن كُثُبِ ... سقاكِ مُنهمر الأنواءِ من كَثَبِ
قومٌ هم العربُ المحميُّ جارُهُمُ ... فلا رعى اللهُ إلا أوجهَ العربِ
يا ساكني طيبةَ الفيحاءِ هل زمنٌ ... يُدني المحبَّ لنيلِ الحبّ والأرب
أرضٌ مع الله عينُ الشمسِ تحرسُها ... فإن تغبْ حرستْها أعينُ الشُهُبِ

وللبوصيري أوفى نصيب من هذه المدائح، فقد أنشد الناس أشعاره مبتهلين بها إلى الله، سواء في أذكارهم أو في ساعات تضرّع ومناجاة. وهو موضوع حديثنا القادم.

(1) البخاري، ص1196، ومسلم، ص 1391.

(2) ديوان الشاب الظريف، ص 4.

شرف الدين البوصيري (-698هـ/1298م)

هو أبو عبد الله محمد بن سعيد بن حمّاد الصنهاجي، نسبة إلى صنهاجة إحدى القبائل المعروفة في المغرب، فلعلّ أحد أجداده كان منها[1]. وكانت أمه من ناحية دلاص الواقعة غربي النيل، وبها ولد سنة 608هـ، وأبوه من ناحية بوصير من أعمال بني سويف، فنسب إليهما، فصار يقال: الدلاصيري ولكن البوصيري غلب عليه وعُرف به. اختلف إلى الكتاتيب حتى حفظ القرآن الكريم ثم درس علوم اللغة والشريعة بمسجد الشيخ عبد الظاهر في القاهرة، ثم أقبل على التصوف يأخذه عن أبي العباس المرسي، خليفة أبي الحسن الشاذلي. وعمل كاتباً في بلبيس، يتنقل بين قراها والمدن المحيطة بها، نحواً من أربعة أعوام، وهو عمل لم يَرُقْ له، وآية ذلك أنه هجا الموظفين بقصيدة اتهمهم فيها بخيانة الدولة وأكل أموال الناس بالباطل مطلعها:

ثَكِلْتُ طوائف المستخدمينا فلم أر فيهم رجلاً أمينا

وقد مال في شعره إلى الدعابة والفكاهة، إذ يقول[2]:

ولو أنني وحدي لكنت مُريدًا في رباطٍ أو عابدًا في مغارهْ

ولم يلبث أن عاد إلى القاهرة، فاحترف تحفيظ القرآن في مسجد الشيخ عبد الظاهر، ولما تولى الملك الصالح حكم مصر (637-647 هـ) أمر بتوزيع ألف دينار على طلبة العلم، ولم ينل مسجده شيئا منها، فنظم شكوى للملك استهلها بقوله:

ليت شعري ما مُقتضى حرماني دون غيري والألفُ للرحمن

أثراني لا أستحقُّ لكوني جامعا شملَ قارئي القرآنِ

ويبدو أنه كان فقيراً كثير العيال، مما اضطره إلى الشكوى في مدائحه، في مثل قوله:

إننا نشكو حالنا إننا عائلة في غاية الكثرة

والأرجح أنه توفي سنة 698 هـ.

(1) بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 3/ 673.
(2) ديوانه، ص 218.

للبوصيري ديوان شعر، طبع في القاهرة سنة 1995 م بتحقيق محمد سيد كيلاني، ولم يُعرف بين الناس، إذ لم ترد فيه قصيدة البردة ولا الهمزيّة اللتين طُبعتا مستقلتين بشروحهما طبعاتٍ عدّة.

أما القصائد التي وردت في الديوان فتدور حول أغراض تقليدية كالمديح والهجاء والشكوى من الحياة والناس. «وشعره في غاية الحسن واللطافة، عذب الألفاظ منسجم التراكيب»[1] إلا أنه يستعمل أحيانا العامية، فيُسفّ ويبتذل.

يعد المديح النبوي من أبرز أغراضه الشعرية، وفي مقدّمتها ثلاث قصائد هي: الهمزيّة واللاميّة والميمية.

أما الهمزيّة فمطلعها:

كيف ترقى رقيّك الأنبياء   يا سماءً ما طاولتها سماءُ

وأما اللامية فقد عارض بها قصيدة كعب بن زهير «بانت سعاد..». وأما الميمية – وهي البردة – فهي من أشهر المدائح النبوية بعد لامية كعب. وتقع في مائة واثنين وثمانين بيتا، جاءت على رويّ الميم، ونظمت على وزن البحر البسيط، ومطلعها[2]:

أمن تذكّر جيرانٍ بذي سَلَمٍ   مزجْتَ دمعاً جرى من مُقلةٍ بدم

وتدور حول معان متعددة هي: النسيب، فالتحذير من هوى النفس، فالمديح النبوي، فالحديث عن الإسراء والمعراج، وانتهت بالتوسّل والمناجاة.

وقد فتحت هذه القصيدة باباً واسعاً للشعراء، الذين ترسّموا خُطا البوصيري، كما عارضها بعضهم، فكان أحمد شوقي أشهر مُعارضيها بقصيدته الموسومة بـ «نهج البردة» ومطلعها[3]:

ريمٌ على القاع بين البان والعلم   أحلّ سَفْكَ دمي في الأشهر الحُرُم

(1) فوات الوفيات، 3/ 364.

(2) ديوان البوصيري، ص 190.

(3) الشوقيات، 1/ 190.

المتخيّر من شعره

من قصيدة البردة

أمِـنْ تـذَكُّرِ جـيرانٍ بـذي سَـلَمِ[1] مَزجْـت دمعـاً جـرى مـن مُقلـةٍ بـدمِ
أم هَبَّـتِ الـريحُ مـن تلقـاءِ كاظمـةٍ[2] وأومَضَ البرقُ في الظلماءِ مِنْ إضَـمِ؟
فمـا لعَينَيـكَ إن قُلـتَ اكفُفـا همتـا[3] ومـا لِقلبِـكَ إن قُلـتَ اسـتفِقْ يَهِـمِ؟
أيحـسَبُ الـصَّبُّ أنَّ الحُـبَّ مُنكـتمٌ مـا بـين مُنـسجمٍ[4] منـه ومـضطرمِ؟
لولا الهَوى لمْ تُرِقْ دمعاً[5] علـى طَلَـلٍ ولا أرِقْــتَ لــذِكرِ البــانِ والعَلَــمِ
فيكـفَ تُنكـرُ حُبًّـا بعـد مـا شَـهِدَت به عليـك عُـدولُ الـدَمعِ والـسَّقَمِ؟[6]
وأثبـت الوجْـدُ خَطَـيْ عَـبرةٍ وضـنىً مثـلَ البَهـارِ[7] علـى خـدَّيكَ والعَـنم
نَعَم سرى طيفُ من أهـوى فـأرَّقني[8] والحُــبُّ يعــترِضُ اللَّــذاتِ بــالألَمِ
يا لائمـي في الهَـوى العُـذريِّ معـذرةً منِّـي إليـكَ، ولـو أنـصفتَ لم تَلُـمِ
عَـدتْكَ حـالِيَ[9]، لا سِـرِّي بمـستترٍ عــن الوُشــاةِ ولا دائــي بمُنحــسمِ
محضْتَني النُّصحَ[10] لكن لستُ أسْـمَعُه إنَّ المحــبَّ عــن العُــذّالِ في صَــمَمِ

---

(1) ذو سلم: موضع في الحجاز. وجيران بذي سلم: لعله عنى بهم أهل الحجاز.

(2) كاظمة: موضع. وإضم: واد في جبال تهامة.

(3) همتا: سال دمعهما. وهام: ذهب من العشق.

(4) منسجم: سائل. ومضطرم: مشتعل بالحب، وهمـا صـفتان لموصـوفين محـذوفين، التقـدير: دمـع منسجم وقلب مضطرم.

(5) أراق الدمع: أساله. وأرق: امتنع عليه النوم. والبان والعلم: موضعان.

(6) جعل من الدموع والسقم شهوداً عدولاً على الحبّ

(7) البهار: العرار هو نبات له نور أصفر. والعنم: نبات لين ذو أزهار قرمزية.

(8) أرقه: جعله يأرق.

(9) عدتك حالي: تجاوَزَتْك. ومنحسم: منقطع.

(10) محضه النّصح: أخلصه إياه. والعُذّال: اللّوام، جمع عاذل.

إنّي اتهَمْتُ نَصيحَ الشَّيبِ في عَذَلٍ ... والشَّيبُ أبعدُ في نُصحٍ عن التُّهَمِ
فإنَّ أمارَتي بالسُّوءِ[1] ما اتَّعظت ... من جَهلِها بنذيرِ الشَّيبِ والهَرَمِ
والنَّفس كالطِفلِ إن تُهمله شبَّ على ... حُبِّ الرَّضاع، وإن تَفْطِمْه ينفطم
فاصرِفْ هواها وحاذِرْ أن تُوَلِّيَهُ ... إنَّ الهوى ما تولَّى[2] يُصْمِ أو يَصِمِ
كمْ حَسَّنَت لذَّةً قاتلةً ... مِنْ حيثُ لم يدرِ أنَّ السُّمَّ في الدَّسَمِ
واستفْرغِ الدَّمعَ من عينٍ قد امتلأتْ ... من المحارمِ والزَمْ حِميةَ[3] النَّدمِ
وخالِفِ النَّفسَ والشَّيطانَ واعصِهِما ... وإن هُما مَحَّضاكَ النُّصحَ فاتَّهمِ[4]
ولا تُطعْ منهما خصماً ولا حَكَماً ... فأنت تعرِفُ كيدَ الخصمِ والحكَمِ
فإنَّ فضلَ رسولِ اللهِ ليسَ لهُ ... حَدٌّ فيُعرِبَ عنه[5] ناطقٌ بفمِ
أكْرِمْ بخَلْقِ نبيٍّ زانَهُ خُلُقٌ ... بالحُسْنِ مُشتملٍ، بالبِشرِ مُتَّسمِ
كالزَّهرِ في تَرفٍ، والبدرِ في شرفٍ[6] ... والبحرِ في كَرَمٍ، والدَّهرِ في هِمَمِ
لا تُنكرِ الوَحيَ من رُؤياه[7] إنَّ لَهُ ... قَلباً إذا نامتِ العينانِ لم يَنَمِ
دَعْني وَوَصفِيَ آياتٍ[8] لهُ ظهَرَتْ ... ظُهورَ نارِ القِرَى لَيلاً على عَلَمِ

---

(1) الأمارة بالسوء: النفس.

(2) ولاّه: جعله والياً عليه. ويصمي: يصيب فيقتل. ويَصِم: يعيب.

(3) الحِمْية: الامتناع عن الشيء.

(4) فاتهم: أي فاتهمْ نصحها إياك وشُكَّ فيه.

(5) أعرب عن فضله: أفصح به وأبانه: ونطق بفمه: من باب ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: 167]. وإلا فإن القول لا يكون إلا بالفم.

(6) الشَّرف: العلو والارتفاع.

(7) يريد أنّ رؤيا الأنبياء حقّ.

(8) الآيات: العلامات والمعجزات، جمع آية. ونار القرى: النار تُضرم لاستجلاب الضيف. والعلم: الجبل. وأظهر ما تكون تلك النار في رؤوس الجبال.

فالـدُّرُّ[1] يَـزدادُ حُـسناً وهْـوَ مُنتظمٌ ... ولـيسَ يَـنقُصُ قـدراً غـيرَ مُنـتظِمِ
سَـريتَ[2] مِـنْ حَـرمٍ لـيلاً إلى حَـرمٍ ... كمـا سَـرى البَـدرُ في داجٍ مـن الظُلَـمِ
وبِـتَّ تَرقَـى إلى أن نِلـتَ منزلـةً ... من قـابِ قوسَـينِ[3] لم تُـدرَكْ ولم تُـرَمِ
راعَـتْ قلـوبَ[4] العِـدا أنبـاءُ بعثَتِـه ... كَنبـأةٍ أجفلَـتْ غُفـلاً مـن الغَـنَمِ
مـا زال يلقـاهُمُ في كـلِّ معـتركٍ ... حتى حكَوا[5] بالقَنا لَحماً على وضَـمِ
ودُّوا الفِـرارَ فكـادوا يَغبِطـونَ[6] بـه ... أشـلاءَ شـالَتْ مـع العِقبـانِ والـرَّخَمِ

(1) الدّر: اللؤلؤ العظيم.
(2) سرى: سار ليلاً وأراد بالحرمين: المسجد الحرام والمسجد الأقصى. والداجي: المظلم. والظُّلَم: جمع ظُلْمة.
(3) في البيت إشارة إلى قوله تعالى﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم 8-9].
(4) راعت قلوبهم: أفزَعتْها، والنّباة: الصوت الخفّي. والغُفل من الدوابّ: مالا سمة عليه.
(5) حكوا: شابهوا. والقنا: الرماح، جمع قناة. والوضم: الخشبة التي يقطع عليها اللحم.
(6) يغبطون: يحسدون، وأشلاء الإنسان: أعضاؤه بعد البلى والتفرق، جمع شلو. وشالت: رُفعت. والعقبان: جمع عُقاب، والعُقاب والرّخم: من كواسر الطير.

المبحث الثاني
الأدب الصوفي

التصوف نزعة دينية وُجدت في مختلف الأديان والمذاهب وهو كما يرى ابن خلدون «العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها في ما يُقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة. وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف»[1].

واختلفت الآراء في أصل كلمة «التصوّف»، هل هي من الصُّفَّة[2] أو من الصّفاء، أو من لفظة «سوفيا»[3] اليونانية، أو من الصوف ويرجح أحمد أمين أنها نسبة إلى الصوف «لأنهم في أول أمرهم، كانت هذه الفرقة تلبس الصوف اخشيشاناً وزهادة»[4].

ومن الخلفاء الذين اقترن اسمهم بالزهد العملي الخليفة عمر بن عبد العزيز، ويمثله على الصعيد الفكري في هذا الدور الحسن البصري (-110 هـ) وكان في وعظه يأخذ على الإنسان نسيانه لربّه وما أعدّ له من ثواب وعقاب في آخرته، ويدعو إلى الزهد في متاع الدنيا، والتقرّب إلى الله بالعبادة والنُّسْك والمحبّة.

ثم سار الزهد خطوة نحو التصوف، فأصبح رياضة روحية تمثلت في إبراهيم بن أدهم أمير بلخ الذي ترك مُلكه وأمواله وعاش حياة متقشّفة تفرَّغ فيها للصلاة ودعوة الناس إلى نبذ الدنيا والإقبال على العبادة. ثم ارتقى إلى فكرة على يدي رابعة العدوية (-235 هـ) التي دعت إلى إقامة فكرة الحب الإلهي فكان الخوف والرهبة، إذ تقول:

أحبك حبين حب الهوى   وحُبّا لأنك أهل لذاكا
وأما الذي هو حب الهوى   فشُغلي بذكرك عمّن سواكا

---

(1) انظر: مقدمة ابن خلدون ص 473.

(2) الصُّفّة: مكان مظلل في مسجد المدينة كان يأوي إليه فقراء المهاجرين ويرعاهم الرسول ﷺ وهم أصحاب الصُّفّة.

(3) وتعني الحكمة.

(4) ظهر الإسلام، 4/ 150.

وتطوّر التصوف تطوراً خطيراً، إذ دخلته عناصر خارجة عن الإسلام من فارسية وبوذية ونصرانية وأفلاطونية حديثة، ودار نزاع مرير بين المتصوفة والفقهاء، وحاول الإمام الغزّالي أن يُعيد التصوف إلى عهده الأول، وأن يعُيد إلى النفوس الخوف من الله على طريقة الحسن البصري.

ومن ثمّ فقد انحرف التصوف عن أصوله الشرعية، فقد أدخل فيه الفاطميون كثيرا من معتقداهم، وذلك «أن كثيرا من العقائد الأساسية في التصوف مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم. كذلك فإن المتأخرين منهم آمنوا بالكشف، وفيما وراء الحسّ، وتوغّل في ذلك كثير منهم، للإيمان بالوحدة والحلول[1]، وهو ما يدل على تحول التصوف إلى اتجاهات وطرق، تأثرت بعوامل خارجية من فارسية ونصرانية وبوذية وأفلاطونية حديثة ولقي التصوف السُّنِّي عناية خالصة من نور الدين زنكي، وتبعه في ذلك الأيوبيون والمماليك، وذلك أنهم كانوا يحرّضون الناس على الجهاد في سبيل الله، فضلاً عن نجاحهم، في نشر الإسلام بين التتار أنفسهم فقد كانوا ذوي تأثير روحي عليهم. وأخذت تتردد في كتب الصوفية وفي كتب خصومهم مصطلحات جديدة، كالحلول والاتحاد ووحدة الوجود؛ وهو التجسيد، بمعنى أن الله جلّ جلاله قد حلّ في الإنسان، كما يقول بعض النصارى في امتزاج الطبيعة الإلهية بالطبيعة الناسوتية. وقد علمنا أن الحلاج (-922 م) كان يقول بالحلول، ويسميه ابن تيمية بمذهب الاتحاد.

ومنها الاتحاد، بمعنى الفناء في ذات الله، أي أن الذات الإلهية قد امتزجت بالذات الإنسانية، وأصبحتا شيئاً واحداً، ووُصف مذهب ابن الفارض بذلك، إذ يقول في تائيته[2]:

متى حلتُ عن قولي «أنا هي» أو أقلْ وحاشا لمثلي إنها فيَّ حلَّتِ
وفي الصحو بعد المحو لم أكُ غيرها وذاتي بذاتي إذ تحلَّتْ تجلّتِ

---

(1) ابن خلدون، المقدمة، ص 473.

(2) التائية الكبرى، 277. ومعنى البيت الأول: متى تحوّلت عن دعواتي أنني (أنا هي) أي المحبوبة؛ حاشا لمثلي أن يقول إنها حلّت فيّ، وهو بهذا ينكر نظرية الحلول التي قال بها الحلاج (مقدمة فصوص الحكم، هامش ص 26).

ومنها وحدة الوجود، وقد شاع في المتصوفة من قديم وقد تبناه في هـذا العـصر ابن عربي. ومع امتداد الزمن، فقد انقلب التصوف إلى دروشة، بظهـور جماعـات مـن الصوفية أطلق عليها الدراويش، استهترت بالدين فتركت الصلاة والفـرائض الدينيـة، وادعت الخوارق؛ فقد نسبوا إلى الشيخ أحمد الرفـاعي طـيَّ المـسافات البعيـدة كلمـح البصر[1]. وقد بلغ الحال بهم أن أضلوا جماعة من العلماء، منهم صدر الدين الوكيـل، ومجد الدين التونسي.

وأفسدوا الناس حين أدخلوا الحشيش في حياتهم، وقد نسبت إلى رجـل يـدعى الشيخ حيدر (-608 هـ) وكان يقيم في خراسان، «وأوصى جماعته بصيانة هـذا النبـات الذي يُدخل النشاط والسرور في أنفسهم، وأخذ على طائفة الفقـراء الأيمـان ألا يعلـم به أحد من عوام الناس، وطلب منهم عدم إخفائه عن كل متصوف»[2] ومن هنـا فقـد سميّ هذا النبات حشيشة الفقـراء[3]، وأصـبحت داء العـصر، فقـد أدخلتهـا الطائفـة القلندرية [4] إلى سائر الطوائف. ومما رُوي في التغـزل بهـا قـول محمـد بـن علـي بـن الأعمى[5]:

دع الخمرَ واشربْ مـن مُدامـةِ حيـدَرٍ ... مُعنـــبرةٍ خـــضراَ مثـــلِ الزبرجـــدِ
يعاطيكهـــا ظـــبيٌ مـــن التُّـــركِ أغيـــدٌ ... يمـيسُ علـى غُـصنٍ مـن البـانِ أملـدِ

وقد انقسمت المتصوفة إلى طوائف، وكان لكل طائفة منها أذكار وأوراد، ولكل منها شعارها المميز، فالرفاعية[6] شعارها اللون الأسـود، والأحمديـة[7] شـعارها اللـون الأحمر، وامتزجت كلها بالبدع والضلالات، والشعوذة والاحتيال.

(1) ابن الوردي، تتمة المختصر، 2/ 65 و 95.
(2) المقريزي، الخطط، 3/ 205 و 206.
(3) م.ن، 4/ 329.
(4) تنسب إلى قلنر يوسف، ظهر في دمشق سنة 610هـ
(5) م.ن، 3/ 205.
(6) تنسب إلى أحمد بن أبي الحسين الرفاعي (-570 هـ) التي يتميـز أفرادهـا بطعـن أنفـسهم بالمُـدى وازدراد الأفاعي.
(7) تنسب إلى ميرزا غلام أحمد (-1908 م) وظهرت في الهند في أواخر القرن التاسع عـشر، وزعـم ميرزا أنه هو المهدي المنتظر ومجدد زمانه.

وخلاصة القول، فقد توزّع المتصوفة على أربعة أقسام:

1. تصوف سُنّي، استمد عناصره الأولى من الإسلام، وُجد في المتصوّفة الأولين، ويقول ابن خلدون بإيمانهم.
2. تصوف متفلسف استمدّ عناصره الأولى من الإسلام ومن عناصر خارجية عن الإسلام، وجد في المتأخرين منهم، وأبرزهم ابن الفارض وابن عربي وعفيف الدين التلمساني، وقد وُجد الطاعنون عليهم والمؤيدون لهم.
3. تصوف شيعي مأخوذ من كلام الشيعة، انتشر في الشام ومصر إبان عهد الدولة الفاطمية.
4. تصوف منحرف: ويتمثل في الطوائف التي اتّسم تصوفها بالبدع والضلالات كالرفاعية والأحمدية والعدوية والقلندرية وغيرها.

وأيا كان الأمر، فقد كان للمتصوفة أدب غزير، اتضحت ملامحه منذ أوائل القرن الثاني الهجري واستمر في العصور اللاحقة. ومن خصائصه «السموّ الروحي، والمعاني النفسية العميقة، والخضوع التام لإرادة الله القوية، وبُعد الخيال والشطحات، كما يتصف بالغموض والمعاني الرمزية»[1].

وقد تعدّدت أنواع هذا الأدب، ففيه أدعية وابتهالات، وفيه حكم، وفيه قصص كثيرة، وفيه كتابات صوفية، وفيه شعر. وسنقف على دراسة الشعر.

(1) أحمد أمين، ظهر الاسلام، 4/ 107.

المبحث الثالث

الشعر الصوفي

يعد الشعر أهم فروع الأدب الصوفي، وقد بدأت تباشيره منذ القرن الثالث الهجري، إذ أخذ نفر من الشعراء ينظرون إلى الخالق ﷻ بعين الحب والعشق، فكان استمراراً لأشعار الفقهاء والوعاظ والنساك أمثال الإمام الشافعي (-204 هـ) ومحمود الورّاق (-230 هـ) ورابعة العدوية (-235 هـ). ولم يلبث أن اتضحت معالمه عند ذي النون المصري (-245 هـ) الذي رفع شأن هذا الشعر، متجها به إلى حب الله تعالى، وتحمّل في سبيله جهوداً مُضينة، إذ يقول[1]:

أموتُ وما ماتت إليكَ صبابتي ... ولا قُضيتْ من صدق حبك أوطاري
تحمّل قلبي فيك ما لا أبثُّه ... وإن طال سُقمي فيكَ أو طال إضراري

ومن ثمّ أرسى دعائم الوجد الصوفي، الذي يقوم على المحبة الربانية بوصفها جوهر التصوف وأساسه، فاقتبس من ضيائها، وهو يناجي ربه منشداً[2]:

لكَ من قلبي المكانُ المصون ... كل لومٍ عليَّ فيك يهون
لكَ عزمٌ بأن اكونَ قتيلاً ... فيك والصّبرُ عنك ما لا يكون

وشهد الشعر الصوفي عصره الذهبي في القرنين السادس والسابع الهجريين، إبان العهدين الأيوبي والمملوكي، فكان «من أغنى ضروب الشعر وأرقاها، وهو سلس واضح وإن غمض أحيانا، وفلسفته من أعمق أنواع الفلسفة وأدقها»[3].

إن شعراء الصوفية كثيرون جدا، واستعراض شعرهم عسير، وسنكتفي باستعراض شعر ثلاثة من كبار المتصوفة هم: ابن الفارض، وابن عربي، وعفيف الدين التلمساني.

---

(1) السلمي، طبقات الصوفية، ص37.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 1/ 316.

(3) أحمد أمين، ظهر الإسلام، 4/ 173.

أولاً: عمر بن الفارض (-633 هـ /1235 م)

هو عمر بن كمال الدين بن علي بن مرشد، حموي الأصل. وقد قدم أبوه من حماة إلى القاهرة، حيث رزقه الله ابنه عمر سنة 576 هـ وكان من علماء الفقه والشريعة، ولقب بالفارض لكتابة الفروض على النساء والرجال. وتربى في بيئة دينية إذ ألحقه أبوه بالأزهر فدرس العلوم الشرعية واللسانية ولما شب اشتغل بالفقه والحديث، ومال إلى الزهد وحياة التأمل، وأخذ يذهب إلى جبل المقطم. وراض نفسه على التصوف الذي انتشر في ذلك العصر. ولم يلبث أن رحل إلى مكة، وأقام بها خمسة عشر عاماً، فكان يصلي بالحرم، ويتردّد إلى وادٍ بعيد عن مكة، ويعتزل فيه، وينظم شعره.

عاد إلى مصر، وأقام بالجامع الأزهر، حيث نال احترام الناس وإعجابهم، ولقّب بـ «سلطان العاشقين»، إذ «عُرف عنه أنه يهيم بالجمال حيثما وجده،من جمال الطبيعة إلى جمال أصوات، ويُصاب بالغيبوبة عند رؤيته، فيتواجد ويغيب عن نفسه ويرقص»[1]. وكانت وفاته في القاهرة سنة 633 هـ / 1235 م، ودفن في سفح المقطم وقبره معروف هناك.

لابن الفارض ديوان شعر، شرحه كثير من المتصوفة، أشهرهم الشيخ حسن البوريني (-1024 هـ/ 1615 م) الذي شرحه شرحاً بعيداً عن التأويل والشيخ عبد الغني النابلسي (1143 هـ/ 1730 م) الذي شرحه شرحاً صوفيا، من ذلك شرحه لأول بيت في القصيدة اليائية:

سائق الأظعان يطوي البيدَ طيّ   مُنعماً عرّج على كُثبانِ طَيْ

بقوله: «سائق الأظعان هو الله تعالى، والأظعان: الناس، وكثبان طي كناية عن المقامات المحمدية التي عددها كرمال الكثيب، فكأنه يلتمس من الله تعالى أن يُوصّله – كما يُوصّل جميع المؤمنين – إليها». ويرى شوقي ضيف أن الشاعر لم يقصد إلى شيء من هذا كله، إنما خاطب سائق الأظعان المتجه إلى منازل طي على حافتي نجد والحجاز

(1) أحمد أمين، ظهر الإسلام، 4/ 244.

ليتمهّل قليلاً حتى يُحيّي من يمرّ بهم في طريقه إلى الحجاز معبرا بذلك عن حنينه إليه[1].

وأيا كان الأمر، فإن ابن الفارض يتحدث في شعره بلسان الصوفي، وآية ذلك قصائده التي تعبر عن حبه لله جل وعلا، وللرسول ﷺ.

ومن أشهر هذه القصائد تائيته الكبرى، ومطلعها:

سقتني حُميّا الحبِّ راحة مقلتي ... وكأسي مُحيًّا مَنْ عن الحُسْنِ جلَّتِ

وقصيدته التي يقول فيها:

شربنا على ذكر الحبيب مدامةً ... سكرنا بها من قبل أن يُخلق الكَرمُ
لها البدر كأسٌ وهي شمسٌ يُديرها ... هلال وكم يبدو إذا مُزجتْ نجم

كذلك قصيدته الفائية الغزلية التي منها:

قلبي يُحدّثني بأنك مُتلفي ... روحي فداكَ عرفتَ أم لم تعرفِ
لم أقضِ حقَ هواكَ إن كنتُ الذي ... لم أقضِ فيه أسىً ومثلي من يفي
ما لي سوى روحي وباذلُ نفسه ... في حُبّ من يهواه ليس بمسرفِ
فلئنْ رضيتَ بها فقد أسعفتني ... يا خيبة المسعى إذا لم تُسعف

ولعلّ هذا الشعر الغزلي هو غزل صوفي يحمل معنى باطنياً هو حب الله والتشوق إليه. ولم يقل ابن الفارض بالحلول، كالذي ذهب إليه الحلاّج، وإنما وُصف مذهبه بالاتحاد، والقول به قريب من القول بوحدة الوجود، على خلاف بينهما يسير[2].

(1) انظر: شوقي ضيف، أدب الدول والإمارات، (الشام)، ص 289.

(2) انظر: أحمد أمين، ظهر الإسلام، 4/ 162.

ثانيا: ابن عربي (-638 هـ/1240 م)

هو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي، نسبة إلى حاتم الطائي، ويلقب بمحيي الدين، وبالشيخ الأكبر، وبابن عربي تفريقاً بينه وبين القاضي أبي بكر العربي[1].

ولد بمرسية في الأندلس سنة 560 هـ/ 1165 م، ونشأ في أسرة متدينة، وتلقى تعليمه في إشبيلية، وفي قرطبة، فدرس الفقه والحديث وسائر العلوم الدينية، ولقي الفيلسوف ابن رشد، وكان يومئذ قاضي قرطبة، وقد أفاد منه.

ثم رحل إلى المشرق العربي حاجًّا وأقام في مكة مدة طويلة، حيث تعرّف إلى فتاة تدعى «النظّام». ولم يلبث أن رحل عن الحجاز، وساح في البلدان الإسلامية، فزار بغداد والموصل، ودخل الأناضول، وأخيرا ألقى عصاه في دمشق واستقرّ بها، حتى وفاته بالصالحية سنة 638 هـ/ 1240 م، ودفن في قاسيون.

صنّف ابن عربي ما يربو على مئتي كتاب ورسالة على أقل تقدير، من بينها «الفتوحات المكية» و«فصوص الحكم» و«مفاتيح الغيب»، و«التعريفات»، و«شجرة الكون»، و«فتح الذخائر والأعلاق في شرح ترجمان الأشواق»، فضلاً عن تفسيره الكبير للقرآن الكريم الذي يبلغ خمسة وتسعين مجلدا.

وله ديوانان هما «ترجمان الأشواق» و«الديوان الأكبر» أما الديوان الأول فقد وضعه في مكة سنة 598 هـ واستلهمه من وحي فتاة حسناء تعلّق بها، تدعى «النظام» وهي ابنة إمام مقام إبراهيم بالحرم المكي يدعى مكين الدين أبا شجاع زاهر الأصفهاني، ويصفها ابن عربي بقلمه الرشيق[2]: «كان لهذا الشيخ بنت عذراء، طُفيلة هيفاء تُقيِّد النظر، وتُزيّن المحاضر والمُحاضر، وتُحيّر المناظر. تسمى النظام، وتلقب بعين الشمس والبهاء، من العابدات العالمات، السابحات الزاهدات..» ولعلّه سُحر بجمالها، دون أن يقف عند حدود الحب الإنساني، وإنما امتد إلى مستوى أرقى، جعله يعزف عن المتعة الحسية، ويقبل على المتعة الروحية.

(1) انظر: المقرّي، نفح الطيب، 1/ 569.

(2) مقدمة ترجمان الأشواق، ص9.

وأيّا كان الأمر، فإن علاقته بها كانت عفيفة. فلنستمع إليه وهو يشرح مقطوعة وردت في «ترجمان الأشواق»:

ليت شعري هل دروا	أي قلبٍ ملكوا
وفؤادي لو درى	أيَّ شِعب سلكوا
أتُراهم سلموا	أم تُراهم هلكوا
حار أرباب الهوى	في الهوى وارتبكوا

إذ يقول[1]: كنتُ أطوف ذات ليلةَ بالبيت، فطاب وقتي، وهزّني حال كنت أعرفه، فخرجتُ من البلاط من أجل الناس وطفتُ على الرمل، فحضرتني أبيات فأنشدتها أُسمع بها نفسي ومن يليني، لو كان هناك أحد، فقلت: ليت شعري هل دروا.. إلى آخر الأبيات، فلم أشعر إلا بضربة بين كتفيّ بيد ألين من الخزّ، فالتفتُّ فإذا جارية من بنات الروم، لم أر أحسن وجهاً، ولا أعذب منطقاً، ولا أرقّ حاشية، ولا ألطف معنى، ولا أدقّ إشارة، ولا أطرف محاورة منها، قد فاقت أهل زمانها ظُرفا وأدباً وجمالاً ومعرفة، فقالت: يا سيدي، كيف قلت فقلت: ليت شعري....

ثم يمضي في الحوار معها، عند كل بيت، حتى إذا أتمها صاحت وقالت: يا عجباً، كيف يبقى للمشغوف فضلةً يحار بها، والهوى شأنه التعميم، يُحدّر الحواس، ويُذهبُ العقول، ويدهش الخواطر، ويَذهبُ بصاحبه في الذاهبين، فأين الحيرة وما هنا باقٍ فيحار، والطريق لسان صدق، والتجوّز من مثلك غير لائق؟

ويرى ابن عربي أن فتاته فهمت المعاني الظاهرة للأبيات، دون المعاني الباطنة. ومن ثم أخذ يشرحها شرحا باطنيا صوفيا. ويعلّق بكري شيخ أمين على هذا الشرح بقوله: «لو لم يفعل ابن عربي ذلك، وترك شعره سائبا، يفهمه كلٌّ حسب ما يريد... لكان أجدى وأنفع» [2].

(1) انظر: مقدمة ترجمان الأشواق، ص9 وما بعدها.

(2) مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ص25.

وأما الديوان الثاني فهو «الديوان الأكبر» الذي وضعه في دمشق سنة 629 هـ، ويحوي شعره الصوفي الحافل بالمصطلحات الصوفية والألفاظ والتراكيب الغامضة التي تحتاج إلى تفهّم وإنعام نظر، ولا يستطيع ذلك إلا من لهم دراية بمذهبه في وحدة الوجود.

وله شعر كثير في تضاعيف مؤلفاته، يتسم بالغموض. وأيّاً كان الأمر، فقد أثار مذهبه في وحدة الوجود جدلاً بين العلماء والمفكرين، فمنهم من عدّه مؤمنا وأنموذجاً للمؤمن الصالح، ومنهم من اتهمه بالكفر والإلحاد، كالحافظ الذهبي وابن تيمية والسيوطي.

ثالثاً: عفيف الدين التلمساني (-690 هـ/1291 م)

هو سليمان بن علي بن عبد الله الكوفي التلمساني، من أصول مغربية، نزل بعض آبائه الكوفة وأقام بها، إلا أن نشأته كانت بدمشق، حيث اختلف إلى حلقات العلماء، فتتلمذ على الشيخ صدر الدين القونوي أحد أتباع ابن عربي، وتفتّحت موهبته الشعرية مبكرة، وعُرف بحسن خلقه وفضل أدبه.

ارتحل إلى مصر وأقام بها، ولقي فيها ابن سبعين الأندلسي، ورُزق بها ابنه الشاب الظريف سنة 666 هـ. ولم يلبث أن عاد إلى دمشق حيث عمل في دواوينها، وانصرف إلى التصوف حتى توفي سنة 690 هـ[1].

له ديوان شعر، طُبع بالقاهرة، وبيروت ويتوزّع شعره على اتجاهين: أولهما اتجاه صوفي، سار فيه على خُطا ابن عربي في «ترجمان الأشواق»، وحفل بالمصطلحات الصوفية والإشارات الباطنية.

في مثل قوله[2]:

لا تحسبوا أنّي عن حبكم سالي وحقكم لم يزلْ حالي بكم حالي

يا ساكنين فؤادي وهو منزلكم لا عشتُ يوماً أراه منكمُ خالي

أنتم بقلبيَ أدنى من جوانحه حقًّا على رغم حُسّادي وعُذالي

أوضحتمٌ لمحبِّيكمْ طريقكمْ حاشاكمُ تهجروني بعد إيصالي

فهو يتحدث عن أحواله القلبية، ويشير إلى تعلّقه بالله، وأنه قريب إلى قلبه. وثانيهما اتجاه تقليدي سار فيه على خُطا شعراء عصره، في أغراضهم وموضوعاتهم الشعرية كالغزل والحنين إلى الديار وما إلى ذلك.

(1) انظر: فوات الوفيات، 1/ 363 وما بعدها.

(2) انظر: شوقي ضيف، أدب الدول والإمارات (الشام)، ص287.

الفصل الرابع

الأشكال الشعرية المستحدثة

المبحث الأول: الموشحات

المبحث الثاني: الرباعيّات

المبحث الثالث: المسمّطات

المبحث الرابع: البديعيات

الفصل الرابع

الأشكال الشعرية المستحدثة

المبحث الأول

الموشحات

يعدّ الموشح من فنون النظم الخارجة عن بنية القصيدة التقليدية، ويتألف من أجزاء معينة، ولا يتحكّم فيه وزن واحد أو قافية معينة، ويختلف باختلاف الشعراء[1].

والموشّح لغة مأخوذ من التوشيح وهو التنسيق والتجميل، ولعلهم شبهوه بوشاح المرأة الذي يُجمّل بما يُرصَّع عليه من الجواهر، ومثله فن الموشح الذي يجمّل بالتنويع بين أقفاله وأدواره في الوزن والقافية.

ظهرت الموشحات في الأندلس، مع أواخر القرن الثالث الهجري، على يد مقدّم ابن مُعافى القَبْري «وكان يصنفها على أشطار الأشعار»[2]. وقد ارتبطت نشأتها بالغناء والأغاني الشعبية، التي لم تكن غريبة فحسب، وإنما استمدّت من الأشعار الإسبانية العاميّة. وأخذت منها كثيراً من الخرجات والتعابير.

وأيّاً كان الأمر، فقد اكتملت على يد عبادة بن ماء السماء (-419 هـ)، فكان «شيخ الصناعة وإمام الجماعة، سلك إلى الشعر مسلكاً سهلاً، فقالت له غرائبه: مرحباً وأهلاً»[3].

ثم انتقلت الموشحات إلى بلاد الشام، فقد أسهم ابن سناء الملك في نقل قوانينها الموسيقية في كتابه «دار الطراز»، وقدم بعض ناظميها إلى الشام؛ إذ نزلها محيي الدين بن

---

(1) انظر: جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص 271

(2) انظر: عبد العزيز الأهواني، الزجل في الأندلس، ص 50 و 51.

(3) ابن بسام، الذخيرة، 1/ 2ص1.

عربي في أواخر حياته، وحمل معه هذا الفن، ونشره بين الناس وقد حوى ديوانه الأكبر ست عشرة موشحة وزجل واحد، توغّل بعضها في المعاني الصوفية [1] ومن ثم انتشرت الموشحات وذاعت على أفواه فقراء المتصوفة، ممن عُرفوا بالدراويش.

ومن ثم راجت خلال القرنين السادس والسابع الهجريين: فقد أورد صلاح الدين الصفدي في كتابه «توشيح التوشيع» إحدى وستين موشحة، لشعراء بمصر والشام، وممن ذكرهم من شعراء الشام: السراج عمر بن مسعود الكناني الحلبي، والشيخ صدر الدين الوكيل، وأحمد الموصلي. وأنشد الصفدي لنّفسه في كتابه سبعا وثلاثين موشحة عارض في كثيرٍ منها بعض الموشحات.

ويتألف الموشح من عدة أقسام، تختلف وتتنوع كثيراً، أما عناصره الأساسية فهي:

1. المطلع (المذهب) وهو المجموعة الأولى من أقسامه، ويتألف من قسمين غالباً، أو أربعة أحيانا.
2. الدور: وهو الجزء الذي يلي المطلع، ويتألف من عدة أقسام، تتفق وزناً وعدداً.
3. القُفل: وهو تردد قوافي المطلع بالعدد والنظام نفسيهما. ويلي الدور.
4. الخرجة: وهي آخر قفل في الموشح.
5. البيت: ويتألف من جزأين، هما: الدور والقفل الذي يليه.
6. الغصن: وهو اسم اصطلاحي لكل قسم من أقسام المطلع، أو الأقفال، أو الخرجة. ويجب أن تتساوى جميع هذه الأجزاء الثلاثة في عدد من الأغصان.
7. السمط: هو اسم اصطلاحي لكل قسم من أقسام الدور، ويجب أن تتساوى جميع الأدوار في عدد من الأسماط.

وفي ما يلي إحدى الموشحات التي توضح هذه المصطلحات التي أطلقها الوشاحون على أجزاء الموشح.

(1) انظر: الأهواني، ابن سناء الملك، ص 197

يقول الشاب الظريف أحد شعراء القرن الخامس الهجري، في الغزل[1]:

بـدرٌ عـن الوصـلِ في الهـوى عَـدَلا ما ليَ عنـه إن جـارَ أو عَـدَلا مـذهبْ

إليه تصبو الحشا وتنبعثُ

أشكو إليه وليس يكترثُ

دعـا فـؤداي بـأن يـذوب قِلـىً المـوتُ واللهِ إذ دعـا وقلـى أقـربْ

لم يبقَ لي مقلةٌ ولا كِبدُ

والقلب فيه أودى به الكَمَدُ

وليس يُلغى لهجْرهِ أمَدُ

لا تعجبـوا أن غـدوتُ محـتملاً لكنّ قلبي إن كـان عنـه سـلا أعجـبْ

بالحُسنِ كلَّ العِقولِ قد نهبا

والحزنِ كل القلوبِ قد وهبا

شمسٌ ولكني لديه هبا

فـانظر لـذاكَ القـوامِ كيـف حـلا غصنٌ وكم بالجمالِ منه حـلا غيهـب

موضوعات الموشحات

ارتبطت الموشحات في أول نشأتها بالغناء، وكانت الأغراض التي تناسبها هي الغزل ووصف الطبيعة، وفيهما قيلت أكثر الموشحات وأشهرها، وما لبثت أن اتسعت لجميع الأغراض، فقد نظم الوشاحون في المديح والهجاء وإزجاء التهاني في المناسبات، وفي رثاء أبطال المسلمين مع الفرنجة، فضلاً عن الموضوعات الصوفية.

الموشحات الصوفية

يعد ابن عربي رائد الموشحة الصوفية، إذ اتخذها وسيلة لنشر معانيه الرمزية المُغرقة في صوفيتها، مُضفياً عليها أسلوبه العذب الرقيق، وموسيقاه الراقصة. فهي قد

(1) ديوان الشاب الظريف، ص 86.

ترق وتخفّ ويكثر فيها الغزل الذي يحتمل الرمز والتوجيه بحيث تصبح قريبة من كل نفس[1].

ومن المعروف أنه أحبّ وهو في مكة فتاة اسمها «نظام»، وهي ابنة إمام مقام إبراهيم، ونظم فيها ديوانه الأول الموسوم بـ «ترجمان الأشواق»، مما زاده لوعة وشوقاً، وأضفى على موشحاته عذوبة[2].

وقد أشار الأهواني إلى موشحتين لابن عربي عارض بهما بعض الموشحات الأندلسية التي حملها معه إلى الأندلس.

أولاهما الموشحة التي مطلعها[3]:

عندما لاح لعيني المشتكى   دُبتُ شوقاً للذي كان معي

وقد عارض بها ابن زهر في موشحته المشهورة:

أيها الساقي إليك المشتكى   قد دعوناك وإن لم تسمعِ

وثانيهما الموشحة التي مطلعها قوله[4]:

سرائرُ الأعيان   لاحتْ على الأكوان للناظرين

والعاشق الغيران   بحرمة الرحمن للعاشقين

وهناك نوع آخر طبعه ابن عربي لطابعه الشخصي، يعد رائده الأول، ووشحه بالمعاني الرمزية، وسجّل فيه مذهبه القائم على وحدة الوجود[5].

---

(1) عبد العزيز الأهواني، ابن سناء الملك، ص 197.

(2) انظر: عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، ص59.

(3) ديوان ابن عربي، ص 392 و393.

(4) م.ن.

(5) انظر: م.ن، ص 213.

الموشحات الغزلية والمدحية

أما الغزلية فتدور حول معانٍ وصور غزلية تقليدية، وتتسم بإيقاعاتها الغنائية الراقصة، وتحررها من أسر القافية. ومن الشعراء الذين اتخذوا هذا الفن السرّاج المحّار والشاب الظريف، وجمال الدين الصوفي (-750 هـ)، وذكر الصفدي موشحاً له استخدم فيه الغزل الرقيق الذي يفيض بالعذوبة وجمال اللفظ والصورة، إذ يقول[1]:

ساحرٌ بالدّلال ساخرٌ بالصَّبّ فائق في الكمال لائقٌ في الحبّ

بشذا المسك فاحْ ثغرُ هذا الغزال

باسمٌ عن أقاحْ كفريد اللآل

ردّ نور الصباحْ كظلام الليالْ

وأما الموشحات المدحية فكانت وسيلة اتخذها الشعراء لعرض مدائحهم في قصور الملوك والأمراء، فقد وفد السّراج المّحار على الأيوبيين بحماة فمدحهم بهذا الفن الذي نال إعجابهم، نذكر منها جانباً من موشحته المشهورة التي مدح بها الملك المنصور الثاني محمد، إذ يقول[2]:

جسمي ذوى، بالكمدِ، والسَّهَر.، والوَصَبِ، من جانِ

ذي شَنَبِ، كالبَردِ، كالدُّرَرِ، كالحَبَبِ، جُمَاني

إنْ صالَ بالهجرِ وصدْ رُحتُ بصبري مُرتدي

عنه وإن طال الأمدْ إلى ذُرا محمدِ

وكيف يخشى من قصدْ ملكاً كريمَ المحتدِ

الملك المنصور قد سما سماءَ السُّؤددِ

ثم استوى، بأجردِ، مُضمَرِ، ومُقضبِ، عاني

ذي شُطبٍ، مهنَّدِ، وسمهريّ، مضطرب، مرّاني

(1) انظر: ابن شاكر الصفدي، فوات الوفيات، 2/ 492.

(2) م.ن، فوات الوفيات، 2/ 139.

ملكـــــاً عَلـــــتْ همَاتـــــه مـــن فـــوق هـــام المـــشتري
وبخّلـــــــتْ راحاتـــــــه ســـحّ الـــسّحابِ المطـــرِ
وعُــــــوّدتْ راياتُـــــهُ بمُحكمـــــات الـــــسُّوَرِ
بـــدرٌ بـــدت هالاتـــه مـــن الـــصّباح المـــسفرِ
تحـــتَ لـــوا، مُنعقـــدٍ بـــالظَّفر، في موكـــبٍ، فرســـاني
كالأشــــهبِ، في الأســــعدِ، كـــالأقمُر، في أعـــذب، ســـيحاني

فقد انتقل الشاعر من الغزل إلى المدح، بعد الأسماط الأوائل الأربعة، ثم انتقـل إلى الغرض الرئيس وهو المدح، وأحسن الـتخلص إليـه، فاسـتغرق الأسمـاط الثلاثـة الأخيرة، وقد رّقت أدوراه، في حين جاءت مطالعةَ وأقفالهُ ثقيلة متكلّفة.

وتلقانا الموشحات الرثائية، وتدور حول رثاء أبطال المسلمين في حـروبهم مـع الفرنجة، من ذلك قول ابن حزمون:

يـــا عـــينُ بكّـــي الـــسّراجَ الأزهـــرا النَّيّـــرا اللامـــع
وكـــان نِعـــم الرّتـــاج فكـــسّرا كـــي تُنثـــرا مـــدمع

ونظـم بعـض الوشـاحين موشـحات للـسخرية مـن خـصومهم والإقـذاع في هجائهم.

المبحث الثاني
الرّباعيات

عُرفت الرباعيات في الأدب العربي منذ العهد العباسي، فقد كثرت في شعر أبي نواس (-198 هـ) في خمرياته وغزله، ووُجدت في شعر أبي العتاهية في غزله وزهده، ولم يقصرها العباسيون على وزن معين. وكانت معروفة من قبل عند الفرس باسم «الدوبيت» وتعريبه المثنوي، وسماه العرب الربّاعي والواحدة منه «رباعيّة».

تتألف الرباعية من أربعة شطور، وهي نوعان: أولها يكون بأربع قواف، وثانيها يكون بثلاث قواف، في الشطور الأولى والثانية والرابعة، أما الشطر الثالث فيتخذ قافية أخرى، ويدعى أعرج.

ولم يلبث أن انتشر هذا الفن في بلاد الشام ومصر وفي غيرهما من الأقاليم الإسلامية، فشاع عند المتصوّفة، وعرفه غير شاعر منذ القرن السادس الهجري، نذكر منهم ابن قُسيم الحموي (-541 هـ)، من مثل قوله[1]:

يا مَنْ سلبَ الفؤادَ، أين العوَضُ؟   أصميْتَ، وقلّما أُصيب الغَرَضُ
إن كان بكيده لك المعترضُ   فالجوهرُ أنتَ، والأنامُ العَرَضُ

وعند عرقلة (-567 هـ) وله اثنتا عشرة رباعية، نجدها في خاتمة ديوانه، منها قوله[2]:

ويلاه على المهفهف الميّاسِ   ما أحسنه ولو بقلبٍ قاسِ
يهتزّ كأنه قضيبُ الآسِ   سكرانَ ولم يذق حُميّا الكأسِ

(1) العماد الكاتب، الخريدة، قسم الشعراء الشام، 1/ 454.
(2) م.ن 1/ 452.

والشهاب الشاغوري (-615 هـ)، وله ديوان خاص «جمع ما فيه من دوبيت»، وقد رآه ابن خلكان، وأنشد منه في ترجمته قوله(1):

الوردُ بوجنتيكَ زاهٍ زاهرُ والسحرُ بمقلتيك وافٍ وافرُ
والعاشقُ في هواكَ ساهٍ ساهرُ يرجو ويخافُ فهو شاكٍ شاكرُ

وللعماد الكاتب ديوان صغير، جميعه رُباعيات، منها ما هو في الحث على الجهاد، قالها على لسان نور الدين زنكي، من مثل قوله(2):

لا راحةَ لي في العيشِ سوى أن أغزو وسيفي طربًا إلى الطّلى يهتزُّ
في ذُلّ ذوي الكفرِ يكونُ العزُّ والقُدرةُ في غيرِ جهادٍ عَجْزُ

ومنها ما قاله في انتظار المشمش في دمشق(3):

المشمشُ لانتظارنا مصفّر والرّوضُ إلى لقائنا مفترُّ
قم نغتمِ الوقتَ فهذا العمرُ لا لُبث له فمن به يغترُّ؟

وللمتصوفة أوفى نصيب في الرباعيات، سواء عند ابن عربي أو ابن الفارض، تفوح كلها بالوجّد المبّرح، من ذلك قول ابن الفارض(4):

روحي لكَ يا زائرُ في الليل فِدا يا مؤنسَ وَحْشَتي إذا الليلُ هدا
إن كان فراقنا مع الصُّبح بدا لا أسفر بعد ذاك صُبْحٌ أبدا

فهو يأنس بمحبوبه ليلاً، ويبذل له روحه، ويتمنى أن لا يطلع عليه نهار، حتى لا تنقطع لحظات تجلّيه.

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 1/ 408.
(2) أبو شامة، الروضتين، 2/ 207.
(3) م.ن، ص 211.
(4) انظر: شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، (مصر، ص175).

ونظم الشعراء رباعياتهم على غير وزن، أشهرها: فَعْلُنْ مُتفاعلن فعولن فعلن. ويعدّ سراج الدين المحّار (-711 هـ) أروع وشّاحٍ في بلاد الشام. أما في مصر فقد برع فيها ابن النبيه وابن مطروح وابن الفارض.

ومهما يكن من أمر، فقد لقيت الرباعيات رواجاً عن الناس، إذ استمدَّ المغنون منها ألحانا عذبة، واستهوت طائفة من الشعراء، وجدوا فيها تحرراً من قيود الوزن والقافية، وراقت لجماعة من المتصوفة، بوصفها وسيلة للتعبير عن شطحاتهم وخيالاتهم الصوفية.

المبحث الثالث

المسمطات

وهي لون من الشعر الدَّوري، ظهر في أواخر القرن الرابع الهجري، وتنسب إلى امرئ القيس قصيدة مسمطة[1]، لا يمكن الوثوق بنسبتها إليه، وكذلك يُنسب إلى أبي نواس مسمط من خمسة شطور، لم يرد في ديوانه المطبوع، وأغلب الظن أنه منتحل عليه.

والمسمط مشتق من السمط، «تشبيها بسمط اللؤلؤ، وهو سلكه الذي يضمه ويجمعه مع تفرّق حبّه، وكذلك هذا الشعر لما كان متفرّقاً منعقباً بقافية تضمنه وترده إلى البيت الأول الذي بُنيت عليه في القصيدة، صار كأنه سمط مؤلف من أشياء متفرّقة»[2].

وقد كثرت المسمطات في هذا العصر وتعدّدت أشكالها، وأشهرها الخماسيات، ويتألف المخمّس من أربعة شطور يليها شطر خامس تتحد قافيته في كل الأدوار، وتسمى هذه القافية المكررة عمود القصيدة. وهناك الرباعية التي يكون شطرها الرابع هو القافية المكررة، والسباعية والتساعية.

فقد عُرفت في مصر، إبان العهد الفاطمي، وممن برع بها تميم بن المعز الفاطمي ومن مسمطاته مخمس مدح به أخاه العزيز، استهلّه بقوله[3]:

دم العشاق مطلولُ ودينُ الصّبِّ ممطول

وسيفُ اللحظ مسلول ومُبدي الحبّ معذول

وإن لم يُصغ للائم

(1) ابن رشيق، العمدة، 1/ 157

(2) م.ن، ص154.

(3) الديوان، ص368.

وانتشرت في بلاد الشام منذ القرن الخامس الهجري. وممن نظم فيها أسامة بن منقذ وله أربعة مسمطات خماسية، ألحقها بديوانه، ومنها[1]:

كم رُضْتُ نفسي بالسُّلوان فامتنعَتْ وكم أضاعوا مواثيق الهوى ورَعَتْ
وما نقمتُ عليهم غدرةً فضَعَتْ ولا أضعتُ لهم عهداً ولا اطّلعتْ
على ودائعهم في صدريَ التُّهَمُ

وابن الساعاتي، في ديوانه مُخمس مدح به الملك العزيز يوسف، وهو الذي اقترحه عليه، فاستهلّه بقوله[2]:

خليليَّ من سعدٍ قِفا فتأمّلا بقية ما أضنى الفراقُ وأنحلا
وجسماً مقيماً بعد صبرٍ ترحلا أما واللَّمى وجداً بساكنةِ الملا
لقد ضاق باعُ الصبرِ أن أتحمّلا

ختمه بالمقطع الحادي عشر الأخير وهو قوله:

أجازَ فأضحى كلُّ نادٍ به ندِ فما طالَ منه عمر وغدٍ إلى غدِ
وأغنتْ أيادي كفّه كل ذي يدِ فلولا انقطاعُ الوحيِ بعد محمدِ
لكان نبيّاً في السماحةِ مُرسلا

وتلقانا أمثلة للمسمطات في ديوان الشرف الأنصاري، وقد اقتُرح عليه نظمه، ومنه قوله[3]:

أكابد وجداً في هواكَ مُجدَّدا وأُخفي عن الواشين دمعاً مُردّدا
وأُظهرُ للعُذّالِ عنكَ تجلُّدا نهاري نهارُ الناسِ حتى إذا بدا
لي الليلُ هزتني إليك المضاجعُ

(1)ديوان أسامة بن منقذ، ص 40.

(2)ديوان ابن الساعاتي، 2/ 290.

(3)ديوان الشرف الأنصاري (مخطوط)، لـ 50.

المبحث الرابع
البديعيات

عُرف البديع عند أبي تمام (-231 هـ) ثم أكثر أبو العلاء منه، فغالى في استعمال الجناس وأدخل عليه ألوانا من التعقيد. ويُسميه شوقي ضيف مذهب التصنيع؛ لكونه يقوم على استعمال المحسنات البديعيّة.

ويعد هذا العصر من أغنى عصور الأدب العربي في تصنع الزخارف البديعية، فقد وقف العماد الكاتب عند شعراء الخريدة، سواء في الشام أو في مصر، في استعمالهم المحسنات البديعية، وبخاصة الجناس. فقد تحدّث عن الشعراء الثلاثة الذين افتتح بهم الجزء الأول من شعراء الشام، وهم الغزي وابن منير وابن القيسراني وفيه يقول: «صاحب التطبيق، والتجنيس..»[1].

وتمثل ابن حجّة في خزانته بأشعارٍ في مختلف صنوف البديع وبخاصة التورية بوصفها «من أعلى فنون الأدب، وأعلاها رتبة، وسحرها ينفث في القلوب، ويفتح بها أبواب عطف ومحبة»[2]. وجعل لكل شاعر فصلاً طريفاً في باب التورية، فأورد قول مجير الدين بن تميم في وصف روضة[3]:

أيا حُسنها من روضةٍ ضاع نشرها فنادتْ عليه في الرياضِ طيورُ

فقد ورّى بكلمة «ضاع» فالمعنى القريب هو من ضاع الشيء إذ فقد، والمعنى البعيد هو من ضاع الزهر يضوع إذا فاحت رائحته، وهو المراد.

وأوردَ قول الشاب الظريف وقد احتجب بعض أصحابه عنه:

ولقد أتيتُ إلى جنابكَ قاضياً باللثمِ للعتباتِ بعض الواجبِ
وأتيتُ أقصدُ زورة أحظى بها فردُدت – يا عيني – هناكَ بحاجب

فالمراد هو البوّاب المشرف على الزيارة، وليس حاجب العين.

---

(1) الخريدة، (قسم الشام)، 1/ 96.

(2) ابن حجة، الخزانة، ص 239.

(3) م.ن، ص 260.

واستحسن تورية شرف الدين الأنصاري في قوله[1]:

أفــــدي حبيبــــاً منــــذُ واجهتُــــهُ ... عــــن وجــــهِ بــــدر الــــتَّمِ أغنــــاني

في خــــدِّه خــــالان لولاهمــــا ... مــــا بــــتُّ مفتونــــاً بعمّــــانِ

ولعمّان معنيان: معنى قريب وهو المدينة المعروفة، ومعنى بعيد هو الأعمام.

وتوريّة علي بن المظفر الوداعي (-716هـ) وكان قد توجّه من دمشق إلى البلقاء لزيارة صاحب له يُلّقب بالشمس، فلما وصل إليها وجده قد توجّه إلى حُسبان، فكتب إليه[2]:

أتيــــتُ إلى البلقــــاء أبغــــي لقــــاءكم ... فلــم أركــم فــازداد شــوقي وأشــجاني

فقالت لــيَ الأقــوامُ مــن أنــتَ قاصــدٌ ... لرؤياه؟ قلت: الشمس، قالوا. بحسبانِ

والتورية واضحة في كلمة «بحُسبان فالمعنى القريب هو اسم البلدة، والمعنى البعيد هو الإشارة إلى قوله تعالى﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾ [الرحمن: 5] أي بحساب[3]. وأيّا كان الأمر، فقد لقي هذا الفن رواجاً عند الناس.

ومن المحسنات البديعية التي اصطنعها الشعراء، الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف، وتضمين شطور أو أبيات في قصيدة الشاعر لشعراء سابقين تسعفهم في ذلك ثقافة دينية وأدبية، وكانت اقتباساتهم تخلو من الغلّو في أول الأمر، في مثل قول ابن القيسراني يمدح نور الدين[4]:

كــأني بهــذا العــزم لا فُــلَّ حــدّه ... وأقصاه بالأقصى وقد «قُضي الأمر»[5]

(1) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، 2/ 330.

(2) شاعر وكاتب، كتب بديوان الإنشاء، في دمشق وله ديوان شعر.

(3) ابن حجة، الخزانة، ص 283.

(4) العماد الكاتب، الخريدة، شعراء الشام، 1/ 185.

(5) سورة مريم، 19/ 39.

ثم لم يلبثوا أن بالغوا فيها، في مثل قول شرف الدين عبد العزيز الأنصاري، في مقطوعة غزلية، اقتبس فيها فواصل من سورة الشمس، استهلها بقوله[1]:

قسماً بشمسِ جبينه «وضحاها» ونهارِ مبسمه (إذا جلاّها)

وتوالت قوافيه: «يغشاها – زكّاها – تقواها – أشقاها»، وهي فواصل من سورة الشمس، ثم ختمها ببيتين اقتبس فيهما آيتين من سورة النازعات، في آخر قافيتين: «من يخشاها» و«فيمَ أنتَ من ذكراها».

وتبعه في ذلك التلعفري، فاقتبس فواصل من سورة الشمس، اختتمها باقتباس بعض آية من سورة البقرة، في قطعة غزلية استهلها بقوله[2]:

قسماً بشمسِ جبينها «وضُحاها» وبليلِ طُرَّتها «إذا يغشاها»

وتوالت قوافيه: «سواها – يهواها»، ثم ختمها باقتباس من سورة البقرة ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾[البقرة: 144].

ولم يتحرّج بعض الشعراء من استعمال الاقتباس في معرض الهزل والمجون، وهو ما يُعدّ مساساً بكتاب الله وانتهاكاً لحرمته. وقد يُضمّن الشاعر ببعض الأحاديث، ومنه قول صفي الدين الحلي[3]

يا جنّةَ الحُسنِ التي حُفَّتْ لدينا بالمكارهْ
إنّي لوجهك عاشقٌ ولمنظر الرّقباءِ كاره

فقد ضمّنها من الحديث الشريف، حُفَّتْ الجنة بالمكاره».

وأكثر الشعراء من تضمين أشعارهم أبياتا للمتنبي وغيره من كبار الشعراء، كقول مجير الدين بن تميم في وصف زهر اللوز[4]:

(1) ديوان الشرف الأنصاري (المخطوط) لـ 89.

(2) ديوان التلعفري، ص 5 و 6.

(3) ديوان صفي الدين الحلي، ص 416.

(4) ابن حجة، الخزانة، ص 388.

أزهـرَ اللـوزِ أنـتَ لكـل زهـرٍ ... مـن الأزهـارِ يأتينـا إمـامُ
«لقـد حسُنتْ بـك الأيـام حتـى ... كأنـك في فـم الـدهر ابتـسامُ»

وعني بعضهم بتضمين أشعارهم بعض الأقوال المأثورة، كقول الشاب الظريف[1]:

قـالوا: غـداً تنـدمُ علـى لثمـهِ ... في خـدّه إذ يغلـبُ الـسُّكْرُ
فقـال لـي مبـسمه، دعهـمْ ... «اليـومَ خمـرٌ وغـداً أمـرُ»

أو المثل الشعبي، كقول صفي الدين الحلي[2]:

مـا زال كحـلُ النـوم في نـاظري ... مـن قبـل إعراضِـكَ والـبينِ
حتـى سـرقتَ الغمـضَ مـن مُقلـتي ... «يـا سـارق الكحـل مـن العـين»

وسار شعراء هذا العصر على خُطا المعري في تصنُّعه وتعقيده الشديد، إذ فتح لهم هذا الباب وأرسى دعائم مذهب التصنّع، بلزوميّاته. ومن ثمَّ أخذ هؤلاء الشعراء يتكلفون محسناتهم البديعية، على حساب التجربة الشعرية والإبداع الفني، كقول ابن عُنين متغزلا[3]:

خبَّروهـا بأنـه مـا تـصدّى ... لـسُلُوٌّ عنهـا ولـو مـات صـدّا

فقد جانس بين آخر كلمتين في الشطر الأول والقافية المكونة أيضا من كلمتين، وهو ما يُعرف بالتام المركب. وعلى هذه الشاكلة قول الشاب الظريف[4]:

إنّ الـذي منزلُـهُ ... مـن سُـحب دمعـي أمرعـا
لم أدرِ مـن بعـديَ هـل ... ضـيَّعَ عهـدي أم رعـى؟

فقد جانس بين قافيتي البيتين، وهو أيضاً تام مركب.

(1) ابن حجة، الخزانة، ص 388.
(2) صفي الدين الحِلّي، الديوان، ص 420.
(3) ابن حجة، م.س، ص 27.
(4) م.ن، ص 23.

وقول ابن قُسيم الحموي:

يــبرينَ أفئــدة الرجــال بمــا حَــوَتْ   أعطـــافُهنَّ ولـــيس مـــن يـــبرين

والجناس واضح بين أول كلمة في البيت والقافية.

ومن غير التام قول الشرف الأنصاري:

لعـــيني كـــلَّ يـــومٍ منـــه عَبْـــرَهْ   تُـــصيِّرُني لأهـــلِ العـــشقِ عِبْـــرَهْ

وتصنعوا في قوافيهم، من ذلك ما نظمه العماد على خمس قوافٍ، في مثل قوله مادحاً(1):

قُــل للأمــيرِ أخــي النّــدى والنائِــل   الهطّـــال للـــشعراء والقُـــصّادِ

لا زلـــتَ تنهـــكُ العـــدا بالـــذابلِ   العـــسّال في الأحـــشاء والأكبـــادِ

ووُقيـت مـن صـرف الـرّدى والنـازلِ   المغتـــالِ للأعـــداءِ والحُـــسّادِ

فهذه قوافٍ يمكن الاستغناء عنها، والاكتفاء بواحدة منها.

(1) العماد الكاتب، الخريدة، قسم شعراء الشام، 1/ 444.

الفصل الخامس

أعلام الشعر: شعراء القرن السادس

المبحث الأول: ابن القيسراني

المبحث الثاني: ابن منير الطرابلسي

المبحث الثالث: ابن قُسيم الحموي

المبحث الرابع: أسامة بن منقذ

الفصل الخامس

أعلام الشعر: شعراء القرن السادس

المبحث الأول

ابن القيسراني (-548 هـ/1154 م)

هو أبو عبد الله محمد بن نصر(1)، ولد بعكا سنة 478 هـ(2)، ثم انتقل به أبوه إلى قيسارية، فنسب إليها وعرف بـ «ابن القيسراني» ويُنسب إلى الصحابي القائد خالد ابن الوليد، وهي نسبة غير مؤكدة، ذلك أن المؤرخين والنسابين يعتقدون أن نسل ابن الوليد قد انقطع منذ زمن بعيد(3). وأيا كان الأمر، فإن هذه النسبة كانت ذات أثر عميق في نفسية الشاعر وفي شعره، في زمن ساد فيه الأعاجم(4).

وإذ استولى الفرنجة على الساحل السوري، المعروف بالطراز الأخضر، فقد نزح إلى حلب واستقرّ بها حتى نهاية العقد الثاني من القرن السادس ثم نزل دمشق بعد ذلك(5) حيث تولى إدارة الساعات بها، في عهد تاج الملك بوري بن طغتكين (526-529 هـ)، ولم يلبث أن هجاه، ثم فرَّ منه إلى العراق، ولم يطل به المقام فانتقل إلى حلب والموصل ليجد ملاذاً لدى الملوك الزنكيين.

---

(1) وكامل نسبه: محمد بن نصر بن داغر بن محمد بن خالد بن نصر داغر بن عبد الرحمن بن الهاجر ابن خالد بن الوليد المخزومي.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 2/ 16.

(3) م.ن، 2/ 17.

(4) انظر: عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، 180.

(5) انظر: شوقي ضيف، أدب وعصر الدول والإمارات (الشام)، ص 153.

وسرعان ما تتطور الأمور، إذ حلَّت الفُرقة بين الشاعر ونور الدين، مع إعجابه به، وإشادته ببطولاته. ولعل ذلك يعود إلى استياء نور الدين من شاعره الذي مدح جماعة من ألدّ أعدائه، الذين كان لهم يد في مصرع أبيه[1].

عاد الشاعر في أواخر حياته إلى دمشق بطلب من ملكها مجير الدين الذي استدعاه من حلب[2]، ولزم منزله، ولم يلبث أن أصيب بالحُمّى، فمات ليلة الأربعاء في الحادي والعشرين من شهر شعبان سنة 548 هـ، ودفن بها، في مقبرة باب الفراديس[3].

أغراض شعره

غُني ابن القيسراني بفنون المديح، والغزل والنسيب، وله قصائد جميلة عُرفت بـ «الثغريّات»، وله بعد أشعار في الخمريات والمعارضات والمناقضات.

1. المديح

مدح ابن القيسراني فئات عدة من الحكام، من وزراء وأمراء وملوك، فقد مدح الوزير جمال الدين بن منصور في عدة قصائد، ومدح الزنكيين في حلب، وبخاصة عماد الدين الذي سجّل انتصاراته على نحو ما ذكرنا في ترجمة الشاعر، وكان معجبا به وببطولاته، ويأمل أن تتحرر بيت المقدس على يديه. وكذلك سجل بطولات نور الدين ابنه، ووجد فيه رمز البطولة والفداء، بوصفه الأمل المرجوّ لتحرير بيت المقدس، والبطل الذي يرجو على يديه الخلاص بعد انتصاراته المظفرة، فيقول[4]:

كأني بهذا العزمِ لا فُلَّ حدُّه ... وأقصاهُ بالأقصى وقد قُضي الأمر
وقد أصبح البيتُ المقدّسُ طاهراً ... وليس سوى جاري الدماءِ له طُهْرُ

---

(1) انظر : عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، ص 190.

(2) العماد الكاتب، الخريدة، 75.

(3) م.ن ، 90.

(4) م.ن، 1/ 158.

وكذلك مدح أمراء شيزر من آل منقذ كعزّ الدولة ومجد الدين مرشد وابنه مؤيد الدولة أسامة ومدح آل طغتكين بدمشق، إذ حظي بلقاء الملك مجير الدين آبق ونال جوائزه.

حظي الشاعر بعطايا عماد الدين، لكنه اتصل بادئ ذي بدء بوزيره الجواد جمال الدين بن أبي منصور، فمدحه بعدة قصائد، أشاد بها العماد الكاتب، نذكر أنها «أجود ما سمع من منظومة في الأفاضل»[1]، أورد عدداً منها. ولم يلبث أن اتصل بعماد الدين نفسه، فنال عطاياه، وسجّل انتصاراته في بلاد الشام، إذ استولى على الرّها سنة 539 هـ، وهو نصرٌ هزّ مشاعر ابن القيسراني، فينشدُه قصيدة، مطلعها[2]:

هو السيفُ لا يُغنيك إلا جِلادُهُ وهل طوّقَ الأملاكَ إلا نِجادُهُ؟

ويُصاب الزنكيون بحدث مؤلم، إذ اغتيل عماد الدين بيد آثمة، وهو على حصار جعبر، فيخلفه ولداه، سيف الدين بالموصل، ونور الدين في بلاد الشام.

استطاع نور الدين أن يبسط سلطانه على جزء كبير من الشام، وأن يبثَّ الرعب في نفوس الصليبيين، ولعلَ أشدّ المعارك التي خاض غمارها نور الدين عند حصن «إنَّب» حيث لقي صاحب أنطاكية البرنس وقتله وحمل رأسه إلى حلب، فأنشده ابن القيسراني مع الشعراء بباب الحديد قصيدة رائعة سنتناولها بالدراسة والتحليل.

ولابن القيسراني مدائح أخرى في نور الدين، تحدَّث فيها عن انتصاراته وما يأمله على يديه من استرداد بيت المقدس والطراز الأخضر كله. وله كذلك مدائح في بني منقذ وفي مجير الدين آبق صاحب دمشق.

يبدو الشاعر تقليديا في معانيه، فنور الدين يبدو في قصائده رمز البطولة والكرامة والفداء، وفي شخصه يتمثل العدل والشجاعة. ولكنه استطاع أن يسجل الأحداث الكبرى في عصره، وأن يُصوّرها خير تصوير، وهي أحداث دارت ملاحمها بين المسلمين والفرنجة.

(1) الخريدة، قسم شعراء الشام، 1/ 103.

(2) كتاب الروضتين، 1/ 37.

وقلّد الشعراء القدماء في معانيهم وصورهم وأبا تمام على وجه الخصوص في بائيته المشهورة (السيف أصدق أنباءً..)، ولكنه لم يبلغ شأوه.

2. الغزل والنسيب

يأتي غزله في مطالع قصائده، وقد وقف العماد الكاتب عند مطلع إحدى قصائده[1]:

سقى الله بالزوراءِ من جانبِ الغربِ   مها وردت عين الحياة من القلبِ
عفائفُ إلا عن مُعاقرةِ الهوى   ضعائفُ إلا في مغالبة الصّبِّ
عقائلُ تخشاها عُقيل بن عامرٍ   كواعبُ لاتعطي الذمام على كعب
ولما دنا التوديعُ قلتُ لصاحبي: حنانيكَ، سرْ بي عن ملاحظة السّربِ
إذا كانت الأحداقُ نوعاً من الظُّبى   فلا شك أن اللحظَ ضربٌ من الضَّرْبِ
وأهوى الذي يهوى له البدر ساجداً   ألستَ ترى في وجهه أثر الترب

فذكر بعد سماعه بيتين منها أن الشاعر أعجز فيهما وأعجب، وأبدع وأغرب[2]؛ ذلك أنه شبّه نساء الحي بمها الزوراء، ثم وصف بعد ذلك ساعة الوداع. وشتان بين هذا القول وقول علي بن الجهم:

عيون المها بين الرّصافة والجسر   جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وإذا استعرضنا ما في غزله من صور، فلا نقع على جديد فيها، فاللواحظ التي تُطاعن صورة مكرورة في الشعر القديم، مع اختلاف الأداة، فقد تكون ضرباً من الظُّبا أو ضرباً من السهام أو السيوف، والمعنى واحد هو ذلك الأثر الذي تحدثه العيون في المحبين، وهو أثر قد يصل إلى حد القتل. من هذا الطراز قوله[3]:

لا يغرّنّك بالسيفِ المضاءُ   فالظُّبا ما نظرت منه الظّباء

(1) الخريدة – قسم شعراء الشام، 1/ 82.
(2) م.ن ، 1/ 104.
(3) ديوان ابن القيسراني (مخطوط) و 69.

حَـــدَقٌ صِـــحَّتها عِلَّتهـــا ربمـــا كـــان مـــن الـــداء الـــدواءُ
مرهفـــاتُ الحـــدِّ أمهاهـــا المهـــا وقـــضاها للمحـــبين القـــضاءُ
حـــلَّ مـــا بـــين دُماهـــا ودمـــي فعلـــى تلـــك الـــدُمى تجـــري الـــدماءُ
في لقـــاء البـــيض والـــسُّمر مُنـــىً دونهـــا للبـــيض والـــسُّمر لقـــاءُ

ويلفت نظر دارس هذا الغزل أن الشاعر وضعنا في جو ملحمة حربية تدور رحاها بين المحبين، أما أدواتها فهي السيوف والرّماح. وقد أدى التصنيع البديعي، وخصوصاً الجناس والطباق دوره في هذه المعركة.

وكذلك وقف عند البيت الأخير، وذكر أن الشاعر ألمّ فيه ببيت المعري:

ومـــا كُلفـــةُ البـــدرِ القـــديمِ قديمـــةً ولكنهـــا في وجهـــهِ أثـــرُ اللّطْـــمِ

فأخذه وشبهّه بأثر التُّرب، وقد أحسن في المعنى والصنعة[1].

ووقف الفقيه علي الخيمي عند قوله:

إذا كانـت الأحـداقُ ضـرباً مـن الظُّبـا فلا شك أن اللحظ ضربٌ من الضّربِ

فذكر أنه أعجب به، واستدّل على معرفة الشاعر بالمنطق وكلام الأوائل. وعلّق العماد على كلام الفقيه فقال: «ضربٌ من الضرب، بل أحلى منه عند الأدب، ونوع محدثات الطرب، والقاضيات بالعجب، وما أحسن وقوع هذا التجنيس موقعه، ووضع المعنى فيه موضعه، حتى قلت فيه هذا البيت ما أصنعه!»[2].

3. الثغريّات

وهي قصائد مختارة من ديوانه، ذكر الشاعر أنه قالها خلال مرروه بالعواصم، ووصف بها مواضع استحسنها، هي الثغريات[3]. وذلك إبّان ارتحاله إلى أنطاكية سنة 540 هـ «لحاجة عرضت له»[4]، فوصف معالمها وكنائسها وأديرتها ويرى عمر موسى

---

(1) العماد الكاتب، الخريدة، قسم شعراء الشام، 1/ 82.

(2) م.ن.

(3) الديوان (مخطوط)، و 60.

(4) العماد الكاتب، م.س، 1/ 99.

باشا أن هذه التسمية تعود إلى تصنعه البديعي في معنى الثغر، واستدّل على ذلك بأبيات من شعره. وهذا تعليل غير دقيق، وفيه تعميم، فكثير من قصائد هذه المجموعة تخلو من ذكر الثغور ومن التصنّع البديعي.

وفي أنطاكية افتتن بالنساء الفرنجيات، وبسحر عيونهنَّ الزُّرق، وشعورهنّ الشُّقر، في مثل قوله[1]:

لقد فتنتني فرنجيّةٌ نسيمُ العبير بها يعبق
ففي ثوبها غُصُنٌ ناعمٌ وفي تاجها قمرٌ مشرقُ
وإنْ تكُ في عينها زُرقةٌ فإنّ سنان القنا أزرقُ

ووقع في حبّ جارية روميّة اسمها ماريّا وكانت «خفيفة الروح في نهاية اللطف»[2] فيتغزل بها في غير قصيدة، من ذلك قوله:

إذا ما زُرتَ ماريّا فما سُعدى، وماريَّا
فتاة كقضيب البا نِ يثنيها الصَّبا طيَّا
لها وجهٌ مسيحيٌّ ترى الميت به حيا
إذا ما قابلته الشمـ سُ لم تُبصِرْ به فيَّا
فيا أحسنَ من أعر ضَ إدلالاً ومن حيّا

ولعلك تلاحظ أن هذه الأبيات تفيض رقة وسهولة، خلافاً لمذهبه الفني الذي عرفناه، وهو التصنيع البديعي «لأنه كان يستجيب لنداء العاطفة الصادقة»[3]. كما أنه سار على خطا أبي نواس، فلم يطرب إلى سعدى، ولا إلى ريّا، وإنما تعجبه ماريّا. ولكن هذه المعشوقة لا تختلف عن معشوقات الآخرين، سواء في قوامها الممشوق، أو في وجهها المُشرق، أو في دلالها وإعراضها.

---

(1) الديوان، 63، 64.

(2) العماد الكاتب، م.س، 1/ 101.

(3) عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، ص 210.

خصائص وسمات

1. مذهبه مذهب التصنع البديعي الذي انتشر في بلاد الشام، في ذلك العصر. وقد لاحظ النقاد إكثاره في قصائده من الجناس والطباق.
2. جمع بين التقليد والتجديد، فسار في مدائحه على خطا الأقدمين في صوره ومعانيه، ولكنه جدَّد في تصوير الأحداث الكبرى. وكذلك في معاني الغزل والنسيب، فقد وقفنا على مدى تقليده للأقدمين، ولكنه في ثغرياته جدَّد في صوره وألفاظه.
3. يشكل المديح والغزل الجانب الأكبر من ديوانه، ولم يكن متمكنا في أهاجيه، إذ لم يصمد في مباراة ابن منير الطرابلسي، معاصره، ولم يقو على رد هجائه.

من قصيدة ابن القيسراني في معركة أنطاكية

دراسة وتحليل

النص

هـذي العـزائمُ لا مـا تـدّعي القُـضّبُ　　وذي المكـارمُ لا مـا قالـت الكتُـبُ
وهـذه الهمـمُ اللاتـي متـى خُطِبـتْ　　تعثّـرت خلفهـا الأشـعار والخُطَـبُ
صافحتَ يا ابن عمادِ الـدين ذُروتها　　براحـةٍ للمـساعي دونهـا تّعَـبُ
مـا زال جِـدُّكَ يـبني كُـلَّ شـاهقةٍ　　حتـى ابتنـى قُبّـةً أوتادُهـا الـشُّهُبُ
لله عزمُـكَ مـا أمـضى وهمُّـكَ مـا　　أفضى اتساعا بما ضـاقت بـه الحِقّبُ
يـا سـاهد الطّـرفِ والأجفـانُ هاجعـةٌ　　وثابـتَ القلـبِ والأحـشاءُ تـضطربُ
أغْـرَتْ سـيوفُك بـالإفرنج راجفـةً　　فـؤادُ روميّـة الكـبرى لهـا يَجِـبُ
ضـربتَ كبـشهمْ منهـا بقاصـمةٍ　　أودى بها الصُّلْبُ وانحطَّت بها الصُّلُبُ
قُـل للطُّغـاةِ وإنْ صُـمَّتْ مـسامِعُها　　قَـوْلاً يـصُمُّ القنـا في ذِكـره أرَبُ
مـا يـومُ إنّـبَ والأيـامُ دائلـةٌ　　مـن يـوم يّغْـرا بعيـدٌ لا ولا كَثَـبُ
أغـرَّكم خُدْعـةُ الآمـالِ ظـنُّكمُ　　كم أسلَمَ الجهلُ ظنَّا غـرَّهُ الكـذبِ!
غضبتَ للـدينِ حتـى لم يَفُتـكَ رضـى　　وكـان دون الهـدى مرضـاتهُ الغَـضَبُ
حتـى اسـتطار شـرارَ الزَّنْـدِ قادِحُـهُ　　فـالحربُ تُـضرَمُ والآجـالُ تُحتطـبُ
والخيـلُ مـن تحـت قتلاهـا تخـرُّ لـه　　قـوائمُ خـانهنَّ الـرّكضُ والخَبَـبُ
والنَّقـعُ فـوق صَـقالِ البـيضِ مُنعقـدٌ　　كمـا اسـتقلَّ دخـانٌ تحتـه لَهَـبُ
والـسيفُ هـامٍ علـى هـامٍ بمعركـةٍ　　لا البَـيْضَ ذو ذِمّـةٍ فيهـا ولا اليَلَـبُ
والنَّبْـلُ كالوَبْـلِ هطّـالٌ ولـيس لـه　　سـوى القِـسيّ فوقهـا سُـحُبُ
وللظُّبـى ظَفَـرٌ حلـوٌ مذاقتُـهُ　　كأنما الـضَّرْب فيمـا بيـنهم ضَـرَبُ
خانوا فخانـتْ رمـاحُ الطعـنِ أيـديَهُمْ　　فاستـسلموا وهـي لا نَبْـعٌ ولا غَـرَبُ

كـذاكَ مَـنْ لم يُـوَقَّ اللهُ مُهجتَـهُ ... لاقـى العـدا والقنـا في كفِّـه قَـصَبُ
كانـت سـيوفُهم أوحـى حتـوفهم ... يـا رُبَّ حائنـةٍ منجاتُهـا العَطَـبُ
أجـسادُهم في ثيـابٍ مـن دمـائهم ... مـسلوبةٌ وكـأنَّ القـومَ مـا سُـلبوا
أنبـاءُ ملحمـةٍ لـو أنهـا ذُكِـرَتْ ... فيمـا مـضى نـسيت أيّامَهـا العـربُ
فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجبٍ ... يوليكَ أقصى المنى فالقـدس مرتقـب
وائـذن لموجـك في تطهـير سـاحله ... فإنمـا أنـت بحـرٌ لُجَّـةٌ لجِـبُ
يـا مـن أعـاد ثغـور الـشام ضـاحكة ... مـن الظبـى عـن ثغـور زانهـا الـشنب

جو القصيدة

أنشد ابن القيسراني هذه القصيدة في مدح نور الدين محمـود وتهنئته بتخليص حصن حارم من الفرنجة، وكان قد التقـى صـاحب الـبرنس عنـد إنّـب يـوم الأربعـاء الحادي والعشرين من صفر سنة 544 هـ؛ فقُتل من الفرنجـة جمـعٌ كـثيرٌ وأُسـر مثلـهم، وكان البرنس صاحب أنطاكية قد قُتل في هذه المعركة، وحُزّ رأسـه وحُمـل إلى حلـب، حيث سجّل الشاعر هذا الفتح العظيم الذي أبلى فيه نور الدين بلاءً حسناً، بقـصيدته البائية، ومطلعها:

هـذي العـزائمُ لا مـا تـدّعي القُـضُبُ ... وذي المكـارم لا مـا قالـت الكتـبُ

البناء العام للقصيدة

تتألف قصيدة ابن القيسراني من مجموعة من الوحدات المترابطة فيما بينها سواء علـى صـعيد الموضـوعات الـتي تناولتهـا أو علـى الـصعيد النفـسي لجهـة العواطـف والانفعالات التي تجلَّت فيها.

أما من حيث الموضوعات التي وردت في القصيدة، فتتمحور في الشرائح التالية:

- مقدمة حِكَمِيَّة قصيرة (البيتان الأول والثاني).
- إبراز صفات الممدوح (الأبيات 3-12).
- تصوير المعركة تصويرا ملحميًا (13-23).
- الحض على تحرير بيت المقدس (24-26).

الشريحة الأولى: مقدمة حكمية (البيتان الأول والثاني)

يستهل بها الشاعر قصيدته، وتدور حول قضية الإرادة والعزيمة، التي تفضي إذا ما توافرت إلى الظفر والنصر، واختيار الشاعر لهذه الحكمة يتلاءم مع جو القصيدة، مع أنه استعاره من بائية أبي تمام في مدح المعتصم وتهنئته بفتح عمورية؛ فهو يستعير فكرته ويصبُّ على قالبه الشعري، فيرفع منزلة الهمم والعزائم بوصفها الدافع والمحرّك الأساس لكل حرب، وهي أشد تأثيراً من كل ما تُحدّثنا به الكتب أو ما يردده الشعراء في قصائدهم والخطباء في خطبهم، وكأنه يريد أن يقول لنا إن نور الدين هو رجل أفعال لا رجل أقوال.

الشريحة الثانية (الأبيات 3-12): إبراز صفات الممدوح

بوصفه قائد معركة أنطاكية التي ردّت الاعتبار للمسلمين، إذ انتصروا على الفرنجة واستعادوا حصونهم وقلاعهم، ومن ثم أخذ يُعدد صفات نور الدين ومناقبه وأفعاله، ومنها وصوله الى ذروة المجد، ومضاء العزيمة، وسهره من أجل دينه وحرصه على البلاد الإسلامية وقلقه الدائم عليها من خطر الفرنجة، ويشيد بشجاعته، فيذكر أثر سيوفه في نفوس الفرنجة، وأن هجومه الصاعق هزّ أركان روما حاضرتهم، فلم تعد قادرة على الدفاع عن نفسها.

ويذكر أيضا أنه قتل قائدهم البرنس يوم إنّب، ويُرجع سبب انتصاره عليه إلى أنه يقاتل في سبيل الله ومرضاته ونُصره دينه، في حين يسعى غيره إلى تحقيق مصالح دنيوية.

الشريحة الثالثة: وصف المعركة (الأبيات 13-23)

ينتقل الشاعر إلى وصف المعركة التي خاضها نور الدين، فيُضفي عليها جوًّا ملحميا، يوحي بضراوة الحرب واتقادها، فنجد الأعداء يُجتثُّون اجتثاثا، ويصبحون وقوداً لنيرانها المضطرمة. ويحدثنا عن أدوات القتال من سيوف ونبال ورماح ورياح وخيول، ويرسم صورة للحرب مليئة بالحركة والصوت واللون، فالنبال تنهمر كالمطر، والسيوف تنهال فوق الرؤوس.

وينقلنا إلى المشهد الأخير، فيصور هزيمة الفرنجة وقد تسربلت أجسادهم بالدماء، وكأنما أخذت ملابسهم وهي لم تؤخذ. ولا شك في أن هذه الملحمة تستحق أن تُذكر أنباؤها وبطولاتها، ولو أنها حدثت في الماضي لسجّلها العرب في أيامهم المشهورة ونسوا تلك الأيام.

الشريحة الرابعة: الحض على تحرير بيت المقدس (24-28)

لم يكتف الشاعر بالحديث عن بطولات نور الدين ووصف الملحمة التي خاضها، وإنما خطا في قصيدته خطوة أخرى إذ دعاه إلى تخليص المسجد الأقصى من أيدي الفرنجة، وإعادة القدس للمسلمين، وتطهير الساحل الفلسطيني والشامي كله من دنسهم، وليس ذلك بعسير على نور الدين الذي خلّص ثغور الشام من الفرنجة وأعاد إليها البهجة والسرور فهو يُذكره بما ذكّر به أباه عماد الدين فمنذ أن خلَّص إمارة الرّها من الفرنجة عام 539 هـ أهاب به ابن القيسراني آنذاك، أن ينهد لإعادة القدس، إذ يقول:

أمـــا آن أن يزهـــق الباطـــلُ وأن يُنجـــز العـــدة الماطِـــلُ؟
فـــإنْ يـــكُ فـــتحُ الرّهـــا لُجّـــةً فـــساحلها القـــدس والـــساحل

أما الترابط من جهة الانفعالات، فيتجلى من خلال تطور انفعالاته تطوراً تصاعدياً، فقد كان انتقال ابن القيسراني من (اليقين) في مستهل قصيدته إلى (التمني المقرون بالدعاء)، في الشريحة الأخيرة، فجاءت حكمته التي تركز على همم الممدوح وعزائمه (بصيغة الجمع) ليضفي طابع اليقين بقضيته والثقة بهذا الممدوح.

ومن ثم ينطلق من ثقته به إلى الإعجاب ببطولته، إنْ الغيرة والغضب يتجليان في الممدوح، الذي أشبع أعداءه قتلاً وذلاً، لا رغبة في القتل، وإنما يغضب لنُصره دينه، وتخليص بلاد المسلمين من احتلالهم. ومن هذا المنطلق يبدو لنا صدق الشاعر في أحاسيسه ومشاعره وهو يصوّر المعركة تصويراً ملحميا يجعلها جديرة بأن تُذكر على مدى الزمن، وأخيراً يتمنى على ممدوحه أن ينهد لتخليص القدس ومسجدها الأقصى من الأسر وإخراج المعتدين من الطراز الأخضر (الساحل الفلسطيني/ الشامي).

وهو هنا يُشدد على ما يؤمّله المسلمون منه، من تخليص مقدساتهم من الفرنجة وإخراجهم من الساحل المعروف بالطراز الأخضر. وقد أمر نور الدين محمود أمهر النجارين في حلب بصنع منبر جميل يليق بالمسجد الأقصى ليُنقل إليه يوم فتحه. فلما خلّص صلاح الدين مدينة القدس من أيدي الفرنجة سنة 583 هـ، أُلقيت من على هذا المنبر خطبة الجمعة التالية ليوم التحرير، ألقاها قاضي دمشق محيي الدين بن الزكي القُرشي.

التجانس الصوتي: ومن صوره:

اشتمال البيت الواحد على كلمات تربط بينها علاقة اشتقاقية مع المحافظة على معنى مشترك بينهما، في مثل كلمتي (خُطبتْ والخطب) في قوله:

وهذه الهمم اللاتي متى خُطبتْ   تعثّرت خلفها الأشعار والخطب

وفي كلمتي (قل وقولاً) و(صُمَت ويصُمّ) في قوله:

قل للطُّغاة وإنْ صُمَتْ مسامعها   قَوْلاً يُصمُّ القنا في ذكره أرَبُ

وكلمتي (أغرّكم وغرّه) وكلمتي (ظنكم وظنّا) في قوله:

أغرّكم خُدعةُ الآمالِ ظنُّكم   كم أسلم الجهل ظناً غرّهُ الكذبُ!

وكلمتي (غضبت والغضب) في قوله:

غضبت للدينِ حتى لم يَفُتْكَ رضى   وكان دون الهدى مرضاتهُ الغضبُ

وكلمتي (الضّرْب وضَرَب) في قوله:

وللظُّبى ظَفَرٌ حلوٌ مذاقتُه   كأنما الضَّرْبُ فيما بنهم ضَرَبُ

وكلمتي (مسلوبة وسلبوا) في قوله:

أجسادهم في ثيابٍ من دمائهم   مسلوبةٌ وكأنّ القوم ما سُلبوا

ولهذه التجانسات دلالة على أن المعاني حيّة ومتنامية وليست جامدة، إذ تتوالد كما تتوالد الاشتقاقات من أصل واحد.

والصورة الثانية من صور التجانس الصوتي هي الجناس التام مثل الجناس في كلمتي (هامٍ وهامٍ) في قوله:

والسيفُ هامٍ على هامٍ بمعركةٍ لا البيضُ ذو ذِمَّةٍ فيها ولا اليّلَبُ

وكلمتي (ثغور وثغور) في قوله:

يا مَنْ أعاد ثغور الشام ضاحكةً من الظُّبى عن ثغورٍ زانها الشَّنَبُ

والجناس الناقص في كلمتي (الصُّلْب والصُّلُب) في قوله:

ضربْتَ كبشهم منها بقاصمةٍ أودى بها الصُّلْبُ وانحطّت بها الصُّلُبُ

المحسنات البديعية

استخدم ابن القيسراني ألوانا من المحسنات البديعية التي برع فيها، وهي الطباق، والجناس وقد أشرنا إليه آنفا، ورد العجز على الصدر وهو قليل في قصيدته.

1. الطباق بنوعيه، مثل طباق الإيجاب في قوله:

صافحت يا ابن عماد الدين ذروتها براحةٍ للمساعي دونها تعبُ

فقد طابق بين «راحة» و«تعب»

وفي قوله:

يا ساهدَ الطرفِ والأجفانُ هاجعةٌ وثابتَ القلب والأحشاءُ تضطربُ

فقد طابق بين «ساهد» و«هاجعة»، وبين «ثابت» و«تضطرب»

وفي قوله:

أنباءُ ملحمةٍ لو أنها ذُكرتْ فيما مضى نسيت أيامَها العربُ

فقد طابق بين «ذُكرت» و«نسيت».

ومن طباق السلب قوله:

أجسادُهم في ثيابٍ من دمائهم مسلوبةٌ وكأنَّ القومَ ما سُلبوا

فقد طابق بين «مسلوبة» و«ما سُلبوا»

وهو يأتي بهذه الطباقات لتوضيح معانيه وتأكيدها حينا، وللموازنة بين حالين أو موقفين مختلفين.

2. رد العجز على الصدر: وهو لون بديعي يُكسب النص جمالا وإيقاعاً موسيقياً، ونجده في قوله:

وهذه الأمم اللاتي متى خُطبتْ   تعثّرت خلفها الأشعار والخُطَب

وفي قوله:

غضبت للدين حتى لم يُفتْكِ رضىً   وكان دون الهوى مرضاته الغضب

اللغة

ارتبطت مفردات القصيدة بطبيعة شعر الحرب، فجاءت معبّرة عن عالمين متناقضين هما: عالم الأفعال وعالم الأقوال، ترد على الأول ألفاظ تناسبه مثل: العزائم- المكارم- الهمم، عزمك وترد على الثانية ألفاظ (الكتب – الأشعار- الخطب).

وترد المفردات الدالة على القتال من سيوف ونبال ورماح وخيل. وقد ترددت عبارته على الصيغ التالية:

- **النداء**: استعمل النداء في مخاطبة ممدوحه في البيت الثالث (يا ابن عماد الدين...) وفي البيت السادس (يا ساهد الطرف...) وفي البيت السادس والعشرين (يا من أعاد ثغور الشام). مع توافق هذه النداءات في الدلالة والموقع.
- **الضمائر**: وتتردد بين المخاطب والغائب، يُبرز بها شخصية الممدوح حينا (صافحت، أغَرْت، ضربت، غضبت سيوفك)، وتحقير الفرنجة حينا آخر (كبشهم، أغرَكم، حتوفهم، أجسادهم، دمائهم، سيوفهم...).
- **المشتقات**: وأبرزها أسماء الفاعلين (شاهقة، ساهد، هاجعة، ثابت راجفة، دائلة، قادحة)، واسم المفعول (مسلوبة) وصيغة المبالغة (هطّال) التي يُضخّم بها الحدث.

ويلقانا اسما الإشارة (هذي/ هذه) اللذين يتلوها لفظتي (العزائم/ الهمم) للدلالة على إعجابه وتقديره لمدوحه الذي يتصف بهما، وكذلك استعمل الفعل

الناقص (ما زال) الذي يفيد الاستمرار للدلالة على أن الجد والمثابرة يُلازمان ممدوحه.

الصور والأخيلة

وهي ذات طبائع متعددة، نقع عليها في مثل قوله:

ما زال جِدُّكَ يبني كل شاهقة   حتى ابتنى قُبّةً أوتادها الشُّهُبُ

وذلك كناية عن عُلوّ منزلة الممدوح

وقوله:

يا ساهد الطّرفِ والأجفانُ هاجعةٌ   وثابت القلبِ والأحشاء تضطرب

وذلك كناية عن قلق الممدوح على البلاد الإسلامية من خطر الفرنجة (الشطر الأول) وكناية عن شجاعته (الشطر الثاني).

وقوله:

حتى استطارَ شرارُ الزَّنْدِ قادِحُهُ   فالحربُ تضرم والآجال تحتطب

فقد جَسَّم الحرب وجعلها ناراً تُضرم، وجعل الآجال حطباً لها.

وقوله:

وللظُّبى ظَفَرٌ حلوٌ مذاقتُهُ   كأنما الضَّربُ فيما بينهم ضَرَبُ

وقوله:

والنَّبل كالوبل هطال وليس له   سوى القِسيِّ وأيدٍ فوقها سُحُبُ

فقد شبه النّبال المتساقطة في ساحة الموت بالمطر المنهمر، وشبّه الأيدي بالسُّحُب.

وقوله:

يا مَنْ أعادَ ثغورَ الشامِ ضاحكة   من الظُّبى عن ثغور زانها الشَّنَبُ

فقد شخّص الثغور وجعلها تضحك، بعد أن خلّصها من أيدي الفرنجة.

التناص في القصيدة

تأثّر ابن القيسراني في قصيدته التي مدح بها نور الدين بغير شاعر من الشعراء السابقين وأبي تمام على وجه الخصوص فقد نسجها على منوال قصيدته البائية التي مدح بها المعتصم، وتناصّ معه.

ففي مستهل قصيدته يقول ابن القيسراني:

هذي العزائم لا ما تدّعي القُضُبُ　　وذي المكارم لا ما قالت الكتب

وهذه الهممُ اللاتي متى خُطبت　　تعثّرت خلفها الأشعارُ والخطب

فهذا القول قريب الشبه بقول أبي تمام في قصيدته البائية:

السيف اصدق أنباءً من الكتب　　في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب

بيض الصفائح لا سودُ الصحائف في　　متونهنَّ جِلاءُ الشّكّ والرِّيب

والعلمُ في شُهُبِ الأرماحِ لامعةً　　بين الخميسين في السبعة الشُّهُبِ

فالقصيدتان تجريان على وزن البحر البسيط، وفي القصيدتين وصف للحرب، وكلا الشاعرين يُعلي من شأن القوة والعزيمة ويراهما أشد تأثيرا من الكلام بمختلف أنواعه سواء أقوال المنجمين أو الشعراء والخطباء، إلا أن أبا تمام يركز على السيف في حين يركز ابن القيسراني على الهمم والعزائم، ولكنه لا يلبث أن يذكر اثر السيف في الأبيات التالية:

أغرتْ سيوفُكَ بالإفرنج راجفةً　　فؤاد روميَّةَ الكبرى لها يَجِبُ

ضربْت كبشهم منها بقاصمةٍ　　أودى بها الصُّلبُ وانحطَّتْ بها الصُّلُبُ

قل للطُّغاةِ وإنْ صُمَّتْ مسامعها　　قولاً يصُمٌ القنا في ذكره أرَبُ

وفي وصفه لغبار المعركة

والنقعُ فوقَ صِقال البيض مُنعقِدٌ　　كما استقلَّ دخانُ تحته لهبُ

يتناص مع قول بشار:

كأنّ مُثار النقع فوق رؤوسنا　　وأسيافنا ليلٌ تهاوي كواكبُهْ

وهو تناص في الصورة، فكلاهما يصف غبار المعركة وقد علا فوق الرؤوس، وكلاهما يصوِّر الحرب.

وقوله:

مـا يـوم إنّـبَ والأيـامُ دائلـة　　مـن يـوم يغـرا بعيـد لا ولا كثـبُ

مستمد من قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 140].

الإيقاع

ويبدو في المماثلة، وهي تقنية لجأ إليها الشاعر لتوليد إيقاعات تناسب الجو الملحمي الذي أضفاه على قصديته، ومن ذلك:

هذي العزائم/ لا ما تدَّعي/ القُضبُ
وذي المكارم / لا ما قالت / الكتب

وقوله:

يا ساهد الطرف/ والأجفان هاجعة
وثابت القلب / والأحشاء تضطرب

فتكرار هذه التوازنات يُكسب النص جمالا وإيقاعا، إذ تكاد التراكيب في الشطر الثاني تكون مطابقة في وزنها للتراكيب التي تقابله في الشطر الأول.

وجاءت القصيدة على وزن البحر البسيط، وهو من البحور المركبة والراقصة، ويتسم بسهولة موسيقاه، كما أن اختيار الشاعر للقافية التي قام رويّها على الباء المشبعة يتفق مع أجواء الحماسة، وكل ذلك يكسب القصيدة إيقاعا حماسيا يتناسب مع موضوع القصيدة وقضيتها المركزية.

وأخيرا فإن قصيدة ابن القيسراني تستحوذ على عقل القارئ والتأثير في وجدانه، لأنها تدور حول قضية عادلة، بطلها نور الدين الذي قاد الحرب على الفرنجة وانتزع النَّصر منهم لتخليص القدس وأقصاها وتطهير الساحل الفلسطيني والشامي من دنس الغزاة.

ومع ذلك يظل شعر ابن القيسراني وغيره من شعراء هذا العصر دون المستوى المطلوب لتصوير هذه الوقائع والفتوحات التي شكّلت ملاحم كبرى في التاريخ الإسلامي وكانت تحفل بكثير من البطولات وبخاصة موقعة حطين وفتح القدس وموقعة عين جالوت وغيرها، كان يمكن أن توحي بألوان جديدة من الشعر الملحمي أو مستويات أعلى من الناحية الفنية على الأقل، لو لم يكن هؤلاء الشعراء في ذلك العصر عالة على قصيدة أبي تمام التي خلّد فيها فتح عمورية، فقد استلُّوا كثيرا من ألفاظه ومعانيه، ولا نكاد نجد أي تجديد في قصائدهم إلا في كلمات تدور حول الحدث أو بعض عبارات التمجيد واستنهاض الهمم والعزائم، وفيما عدا ذلك فقد قامت قصائدهم في أغلبها على البناء التقليدي للقصيدة العباسية، وعند أبي تمام على وجه الخصوص.

المبحث الثاني

ابن منير الطرابلسي (-548 هـ/1153 م)

هو أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسي[1]، وينسب إلى طرابلس الشام حيث ولد بها سنة 473 هـ، ونشأ في أسرة فقيرة، فكان أبوه يُنشد القصائد في أسواقها، وينشر الأغاني العامية بين الناس.

تلقى علومه الأولى في طرابلس، فحفظ القرآن وتفقّه أحكامه، وأخذ قسطا وافرا من علوم اللغة والأدب. احترف في مطلع حياته الرفو وإصلاح الثياب، فلقب بـ «الرّفاء»[2] ثم انتقل إلى دمشق فسكنها، وكانت حاضرة مُلك آل طغتكين، فاتصل بتاج الملوك، ومدحه، وحظي بمكانة لديه. «وكان رافضياً كثير الهجاء، خبيث اللسان»[3]، يهجو أكابر الناس هجاء مُقذعاً، ولما كثر ذلك منه سجنه صاحب دمشق وأمر بتعذيبه، ثم شُفع فيه، فأطلق سراحه، ونفاه من دمشق، وبقي بعيداً عنها.

ويبدو أن الشاعر قد عاد إلى دمشق غير مرّة، فقد عاد إليها ثانية، بعد موت تاج الملوك سنة 526هـ، واستقرَّ فيها مدة من الزمن، لكنه أثار على نفسه نقمة الناس وذوي السلطان بأهاجيه المقذعة، فحُكم عليه بالموت صلبا، لكنه استطاع أن يفلت هذه المرة، ففرّ إلى شيزر عند آل منقذ. وعزّ عليه الرجوع إليها، خوفاً من أعدائه المتربصين به، على الرغم من تردد الرُّسل إليه بقصد إقناعه بالعودة إليها، فقد علمنا أنه اعتذر إلى صديقه زين الدين رسول الملك في رسالة بعث بها إليه، ذكر في ختامها أنه لا يمانع في العودة إن ضمن له السلامة [4].

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 1/ 49.

(2) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، 8/ 132.

(3) ابن خلكان، م. س، 1/ 156.

(4) العماد الكاتب، الخريدة، 1/ 95.

أقام بحلب، وتقرَّب إلى الشيخ ابن يحيى كبير شيوخها، إذ بعث إليه برسالة شعرية ليتنصّل فيها من علوّيته، ويزعم أنه حموي المذهب، ليفكّ عزلته عن الناس، إذ يقول[1]:

قل لابن يحيى مقالَ غيرِ غَوِ اشهدْ من الآنَ أنني حَمَوي

لا رافضيٌّ غثّ أقيمُ على الـ ـشيخين سَوْقَ البهتان بل أموي

لم أنتفعْ منذ أقمتُ في حلبٍ طرفة عينٍ بأنني علوي

لم تنطل هذه الرسالة على الناس، لكونهم يدركون أنه غير صادق وأنه متمسك بعلويته، ويردّ عليه صديقه الشاعر ابن قسيم الحموي، ساخراً من تصرّفه، إذ يخاطبه:

يا شاعراً أودعتْ أناملُهُ دُرَ القوافي في كتابه النبوي

ولو كشفناكَ لم تكن حَلَبِيّـ ـاً في مذهبٍ ولا حموي

وأخذ يتردّد بين شيزر وحماة، فيمدح أمراء آل منقذ، ويجد فيهم ملاذاً ونصيراً. ويمدح الزنكيين الذين رعوه، ويصرف إليهم أكثر مدائحه، ويسجل بطولاتهم في شعره، فيخصّ عماد الدين زنكي بعدة قصائد، تحدّث فيها عن فتوحاته التي شهدها، وهي فتح بارين وفتح الرّها. فصور موقعة بارين بقصيدة مطلعها[2]:

فدتكَ الملوكُ وأيامُها ودامَ لنقضِكَ إبرامُها

وصوّر أيضا فتح الرّها بقصيدة أخرى، حيث هزم الفرنجة هزيمة منكرة مطلعها[3]:

بعمادِ الدينِ أضحتْ عُروة الدّ ينِ معصوباً بها الفتح المبين

ويخصّ ابنه نور الدين بكثير من مدائحه، وكان يُصاحبه في غزواته، ويبعثه سفيراً إلى بعض ملوك عصره، من أهمها سفارته إلى دمشق إبان حكم آل طغتكين.

(1) العماد الكاتب، الخريدة، 1/ 478 و479.

(2) أبو شامة، الرّوضتين، 1/ 39.

(3) م.ن.

مات ابن منير في حلب سنة 548 هـ. ودفن في جبل جوشن، قرب المشهد الذي يقع فيه. يقول ابن خلكان: وزرتُ قبرهُ، ورأيتُ عليه مكتوباً[1]:

مــــن زارَ قـــبري فلـــيكنْ مُوقنـــاً   أنّ الـــــذي ألقـــــاه يلقـــــاهُ
فيرحـــــمُ الله امـــــرأ زارنـــــي   وقـــال لـــــي: يرحمـــــكَ الله!

ديوانه

أشار الأقدمون إلى ديوانه: فذكر ابن خلكان أن لـه ديـوان شـعر[2]، وذكـر أبـو شامة أنه قرأ فيه قصائد يمدح بها نور الـدين[3]، واسـتمد فيـه شـواهد حـول أحـداث تاريخية. وتحدّث العماد الكاتب في معرض ترجمته له أنه لم يظفر بديوانه[4].

وأيا كان الأمر، فديوانه لم يصل إلينا. وقد طبع شـعره في الكويـت سـنة 1982، بعنوان: «شعر ابن منير الطرابلسي»، بتحقيق سعود محمـود عبـد الجـابر، وهـي طبعـة حافلة بالأخطاء الطباعيّة والتصحيفات.

أغراضه الشعرية

تتضح لنا في شعر ابن منير بعض الأغراض الشعرية، يُعدّ المديح أهمها، إذ مدح ملوك عصره، وأشاد بجهاد الزنكيين وسجل وقائعهم الحربية على نحو ما مرّ بنـا آنفـاً، ودعا إلى تخليص بيت المقدس، فنسمعه يقول[5]:

وغـــداً يُلقـــى علـــى القـــدس بهـــا   كلكـــلٌ يدرســـها درسَ الـــدّرين
بـــكَ يـــا شمـــسَ المعـــالي رُدَّت الـــرُّ   وحُ في الميـــتين مـــن دُنيـــا وديـــن

(1) وفيات الأعيان، 1/ 156.

(2) م.ن، 2/ 49.

(3) أبو شامة، الروضتين، 2/ 21.

(4) الخريدة، 1/ 78.

(5) أبو شامة، م.س، 1/ 40.

وله قصائد ومُقطعات في الغزل، تتسم بصدق العاطفة، نجد فيها جمال الطبع والبعد عن التكلف، جاءت في معظمها على الأبحر المجزوءة، فقد أعجب العماد الكاتب بقصيدته الغزلية، ومنها[1].

زارَ وقد خاطَ الدُّجى ... على حُلاهُ حُلَلا
فكدتُ إجلالاً له ... أدمي يديه قُبلا
فقلتُ: مولاي ألا ... غير اليدين؟ قال: ألا
ودارَ ماءُ الحُسنِ فو ... قَ وجنته خجلا
حتى إذا سرّى سرى ... وحين أحيا قتلا

وبَرَعَ في وصف الخال، ورسم له صوراً جميلة، فيصوّره بالجذوة المتقدة، في قوله[2]:

لا تخالوا خاله في خدّه ... نقطة من صَبْغِ جفنٍ نَطَفَتْ
تلك من نار فؤادي جذوةٌ ... فيه ساخت وانطفتْ ثم طَفَتْ

ويتخيل حيناً أن حبَّة قلبه قد استوت على وجنة المحبوبة، فيقول[3]:

أتخالُ الخالَ يعلو خدّه ... نَقْطَ مسكٍ ذابَ من طُرّته
ذاكَ قلبي سُلبت حبّته ... واستوتْ خالا على وجنته

ويتمنى لو خلا خدّ المحبوب منه، لأنه حطّم فؤاده، فنسمعه يقول[4]:

بل ليتَ صحنَ خدّه ... من ذلك الخال خلا
فهو الذي قلَّب قلـ ... ـبي في قواليبِ البِلا

(1) العماد الكاتب، الخريدة، ص 81.
(2) م.ن، 1/ 80.
(3) م.ن، ص 83.
(4) م.ن، ص 82.

وهو لا يقف عند وصف الخيلان، وإنما يتجاوزها إلى الأصداغ والسوالف والوجنات، وكان مبتكراً فيها[1].

وإذا أراد الباحث استقصاء الفئات الاجتماعية التي تناولها ابن منير في هجائه، ردّها إلى فئات كثيرة، هي: أكابر الدولة وكرام أهلها، وشعراء عصره، وسائر الناس، وإذ عُرف بخبث اللسان وكثرة الهجاء، فقد ساءت علاقته بمجتمعه، وتحاماه الناس، حتى غادر دمشق غير مأسوف عليه.

وكان بينه وبين ابن القيسراني مُهاجاة أشبه ما تكون بالمهاجاة التي دارت بين الفرزدق وجرير، ولم يستطع ابن القيسراني الصّمود أمامه، مع أن الناس كانوا يقفون إلى جانبه، ويفضّلونه عليه. وهي معركة انتهت بموت الشاعرين في عام واحد.

ويسجل العماد الكاتب هذه المعركة التي عمَّت أخبارها العالم الإسلامي، ويذكر أنه كان وهو بالعراق يسمع أخبارهما[2].

ويسلك أحيانا مسلك ابن الرومي في هجائه الكاريكاتيري الساخر، فيهجو بخيلاً من خلال وصف رغيفه الصغير، إذ يقول[3]:

رغيفه من ذرَّةٍ ... يصنعه أو أصغرا
لو جاز في عين الذي ... يأكله لما درى
أو بلع الصائمُ ألـ ... ـفاً مثله ما أفطرا
كأنما خبازُهُ ... به تحدّى البشرا
فهات، قل: أعَرَضاً ... تجده أم جوهرا؟

وهو وصفٌ فيه غلوّ غير مقبول، لامتناعه عقلاً وعادة، إذ لا وجود لمثل هذا الرغيف إلا في مُخيّلة الشاعر.

(1) انظر: عمر موسى. باشا، أدب الدول المتتابعة، ص 228 وما بعدها.

(2) الخريدة، 1/ 85.

(3) م.ن، ص 90.

خصائص وسمات

1. يميل ابن منير إلى التصنع البديعي فيما يتعلق بالطباق والجناس، والإشارات النحوية والفقهية. ولكنه يقترب من الطبع السليم في غزله، الذي اتسم بأنه سهل رقيق.

2. استخدم جناس الاشتقاق في إبراز المعاني التي يُصوّر فيها هزيمة الصليبيين، من خلال العبث بأسماء الفرنجة، التي كان يوردها في وصف الأحداث الكبرى، فيوفق في بعضها، ويضيف لمذهب التصنيع صورة جديدة من صوره وإن بدتْ غريبة بعض الغرابة[1].

3. ويفخر ابن منير بأسلوبه الذي جمع فيه بين العذوبة وجمال الألفاظ في ختام قصيدة بعث بها إلى الشريف الموسوي، إذ يقول[2]:

وإليكها بدويةً رقّتْ لرقتّها الحَضَرْ

شاميةُ لو شامها قسٌّ الفصاحة لافتخر

ودرى وأيقن أنني بحرٌ وألفاظي دُرَرْ

وبديعتي كبديعةٍ عذراءَ ترفُلُ بالحِبرَ

وأيا كان الأمر، فقد كان حلقة وصل بين عهدين: العهد العباسي وعهد الدول المتتابعة، إذ انتقل الشعر من عهده الذهبي إلى عهد ساد فيه مذهب التصنيع، وأسهم مع معاصرة ابن القيسراني في دفع عجلة هذا المذهب.

(1) انظر: عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، ص 233.

(2) ابن حجة، الخزانة، ص 148.

المتخيّر من شعر ابن منير(*)

قال ابن منير يمدح نور الدين ويهنئه بالعود من غزاة حارم(*):

ما فوقَ شأوِكَ (1) في العُلاَ مزدادُ — فعلامَ يُقلقُ عزَمكَ الإجهادُ؟
هِمَمٌ ضَرَبْنَ على السماءِ سرادِقا(2) — فالشُّهْبُ أطنابٌ لها وعِمادُ
أنتَ الذي خَطَبَتْ له حُسّادُه — والفضلُ ما اعترفَتْ به الحُسّادُ
قام الدليلُ وسلَّم الخَصْمُ اليَلَنْـ(3) — ـدَدُ وانجلى للآثرِ الإسنادُ
زَهَرَتْ(4) لدولتك البلادُ، فَرَوحُها — أرجُ المَهَبِّ، وَدَوْحُها ميّادُ
أحيا ربيعُ العدلِ مَيْتَ رُبوعها(5) — فالبرْضُ والهشيمُ مَرادُ

(*) نقلا عن: نصوص من شعر عصور الدول المتتابعة، للدكتور عمر الأسعد، ص 16-19.

(*) هذه ديباجة القصيدة في ديوان الشاعر. ونقل ابن الأثير خبر القصيدة في أحداث سنة إحدى وخمسين وخمسمائة. وعلّق على ذلك صاحب الروضتين فقال «إن ابن منير توفي سنة ثمان وأربعين. فإما أن يكون ابن منير قال هذا الشعر في غير هذه الغزاة، وإما أن تكون هذه الغزاة في غير هذه السنة!». انظر في ذلك الروضتين: 101:1 والقصيدة في: شعر ابن منير الطرابلسي ص 69. هي من الكامل والقافية من المتواتر.

(1) الشأو: الغاية والأمد.

(2) السّرداق: الفسطاط يجتمع فيه الناس. والأطناب: جمع طُنُب وهو حبل يُشدّ به السرادق والخباء. والعماد: الخشبة تقوم عليها الخيمة.

(3) رجل يلندد: خصم، مثل الألدّ. والآثر: المخبر عن غيره. والإسناد في الحديث: رفعه على قائله.

(4) زهرت: أضاءت وأشرقت. والروح: نسيم الريح. أرج المهب: فاتح الطيب عند الهبوب والدّوح جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة. ومادت الأغصان: تمايلت.

(5) الرّبوع: جمع رَبْع وهو الدّار. والبارض: ما تُخرج الأرض من النّبت. والنجم: ما لم يكن على ساق، قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾[الرحمن: 6]، والهشيم: اليابس المتفتت، قال تعالى: ﴿ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ [الكهف: 45]. والمراد: مرعى للدواب تختلف إليه وتطلب فيه الكلأ. وإذا قرئت: فالبرض سجم، كان البرض: الماء القليل، وهو خلاف الغمر، وسجم: نصب متدفق. وصار المرُاد أن الماء القليل، وهو خلاف الغمر. وسجم: منصب متدفق. وصار المُراد أن الماء القيل غدا كثيراً، والهشيم. صار مَراداً.

فـــالعيشُ إلاَّ في جنابِـــكَ مِيْتَـــةٌ والنَّــومُ إلاَّ في حِمـــاكَ[1] سُـــهادُ
وإذا العدِا زَرَعوا[2] النِّفاق وأحْـصَدوا كيـــداً فعزمُـــك نـــاقضٌ حَـــصَّادُ
بالمُقْرَبـــاتِ[3] كـــأنَّ فـــوقَ متونهـــا جِـــنَّ المَـــلا، وكأنَّهـــا أطـــوادُ
تدأى[4] ومن وحي الكمـاة صـفورها فـــالزَّجرُ قَيْـــدٌ والنـــدى قيـــادُ
سُـحُبٌ إذا سَـحَبَتْ بـأرضٍ ذيلَهـا فـــالحَزْنُ[5] ســـهلٌ والهـــضابُ وهِـــادُ
يَهـدي النـوظرَ في دُجُنَّـةَ[6] نَقْعِهَـا بـــدرٌ ببُرجِـــكَ نَـــيرٌ وقَـــادُ
ألبـستَ ديـنَ محمـد، يـا نُـوره عـــزّاً لـــه فـــوقَ الـــسّها[7] إســـآدُ
مـا زِلـتَ تَـسْمُكُهُ[8] بميَّـاد القنـا حتـــى تثَقَّـــف عـــوْدُهُ المَيَّـــادُ
لَمْ يبـقَ مُـذْ أرهَفْـتَ[9] عزمَـكَ دونـه عَـــددٌ يُـــراعُ بـــه ولا اســـتعدادُ
إنَّ المنـــابرَ لـــو تطيـــقُ تكلُّمـــاً حَمِـدَتْكَ[10] عـن خطبائِهـا الأعـوادُ

---

(1) الحمى: الموضع المحميّ: والسُّهاد: الأرق.

(2) أحصد الزرع: حان له أن يُحصد. وحصد الزّرع: قطعه فهـو حـصّاد: أي هـو يـأتي علـى كيـد عدوّه فيبطله.

(3) المقربات: جمع مُقْربة وهي الفرس أو الناقة القريبة المكرّمة. والمتون: الظهور، جمـع مـتن. والمـلا: الصحراء. والأطواد: جمع طود وهو الجبل الراسخ.

(4) تدأى: تسير متثاقلة. والكماة. جمع كميّ وهو الشجاع المتكمي سلاحه أي السائر نفسه بالـدرع والبيضة.

(5) الحَزْن: الغليظ من الأرض. والوهاد: جمع وَهْدة، وهي الأرض المنخفضة.

(6) الدُّجُنَّة: السواد والظلمة. والنّقع: الغبار. أي أن النواظر تستضيء بنورك في ظلام المعركة.

(7) السّها: نجم. والإسآد: الإغذاذ في السير. وورّى في البيت باسم الممدوح.

(8) تسمكه: ترفعه. والقنا المياد: الرّمح اللّين. وتثقّف عوده الميّاد: سُوّي عوده المائل.

(9) أرهف السيف: رقّقه وحدّده، وأرهف عزمه (على التشبيه): صمّمه وأنفذه. يُراع به: يُفرع منه.

(10) حمدتك: أثنت عليك. وأعواد المنابر: خشبها، جمع العود.

ولـئِن حَمـتْ منْـكَ الأعـادِيَ مهلـةٌ ... فلَهـمْ إلى المَرْعَـى الـوبيّ[1] مَعَـادُ
ولَكَم لكُـمْ في أرْضِـهمْ مـن مـشهدٍ[2] ... قامَـتْ بـه لِظُبَـاكُم الأشـهادُ!
مُلْـقٍ بـأطراف الفرنجـة كلكـلاً[3] ... طَرَفـاهُ ضـربٌ صـادقٌ وجِـلادُ
حامُوا، فلمَّا عـايُنوا[4] حـوضَ الـرَدى ... حـامَوا بـرائِشِ كيـدهِم أو كـادوا
ورجـا «البِـرِنْسُ»[5] وقـد تَبَـرْنَسَ ذِلَّـةً ... حرمـاً بحـارمَ، والمَـصاد مَـصادُ
ضـجَّتْ ثعالِبُـه[6] فـأخرسَ جَرْسَـها ... بـيضٌ تناسَـبُ في الحديـدِ حِـدادُ
وسـواعِد[7] ضُـربَتْ بهـنَّ وبالقَنـا ... مِـنْ دُون ملّـةِ أحمـدَ الأسـدادُ
يُركَـزْنَ في حَلَـبٍ ومـن أفنانهـا[8] ... تَجـني فواكـهَ أمْنِهـا بغـدادُ
يـا مَـنْ إذا عَـصفَتْ زعـازِعُ[9] بأسِـهِ ... خَمـدتْ جحـيمُ الـشركِ فهـيَ رمـادُ

---

(1) المرعى الوبيّ: الكثير الوباء، وهو المرض الفاشي، والمعاد: المرجع.

(2) المشهد: ما يشاهد، أو محضر الناس. الناس. والظُّبى: جمع ظُبة وهو حدّ السيف. والأشهاد: جمع شاهد وهو الدليل. وقامت به الأشهاد لظباكم: أي قام به الدليل على جهادكم وإيقاعكم فيهم.

(3) الكلكل: الصدر والجلاد: المضاربة بالسيف ونحوه.

(4) عاين الشيء: رآه عيناً. والردى: الهلاك، جعله يُورَدُ وجعل له حوضاً. ورائش كيدهم: ضعيفة، شُبّه بالريش ضعفاً. وجانس بين حامَوا (من حامى) وبين حامُوا (من حام).

(5) البرنس: أمير الفرنجة: والحَرَم: الأمن. وحارم: حصن غربي حلب بالقرب من أنطاكية. والمصاد: أعلى الجبل، أو مكان الصيد. أراد: أنّى توجه فهو مصيد.

(6) الثعالب: جمع ثعلب وهو طرف الرمح في أسفل السنان. وضجّت ثعالبه: ارتفع صوت سلاحه. والجَرس: الصوت. والبيض: السيوف، جمع أبيض. وتناسَبُ: تتناسب، أي تتشاكل. وحداد: قاطعة، صفة للبيض.

(7) وسواعد: معطوفة على بيض، أو مجرور بربّ المحذوفة. والأسداد جمع سدّ. أي كانت السواعد والأسلحة التي تحملها سدًّا يذود عن الدين.

(8) الأفنان: الأغصان، جمع فنن، قال تعالى﴿ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴾[الرحمن: 48]. جعل بغداد تقطف ثمر (انتصارات) أشجار حلب (رماحها).

(9) الزعازع من الريح: الشديدة.

عَجَباً لقومٍ حاولوكَ وحاولُوا ... عَوْداً فواتاهم إليه مُرادُ
ورأوْا لواءَ النصر فوقَك خافقاً ... فأقامَ منهُمْ في الضلوع فؤادُ
من مُنكِرٌ أن يَنسِفَ السيلُ الرُّبا ... وأبوهُ ذاكَ العارضُ[1] المدّادُ؟
أوْ أنْ يعيدَ الشمسَ كاسفة السّنا[2] ... نارُ لها ذاك الشّهابُ زِنادُ[3]
لا يَنفَعُ الآباءَ ما سَمَكُوا [4] من الـ ... ـعلياء حتى ترفعَ الأولادُ
ملِكٌ يُقيِّدُ خوفُه ورجاؤه ... ولقلما تتظافر الأضداد

(1) العارض: السحاب يعترض في الأفق، قال تعالى: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الرحمن:24].

(2) السّنا: الضوء الساطع، قال تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾[النور: 43] وكاسفة السّنا: محتجبة الضياء. والشهاب: الشعلة الساطعة من النار، قال تعالى﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل:7] والزّناد: جمع زَنْد وهو العود الذي يُقدح به النار.

(3) سمكوا: رفعوا.

(4) تتظافر: تتعاون، ومثلها: تتضافر.

المبحث الثالث

ابن قُسيم الحموي (-542 هـ/1146 م)

هو مسلم بن الخضر بن مسلم بن قُسيم التوخي الحموي[1]، ولد في مطلع القرن السادس الهجري بحماة، وقد تلقى علوم الدين واللغة والأدب بها. وسرعان ما ظهرت موهبته الشعرية، فأخذ ينظم الشعر، وعُرف بين معاصريه، فاتصل بأعلام الشعراء، من خلال مطارحاته الشعرية الإخوانية، وبخاصّة ابن منير، إذ كانت تربطه به صداقة متينة.

يعدّ في طبقة ابن القيسراني (-548 هـ) وابن منير(-548 هـ) إذ نبغ في عصر شيخوختهما، وبلغ إلى درجتهما، غير أنه لم يعمّر طويلاً، فمات شاباً، وهو في أوائل العقد الخامس من عمره [2]. ويبدو أن الشاعر قد أصيب بمرض عضال، فأحسّ بدنوّ أجله[3]، إذ نسمعه يقول [4]:

قضى ولم يقضِ من عصر الصّبا أرباً   كأنما هو في أجفانه حُلُمُ

لم يحدّد العماد الكاتب وفاته بشكل واضح، وإنما ذكر أنها كانت سنة نيّف وأربعين وخمسمائة، غير أنه أشار في مطلع إحدى قصائده أنه أنشدها سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، وهي في الأغلب سنة وفاته، وقد مدح بها معين الدين أثر بدمشق[5].

لابن قُسيم ديوان شعر، لكنه مفقود، وقد استعرض العماد الكاتب هذا الديوان في خريدته، في ختام ترجمته للشاعر بقوله: «ونظرت في ديوان شعره، فالتقطت فرائد

---

(1) انظر: العماد الكاتب، الخريدة، قسم شعراء الشام، 1/ 433.

(2) م.ن.

(3) انظر: عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، ص 237.

(4) انظر: العماد الكاتب، م.س.

(5) انظر: م.ن، ص 457.

دُرِّه، وقلائد سحره، وشحذتُ من غراره ما قبل الشحذ، وأخذتُ من خلاصته ما استوجب الأخذ»[1].

أغراض شعره

تدور أشعاره حول المديح والغزل ووصف الطبيعة والخمريات، والإخوانيات.

1. المديح

اتصل الشاعر بملوك عصره وأمرائه، فمدح الزنكيين وبعض وزراء آل طغتكين، ولكنه لم يكن مُكثرا في مدائحه، فعماد الدين زنكي ظهر من خلال مدائحه بطلاً يجتاز الصعاب ويذللها، وتلقانا قصيدة ابن قسيم الرائعة التي مدحه بها واستهلها بقوله[2]:

بعزمكَ أيها الملكُ العظيمُ تذلُّ لك الصعابُ وتستقيم

وكان عماد الدين قد ألحق الهزيمة بملك الروم وغنم من جيشه غنائم كثيرة. وفي عام 534 هـ يحاصر دمشق وتدخل في طاعته فيمدحه ابن قسيم وينالُ جوائزه.

ويمدح الأمير بدر الدين، فينعته بصفات تقليدية، دأب الشعراء عليها، كالجود والبأس والحلم وما إلى ذلك، فنسمعه يقول[3]:

بكتِ الخطوبُ وثغرُ مجدك ضاحكُ وبنا الحسام وسيف عزمك باتكُ
ملكٌ إذا برقتْ أسّرة وجهه ضحك المقطّبُ واستنار الحالكُ
فيغار منه البدرُ وهو سميُّه ويخاف فتكته الشجاع الفاتكُ

2. الغزل

وللغزل أوفى نصيب في شعر ابن قسيم وبخاصة وصف الطيف الذي حاكى فيه البحتري واستمدّ منه بعض معانيه. ولا غَرْو في ذلك وهو القائل[4]:

كأنني البحتريُّ أنشده وهو، على عِظَمِ شأنه، الفتحُ

(1) العماد الكاتب، الخريدة، قسم شعراء الشام، ص 457.

(2) م.ن، 1/ 457.

(3) م.ن، 1/ 462.

(4) م.ن، 1/ 439.

فنراه يخاطب الطيف ويسأله عن محبوبه الذي هجره، إذ يقول[1]:

ولقــد رقبــتُ الطّيــف أســأله عــنكم، فمــا صَــدَقَتْ مواعِــدُهُ

والمــستمرُّ علــى قطيعتــه في الحــبِّ فاســدةٌ عقائــدُهُ

ومــن العجائــبِ أن يزيــدَ بــه داءُ الــسّقام وأنــتَ عائــدُهُ

ويظل يرقب طيف المحبوبة، لعلّه يزوره ليلاً، فيقول[2]:

يــا مَــنْ جفــا طــرفي فأرّقــه وخــلا بقلــبٍ حَــشْوُهُ جمــرُ

عاقــبْ بــسلبِ ســوى الرُقــادِ فلــي إلا علــى فَقْــد الكــرى، صــبرُ

فلعــلّ طيفــاً منــكَ يطــرَقني تحــت الظــلامِ فيُحمَــدُ الهجــرُ

وإذ يُطلُّ عليه طيفها ليلاً، فإن الصُّبح يُزعجه بالفراق[3]:

أهــلاً بطيــفِ خيــالٍ زارنــي سَــحَراً فقمــتُ، والليــلُ قــد شــابتْ ذوائبُــهُ

أُقبّــلُ الأرضَ إجــلالاً لزورتــهِ كأنمــا صــدقتْ عنــدي كواذبُــهُ

وكــدْتُ، لــولا وُشــاةُ الــصبح تُزعجه بــالبين، أصــغي لمــا قالــت خوالبُــهُ

فلما انقطع عنه الطيف، أخذ يشكو الأيام التي شغلته عن استقباله، فيقول[4]:

يــا مــريضَ الجفــونِ إنّ ســقامَ الــ أعــينِ النُّجــلِ صــحّةُ العُــشاقِ

شــغلتني الأيــامُ أن أتلّقــى زائــراً مــن خيالــكَ الطــرّاقِ

كذلك سار على خُطا معاصريه في التشبيب بغير العربيات، فيعشق إحداهنَّ، وقد عصى الله من أجلها وتبع في سبيلها إبليس، إذ يقول[5]:

قمــرٌ عــصيتُ الله مــن كلفــي بــه وتبعــتُ طاعــةَ شــيخنا إبلــيسِ

---

(1) العماد الكاتب، الخريدة، 1/ 441.

(2) م.ن، 1/ 461.

(3) م.ن، 1/ 343.

(4) م.ن، ص 460.

(5) م.ن، 1/ 45.

ونقـــضْتُ تـــوبتي الـــتي أبرمتهـــا   نقـــضاً أبـــاح محرّمـــات كؤوســـي
يـــسطو وتغرســـه المدامـــةُ بغتـــةً   ففديتـــه مـــن فـــارسٍ مفـــروسِ

ويتحدّث عن عقارب الأصداغ في نطاق التنافس بـين حمـاة وحمـص بوصـفهما مدينتين متجاورتين، فهو حموي، ويزعم أن ليس في حمص عقرب، فيتغزل بحسانها وقد أخفين عقارب الأغصان، ليقتلْنَ بها أهل حماة فنسمعه يقول(1):

ولقـــد سَـــنَحْنَ لنـــا جـــآذرٌ   عُقـــدتْ ذوائـــبهنّ بالأرســـاغِ
مـا بـالهم حُجبـت عقـاربُ أرضـهمْ   وقتلْننـــا بعقـــارب الأصـــداغِ

3. وصف الطبيعة والخمر

كان لابن قسيم أشعار في وصف الطبيعة، بأشجارها وأزهارهـا وثمارهـا، مـن ذلك قوله في الرُّمّانة، التي تدلّت ثمارها على أغصانها، وكأنّ حباتها عقودٌ من عقيـق، وثغورٌ تُقبّل خدوداً(2):

ومُحمَّـــرةٍ مـــن بنـــاتِ الغـــصو   نِ يجمعهـــا ثِقْلُهـــا أن تميـــدا
مُنكّـــسة التـــاجِ في دَســـتها   تفـــوق الخـــدودَ وتحكـــي النهـــودا
تُفـــضُّ فـــتفترُّ عـــن مَبْـــسَمٍ   كـــأنّ بـــه مـــن عقيـــقٍ عُقـــودا
كـــأن المقابـــلَ مـــن حَبّهـــا   ثُغـــورٌ تُقبّـــلُ فيهـــا خـــدودا

وله مُقطّعات في وصف البـاقلاء، والـشقيق، والرمـان، والقطـائف، والفـرس، والمطر، وما إلى ذلك، تأثر في وصفها بأسلوب البحتري الذي كان مُعجباً به.

وأما في خمرياته فقد سـار علـى خُطـا الخيـام، إذ انـضم إلى زمـرة الخلعـاء مـن الشعراء، وأخذ ينتهب اللذات، ويشرب الخمر، لعلّه ينسى همومه في أكوابها. فيصفها وصف عاشق ملهوف.

(1) العماد الكاتب، الخريدة، قسم شعراء الشام، م.ن، 1/ 452.

(2) م.ن، 1/ 438.

إذ يقول[1]:

باكرا شمس القناني ... تدركا كُلَّ الأماني
وخُذا في لذَّةِ العيـ ... ـشِ على رغمِ الزمانِ
من عُقارٍ تبعثُ النجـ ... ـدةَ في قلب الجبانِ
قهوةٍ ألبسها المز ... جُ قميصاً من جُمانِ
فهي من أبيضَ صافٍ ... لاح في أحمرَ قانِ
كخدودِ الوردِ من تحـ ... ـتِ ثغور الأقحوانِ

إنه يركز على أمرين: أولهما أنه يدعو إلى معاقرتها جهاراً، شأنه في ذلك شأن أبي نواس، بحيث تبدو إباحته ومجونه.

وثانيهما أنه يصف لونها وقد مزجت، بالماء، وكأنما لبست قميصاً لؤلؤيا، ويصوّرها في حُمرتها والماء قد أحاط بها بخدود وردية تعلوها ثغور الأقحوان الأبيض.

4. الإخوانيات

وهي لون من الشعر يدور حول المطارحات الإخوانية، التي تصور علاقات اجتماعية بين الشعراء وأصدقائهم، أو ممدوحيهم وقد عُرف هذا اللون منذ العهد العباسي، ويأتي على صورتين: أولاهما التهنئة والعتاب وقصائد الود والصداقة. والثانية المساجلات الشعرية، وتعني المراسلات، والمعارضات[2]. وتلقانا صداقة ابن قسيم وابن منير، إذ جرت بينهما مطارحات شعرية في إطار صداقة متينة جمعت بينهما، فقد بعث ابن منير قصيدة إلى الشيخ تقي الدين سلامة بن يحيى أنبأه فيها عن إعراض الناس عنه بسبب علويته، وأنه قرّر أن يكون أمويا مطلعها[3]:

قل لابن يحيى مقالَ غيرِ غوِ ... أشهدُ من الآن أنني حموي

---

(1) العماد الكاتب، الخريدة، 476-478.

(2) انظر: بكري شيخ أمين، مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ص 288.

(3) العماد الكاتب، م.س، 1/ 79.

فيرد ابن قسيم بقصيدة، تكشف تمسك ابن منير بعلويته على الرغم من تعهده السابق، فيقول[1]:

يا شاعراً أودعتْ أناملُهُ دُرَّ القوافي في كتابه النبوي
ولو كشفناك لم تكن جَليّاً في مذهبٍ ولا حموي

وإذ توثّقت العلاقة بين الشاعرين، فقد أخذا يتبادلان المطارحات الشعرّية، ومنها أن ابن منير يبعث كتابا إلى صديقه يُحدّثه فيه عن سوء أحواله، فيردّ عليه ابن قُسيم بقوله[2]:

بعثتَ الكتابَ فأهلاً به يسرُّ النواظرَ تنميقُهُ
لئن أخجلَ الروضَ مَوْشيُّهُ لقد فَضَحَ الدُّرَّ منسوقُهُ
غريبُ الصناعةِ تجنيسه نفيس البضاعةِ تطبيقُهُ
وواصَلني بعد طولِ الجَفا كما وَصَلَ الصَّبَّ معشوقُه

ويعلّق عمر موسى باشا على هذا الرّد بقوله: «توضّح هذه القصيدة الجوابية مذهبين رئيسين في أدب هذا العصر، مذهب ابن منير وجماعته، ويجنح نحو التطبيق والتجنيس والإغراب في الصناعة، ومذهب ابن قُسيم وجماعته، وهو يجنح نحو الانسجام والسهولة»[3].

ولعلّ هذه المطارحة بين الشاعرين تُبرز المودّة والمحبة بينهما، وحرص كل منهما على أن يتفق مع صاحبه في الوزن والقافية، فأشبهت المعارضات الشعرية.

(1) العماد الكاتب، الخريدة، 1/ 479.
(2) م. ن، 1/ 459، و 460.
(3) أدب الدول المتتابعة، ص 247.

خصائص وسمات

1. احتلّ ابن قسيم مكانه مرموقة بين شعراء عصره، فقد وصل إلى مستوى ابن القيسراني وابن منير، وفاق شعرهما شعرُه، لكنه -على حد تعبير ابن عماد- خانه عمره، إذ مات شابّاً[1].

2. مذهبه الفني يجاري الطبع السليم، وقد ذكر ابن العماد أنه «ليس بالشام في عصرنا هذا مثله، رقة شعر، وسلامة نظم وسهولة عبارة ولفظ...»[2]. وكأنه ردة فعل على مذهب التصنيع البديعي الذي وُسم به عصره، بحيث خلا من التكلف والتعقيد وحوشي الكلام وغريبه، ومال إلى الرقة والسهولة.

3. تأثر البحتري في أوصافه، وسار على خُطا أبي نواس في إباحيته ومجونه، ونلمس فيه روحاً خياميّة تدعو إلى اقتناص اللذة والعيش بين كاسات العُقار والرضاب، فالعمر قصير، يمضي سريعا.

---

(1) العماد الكاتب، الخريدة، قسم شعراء الشام، 1/ 433.

(2) م.ن، 2/ 130.

المبحث الرابع
أسامة بن منقذ (-584/1188 م)

هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلّد بن نصر بن منقذ[1]، من فرسان بني منقذ أصحاب قلعة شيزر شمالي حماة، حيث ولد يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة، سنة 488 هـ[2]، ونشأ في جو الإمارة والفروسية والعلم، إذ عرف بـ «الأمير الكبير فارس الشام»[3]، وقد عني والده بتدريبه على الفروسية، فأتقنها، حتى لنراه خلال رحلات الصيد يلقى أسداً فيصارعه ويُرديه.

كان لقلعة شيزر دور كبير في مقاومة الصليبيين، وشارك أسامة في الحروب دفاعاً عنها برعاية والده وعمّه سلطان حاكم شيزر، وكان يُعدّه للإمارة من بعده، إذ لم يكن له ولد يخلفه، ولم يلبث عمه أن تغيّر عليه بعد أن رزقه الله ولداً؛ مما حمل أسامة على الترحل إلى الموصل حيث التحق بجيش عماد الدين زنكي واشترك معه في حروبه على الصلبيين؛ حتى إذا أغاروا على شيزر سنة 533هـ عاد مسرعاً ودافع عنها، وردَّ العدوان.

وألزمه عمه بالرحيل عن القلعة، إذ توجّس منه وأظهر له الجفاء والبغضاء، فخرج بصحبة أهله وأنصاره.

وفي هذه الأثناء وقع زلزال مدمر في شيزر، ولم ينجُ أحد من أهلها، وزال ملك بني منقذ، فوقف الشاعر على ربوع بلدته، فبكاها بكاء مرا، إذ يقول[4]:

لم يترك الموتُ منهم من يُخبرّني ... عنهم فيوضِحَ ما لاَقَوْهُ تبيانا

هذي قصورُهمُ أمستْ قبورُهمُ ... كذاك كانوا بها من قبل سُكّانا

بنو أبي، وبنو عمّي، دمي دمهمْ ... وإن أروني مناواةً وشُنآنا

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 1/ 63.

(2) م.ن.

(3) الذهبي، سير النبلاء، 3/ 35.

(4) الديوان، ص 307-309.

واستقر أسامة بعد ذلك في دمشق، حيث رحب به حاكمها معين الدين أنر، واعتمد عليه في شؤون الحكم وتصريف الأمور، فكثر حُسّاده، ووشوا به إلى معين الدين، فلم يستمع إليهم، مما أثلج قلب أسامة وجعله يُقر بحسن موقفه وجميل إحسانه، فيقول[1]:

تعبَّدني لك الإحسانُ طوعاً   وفي الإحسانِ رقٌ للكرام

فصار إلى مودتك انتسابي   على أني العظاميّ العصامي

واستمرت الدسائس والمؤامرات تُحاك حوله، وأحسّ بتواطؤ الأمير مع الفرنجة نكاية بنور الدين الذي كان يرهبه ويخشى بأسه، فغادر أسامة دمشق إلى مصر معاتبا الأمير بقصيدة عارض فيها ميمية المتنبي الشهيرة[2]:

واحرّ قلباه ممّن قلبه شَبِمُ   ومن بجسمي وحالي عنده سَقَمُ

مطلعها[3]:

ولُوا فلما رَجَوْنا عدلهم ظلموا   فليتهم حكموا فينا بما علموا

ويصف له واقع الحال، ويصدقه النصح، إذ يقول:

بلّغ أميري مُعين الدين مألكةً   من نازح الدار لكن وِدّه أَمَمُ

هل في القضية يا مَنْ فضلُ دولته   وعدلُ سيرته بين الورى عَلَمُ

ويحذره من مستشاريه:

واللهِ ما نصحوا لما استشرتهمْ   وكلّهمْ ذو هوىً في الرأي مُتهمُ

كم حرّفوا من مقالٍ في سفارتهمْ   وكم سعوا بفسادٍ، ضلّ سعيهمُ

هَبْنا جَنَيْنا ذنوباً لا يُكفّرها   عذرٌ، فماذا جنى الأطفالُ والحُرَمُ

ألقيتهم في يد الإفرنج مُتَّبعا   رضاً غدا يُسخط الرحمنَ فِعلهمُ

ولستُ آسى على الترّحال من بلدٍ   شهبُ البزاةِ سواءٌ فيه والرَّخَمُ

---

(1) الديوان، ص 219 و 220.

(2) ديوان المتنبي، 3/ 362.

(3) ديوان أسامة بن منقذ، ص 40.

حطّ الشاعر في القاهرة ومعه أهله، وكان الخليفة حينئذ الحافظ لدين الله (534-544 هـ) فأكرمه وأمر له بإقطاع، وفّر له حياة رَغْدة، إذ يقول[1]:

نِلتُ في مصرَ كلَّ ما يرتجي الآ مِلُ من رفعة مالٍ وجاهِ

وساءت الأحوال بعد وفاة الحافظ، فقد دبَّ الخلاف بين الفاطميين ووزرائهم، فقُتل الخليفة الجديد الظافر بالله على يد عباس الصنهاجي، ويتمكن طلائع بن رزيك من التخلص من القاتل.

ويزمع الشاعر على الرحيل، فيتوجَّه إلى دمشق وهي في عهدة نور الدين زنكي، ويتصل به ويخوض معه بعض الوقائع. وكان نور الدين نفسه زاهدا لا يبتهج بالمديح لما علم من تزيّد الشعراء، والناس قد زهدوا مثله، ويشير أسامة إلى ذلك بقوله[2]:

أميرنا زاهدٌ والناسُ قد زهدوا له، فكلٌّ على الطاعات مُنكمشُ

ثم يطلب إليه الوزير ابن رُزيك أن يعود إلى مصر، فيعتذر ويطلب منه أن يُعيد إليه أسرته، فأرسلها بحراً، غير أن السفينة تعطّلت عند ثغر عكا وكانت بيد الفرنجة، فنهبوا ما كان مع الأسرة من مال ومتاع، وكذلك نهبوا مكتبته الخاصة التي تحتوي على أربعة آلاف مجلد، من الكتب الفاخرة، ولم يأسَ على شيء مثل فقد مكتبته، فقد قال: إنّ ذهابها حزازة في قلبي ما عشت[3].

وإذ تقدّم به العمر لم يعد قادراً على غزو الفرنجة، فكان حصار قلعة حارم آخر حروبه، فقد وهنت رجلاه وقواه ولم يعد يستطيع ركوب الخيل، فنسمعه يقول[4]:

رجلاي والسبعون قد أوهنت قواي عن سعيي إلى الحرب

فغادر دمشق إلى حصن كَيْفا شمالي العراق حيث صنّف بعض كتبه، ثم دعاه صلاح الدين إلى دمشق، وكان بينهما صلات من عهد نور الدين فعاد إليها ومن ثمَّ

(1) ديوانه، ص 263.

(2) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص 163.

(3) م.ن، ص 35.

(4) ديوانه، ص 208.

قرّبه صلاح الدين من مجالسه، واستمع إليه، وكان يستشيرهُ ويكاتبه في غزواته، ويصف له وقائعه مع الصليبيين.

وامتدّ به العمر، فتقوّسَ ظهره، ودبّ على العصا، وكانت تساوره الهموم، فكان يقلق على مصير ابنته «أم فروة» وقد جاءته على الكبر، ويخشى عليها اليتم، وسوء المصير، وقد أودعها ربه الكريم.

توفي أسامة في دمشق، وقد نيّف على التسعين، في الثالث والعشرين من رمضان سنة 584 هـ، ودفن في سفح جبل قاسيون[1].

آثاره الأدبية

لأسامة بن منقذ آثار متعددة، نذكر منها:

1. **ديوانه:** جمعه وصنّفه خلال حياته بعد تجاوزه السبعين من عمره، ووزّعه بحسب الموضوعات على ستة أبواب: الغزل والأوصاف والمُلح والمديح والأدب والمراثي وختمها بمسمطات من شعره، وكل باب منها مرتب على حروف المعجم وقد أوقعه ذلك في إشكالية منهجية، إذ اضطر إلى تجزئة القصيدة وتوزيعها في غير باب، مما يحول دون النظر إليها نظرة متكاملة.

   وكثير من شعره مُقطّعات قصيرة، وفيه القصائد المطوّلات. وقد طبع الديوان في القاهرة سنة 1953م، بتحقيق أحمد بدوي وحامد عبد المجيد.

2. **كتاب الاعتبار:** وهو ترجمة شخصية، سجل فيها ذكرياته وكان شاهداً على أحداث عصره. ونوّه به شوقي ضيف، فذكر أنه «مذكرات بديعة، تصوّر لنا الفروسية العربية زمن الصليبيين، كما تصوّر حياة المسلمين لعصره، وحياة الصليبيين أنفسهم»[2]. وقد عُني به فيليب حِتّي وحرّره.

3. **لُباب الآداب:** وفيه أبواب في الكرم والشجاعة والأخلاق والبلاغة والحكمة وسواها.

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 1/ 63.

(2) شوقي ضيف، الترجمة الشخصية، ص 94.

4. **المنازل والديار**: وتضمن أشعاراً في المنازل والديار والأطلال والدّمن، ومما دعاه إلى جمعه ما أصاب شيزر من خراب جرّاء الزلزال، الذي حوّل مغانيها رسوما، ومسّراتها حسرات. وإذ وقف عليها نسمعه يقول: «ولقد وقفت عليها بعدما أصابها من الزلازل ما أصابها.. فما عرفت داري، ولا دور أعمامي وبني عمي وأسرتي، فبُهتُّ متحيراً، مستعيذاً بالله من عظيم بلائه وانتزاع ما خوّله من نعمائه»(1).

وله أيضاً كتاب «العصا» و«البديع في نقد الشعر»؛ و«ذيل يتمية الدهر للثعالبي».

الشكوى والتعبير عن الذات

تضافرت عوامل عدّة على بروز الشكوى في شعر أسامة بن منقذ، فقد خسر حقه في إمارة شيزر الذي سلبته منه أطماع عمه؛ وحيكت حوله الدسائس والمؤامرات، وفقد مكتبته الخاصة ونهبت أمواله حين وقعت السفينة التي أقلت أهله بيد الفرنجة، واصطلحت عليه العلل والأسقام في أواخر حياته. ومن هنا فقد استطاع أن يلّون في الشكوى.

فلا غَرو أن يشتكي دهره الذي روّعه بالفراق، وكلّفه ما لا يطبق فيقول(2):

ولستُ أشكو اصطباري عند نائبةٍ ... ولا فؤادي بخفّاقٍ ولا قلقِ
وإنما أشتكي دهراً يُكلّفني ... ما لا أُطيق، فِعال القادرِ الحنقِ

وأثار انكسار مركب أسرته عند عكا، قلقه وهمومه، ولم يتمكن أهله من الوصول إلى دمشق إلا بعد أن أعطاهم ملك الفرنجة خمسمائة دينار. فنسمعه يجأر بالشكوى إلى الله:

إلى الله أشكو فُرقةً دَمّيَتْ لها ... جفوني، وأذكَتْ بالهموم ضميري
تمادَتْ إلى أن لاذتِ النفسُ بالمُنى ... وطارتْ بها الأشواقُ كُلَّ مطيرِ
فلما قضى اللهُ اللقاءَ تعرّضَتْ ... مساءَةُ دهري في طريق سروري

(1) أسامة بن منقذ، المنازل والديار، ص10 و 11.

(2) الديوان، ص 89-129.

وإذ حلّت به هذه النكبة، نجده يُحسّ بالحاجة إلى المال، فيطلبه من صديقه الوزير طلائع بن رُزيك، ويصف له ما حلّ به أصدق تصوير[1]:

يا أخا البيد والسُّرى وأخي الـ ـبرَّ إذ عَقّني أخٌ ونسيبْ
أنا أشكو إليكَ دهراً لحا عو دي وأعراه، فهو يبسٌ سليبُ
وخُطوباً رمى بها حادث الدّهـ ـرِ سوادي وكلُّهنّ مصيبُ

وقد تستحيل شكواه إلى نوع من التظلم، فيكتب إلى معين الدين حاكم دمشق، وقد أزمع على الرحيل إلى مصر، ويصوّر له الدسائس والمؤمرات التي كانت تحاك حوله من قبل مستشاريه[2]:

وما ظننتك تنسى حقّ معرفتي إنّ المعارف في أهل النُّهى ذممُ
ولا اعتقدتُ الذي بيني وبينكَ من وُدٌّ وإن أجلبَ الأعداءُ ينصرم
لكنْ ثقاتُكَ ما زالوا بغشّهمُ حتى استوتْ عندك الأنوارُ والظُّلَم
واللهِ ما نصحوا لما استشرتهمُ وكلّهم ذو هوىً في الرأي مُتَّهمُ
كم حرّفوا من مقالٍ في سِفارهم! وكم سَعَوْا بفسادٍ، ضلّ سعيُهمُ

ويأسى على شبابه، الذي فقده، ولم يهنأ به، لقصره وهو لا يبكي الشباب بقدر ما يبكي السرور المرتبط به. ويسخط على الزمان الذي سلب منه شبابه فغدا كخابط ليل فيقول[3]:

وما كنت مغتبطاً بالشبابِ وهل كان إلا رداءً مُعارا
ولكنني ساءني فقده فواهاً له، أيّ همٍّ أثار
وما ساءني أن أحال الزمانُ ليلي نهاراً وجهلي وقارا
ولكن يقولون: عصر الشباب يكون لكل سرور قرارا
وما زلتُ مذ تردّيتُهُ كخابطِ ليل أُعاني العِثارا

(1) ديوان أسامة بن منقذ، ص 163.

(2) م.ن، ص 146-148.

(3) م.ن، ص 268.

ولهذا نراه يذكر صباه في موطن آخر، ويتمنى لو أنه يبقى على حاله، بوصفه أحلى أوقات العمر[1]:

لِلّه دَرُّ الصِّبا لو دام رونقه فما، كأوقاته في العمر، أوقاتُ

ومرّت به تجارب قاسية مع الشيخوخة، إذ اصطلحت عليه العلل والأسقام الجسمية والنفسية، وذلك منذ نيّف على السبعين، فلم يعد قادراً على ركوب الخيل والسعي إلى الحرب؛ لأن رجليه خانتاه فنسمعه يقول[2]:

رجلايَ والسبعون قد أوهنتْ قُوايَ عن سعيٍ إلى الحرب

وكنتُ إنْ ثوَّبَ راعي الوغى لبيَّته بالطعنِ والضّربِ

وكان يعجب لما تأتي به الأيام، فيحمل عصاه ويتوكأ عليها[3]:

فرجعتُ أحملُ بعد سبعين العصا فأعجبْ لما تأتي به الأيام!

وإذا الحِمامُ أبى معاجلة الفتى فحياته لا تكذبنّ حِمامُ

وكان يشكو تقوس الظهر، ويرى في الموت راحة، وفي العيش عذابا، ففي ذاك يقول[4]:

إذا تقوّس ظهرُ المرءِ من كِبَرِ فعادَ كالقوسِ يمشي والعصا الوتْرُ

فالموتُ أرْوحُ آتٍ يستريح به والعيشُ فيه له التعذيبُ والضَّرَرُ

فهو يُقرب صورة ظهره الذي يزداد انحناؤه بالقوس، وأوحت له العصا بصورة الوتر القائم.

وقد ينتهي الأمر إلى الشكوى من كل شيء؛ يده التي ترتجف، وخطه الذي يضطرب، وأذى الدنيا، فيتمنى الموت وقد أدركته سن السبعين[5]:

نُكسْتُ في الخَلْقِ وحطّتنيَ السْـ ـبعونَ لمّا أن علَتْ سنّي

---

(1) ديوان أسامة بن منقذ، ص 266.

(2) م.ن، ص 208.

(3) م.ن، ص 277.

(4) م.ن، ص 269.

(5) م.ن، ص 274.

وغيّرت خَطّي فأضحى كما ترى، وكم قد غيَّرتْ منّي
والموتُ فيه راحةٌ من أذى الدْ دُنيا، فما أغفله عني؟

ويحسّ أنه يوشك على الرحيل، وأنه لم يعد قادراً على قيام أو نهوض، فيصلي قاعداً وقد تعذّر عليه السجود، وكان ذلك في سن الثمانين، ويسجل ذلك في شعره، فيقول[1]:

ولم تدعُ منّي الثمانون مُنَّةً كأنّي إذا رُمتُ القيام كسيرُ
أؤدّي صلاتي قاعداً، وسجودها عليَّ إذا رُمتُ السجودَ عسيرُ
وقد أنذرتني هذه الحال أنني دَنَتْ رحلةٌ مني وحان مسيرُ

ورزق أسامة بن منقذ ابنة على الكبر، سمّاها «أم فروة» فتستحيل شكواه إلى نوع من القلق الوجودي، إذ تغشاه الهموم، ويخشى عليها اليتم، على الرغم من أنه لم يقنط من رحمة الله وكرمه[2]:

أفكرّ في فُريَّة ما تلاقي من الدنيا فتغشاني الهموم
وتصعد زفرتي أسفا لعلمي بما يلقى من البؤس اليتيم
وقد أودعتها ربًّا كريماً- وما ينسى وديعته الكريمُ

فلما تخطته السبعون واشتدت وطأتها عليه، بدأت تنهشه الهموم، وأخذ يتساءل عن مصيرها المظلم، وقد بدت أمام ناظريه كاسفة البال ذليلة، فراح يتفجعّ عليها، ويعبر عن جزعه لما ستلقاه[3]:

لما تخطّتنيَ السبعونُ مُعرضةً وساورَ الضعف بعد الأيدِ أركاني
رُزقت فروة والسبعون تخبرها أن سوف تيتمُ عن قربٍ وتنعاني
وهي الضعيفةُ ما تنفكُّ كاسفةً ذليلةً تمتري دمعي وأحزاني
ما كان، عمّا ستلقاه وعن جزعي لما ستلقاه، أغناها وأغناني

(1) العماد الكاتب، الخريدة، قسم شعراء الشام، 1/ 529.
(2) ديوان أسامة بن منقذ، ص 275.
(3) م.ن، ص 274.

شعره

من الأحداث الكبرى التي سجلها أسامة بن منقذ زلازل سنة 552 هـ/ 1157 م التي توالت عدة مرات، ووقعت بالشام، وحلب، وشيزر، وغالب بلاد الشام «وأهلكت كثيراً من أهلها، وهلك بها من الخلق، وكان نحواً من عشرة آلاف»[1]، وقد أكثر الشعراء من الحديث عن تلك الزلازل، ومن ذلك ما قاله أسامة بن منقذ «يندب وطنه وأهله الهالكين في الزلازل بحصن شيزر»[2]:

حيّا ربوعَكِ من رُباً ومنازلِ ساري الغمام بكل هام هاملِ
وسقتكِ يا دار الهوا بعد النوى وَطْفاءُ تسفحُ بالهَتونِ الهاطلِ
أبكيك أم أبكي زماني منكِ أم أهليكِ، أم شرخَ الشبابِ الراحلِ
درستْ منازلهم، وأوحشَ منهم مأنوسُ أنديةٍ، وعزُّ محافلِ
ذهبوا ذهابَ الأمسِ ما من مُخبرٍ عنهم وزالوا كالظلالِ الزائلِ

يسجل أسامة بن منقذ في شعره الصلات السياسية بين مصر والشام، والدعوة لتوحيد الشمل بينهما لطرد الفرنجة من البلاد الإسلامية، وهي دعوة بدأها الوزير الفاطمي طلائع بن رزيك[3]،(-556 هـ) وردت في عدد من القصائد المتبادلة بينه وبين الأمير أسامة بن منقذ إذ انعقدت بينهما صداقة، فكان يبعث بهذه الرسائل يخبره بانتصاراته حتى يستثير الهمم على الصليبيين.

فقد بعث الوزير رسالة شعرية إليه، حدّثه فيها عن معركة دارت بين المسلمين والفرنجة انتصر فيها الجيش المصري بقيادة ضرغام في سنة 553 هـ مطلعها[4]:

ألا هكذا في الله تمضي العزائم وتمضي لدى الحرب السيوف الصورام

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/ 325.

(2) ديوان أسامة بن منقذ، ص 304-305.

(3) وزير من أصل أرمني، نُعت بالملك الصالح فارس المسلمين نصير الدين، استبد بالأمر من دون الخليفة، فدُبّرت له مؤامرة قتل فيها سنة 556 هـ.

(4) ديوان أسامة بن منقذ، ص 223.

وانتهت بالتوجه إلى نور الدين محمود، تشدّ من أزره وتدعوه إلى مواصلة الجهاد، وتشرح له موقف مصر من الفرنجة، وأنّ الأسطول المصري قد تضاعف عدده:

فقولوا لنور الدين -لا فُلَّ حَدُّه- ولا حكمتْ فيه الليالي الغواشِمُ
تجهَّز إلى أرضِ العدوّ ولا تَهُنْ وتُظهرْ فتوراً أنْ مَضَتْ منك حازمُ
فنحن على ما قد عهدْتَ نروعهمْ ونحلفُ جُهداً أننا لا نسالِمُ
وغاراتنا ليستْ تفترُّ عنهمُ وليس يُنجي القومَ فيها الهزائمُ
وأسطولنا أضعاف ما كان سائراً إليهمُ فلا حصنٌ لهم منه عاصمُ

ويردّ أسامة بقصيدة يشيد فيها بطلائع، فتحدَّث عن بأسه وشجاعته، ووصف سراياه التي شرعت تدخل أرض الفرنجة، وأساطيله التي غَزتهم في البحر، يختمها بحديثه عن اليوم الذي يجتمع فيه الملك الصالح ونور الدين، فتُفتح البلاد ويُقضى على الفرنجة[1]:

وقد شمَّرَ الملكان في الله طالبي رضاه بعزمٍ لم تُعقْه اللّوائمُ
بجدٍّ، هو العضبُ الحسامُ وحدّهُ لعادية الأعداء والكفر حاسم
وقاما بنصر الدينِ، واللهُ قائمُ بنصرهما، ما دام للسيفِ قائمُ
وما دون أن يفنى الفرنجُ وتُفتح الـ ـبلادُ سوى أن يمضيَ العزمَ عازمُ

فبعث طلائع بن رزيك رسالة شعرية إلى صديقه يذكر فيها وقائعه وسراياه إلى الفرنجة، مطلعها:

أبى الله إلا أن يَدينَ لنا النّصرُ ويخدمنا في مُلكنا العزّ والنصرُ

وصلت الرسالة إلى أسامة، واطلع عليها نور الدين، فأمره أن يجيبه بمعانٍ وقعتْ الإشارة إليها، وطلب منه أن يُعدّد له كل الفتوح التي أفاء بها الله عليه، واستهلها بقوله:

أبى الله إلا أن يكونَ لنا الأمر لتحيا بنا الدنيا ويفتخر العصر

(1) ديوان أسامة بن منقذ، ص 226.

ويصور جيوش المسلمين وجهادها بقيادة نور الدين زنكي، ويُبين أنّ الأمل العظيم يتمثل في استعادة القدس والصخرة المشرفة، فيقول:

ونرتجع القدسَ المطهّرَ منهمُ ويُتلى بإذن اللهِ في الصّخرة الذكر

ويمضي فيعدد أفضاله على أهل الشام:

بنا استرجع اللهُ البلادَ وأمَّنَ الـ عبادَ، فلا خوفٌ عليهم ولا قهرُ
رددنا على أهل الشام رباعتهمْ وأملاكهمْ فانزاحَ عنهم بها الفقرُ

ويختمها بالفخر على سائر الملوك بعامة، والملك الفاطمي بخاصة، فيقول:

فكيفَ تُسامينا الملوك العُلا وعزمهمْ سرٌّ ووقعاتنا جهرُ
وإن وعدوا بالغزوِ نظماً فهذه رؤوس أعاديهمُ بأسيافنا نثرُ

وأيا كان الأمر، فقد سعى الشاعران إلى توحيد مصر والشام، من خلال الرسائل المتبادلة بينهما، وكان طلائع بن رزيك بحكم صداقته لأسامة يأمل من صديقه أن يحثّ نور الدين على المضيّ قُدماً في التصدّي للصليبيين ودفع أطماعهم.

غير أن هذه الوحدة لم تتم آنذاك، ولعل ذلك راجع إلى الخلافات المذهبية والسياسية بين الخلافتين العباسية والفاطمية[1]، فضلاً عن أن هذه الرسائل المتبادلة، تعكس علاقة بين صديقين أكثر مما تعكس تقاربا سياسيا بين بلدين، وآية ذلك أن نور الدين نفسه كان يطّلع عليها، ثم يأمر شاعره بأن يرّد عليها وأن يختم ردّه بالفخر.

(1) انظر: عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، ص 300.

المتخير من شعر أسامة بن منقذ

وقال في صروف الزمان، يصف ما كان عليه وما آلت حاله إليه(*)

انْظُر إلى صرف دهري، كيف عَوَّدني ... بعد المشيبِ سوى عاداتِيَ الأُوَلِ
وفي تغابُرِ[1] صرفِ الدَّهرِ[2] معتَبرٌ ... وأيُّ حالٍ على الأيامِ لم تَحُلِ
قد كنتُ[3] مِسعرَ حربٍ، كلما خَمَدت ... أضرمتُها باقتداح البيضِ في القُلَلِ
همِّي منازلةُ الأقرانِ[4]، أحسبهُم ... فرائسي، فهُمُ منِّي على وَجَلِ
أمضى[5] على الهَولِ من لَيلٍ، وأهجَمُ من ... سيلٍ، وأقَدَمُ في الهيجاء من أجلِ
فصِرتُ كالغادةِ[6] المِكسالِ: مضجَعُها ... على الحشايا وراء السَّجفِ والكِلَلِ
قد كدتُ أعفَنُ من طولِ الثَّواء[7] ... يُصدي المهنَّدَ طولُ المكثِ في الخِلَلِ
أروحُ بعد دُروعِ الحربِ في حُلَلٍ ... من الدَّبيقي[8] فبؤساً لي وللحُلَلِ
وما الرَّفاهةُ من رأيي ولا أربي[9] ... ولا التنَّعُّمُ من همّي ولا شُغُلي
ولستُ أهوى بلوغَ المجدِ في رَفهٍ[10] ... ولا العُلا دون حَطمِ البيضِ والأسلِ

(*) الديوان، ص 255. والمقطعة من البسيط، والقافية من المتراكب، نقلاً من كتاب «نصوص من شعر عصور الدول المتتابعة» الدكتور عمر الأسعد، ص 77-991.

(1) صرف الدهر: حدثاته ونوائبه.

(2) تغاير صرف الدهر: تقلّب أحواله وأحداثه. وحال الحالُ يحول: تغيرّ وانقلب.

(3) يقال للرجل: إنه لمسعر حرب أي تحمى به الحرب. والبيض: السيوف: والقلُل: جمع قُلّة، وقُلّة كلّ شيء: رأسه وأعلاه، ورأس الإنسان قُلّة.

(4) الأقران: جمع قِرن وهو الكفء في الشجاعة.

(5) في أمثالهم: أمضى من السيل تحت الليل، (انظر الدّرة الفاخرة 2:383). وأقدمُ: أسرع قدوماً.

(6) الغادة: المرأة الناعمة. والحشايا: جمع حشيّة وهي الفراش المحشو والسّجف: السّتر. والكِلل: جمع كِلّة وهو ستر رقيق يُتوقّى به من البعوض وغيره.

(7) الثواء: الإقامة: والخِلل: بطائن تُغشّى بها أجفان السيوف، جمع خِلَة.

(8) الدبيق كامير: بلد بمصر تنسب إليها الثياب الدبيقية.

(9) الأَرَب: الحاجة.

(10) الرّفه: سعة العيش. والبيض: السيوف. والأسل: شجر، وتسمى الرماح أسلاً.

وقال يندب وطنه وأهله الهالكين في الزلازل بحصن شيزر [1]

حيّا ربوعَكَ من رُباً ومنازلِ ساري الغمامَ[2] بكل هامٍ هاملِ
وسقَتكِ يا دار الهوى بعد النوى[3] وطفاءُ تسفح بالهَتون الهاطلِ
حتَّى تُرَوِّضَ كلَّ ماحٍ ماحِلٍ[4] عافٍ، وتُرويَ كلَّ ذاوٍ ذابِلِ
أبكيكِ، أم أبكي زماني فيكِ، أم أهليكِ، أم شرخَ الشبّابِ[5] الرَّاحِلِ
ما قَدْرُ دمعي أن يُقَسِّمَهُ الأسى والوَجْدُ بين أحبَّةٍ ومنازِلِ
أنفقتُه سَرَفاً[6]، وها أنا ماثلٌ في ماحلٍ، أبكي بجفنٍ ماحِلِ
وإذا فزِعتُ إلى العَزاء[7] دعوتُ مَنْ لا يَستجيبُ، ورُمتُ نُصرةَ خَاذِلِ
أين الظِّباءُ[8] عهدتهُنَّ كوانِساً بك في ظلالِ السَّمهريَ الذّابل
النّافراتُ من الأنيسِ تكرُّماً والآنساتُ بكلِّ ليثٍ باسِلِ
من كلِّ مكروهِ اللّقاءِ مُنازِلٍ رحبِ الفِناءِ لطارقٍ أو نازلِ
متمنِّعٍ صعبٍ[9] على أعدائه سهلِ المَقادةِ للخليلِ الواصلِ

---

(1) الديوان ص304. والقصيدة من الكامل، والقافية من المتدارك.

(2) ساري الغمام: فاعل حيّا. وهمى الماء وهمل: سال وفاض.

(3) النّوى: البعد. وسحابة وطفاء: مسترخية لكثرة مائها. والهَتون: الكثير القطر.

(4) تروض المكان الماحل: تجعله روضة. وعافٍ: دارس. وذاوٍ وذوابل بمعنى.

(5) شرخ الشباب: أوّله.

(6) السَّرف: مجاوزة الحدّ، وأنفقته سرفاً: من غير نفع ولا فائدة. مائل في ماحل: في منزل جدب. بجفن ماحل: جامد لا دمع فيه.

(7) فزعت إلى العزاء: لجأت إليه. والعزاء الصبر على المصاب.

(8) الظباء الكوانس: اللواتي تدخل في الكناس، وهو موضعها من الشجر تكتنّ فيه وتستتر. والسمهريّ: الرُّمح المنسوب إلى سمهر: رجل كان يُقوّم الرماح. والذابل: الرقيق. جعل كناس الظباء الرماح الذوابل.

(9) وصف الرجل بالشجاعة والنجدة والكرم.

عـزّوا علـى الـدُّنيا، وخـالف فعلـهم ... أفعالَهـــــا، فبَغـــــتْهُمُ[1] بغوائِـــــل

حتَّـــى إذا اغتـــالَتْهُمُ بخطوبَهـــا[2] ... ورمـــــتهمُ بحـــــوادثٍ وزَلازلِ

دَرَسَـتْ منـازِلُهم[3]، وأوحَـش مـنهمُ ... مـــأنوسُ أنديـــةٍ وعـــزٌّ محافِـــل

واهــاً[4] لهــم مــن عَــالَمٍ ومعــالِمٍ ... ومُمنَّعـــاتِ عقائـــلٍ ومَعاقـــلِ

كـانوا شَـجىً[5] في صـدرِ كـل مُعانـدٍ ... وقـذىً يجـول بعـين كـلَّ مُحـاولِ

غَوثـاً للمـلهوفِ، وملجـأ لاجـئ ... وجـــوارَ[6] رَبٌّ جرائـــرِ وطوائِـــل

ذهبُـوا ذهـابَ الأمـسِ مـا مـن مخـبرٍ ... عـنهم، وزالُـوا كـالظِّلال الزَّائـلِ

وبقيـــتُ بعـــدهُمُ حليـــفَ كآبـــةٍ[7] ... مـــستُورةٍ بتجمُـــلٍ وتَحامُـــلِ

سـعدّوا بـراحَتِهم، وهـا أنـا بعـدهم ... في شِـقوةٍ[8] تُـضني، وهـمَّ داخِـلِ

فاعجـب لِـشقوةِ مُتعـبٍ بمُقامِـه ... مـن بعـد أسـرتِه، وراحـة راحـلِ

دع ذا فأنـت علـى الحـوادث مـروة[9] ... تلقـــى الرزايـــا عالمـــاً كالجاهـــل

واصـبر فمـا فيمـا أصـابك وصـمةٌ[10] ... كـلُّ الـورى غَـرَضٌ لـسهم النَّابـلِ

---

(1) بغتهم: استطالت عليهم. والغوائل: الدواهي، جمع غائلة.

(2) اغتالتهم بخطوبها: أخذتهم بمصيباتها.

(3) درست منازلهم: عفت وذهب أثرها. الأندية والمحافل: مجالس القوم، جمع نادٍ ومحفل.

(4) واهاً: اسم فعل مضارع للتلّهف والتفجّع بمعنى أتعجّب. والمعالم: جمع مَعْلَم وهو ما يُستدلّ به على الطريق من أثر. والمعلم من كل شيء: مَظِنته. والعقائل: جمع عقيلة وهي كريمة الحي.

(5) الشّجي: ما ينشب في الحلق والصدر من عظم وغيره. والقذى في العين: ما يسقط فيها.

(6) الجوار: الأمان. والجرائر: جمع جريرة، وهي الجناية. والطوائل: جمع طائلة وهي الترة والثأر.

(7) حليف كآبة: ملازمها. والتجمل: التّصبر.

(8) في شقوة: شقاء، قال تعالى:﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا ﴾ [المؤمنون: 106].

(9) المرو: حجارة بيض برّاقة، جمع مروة: والرزايا: جمع رزيّة وهي المصيبة.

(10) الوصمة: العار. والنابل: صاحب النّبال.

وقال مخمِّساً شعراً لقيس بن ذريح[*]

كعهدِكِ باناتُ [1] الحمى فوقَ كُثبِهـا
ودارُ الهوى تحمي العدا سرحَ سِربِها
أقولُ، وسُمرُ الخَطِّ حُجْبٌ لحُجْبِهـا
«سقى طَلَلَ الدَّارِ التي أنتمُ بهـا حيـاً ثـمَّ وَبـلُ صـيِّبٌ وربيـعُ»

بدارِكِ مابي: من بِلى الشَّوقِ، والهَوى
وبي ما بها: من وحشةِ البينِ، والنَّوى[2]
سأروي ثَراها من دُموعي إنِ ارتَـوى
«وخيماتُـكِ اللاتـي بمُنعـرَجِ اللَّـوى بِلـينَ بِلـىً لم تَـبلَهُنَّ رُبـوعُ»

وما الجورُ عن نهجِ السُلُوِّ أعاجَني[3]
علـى ذِي أثافٍ كالحَمامِ الدَّواجِـنِ
ولكـنْ وفـاءٌ، وِرْدُه غيـرُ آجِـنِ

(*) الديوان ص311. والقصيدة من الطويل، والقافية من المتواتر. والقصيدة المخمّسة نُسب بعض أبياتها إلى قيس بن الملّوح، وإلى قيس بن ذريح، انظر ديوان المجنون ص 190، والأغاني 8:131.

(1) البانات: جمع بانة وهي ضرب ليّن من الشجر. والحمى: الدار المحميّة والكُثب: جمع كثيب. والسّرح: الماشية. والسّرب: القطيع. وسُمر الخط: الرماح المنسوبة إلى هذا الموضع. والحيا والصّيب: المطر. والوبل: المطر الشديد. وفي الديوان. حَنَاتِمُ وبـلٍ صـيِّفٌ وربيعُ، وفي حاشيته: الحناتم السحائب السود. والبيت المخمّس روايته في ديوان المجنون:

أيـا حَرَجـاتِ الحـيِّ حـينَ تحمّلـوا بـذي سَـلَمٍ لا جـادكنَ ربيـعُ

وهو في الأغاني كما أثبته.

(2) النوى: البعاد. والثرى: التراب. ومنعرج اللوى: منقطع الرّمل. والربوع: جمع ربع. والبيت المخمّس في ديوان المجنون بالرواية نفسها، وليس في الأغاني.

(3) أعاجني: عطفني. والأثافي: الحجارة يوضع عليها القدر، جمع أثفية. والماء الآجن: المتغير طعمه ولونه. والظاعنون: المرتحلون جمع ظاعن. والوُرْق: جمع ورقاء، وهي التي في لونها بياض إلى سواد. والبيت المخمّس منسوب للقيسين معاً.

«وَلــو لم يَهجِــني الظّــاعنون لهَــاجَني حمـــائمُ وُرقٌ في الـــدِّيار وُقُـــوعُ»

هَواتِفُ يُذكرنَ الشَجيّ[1] أخا الجَوَى

زمانَ التَّدانـــي قبلَ رائعة النَّـــوى

وطيـبَ لياليــهِ الحميدةِ باللِّـــوى

«تداعَيْنَ، فاستَبكين من كـانَ ذا هـوىً نـــوائحُ لم تـــذرفْ لهـــنَّ دمُـــوعُ»

إذا ما نسيمٌ هبَّ من جانب الحِمَى

أقُولُ، وأشواقِي تَزيدُ تَضَرُّمَـــا[2]:

عسى وطنٌ يدنو بهم، ولَعَلَّمـــا

«وإنَّ انهمـــالَ الـــدَّمعِ ياليـــلُ كلَّمـــا ذكرتُـــكِ وحـــدي خاليـــاً لـــسريعُ»

ولَـو عادَ يومٌ منكِ ياليلَ، قد خَـــلا

بعُمريَ أو شرخِ الشبيبة[3] ما غَـــلاَ

وقد عزَفَت نفسي عن الهَجْرِ والقِلَى

«وسوفَ أُسلّي النَّفسَ عنكِ، كما سَلا عـــن البلـــدِ النَّـــائي المَخُـــوفِ نَزيـــعُ»

أيَرجُو ليَ اللّاحي[4] من الحبِ مَخلَصَا

(1) الشجيّ: من شجاه (أحزنه) الهمّ. والجوى: شدة الوجد. ورائعة النوى: البعد المفزع. وتـداعين: دعا بعضهنّ بعضاً. ونـوائح: جمـع نائحـة. وذرف الـدمع: أسـاله. والبيـت المخمّـس في ديـوان المجنون، روايته: نوائح لا تجري لهنّ، وفي الأغاني: لم تقطر لهنّ.

(2) تضرّماً: اشتعالاً واتقاداً. وانهمال الدمع: انصبابه. والبيت المخمّس في ديـوان المجنـون: ذكرتـك يوماً خالياً. وليس في الأغاني.

(3) شرخ الشباب: أوّله ونضارته. وعزف عن الشيء: انصرف عنه. والقلى: البغض. وسـلا: نـسي وتصبّر. والنزيع: الغريب، والبيت المخمّس روايته في ديوان المجنون:

يـــضَعّفني حبّيـــكِ حتـــى كـــأنني مـــن الأهـــل والمـــال التّليـــد نزيـــع

وفي الأغاني: عن البلد النائي البعيد.

(4) اللاحي: اللائم والعاذل. وراض قلبه: ذلله. والنيّة هنا: البعاد. وشقُّ العصا كناية عـن التفـرّق. وجميع مجتمعة. والبيت المخمّس في ديوان المجنون وفي الأغاني بالرواية نفسها.

وقَلبي إذا ما رُضتُه بالأسى عَصــى
ولَوْ أنَّ ما بي بالحَصى فُلِقَ الحَصى
«إلى اللهِ أشــكو نِيَّــةً شَــقَّت العَــصَا   هي اليَومَ شــتَّى، وهــي أمــسِ جَميــعُ»
أطاعَتْ بِنا ليلَى افتراءَ التكـــذُّب
وصَـدُّ التَجنِّي[1] غيرُ صدّ التَعتُّـبِ
فيَالَـك من دهــرٍ كثير التَّقلُّـــب
«مضى زمنٌ، والناسُ يَستـشفِعونَ بـي   فهَـلْ لـي إلى لَيلَـى الغَـداة شَـفيعُ»
ألا نُغبَةٌ[2] من بَردِ أنيابها العُـــلاَ
وردُ زمـــانٍ كالأَهِلَّـــة يُجتَلـى
فَقُولا لَها: جادَتْكِ واهيةُ الكُلـى
«أراجِعـــةٌ يـــا ليـــلُ أيامُنـــا الألى   بـذي الرِّمـثِ أم لا، مـا لهُـنَّ رُجـوعُ»
أعاذِلَتي[3]، مالِي، هُديتِ، ومالَك
لقَدْ ساءَني أنِّي خَطَرتُ. ببالـكِ
ذريني، فَلَوْمي ضَلَّةٌ من ضَلالـكِ

---

(1) التّجني: ادّعاه جناية لم تُفعل. والتعتّب والتعاتب بمعنى. والبيت المخمّس في ديوان المجنون وفي الأغاني، وفي الأول: إلى ليلى، وفي الثاني: إلى لبنى.

(2) النّغبة: الجرعة. ويُجتلى: يُنظر إليه. وكُلية السحاب: أسفله، والجمع كُلى. وأراد بجادتك واهية الكُلى: عمّك مطر غزير. وذو الرّمث: موضع. والبيت المخمّس روايته في ديوان المجنون:

ألا هـــل إلى ليلـــى قبيـــل منـــيّتي   ســـبيل وهـــل للنـــاجعين رجـــوع

وهو غير موجود في الأغاني.

(3) العاذلة: اللائمة. ويقال: فلان يلومني ضلّةً، إذا لم يوفّق للرشاد في عذله. والجرعاء: أرض ذات حزونة، وجرعاء مالك: موضع. في الديوان: مُضَيِّع، وبه ينتقل ضرب البيت من فعولن إلى مفاعلن، وهو غير جائز. والبيت المخمّس روايته في ديوان المجنون: لأمر العاذلين. ولـيس البيت في الأغاني.

«لعَمْـرُكِ، إنِـي يـومَ جرعـاءِ مالـكٍ   لعـاصٍ لأمـرِ العـاذلاتِ مُـضيعُ»

أعِدْ ذكرهـا، أحبِبْ إلـيَّ بذكـرِها

ودَعْ ذَنبَها، فالحُـبُّ مُبـدٍ لِعُذرِهـا

فما زِلتُ في حالَيْ وفـائي[1]وغَدْرِها

«إذا أمَـرتِني العـاذِلاتُ بهجرِهـا   هَفَـتْ كَبـدٌ عمَّـا يقُلـنَ صـديعُ»

يزيد هوى ليلى[2] رضاها وعتبها

ويُعْدُ نواهـا إن تنـاءت وقُربهـا

ولم يَنهني صِدقُ اللواحي وكِذبُهـا

«وكيـف أطيـعُ العـاذلاتِ وحبُّهـا   يُـورقُني والعـاذلاتُ هُجـوعُ!»

کتابخانه تخصصی
تاریخ اسلام و ایران
شماره ۱۳۷۴

(1) هفا إلى الشيء: ذهب في إثره. وكبد صديع: مصدوعة، فعيل بمعنى مفعول. والبيت المخمّس في ديوان المجنون هو:

إذا مـا لحـاني العـاذلات بحبّهـا   أبَـتْ كبـد – ممـا أُجِـنُّ – صـديع

وفي الأغاني: أبت كبد.

(2) هوى ليلى: مفعول يزيد. وفاعله: رضاها وعتبها. والنوى: البُعد، وبُعد النوى: من إضافة الشيء إلى نفسه. واللواحي: جمع لاحٍ وهو اللائم. ويؤرقني: يقلقني ويُسهرني. وهجوع نيام، جمع هاجع. والبيت المخمّس في ديوان المجنون بالرواية نفسها، وفي الأغاني. وذكرها يؤرقني.

الفصل السادس

أعلام الشعر: شعراء القرن السابع

المبحث الأول: ابن الساعاتي

المبحث الثاني: الشهاب الشاغوري

المبحث الثالث: ابن عُنين

المبحث الرابع: علي بن المقرّبَ العيوني

المبحث الخامس: بهاء الدين زهير

المبحث السادس: الشريف الأنصاري

المبحث السابع: الشاب الظريف

الفصل السادس

أعلام الشعر: شعراء القرن السابع

المبحث الأول

ابن الساعاتي (604 هـ / 1209 م)

هو علي بن محمد بن رستم بن هَرْدُوز[1]، خراساني الأصل، انتقل والده إلى الشام، وكان ماهراً في صُنع الساعات الفلكية، وإذ توفّر على صنع الساعات التي وُضعت على باب الجامع الأموي، فقد كان له من نور الدين محمود الإنعام الوافر[2]. ومن ثمَّ عُرف الشاعر بابن الساعاتي.

ولد الشاعر في دمشق سنة 553 هـ، ونشأ فيها، حيث تلقى علومه الأولى في الجامع الأموي، وحفظ القرآن صبيا. ويرى شوقي ضيف أن والده أرسله إلى آمد ليتلقى صناعة الآلات الفلكية إلى أحد أبناء البديع الأسطرلابي. وليس إلى البديع نفسه كما ذكر ابن سعيد الأندلسي[3]، وذلك لأن البديع توفي قبل ميلاد الشاعر بنحو عشرين عاماً[4].

وإذ استكمل الشاعر ثقافته في آمد، فقد اتصل بالأيوبيين، فمدح صلاح الدين بقصائد كثيرة، سجّل فيها انتصاراته على الصليبيين، في حطين وبيت المقدس، وقد صحبه في بعض فتوحاته. وكذلك اتصل بأبناء صلاح الدين وبعدد من الوزراء والقضاة. غير أن الشاعر أخذ يتبرّم بحياته في الشام، إذ لم يعد له صديق وفيّ، على نحو

---

(1) ابن سعيد الأندلسي، الغصون اليانعة، ص 1118، وابن خلكان، وفيات الأعيان، 1/ 362.

(2) ابن أبي أصبعة، طبقات الأطباء، 2/ 184.

(3) ابن سعيد، م. س، ص 119.

(4) شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، قسم الشام، ص 156.

ما يتّضح في إحدى مدائحه لنور الدين صاحب دمشق، الذي خَلَفَ والده صلاح الدين، إذ يقول[1]:

أبكتنيَ الأيامُ مذ ضحكتْ ... لي عن نيوبِ نوائبٍ عُصْلِ[2]

أفسْدن خلاّني فما ليَ في السْـ ... ـسراءِ والضرَّاءِ من خِلٍّ

هيهاتَ يمنحُني فواضِلَهُ ... من بات يحسدني على فضلي

وإذ ضاقت به الحياة في بلاد الشام، فقد رحل إلى مصر وهو في السادسة والثلاثين من عمره، وذلك سنة 589 هـ. واتخذ القاهرة دار مقام له، والتقى بعدد من ممدوحيه الذين عرفهم في الشام كالملك نور الدين ووزيره ابن مجاور ومن ثم أصبح شاعر البلاط الأيوبي، فتحسّنت أوضاعه، وانصرف إلى الحياة وملذاتها. غير أن الحياة لم تصفُ له، فقد نُكب في أخريات حياته بفقد أولاده الثلاثة: مودود وعيسى ومحمود، فبكاهم بكاءً مرّاً وحزن عليهم حزنا شديداً، ولم يلبث أن لحق بهم، إذ توفي بالحلّة الكبرى قرب القاهرة، وذلك يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة 604 هـ، ودفن بسفح المقطَّم[3].

لابن الساعاتي ديوان شعر يقع في مجلدين «أجاد فيه كل الإجادة»[4] وطبع حديثا في مجلدين، في بيروت عام 1938م، بتحقيق أنيس المقدسي، غير أن الديوان جاء مقطّع الأوصال، إذ اعتمد المحقق على مخطوطتين، جعل إحداهما أساساً للجزء الأول، واطّرح منها ما وجده في المخطوطة الثانية التي جعلها أساساً للجزء الثاني[5]. وله ديوان آخر غير مطبوع سمّاه «مقطعات النيل».

(1) الديوان، 2/ 18 و 19.

(2) عُصل: معوجَّة كأنياب الأسد.

(3) ابن سعيد، الغصون اليانعة، ص 119.

(4) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 3/ 396.

(5) عمر الأسعد، نصوص من شعر عصور الدول المتتابعة، ص 109.

أغراض شعره

وصف ابن خلكان الشاعر بأنه «شاعر مُبرّز في حَلْبة المتأخرين»[1]. وهو شاعر مكثر مجيد، وتتضح في ديوانه أغراض تقليدية عدّة، أبرزها المديح والغزل والوصف.

1. المديح

يُعد ابن الساعاتي من كبار الشعراء في العهد الأيوبي، إذ اختص بمدح الأيوبيين ووزرائهم وقضائهم. وتلقانا قصيدته اللامية التي مدح بها صلاح الدين سنة 579 هـ، بمناسبة فتح آمد، إذ نراه يمثل بين يديه مادحاً، ومستشعرا بفتح القدس، إذ يقول[2]:

لولا مساعي صلاح الدين ما صلُحتْ شُمُّ الممالكِ بعد الزَّيغِ والمَيَلِ
فليعلمِ القدسُ أن الفتحَ منتظرٌ حلولُهُ وعلى الآفاق فَلْيطُلِ

ونراه يمثل بين يديه مُهنئًا بالنصر العظيم في موقعة حطين، إذ يقول[3]:

جَلَتْ عزماتك الفتحَ المبينا وقد قرَّتْ عيونُ المؤمنينا
قضيتَ فريضةَ الإسلامِ منها وصدَّقْتَ الأماني والظنونا
وقلبُ القدسِ مسرورٌ ولولا سُطاكَ لكان مكتئباً حزينا
أدرْتَ على الفرنجِ وقد تلاقتْ جموعهمُ عليكَ رَحىً طحونا

ولم تمضِ شهور حتى تمَّ الفتح المبين، وتحرّرت القدس وعاد معها المسجد الأقصى، ويبدو أن الشاعر قد اشترك في معركة القدس، إذ يشير في قصيدته إلى أنَّ الفرنجة سلبوه ما كان يحمله[4]. وأيًا كان الأمر، فقد أنشد الشاعر قصيدته، مبتهجاً بهذا النصر، فنسمعه يقول [5]:

لقد ساغ فتحُ القدسِ في كل منطقٍ وشاعَ إلى أن أسمعَ الأَسَلَ الصُّمّا

---

(1) وفيات الأعيان، 1/ 362.

(2) ديوان ابن الساعاتي، 2/ 283-384.

(3) م.ن، 2/ 406-408.

(4) انظر: عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، ص 308.

(5) أبو شامة، الروضتين، 106/2.

فليتَ فتى الخطاب شاهد فتحها   فيشهدَ أنّ السّهمَ من يوسفٍ أصمى
حَبا مكّةَ الحسنى وثنّى بيثربٍ   وأطربَ ذيّاكَ الضريحَ وما ضمّا
وأصبح ثغرُ الدين جذلانَ باسماً   وألسنةُ الأغمادِ تُوسعه لثما

ومدح أبناء صلاح الدين وبخاصة صاحب دمشق الأفضل نور الدين، والتقى به في القاهرة إثر نزوحه إليها بعد أن خسر مُلكه في الشام، فيصف حاله بقوله[1]:

يا بْنَ الملوكِ السابقين إلى العلا   سبق الجيادَ إلى المحلّ الأبعدِ
أحسنتَ في الدّهر المسيء، بأهله   وسمْحتَ في الزَمنِ البخيلِ الأنكَدِ
وكسوتني حُلَلَ العُلا ولربّما   عبثَ الزمانُ بما كَسَوْتَ فجدِّدِ

وفي مصر مدح الملك الأيوبي العزيز عثمان الذي استقلَّ بها بعد وفاة أبيه صلاح الدين. ومدحه بقصائد كثيرة تربو على الثلاثين، وكان يحضر مجالسه وينادمه، إذ يقول[2]:

ولكمْ ليلةٍ إلى اللّذّات فيها ركضَ الجوادِ السبوقِ!
ونجومُ السماءِ كالخيلِ في الحلبةِ من سابق ومن مسبوقِ

ويشير عمر موسى باشا إلى ظاهرتين من مدائح ابن الساعاتي[3]، أولاها أن الشاعر كان يعبث به الغرور أحيانا، واستشهد على ذلك بقوله مخاطباً الملك الظافر مظفّر الدين في قصيدة بعث بها إليه خلال حصار دمشق سنة 596 هـ[4].

ولستُ أميرَ النّظمِ إنْ حَدَتْ   إلى غيرِكَ الوجناءُ أو وصلَ الحبلُ
كفاها جلالاً أنّ فكري وليُّها   وأنك يا نجلَ الملوكِ لها بعلُ

(1) الديوان، 30/2.

(2) م.ن، 82/2 و 83.

(3) أدب الدول المتتابعة، ص 339.

(4) ديوان ابن الساعاتي، 22/2.

وأيا كان الأمر، فهذا غـرورٌ لا يرقـى إلى غـرور المتـنبي الـذي مـلأ بـه شـعره. وثانيهما، أن الشاعر كثير التحدّث عن الحُسّاد والحسد. سـواء في الـشام أو في مـصر، دون أن يُسوِّغ ذلك، في مثل قوله لصديقه الوزير صفي الدين القايض سنة 582 هـ في ختام قصيدة مدحه بها في الشام[1]:

ولــستُ أقــولُ للحُــسّادِ هَجــراْ ... كفــى الحُــسّاد كبتــاً مــا أقــولُ
إذا طُبعــوا علــى شــيء فــدعهم ... فتغــييرُ الطبــائع مــستحيل

ولعلّ هؤلاء الحسَّاد كانوا ينفسون عليه مكانته عند رجالات الدولة، فضلاً عن جمال شعره الذي تحدّى به أدباء عصره، يضاف إلى ذلك غروره الـذي نجـده في بعـض مدائحه.

2. الوصف

وصف الطبيعة من خلال وصف مجالس الشراب والغناء، فقد خرج لنزهة قبيل رحيله عن الشام، فاجتمع. بخلاّنه على مجلس شراب، وفي أثناء ذلك أرعدت الـسماء وأبرقت فانهمرت الأمطار، فأنشد يصف هذا المنظر، وقد طلب منه خلاّنه ذلك[2]:

والرّعـدُ يـشدو والحيـا يـسقي وغُـصـ ... ـنُ البـانِ يـرقصُ والخمائـلُ تـشربُ
وكأنمـــا الـــساقي يطـــوف بكأســـه ... بـدرُ الـدُّجى في الكـفِّ منـه كوكـبُ
بكـــرٌ بهـــا نَقْـــعُ الغليـــلِ ومُعجِـــبٌ ... نقـــعُ الغليـــلِ بجـــذوةٍ تتلّهـــبُ
يفتــضّها مــاءُ الغمــامِ ويــا لــه ... عجبــاً غــداةَ الــدّجنِ وهــو لهــا أبُ
حمــراءُ حارَبْنــا الــصروف بــصرفها ... فزجاجهـــا بـــدم الهمـــومِ مُخـــضَّبُ
والقَطْـــرُ نَبْـــلٌ والغـــديرُ ســـوابغٌ ... موضـــونةٌ والـــبرقُ ســـيفٌ مُـــذْهبُ

(1) الديوان، 103/2.

(2) م.ن، 68/2.

فأنت تراه قد جمع بين وصف الطبيعة (الرعد – الحيا – البان – الخمائل – البدر – الكوكب – ماء الغمام – الرصن)، والشراب (الساقي – الكأس – نقع الغليل – جذوة تتلهب – حمراء – زجاجها). ونلاحظ تصنعه البديعي، إذ أكثر من استعمال مراعاة النظير، في البيتين الأول والأخير، فقد جمع بين أمر وما يناسبه: الرعد – يشدو الحيا – يسقي، غصن البان – يرقص، الخمائل – تشرب، وما إلى ذلك.

ووصف الليل وصفاً تقليديا، ونسج على منوال الأقدمين، دون أن يبلغ شأوهم إذ يقول[1]:

خليليَّ ما بالُ النجومِ كأنما ... أبى الليلُ أن تسري بأُفقٍ كواكبُهْ
تعاظم واطغوغى وألقى بعاعه ... وأقبل كالبحر الذي أنا راكبُهْ
أهابُ عواديه وآملُ خوضَهُ ... وكيف يخوضُ اليمَّ من هو هائبُهْ
كم استأذنت عيني على فجر خدره ... فما رُفعتْ أستاره وهيادبه
أرى كلَّ صبغٍ يصحبُ الدهرَ لونُهُ ... سينصُلُ إلا جُنحهُ وغياهِبُهْ
ولم أرَ مثلَ الليلِ طوراً للاجئٍ ... مهالكُهُ حُفَّتْ بهنَّ مطالبُهْ

فهو يترسم خُطا الجاهليين وينسل صورهم، فالليل الذي لا تسري كواكبه هو ليل امرئ القيس الذي شدَّت نجومه بيذبُل، وليل النابغة بطيء الكواكب. أما الليل الثقيل الذي يُقبل مثل البحر فهو أشبه ما يكون بليل امرئ القيس الذي أرخى سدوله كموج البحر وشاعرنا لا يتكافأ في تصويره مع تصويرهما البديع، إذ جاءت صوره ثقيلة لا جمال فيها. وهو يتماهى مع ابن الرومي في الخوف من اليَمّ.

ونراه يعمد إلى تصعيب اللفظ وتعمد الغريب في مثل قوله: «اطغوغى، بعاعه، هيادبه».

وكثيراً ما يذكر في مطالع مدائحه متنزهات دمشق وما يحيط بها من رياض وجداول ورُباً. وهو لا يكتفي بالوصف المجرّد لها، وإنما يضفي عليها مشاعره

(1) ديوان ابن الساعاتي، 333/2.

وانفعالاته الوجدانية، بعد أن رحل عن الشام إلى مصر، من ذلك ما جاء في مستهل قصيدة بعث بها إلى الأمير سيف الدين محمد عند قدومه من دمشق إلى القاهرة، إذ يقول[1]:

أشاقكَ برقٌ بالشآم يُشامُ فدمعكَ لو يُطفي الغليلَ سِجامُ
تَوَدُّ الحشا إيماضه وهو جُذوةٌ ويشتاقه جفناي وهو حُسامُ
أأحبابنا بالغوطتين وجِلَّقٍ سلامٌ، وهل يُدني البعيد سلامُ؟
فلا ضُرِّجَتْ في الدّوحِ للوردِ وجنةٌ ولا اهتزَّ من هِيفِ الغصونِ قَوام

نلاحظ في هذه القصيدة أن الشاعر يخالف مذهبه الفني، فقد رقت ألفاظه واعذوذبت، واتّسمت تراكيبه بالجمال، فضلاً عن أن عاطفته جاءت صادقة ومعبّرة عن حنينه إلى الشام بكل خلجات قلبه.

ونراه يبعث بقصائد إلى صديقه الوزير الصاحب صفي الدين بن القابض، تزيد على العشرين، اتسمت بطابعها الشامي، في مثل قصيدته التي مدحه بها سنة 582 هـ، وصف ربيع دمشق، إذ يقول[2]:

ما جِلّقُ الفيحاءُ إلا جنّة فضّلها وحيُ الغمامِ المُنزَلُ
كم نِعَمٍ للعيشِ في أرجائها يُفصحُ عنها سهلُها والجبلُ!
بنفسجٌ مثل الخدودِ قُرّصتْ ونرجسٌ ما هو إلا المُقَلُ
بكى الحمامُ فالثرى مبتسمٌ ورقص الدّوح وغنى الجدول

ويلفتنا - في هذا الوصف - التشخيص الحي، للطبيعة وبخاصة في البيت الأخير. وتلقانا صورْ البنفسج الذي تحكي حُمرته آثار قرص الخدود، والنرجس الذي تحكي صفرته وبياضه العيون. وهي صور منتزعة من البيئة الشامية.

(1) ديوان ابن الساعاتي 204/1.

(2) م.ن، 185/2 و 186.

المتخير من شعر ابن الساعاتي(*)

وقال من قصيدة في مدح صلاح الدين(*)

حنينٌ ولكن أين منك زَرودُ[1] وشوقٌ ولكنَّ المزار بعيدُ
نعم إنها نفسٌ تتوق إلى الصِّبا وهيهات[2] ماضي العيش ليس يعود
تقيم على بأسٍ وللشوق في الحشا ذميلٌ[3] إلى سكانها ووخيد
مَرادٌ [4] وما فيه لِطَرْفك مسرح وماء ولكن ما إليه ورود
وفي الدَّمع بَعد البَيْن ما يَنقعُ الصَّدى[5] بلى ما لِنارِ العاشقين خمود
ينِمُّ[6] شحوبي بالذي أنا كاتمٌ ويُفصِح جَفني واللسانُ بليد
قضيَّة وجدٍ والسقامُ دليلها ودعوى غرامٍ والدموعُ شهود
ولي بالحمى[7] قلبٌ بعيدٌ إيابُه أسائل عنه الحيَّ وَهْو فقيد

(*) نقلا عن: نصوص من شعر عصور الدول المتتابعة للدكتور عمر الأسعد، ص 115-118.

(*) الديوان ص 63. وأخذ هذا القسم من القصيدة من الجزء الأول من ديوان الشاعر ولم أجد تمامها فيه (انظر الكلام على ديوانه في ترجمته) ولم أجد الجزء الثاني من الديوان على صرف الجهد في الوصول إليه. والأبيات من الطويل، والقافية من المتواتر.

(1) زرود: اسم موضع.

(2) هيهات: اسم فعلٍ ماضٍ بمعنى بَعدُ. وتاقت النفس إلى الصّبا: نزعت إليه.

(3) الذّميل: السير اللين السريع. والوخيد والوَخد: ضرب من السير يرمي فيه البعير بقوائمه كمشي النّعام.

(4) المَراد: موضع الرّياد وهو المكان الذي يُذهب فيه ويُجاء. والطرف: النظر، ومسرح الطرف: مداه.

(5) ينقع الصّدى: يذهبه، والصدى: العطش الشديد.

(6) ينمّ: يدلّ ويُظهر. والشُّحوب: الهزال. أراد أن شحوبه يدلّ على ما يكتمه من الوجد، وجفنه يفصح عن ذلك بإهراق الدموع، ولسانه يعجز عن البيان.

(7) الحمى: الديار. أراد بمساءلة الحي مساءلة أهله. وفقيد: فعيل بمعنى مفعول.

سليبُ سيوفِ الهند وَهْي لَواحظٌ[1] ونَهبُ رماحِ الخَطِّ وهْي قدود
إذا حدَّثت ريحُ الصَّبا[2] عن غصونِه فللوجدِ منهُ طارفٌ وتليد
خليليَّ يومَ المنحنى[3] هل علمتُما بأنَّ قتيلَ الغانياتِ شهيد
غداة[4] لحاظُ البيضِ بيضٌ صوارمٌ وسُودُ الجفونِ الفاتراتِ أسود
مهاً[5] رُجَّحُ الأكفالِ مثقَلةُ الخُطا خِماصُ الحشا هِيفُ المعاطفِ غيد
فللحُسْنِ منهنَّ النضارةُ[6] والصِّبا وللحزنِ منَّا أدمعُ وخدود
فلا تطلبا مني مزيدَ صبابةٍ فبرحُ اشتياقي[7] ما عليه مزيد
تَغيَّر في حُكمِ الهوى كلُّ صاحبٍ كذاك الليالي ما لهنَّ عُهود

---

(1) اللواحظ: العيون، جمع لاحظة. وسيوف الهند: المطبوعة من حديد الهند وهي خير السيوف. والخطّ: موضع في البحرين تُنسب إليه الرماح لأنها تُباع به. وقلبه نَهْبُ الرماح: معرّضَ للإصابة بها. شبه نظرات العيون بالسيوف، والقدود بالرماح، وجعل قلبه سليب تلك ونهب هذه.

(2) ريح الصَّبا: ريح تهبّ من المشرق. والطارف: الحديث. والتليد: خلافه. أراد أن وجده وجدٌ متَّصل.

(3) المنحنى: موضع الغانيات: جمع غانية وهي المرأة الغنية بجمالها عن الزّينة.

(4) غداة: ظرف زمان بمعنى حين. واللّحاظ: مؤخر العين. والبيض الأولى: جمع بيضاء وهي المرأة. والثانية: جمع أبيض وهو السيف. وصوارم: جمع صارم. وجفن فاتر: منكسر الطرف.

(5) المها: جمع مهاة وهي البقرة الوحشية تُشبّه بها المرأة لعيونها. والأكفال: جمع كَفَل وهو العَجز. ورُجَّحُ الأكفال: ثقيلاتها. وأراد بكونهن مثقلات الخطا: منّعمات. وخِماص: جمع خميص، والمؤنث خميصة. والحشا: ما اضْطَمت (أي اشتملت) عليه الضلوع. وخماص الحشا: ضامراتها. وهِيفْ: جمع أهيف، والمؤنث هيفاء، والهَيْف: ضُمرْ البطن والخاصرة. والمعاطف: جمع مِعطف وهو الرداء. وأراد بهيف المعاطف هِيْف ما انطوت عليه. والغِيد: جمع أغيد، والمؤنث غيداء. والغَيَد: النعومة.

(6) النضارة والنضرة بمعنى، وهو الحسن والرونق.

(7) بَرْح الشوق: شدّته.

فللغمض بعد الظّاعنين[1] قطيعة — وللطّيفِ من بعد الفراق صدود
فيا كبدي أين الهدوُّ[2] من الجوى — ويا جفنَ عيني أين منك هجود؟
يؤرّقني[3] البرقُ الحجازيُّ كلّما — سرى والعيونُ المُسهِراتُ رُقود
يؤمّ[4] الحيا طَلْقَ الأسرَّةِ باسماً — كوجهِ صلاح الدِّينِ حين يجود

---

(1) الظاعنون: المرتحلون، جمع ظاعن. أراد: امتنع عليه بعد فراقهم النوم وصدّ عنه الطّيف.

(2) الهدوّ: مقصور الهدوء. والجوى: شدة الوجد والحُرقة. والهُجود: النّوم والسّهر، من الأضداد، وأراد هنا الرّقاد.

(3) يؤرقني: يُسهرني. والبرق الحجازي: الذي يلمع تلقاء الحجاز. وسرى البرق: عرض ليلاً. وسرى وأسرى بمعنى، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: 1]. وأراد بالعيون المُسهرات عيون الحبيب.

(4) يؤم: يقصد. والحيا: الخصب أو المطر. والأسرّة: خطوط الوجه والجبهة، جمع سِرار. وطَلْقٌ: مُنطلِقها، وطَلْق الوجه: ضاحكه.

المبحث الثاني

الشّهاب الشاغوري (-615 هـ / 1318 م)

هو فتيان بن علي بن فتيان الأسدي الشاغوري، ولد في بانياس على ساحل حمص سنة 533 هـ[1]. وانتقل به أبوه صبيا إلى دمشق، حيث نشأ في «حيّ الشاغور» ونسب إليه. وتلقى علوم اللغة والشريعة في الجامع الأموي.

أقام مدة في الزبداني القريبة من دمشق، فسكنها وعمل فيها معلماً. وله أشعار في وصف طبيعتها الجميلة، بثلوجها وشدّة قرّها. وكان بينه وبين معاصره ابن عُنين مُكاتبات ومُداعبات، فقد زاره ابن عنين ذات يوم، ولم يجده، فأخذ لوحاً من أحد الطلبة، وكتب له فيه[2]:

أتيتُ فما حظيتُ لسوء بختي ... بخدمة سيدي ورجعتُ خائبْ

إمامٌ ما تيمّمناه إلا ... رجعنا بالرّغائب والغرائبْ

توفي الشاغوري «سحر الثاني والعشرين من المحرّم سنة 615 هـ»[3]، ودُفن في مقبرة باب الصغير.

ذكر ابن خلكان أنه «كان فاضلاً وشاعراً ماهراً»[4] وأنّ «له ديوان شعر فيه مقاطيع حسان»[5]. ويرى عمر موسى باشا أنّ الشاعر لم يقم بجمع ديوانه في حياته، وإنما قام بذلك ابنه بعد سنوات من وفاته[6]. وطُبع حديثا في دمشق، وقد طبعه مجمع اللغة العربية سنة 1976، بتحقيق أحمد الجندي.

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 408/1 وانظر في ترجمته: الخريدة، 247/1. والنجوم الزاهرة، 274/1.

(2) ديوان ابن عنين، ص 119.

(3) ابن خلكان، م.س، 24/4.

(4) م.ن.

(5) م.ن.

(6) أدب الدول المتتابعة، ص 335.

أغراض شعره

يدور شعره حول أغراض تقليدية، كالمديح والغزل والوصف والهجاء.

1. المديح

اتخذ الشاعر المديح أداة تكسب، لحاجته وفقره، فقد مدح كثيرين من البيت الأيوبي في مقدمتهم السلطان الناصر صلاح الدين، إذ مدحه بعدة قصائد، منها قصيدة رائية تبلغ نحواً من مائة بيت، وقد أنشده إياها في قلعة دمشق بعد فتح بيت المقدس الذي تمَّ في رجب من سنة 583 هـ، أشاد فيها ببطولته وصوّر هول الموقف على الصليبي المحتلّ، إذ يقول[1]:

فلقد وأذْتَ الشّرك يوم لقيتهم ... وغدوت للإسلام عينَ المنشرِ
وأريتهم لّما التقى الجمعان باليـ ... ـتِ المقدّس هول يوم المحشرِ
ورَدَدْتَ دين الله بعد قطوبه ... بالمسجد الأقصى بوجهٍ مُسفِرِ

واختصّ بخدمة الأمير نور الدين مردود، القريب من صلاح الدين، فمدحه بقصائد كثيرة، منها قصيدته التي وصف فيها دمشق ودعا ممدوحه إلى التغني بها، ثم انتقل إلى ممدوحه، بقوله[2]:

أشكو إلى الأشواقِ ما شكته جلّـ ... ـقٌ إلى المودود من أشواقها
حقٌّ لبدر الدين أن تحسده ... على العلا البدورُ في اتساقها
ما غَلَّ في الحربِ، ولكنْ غلّ أيـ ... ـدي عُصَبَ الكفر إلى أعناقها
لا فتئتْ أيّامهُ سعيدةً ... لا تنكثُ الدهرَ قوى ميثاقها

وإذ أطنب في ذكره، كتب إليه ابن عُنين مُداعباً[3]

يا مَنْ تلقّبَ ظلماً بالشهاب وإنْ ... أضحى بظلمته قد أظلم الشُهبا
لا تخدعنَكَ من مودودِ دولته ... وإنْ تعلّقتَ من أسبابها سَبَبَا

(1) الديوان، ص 147.

(2) م.ن.

(3) ديوان ابن عنين، ص 213.

ومدح الملك العادل وزيره صفي الدين بن شكر، فكان يرسل مدائحه إليهما؛ لأنه لم يغادر الشام طوال حياته. ومدح صاحب حماة تقي الدين عمر، وصاحب بعلبك فرّوخشاه وابنه بهرام شاه.

وله مدائح نبوية، عبّر فيها عن حبّه للنبي ﷺ، بقوله[1]:

فأنت رسولُ اللهِ وهي شهادةٌ ... أُقِرُّ بها حتى المعاد وأشهد

وإني لذو شوقٍ إليكَ مُضاعَفٍ ... بواعثه لا تأتلي تتجدَّدُ

2. الوصف

التفت الشاعر إلى الطبيعة، فوصف ربيع دمشق، وقد تزيّنت بحلله، وابتهجت بأزهاره، ورقّت بنسيمه، فيقول[2]:

أهدتْ لها يدُ الربيعِ حُلَّة ... بديعة التفويف من خلاقها

بنفسجٌ مثلُ خُدودٍ أُدميتْ ... بالقرصِ والتجميش من عشاقها

ونرجسٌ أحداقُهُ رانيةٌ ... عن مُقَلِ الغيدِ وعن أحداقِها

تنزَّلَ المنثورُ من رياضها ... تنزُّلَ الأعلام من شَقاقها

فأرضُها مثلُ السماء بهجةً ... وزهرُها كالزّهر في إشراقها

مياهُها تجري خلالَ روضها ... جريَ الثعابين لدى استباقها

مُسفرةٌ أنهارُها ضاحكة ... تنطلقُ الوجوهُ لانطلاقها

نسيمُ ريّا روضها متى سرَى ... فكَّ أخا الهمومِ من وثاقها

لا تسأمُ العيونُ والأنوفُ من ... رؤيتها يوماً ولا استنشاقها

ويلفتنا – في هذا الوصف – شيوع ألفاظ البنفسج، والنرجس، والمنثور، والزّهر وما إلى ذلك. ووصف بعد ذلك أرضها ومياهها، معتمداً على الاستعارات والتشبيهات في رسم لوحته الدمشقية. وتبدو ساديته في تشبيه البنفسج بالخدود التي

(1) الديوان، ص 108.

(2) ديوان الشهاب الشاغوري، 324.

أُدميتْ بالقرص. واستخدم الاقتباس في قوله «مسفرة أنهارها ضاحكة». ومن ثمَّ فقد جاءت أبياته وهي تفيض رقة وسهولة.

ويرسم لنا صورة الزبداني، وقد أعجب بها، وأقام بها زمناً، إذ يقول[1]:

يـا جنّـة الزبـداني أنـتِ مـسفرةٌ   عن وجه حُسنٍ إذا وجه الزمان كَلَحْ
فالثلجُ قطنٌ عليكِ، السُحبُ تحلجه   والجوّ ندّافُه، والقوسُ قوسُ قُزحْ

فقد راقة الثلج المتساقط في شهر كانون، وكأنه قطن مندوف، فالسحب تندفه بقوس قزح، والجو يحلجه، وهي صورة جميلة استمدها الشاعر من بيئة الشام.

3. الرّثاء

رثى عدداً من أعلام عصره، كالعلماء والفُضلاء وأصحاب المناصب؛ فقد رثى شيخه الحافظ المؤرخ ابن عساكر المتوفى سنة 571 هـ بقصيدة تعد من أروع مراثيه، ومنها[2]:

أيُّ رُكـنٍ وهـى مـن العلمـاءِ   أيُّ نجـمٍ هـوى مـن العليـاءِ
إنّ رُزء الإسـلام بالحـافظ العـا   لِمِ أمسى من أعظم الأرزاء
أقفـرتْ بعـده ربـوعُ الأحاديـ   ـثِ وأقْـوتْ معـالمُ الأنبـاءِ
كـان علاّمـةً ونسّابةً لم   يخفَ عنه شيءٌ من الأشياء

وهي تمضي على هذا النحو من التهويل والمبالغة، فهو يُهوّل المصيبة بفقده، إلى حدّ القول بأنه من أعظم الأرزاء، وأن كل ربوع العلم بعده قد أقفرت وأقوت.

صنو ذلك مرثيته في القاضي أبي الفضل كمال الدين الشّهرزوري، إذ يقول[3]:

عـدِمَ الإسـلامُ معـدومَ المثـالِ   وَهَـوتْ مـن أوجهـا شمسُ المعـالي
وسمـاءُ الـدينِ قـد رانَ علـى   بـدرها النُّقصانُ من بعد الكمالِ
والقـضايا قاضـياتٌ نحبهـا   إثْـرَهُ حزنـاً علـى تلك الخلالِ

(1) ديوان الشهاب الشاغوري، 246.

(2) م.ن، ص 58.

(3) م.ن، ص 456.

ولعلك تلاحظ أن هذه الأبيات يغلب عليها التضخيم، فشمس المعالي هَوَتْ من أوجها، وبدر السماء قد ران عليه النقصان، وهي لا تخلو من فنون البديع كالطباق (النقصان والكمال) والجناس (القضايا وقاضيات) واستخدم الاقتباس في قوله: (قاضيات نحبها).

ويتوفى تقي الدين عمر صاحب حماة فيؤبّنه بمرثية على هذا النهج، ويشيد بشجاعته في حرب المعتدين، فيقول:

وكيف يُلامُ المسلمون على الأسى ... وقد عَدِمَ الإسلامُ ناصِرَهُ عُمَرْ

قد كان يلقى المرهفاتِ بوجهه ... وسُمْرُ القنا بالصَدر في الوِرد والصَّدَرْ

فقد استخدم الطباق في كلمتي (الورد والصَّدر)، والجناس الناقص في كلمتي (الصّدْر والصَّدَر).

4. اغراض اخرى

وله غزل تقليدي يأتي به في الغالب في مقدمات قصائده ويمزجه بوصف الطبيعة والخمر، وفي ديوانه أشعار في حديث النفس ومناجاتها، وقد يشكو من الدهر والناس، فكان يُحبّذ أن يأتيه الحظ السعيد وهو قاعد في كُتّابه، إذ يقول[1]:

علام تحرّكي والحظّ ساكن؟ ... وما نهنهتُ عن طلب ولكنْ

أرى نذلاً تُقدّمه المساوي ... على حُرٍّ تؤخره المحاسن

وهي شكوى نجدها عند ابن الرومي، حين قعد به الحظ، ولم ينل ما يتمنى أو ما يرى أنه جدير به.

وله قصيدة في الشكوى نسجها على منوال الطغرائي صاحب لامية العجم، نلمس فيها اعتزازة بنفسه، وترّفعه عن ذل السؤال ومنها[2]:

يا نفسُ صبراً على ما قد مُنيت به ... فالحرُّ يصبر عند الحادثِ الجَلَلِ

وله هجاء مُقذع، لم يسلم منه صديقه ابن عُنين.

(1) انظر: وفيات الأعيان، 24/4.

(2) الديوان، ص 340.

سمات وخصائص

1. مذهبه الفني هو مذهب الصنعة البديعية، فقد أولع بالطباق والجناس دون إسراف فيهما. واتخذ في صنعته مذهبا وسطا بين اتجاهين معروفين في عصره، اتجاه من سبقه من الشعراء، واتجاه من جاء بعده. وكانت صوره مستجدة، وإن كان يتكلّف في بعضها.
2. سار على خُطا أبي نواس، إذ نراه يدعو صاحبه إلى ترك التغني بزينب والعرب والنّقا، ويطلب منه أن يُعرّج على دمشق ذات الجنان فتسمعه يقول:

دع العُريب والنّقا وزينبا   تجذبُ للبين بُرى نياقها
وعُجْ على دمشقَ تَلْفَ بلدةً   كأنما الجناتُ من رُستاقها[1]

وهو مثله شاعر لهو وخمر، ولكنه لم يبلغ شأو أبي نواس في وصفها.

(1) الرستاق: كل موضع فيه مزارع (فارسية) وهو عند الفرس بمنزلة السّواد عند أهل بغداد.

المتخير من شعر فتيان الشاغوري(*)

وقال في الحنين(*):

أستودعُ اللهَ(1) مَن إن حلَّ أو ظَعنا ... لم يتَّخذ غير أحشائي لهُ وطنا
يا ساكناً في فُؤادي(2) وهوَ يحرقُه ... وليسَ قلبي براضٍ غيرَهُ سكنا
يا قاتِلي عامِداً لو قيلَ: هلْ أحدٌ ... يحبُّ قاتِلهُ عمداً؟ لقلتُ: أنا
أما وأجفانِكَ(3) الوَسنى ومنظرِك الـ ... أسنَى لقد هَجَرَتْ أجفانيَ الوَسَنا
لا تحسبوا أنَّني من بَعْدِ بُعْدكُمُ ... نظرتُ في النَّاس يوماً منظراً حَسنا
وداعُكم أوْدَعَ الأَسقامَ(4) في بَدني ... مُذْ حَثَّ حاديكمُ يومَ النَّوى البُدُنا
أنتُم خلعتُم علينَا من صُدودكمُ ... - لَمَّا نزعنا ثيابَ الصبرِ - ثوبَ ضنى(5)
أودعتُمُ السَّمع قِدماً من حديثِكم ... عُقُودَ دُرٍّ(6) لَّما غَلتْ ثمنا
خُذوا دُموعي الّتي من مُقلتي انتثرت ... فهيَ العُقُودُ الَّتي أودَعتُمُ الأُذُنا
نِمتُم وأسهرتُمونا وحشة(7) لكُمُ ... أوحشْتُمونا وما تَستوحشُون لَنا
جدَّ الرَّحيلُ غداةَ البَينِ وارتحلوا ... واحسْرتا من سُرورِ الشّامِتين بنا

(*) نقلا عن: نصوص من شعر عصور الدول المتتابعة، الدكتور عمر الأسعد، ص 176 وما بعدها.

(*) الديوان ص 513. والقصيدة من البسيط، والقافية من المتراكب.

(1) أستودِعُه الله: أسْتحفِظُه إيَّاه. وظَعن: سار وارتحل.

(2) سكن في الفؤاد: أقام به. والسَّكَن: ما تسكن إليه النفس وتستأنس به.

(3) أجفان وسنى: فاترة. ومنظرك الأسنى: المضيء المشرق. والوسن: النّعاس.

(4) أودع الوداع الأسقام في البدن: جعلها عنده وديعة. يوم النوى: يوم الفراق والبُعد. والبُدُن: جمع بدَنة وهي في الأصل: ناقة أو بقرة تنحر بمكة، سُمّيت بذلك لأنهم كانوا يسمّونها، قال تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ ﴾ [الحج: 22، 36]. وحثّ الحادي البُدن: استفزّها سائقها للسير.

(5) الضّنى، المرض. نفد صبره فاعتراه الضنى.

(6) إن الدرّ (حديث المحبوب) الذي التقطته أذنه منظوماً، بَدّدثه عينه منثوراً (دموعاً).

(7) الوحشة: الخلوة والهم، وقد أوحشت الرجل فاستوحش.

وغـادَروني أنـادي خلـفَ عيـسهُمُ[1] رِفقـاً فـوا حَرَبـا للـبينِ واحَزنـا
لو قيلَ لي ما تَمنَّى[2]؟ قُلتَ عَـوْدُ ليا لينـا بخيـفِ مِنـى حَسبي بـذاكَ مُنـى
ولـستُ آيـسُ[3] مـن لُطـفِ الإلـه يَقـضي بعَـوْدِ ليـالي الوَصـلِ تَجمَعُنـا

وقال يمدح الملك المظفر تقيّ الدين محمود[*]:

مـشيبٌ زارَ في شـرخ الـشَّبابِ[4] حـسبتُ بـه صبـاي مـن التَّـصابي
وخِلـتُ صـباحَه[5]في ليـلِ فَـودي يُخـلُّ بوصـلِ زينـبَ والرَّبـاب
وراعَـك مـا بـدا لـك مـن ولـوعي بكـأسِ الـرَّاحِ أو كـأسِ [6]الرُّضـابِ
فكنـتَ محـاولاً بـاللَّوم رَدعـي لقـد أضـحكت مـن بعـد انتحـاب
عَجِلتَ ومـا عرفـتَ حـسابَ عُمـري بلـومٍ لم يكـنْ لـي في حـسابِ
ولـو بـسطتْ لـك العـشرون عُـذري ظننـتَ بيـاضَ شـيبي مـن خـضاب
وَفَـى لَـيْنُ المعـاطفِ[7]والـسَّجايا وصـالي دأبُـهُ ورضـاهُ دابـي

---

(1) العيس: الإبل، جمع أعيس. الحَـرَب: الويـل والهـلاك. وا: للندبـة، ويقـال: واحربـا لإظهـار الحـزن والتأسّف.

(2) تمنى: الأصل تتمنى. والخَيْف: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع من مسيل الماء ومنه سمي خَيْـف منى، انظر معجم البلدان: خَيْف.

(3) أيسَ: يئس وانقطع رجاؤه.

(*) الديوان ص 75. والقصيدة من الوافر، والقافية من المتواتر. والممـدوح هـو المظفـر الثـاني تقـيّ الدين محمود بن المنصور محمد بن المظفر الأول تقي الدين عمر (599 – 642 هــ) ثالـث ملـوك حماة الأيوبيين. مولده ووفاته فيها. كان شجاعاً كريماً ذكياً محبًّا للعلماء (182:7).

(4) شرخ الشباب: أوّله. والتّصابي: الميل إلى الجهل والفتوّة واللهو.

(5) صباح المشيب: بياضه. والفَود: معظم شعر الرأس ممّا يلي الأذن. وليل الفَود: سواد الشعر.

(6) الرّضاب: الرّيق، شبّهه بكأس تُشرب.

(7) في الديوان: وفي ليْن المعاطف، ولا معنى له. واللَّين مخفّف من لَين. يقال: شيء ليّن. والمعاطف: جمع معطف. والسّجايا: جمع سجيّة وهي الخُلق والطبيعة. والدّأب: العادة والشأن، وقد يُحـرِّك، وسهّلت همزته لضرورة الشّعر.

دعَـــتْ قلـــبي محاســـنُه فلبّـــى ولم يعطـفْ علـى البكـر الكَعـابِ[1]
ولم يَمِلـكْ علـيَّ لُبـابَ مَـدحي سـوى محمـودِ الملـكِ اللُّبـابِ[2]
فتـــىً وَجَـدَ الثّنـاءَ أعـزَّ كنـزٍ ومـا فـوق التُّـرابِ مـن التُّـرابِ
عَطايـا كفّـه أسـنى العطايـا[3] لنـا، وطِلابُـه أسـنى الطِّـلابِ
غمـامٌ، وفـوقَ عزمتِـهِ حُـسامٌ يـصيدُ الأسـدَ منـهُ بالـذُّباب[4]
رأيتُـكَ يـا فتـى المنـصور[5] طَـوداً يُنيـفُ مـن الملـوك علـى هـضاب
إذا بَـذلوا القطـائعَ[6] للأعـادي فـدأبُكَ فـيهمُ قطـعُ الرِّقـابِ
وأنـتَ البـدرُ بهّـارَ الـدَّراري[7] وأنـتَ البحـرُ زخّـارَ العُبـابِ
وَصَـلْتَ إلى نهايـة كـلِّ مجـدٍ جـوادُ الـبرق عـن أدنـاهُ كـابِ[8]
ليَهْنِـكَ[9]فـضلُ شـعبان المُبـاهي بملكـكَ سـالكاً أهـدى الـشِّعاب
وعِـشْ بالبـذل مـأهولَ المغـاني[10] ودُمْ بالعـدلِ محـروسَ الجنـابِ

---

(1) الكعاب: الكاعب، وهي الجارية إذا بدا ثديها للنّهود.

(2) اللُّباب واللّب: الخالص من كل شيء. ومن المجاز: رجل لُباب من قوم لُباب.

(3) أسنى العطايا: أشرفها وأرفعها. والطلاب: مصدر طالب.

(4) ذباب السيف: طرفه الذي يُضرب به.

(5) المنصور: هو والد الممدوح. والطّود: الجبل العظيم، قال تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الشعراء 26: 63]. وأناف على الشيء أشرف عليه.

(6) القطائع: جمع قطيعة، وهي طائفة من الأرض، يملّكها الحاكم لمن يريد منحةً.

(7) الدّراري: جمع درّي (بضم الدّال وكسرها) وهو الكوكب الثاقب المضيء. المتلألئ، نسبةً إلى الدرّ لبياضه. غلبه حسناً. والعُباب: ارتفاع الموج واصطخابه. وزخر النهر: طما وفاض.

(8) كبا: سقط، فهو كاب.

(9) ليَهْنِك: من التهنئة. والأصل أن يقال: ليهنئك بجزم الهمزة، وليهنيك بياء ساكنة. وحذفت الهمزة لضرورة الشعر. والشعاب: جمع شِعْب، وهو في الأصل الطريق في الجبل.

(10) في الديوان: مأهول المعاني، والصواب ما أثبته. والمغاني: المواضع والمنازل، جمع مغنى.

المبحث الثالث
ابن عُنين (-630 هـ /1232 م)

هو أبو المحاسن شرف الدين محمد بن نصر بن الحسين بن عُنين الأنصاري، كوفي الأصل، إذ نسمعه يقول: «إن أصلنا من الكوفة من موضع يُعرف بمسجد بني النجار، ونحن من الأنصار»[1] هاجرت أسرته من الكوفة إلى بلاد الشام حيث ولد في دمشق. يوم الاثنين تاسع شعبان سنة 549 هـ[2]. ونشأ في أسرة فقيرة وكان منزله قبليّ الجامع الأموي.

وتلقى ثقافته في دمشق وبغداد حيث تزوّد من اللغة والأدب بأوفر نصيب. ومن ثمّ تفتحت موهبته الشعرية في سن مبكرة، وهو ابن ست عشرة سنة لعهد نور الدين زنكي الذي كان مشغولاً عن الشعراء، لا يُقرّبهم ولا يُقبل عليهم. ومات نور الدين سنة 569 هـ وابن عنين في ريعان الشباب. وشهد قيام الدولة الأيوبية في دمشق، لكنه لم يتقرب من السلطان إذ شرع يمدح الأمراء والسلاطين لكسب رزقه فإنه لم يُحقق ما يصبو إليه، ومن ثمّ اتجه إلى هجاء الناس وهجاء الحكام والقضاة والفقهاء والوزراء والأمراء. وتهكّم بهم في قصيدة هجائية مطوّلة سمّاها «مقراض الأعراض»، وتتألف من خمسمائة بيت، تطاول فيها على السلطان صلاح الدين الأيوبي، وأفراد حاشيته وخصوصا وزيره القاضي الفاضل ونائبه العماد الكاتب، إذ يقول[3]:

سلطاننا أعرجٌ وكاتبه ذو عَمَشٍ والوزيرُ مُنحدِبُ
وصاحبُ الأمرِ خلقهُ شرسٌ وعارضُ الجيش داؤه عجب

فرُمي بالزندقة وسوء الاعتقاد والتطاول على الدولة ورجالاتها، ونفاه السلطان من دمشق إلى الهند مدى الحياة، فخرج وهو يجأر بالشكوى، إذ يقول[4]:

فعلامَ أبعدتمْ أخا ثقةٍ؟ لم يجترمْ ذنباً ولا سرقا

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 384/2.
(2) م.ن، ص 25.
(3) الديوان، ص 210 و 211.
(4) م.ن، ص 94.

انفــوا الإمــامَ مــن بلادكــمُ   إنْ كــان يُنفــى كُــلُّ مــن صَــدَقا

لكونه «يعتقد أنه مظلوم، وأنه ما تحدّث في شعره بغير قول الحق»[1] وأخذ الشاعر يتنقّل في العراق والجزيرة واليمن والهند ومصر وما وراء النهر وفي غيرها ولقي في الريّ حظوة عند فخر الدين الرازي ومدحه وأخذ من علمه وعطاياه. وإذ استقرّ في الهند اشتغل في التجارة، ولقي نجاحاً، وسافر إلى الآفاق وأصبح يملك ثروة كبيرة [2]. ولم تنقطع صلة الشاعر بالشام، فهو دائم الحنين إلى غوطتها الخضراء، فيخاطبها متلهفاً:

ألا يــا نــسيمَ الــريحِ مــن تــلّ راهــطٍ   وروضِ الحمى كيف اهتديتَ إلى الهندِ[3]

وأحسَّ الشاعر بخطئه الفادح، إذ أيقن أنّ ملوك بني أيوب ألْيَن من ملوك العجم. وعزم على العودة إلى بني أيوب واسترضائهم بعد أن أغضب السلطان صلاح الدين، إذ يقول[4]:

ولــو أنــي مــدحتُ ملــوك قــومي   تراغــت حــوليَ الــنَّعَمُ الــدّخاس[5]

فــإنّ النــاسَ في طُــرق المعــالي   هــم تَبَــعٌ وهــمْ للنــاسِ راسُ

ولم يلبث أن انتقل من الهند إلى اليمن، ومدح ملكها سيف الدين طغتكين بن أيوب أخاً صلاح الدين، ونال عطاياه، ثم انتقل إلى مصر حيث لقي استقبالاً حسناً، وأقام بها مدة غير قصيرة، وصحب بها جماعة من الشعراء كانوا معجبين به، ويشير ابن خلكان الى ذلك فيقول:

«واتفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين، وكان لهم مجالس يجري بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها. ودخل في ذلك الوقت إلى مصر شرف

---

(1) عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، ص 348.

(2) ابن القوطي، الحوادث الجامعة، ص 51 و 52.

(3) الديوان، ص 73. تل راهط وروض الحمى: موضعان في غوطة دمشق وضواحيها.

(4) م.ن، ص 32.

(5) النِّعم الدّخاس: الكثيرة.

الدين الأنصاري بن عنين، فاحتفلوا به، وعملوا له دعوات، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش، وكانوا يقولون: هذا شاعر الشام، وجَرَتْ لهم محافل سطّرت عنهم[1]» كما التقى الشاعر ابن الساعاتي، وكانت بينهما مودّة.

وبعد وفاة السلطان صلاح الدين أخذ يتقرّب من الملك العادل ويستعطفه ويستأذنه، من خلال مِدْحَةٍ بعث بها إليه قبل دخول دمشق، يجأر في أولها بالشكوى، فيقول[2]:

أشكو إليك نوىً تمادى عمرها   حتى حسبتُ اليومَ منه أشهُرا
لا عيشتي تصفو ولا رسمُ الهوى   يعفو ولا جفني يُصافحه الكرى

ثم يمدحه فيقول:

وله البنون بكلّ أرضٍ منهمُ-   ملكٌ يقودُ إلى الأعادي عسكرا
من كُلّ وضّاح الجبين تخاله   بدراً، وإنْ شهد الوغى فغضنفرا
بين الملوك الغابرين وبينه   في الفضل ما بين الثُّريّا والثرى

فعفا عنه وأذن له بالعودة بعد غياب دام قرابة عشرين سنة، فدخل الشاعر دمشق وهو يسخر بخصومه الذين سعوا بنفيه[3]:

هجوتُ الأكابرَ في جِلَّقٍ   ورُعتُ الوضيعَ يهجو الرفيعِ
وأُخرِجتُ منها ولكنني   رجعتُ على رَغْمِ أنفِ الجميعِ

لكنه لم يلبث أن هجاه حين قطع الأرزاق عن الشعراء إذ يقول[4]:

إن سلطاننا الذي نرتجيه   واسعُ المالِ ضيق الإنفاق
هو سيفٌ كما يُقال ولكن   قاطع للرسوم والأرزاق

---

(1) وفيات الأعيان، 189/2.

(2) الديوان، ص 5-8.

(3) م.ن، ص 94.

(4) م.ن، ص 229.

لكنه لم يتعرض للنفي، وقد أكسبته غربته الطويلة ومعاناته الشديدة تجارب غنية، فتابَ وأعرض عن لذاته ومال إلى التقشف والزهد، وأحبّ الشام وتعلّق بها[1]. واختصّ بالملك المعظم عيسى بن العادل، وتولى الوزارة له ولابنه الناصر، ثم تركها لما ملك الأشرف موسى، ولزم بيته، حتى دهمته المنيّة سنة 620 هـ، دُفن بمقبرة باب الصغير، وقيل إنه دفن بمسجده الذي أنشأه بأرض المزّة[2].

آثاره الأدبية

لابن عُنين ديوان، جمعه محمد بن المسَّيب بن نبهان الدمشقي، بعد وفاة الشاعر بثماني سنوات؛ ذلك أنّ الشاعر لم يدوّن شعره، لذا ضاع أكثره ثم طبع حديثاً بدمشق سنة 1946، بتحقيق خليل مردم بك، وأعيدت طباعته في بيروت بزيادات وحواشٍ بخط المحقق، دون ذكر سنة الطبع. وهو يقع في سبعة أبواب، هي: باب المديح فالرثاء، فالحنين إلى دمشق فالوقائع والمحاضرات، فالدعاية والتهكم والسخرية، فالألغاز، فالهجاء وهو أكبرها.

وله منظومة طويلة أسماها «مقراض الأعراض» تقع في خمسمائة بيت، اختار منها جامع الديوان خمسمائة بيت في باب الهجاء[3]. وصنّف «التاريخ العزيزي»[4] في سيرة الملك العزيز عثمان وهو مخطوط، وكتابه «مختصرة الجمهرة»[5].

أغراضه الشعرية

قبل أن يولد ابن عنين بسنة واحدة، مات شاعران انتهت إليهما رئاسة الشعر ببلاد الشام هما ابن القيسراني، وابن منير الطرابلسي فلما ظهر ابن عنين، أشبه الأول بجزالته ومتانته، وضارع الثاني بالهجاء، وفاقهما بخفة الروح والدعاية والتهكّم

---

(1) عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، ص 354.

(2) انظر: وفيات الأعيان، ص 2/ 35.

(3) انظر: الديوان، ص 52 وما بعدها.

(4) انظر: حاجي خليفة، كشف الظنون، 404/1.

(5) انظر: م.ن، 228/1.

والسخرية وشعره كثير الفنون، متعدد الأغراض، أكثره في باب الهجاء، وباب المديح في ديوانه غير قليل. أما الرثاء فليس في ديوانه سوى ثلاث قصائد. وله قصائد في الحنين إلى الوطن تعدّ أجمل أشعاره وأجلّها. وسجل في شعره بعض الوقائع مع الفرنجة ومن هذا المنطلق فقد شهد له ابن خلّكان بالتفوق، إذ قال: «خاتمة الشعراء لم يأت بعده مثله، ولا كان في أواخر عصره من يقاس به»[1] وهذا حكم ينمُّ عن إعجاب ابن خلكان به وبشعره.

1. الهجاء

وهو يُقرن في الهجاء بدعبل وابن الرومي اللذين اقترنا بالهجاء؛ إذ بدأ حياته الشعرية به، ولم يسلم أحد من لسانه، حتى لنراه يهجو نفسه، ويهجو أباه، ثم أخذ يتعرّض للناس بعامة، ويتطاول على السلطان صلاح الدين وحاشيته في مطوّلته الموسومة بـ «مقراض العراض» التي أشرنا إليها آنفا.

وتعرّض للخليفة العباسي، وللملك العادل، وللملك الأشرف، وللملك المنصور، كما تعرّض للقضاة ونعتهم بأقبح الصفات. غير أنه كان يوجّه أهاجيه أحيانا لمن يُلحقون أذىً بالناس، أو يأكلون الأموال بالباطل، مستمدا من الدُّعابة والسخرية طريقاً للإصلاح فقد تعرَّض للقائمين على الجامع الأموي، فسخر من خطيبه وسدنته، وقاضي القضاة، إذ يقول[2]:

لما رأى الجامع أمواله ... مأكولة ما بين نُوّابه
جُنَّ فمن خوفٍ عليه غدا ... مُسلسلاً من كل أبوابه
وكيف لا تعتاده جنَّةٌ ... وقد رأى المسخ لأربابه

وكان الملك العادل قد أمر أن تُسلسل أبوابه، في أيام الجمع، لئلا تدنو منها خيول رجال الدولة، فتؤذي المصلين.

(1) وفيات الأعيان، 2/ ص 33.

(2) الديوان، ص 143.

2. الحنين إلى الوطن

عاش الشاعر بعيداً عن موطنه حيث قضى في الغُربة نحواً من عشرين عاماً، ولكنه لم ينسَ الشام، فنسمعه يعبر عن حنينه إلى دمشق في مستهل قصيدة لامية مدح بها سيف الإسلام طغتكين ملك اليمن[1]:

حنينٌ إلى الأوطانِ ليس يزولُ وقلبٌ عن الأشواقِ ليس يحولُ
أبيتُ وأسراب النجوم كأنها قُفولٌ تهادي إثرهنَّ قُفولُ
دمشقُ فيَّ شوقٌ إليها مُبرحٌ وإنْ لجَّ واشٍ أو ألحَّ عذولُ
وفي كبدي من قاسيون حزازةٌ تزول رواسيه وليس تزولُ

ويكتب إلى الأمير بدر الدين مودود الأيوبي؛ حاكم دمشق فيعبّر عن شوقه إلى دمشق ويعاتب أهلها، إذ يقول[2]:

رعى اللهُ قوماً في دمشقَ أعزّةً عليّ وإن لم يحفظوا عهدَ من ظَعَنْ
أحبّة قلبي في الدّنوّ وفي النّوى وأقصى أماني النفس في السرّ والعلنْ
يُذكّرني البرقُ الشآميّ إنْ خفا زماني بكم، يا حبّذا ذلك الزّمنْ

وخلاصة الأمر، فإن الشاعر كان مُبدعاً في هذا اللون؛ «إذ استطاع أن يسموَ بعواطفه نحو آفاق الشعر الوجداني، فكان يتخلّى عن مشاغل دنياه وتجارته، ويعيش في ذكرياته الخاصة»[3] ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وبذلك عُدّ شعره في الحنين إلى الوطن أجلّ ما في شعره.

3. المديح

مدح الشاعر الأيوبيين، وكان قد أعرض عنهم في مستهلّ حياته الأدبية، إذ لم يسلموا من لسانه، ومسَّ هيبة دولتهم، فما كان منهم إلا نفوه إلى أقاصي البلاد. ومن ثمّ فقد مرّ بتجربة مريرة جعلته ينصفهم، إذ رأى البون شاسعاً بينهم وبين الملوك

(1) الديوان، ص 83.

(2) م.ن، ص 77.

(3) عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، ص 363.

الأعاجم[1]. فمدح الملك العادل وأبناءه، ومدح الملك المعظم، والملك العزيز. وأقام عند ملك اليمن الأيوبي سيف الإسلام طغتكين، إذ يقول[2]:

يا ابنَ الكرامِ الأوّليـ ـنَ السابقين إلى المكارمْ
الأولين إلى الوغى والآخرين إلى الغنائم

ويقف منه موقف الناصح الأمين حين عرض عليه بعض أقاربه بامتلاك ساحل الشام عوضاً عن اليمن، فينبهه إلى خطورة هذه الصفقة، ويحرّضه على غزو الحجاز، ويُطهِّر البيت العتيق من دَنَس القرامطة، فنسمعه يقول[3]:

ولا تقلْ ساحلُ الإفرنج أملكه فما يُساوي إذا قايسته عدنا
وإنْ أردْتَ جهادًا روِّ سيفكَ من قومٍ أضاعوا فروضَ اللهِ والسُّننَا
طهّر بسيفكَ بيتَ الله من دَنَسٍ وما أحاط به من خِسَّةٍ وخنَا
ولا تقلْ إنّهم من آل فاطمةٍ لو أدركوا آل حربٍ قاتلوا الحَسَنا

خصائص وسمات

1. أسلوبه سهل رقيق، يخلو من التكلف والتصنع. يجمع فيه بين اللغة الجزلة واللغة المحكية؛ لذا «لم يكن شعره مع جودته مقصوراً على أسلوب واحد، بل تفنَّنَ فيه»[4]. فهو يرسم الصور البيانية ويستخدم الزخارف البديعية بقدر معلوم، لكنه يُدخل في مواضيع شعره الهزلية ألفاظ وتراكيب عامية شائعة، كقوله في معرض السخرية[5]:

هذا ابن هارونَ الذي في عصرنا لا يُفلحُ

(1) عمر موسى باشا، أدب الدول المتابعة، 364.

(2) الديوان، ص 100 و 101.

(3) م.ن، ص 102.

(4) وفيات الأعيان، 14/5.

(5) م.ن، ص 229.

2. عُرف بأهاجيه اللاذعة التي لم يسلم منها أحد، فقد هجا نفسه وأباه، وتعرّض للوزراء والقضاة، وتجرّأ على صلاح الدين نفسه.

واتسمت أهاجيه بالسخرية والفكاهة والتهكّم، مع البراعة في استعمال مصطلحات علوم العربية، في مثل قوله[1]:

فداؤك كلُّ من أمسى لبُخْلٍ   نداه كأنّه عَلَمٌ مُنادى

وقوله إلى صدر جهان[2]:

لَمَ أخّرتني وقَدَمْتَ غيري   أنا حالٌ وغيري استفهامُ؟

3. أجاد في شعر الحنين إلى الوطن وصوّر آلام الغُربة.

4. برع في المديح، وكما أبرز هجاءه بـ «مقراض الأعراض»، فقد توّج مديحه بالقصيدة التي استأذن فيها الملك العادل إلى دمشق، والتي عدّها محقق الديوان «من القصائد المختارة في الشعر العربي»[3]. وقد استطاع أن يسجل بعض انتصارات الأيوبيين على الصليبيين، مثل وقعة دمياط التي ذكرها في قصيدة مطلعها[4]:

سلوا صهواتِ الخيلِ يومَ الوغى عنا   إذا جُهلتْ آياتُنا والقنا اللّدُنا

وأيا كان الأمر، فابن عُنين هو شاعر الشام في عصره، إذ احتكم الناس إليه في قضايا الأدب والنقد، فقد «كان من أخبر الناس بنقد الشعر»[5].

---

(1) الديوان، ص 124.

(2) م.ن، ص 124.

(3) مقدمة الديوان، ص 30.

(4) م.ن، ص 29.

(5) وفيات الأعيان، 25/2.

المتخير من شعر ابن عنين

قال يتشوق إلى دمشق وكتب بها إلى بدر الدين مودود[*]

رعـى اللهُ قومـاً في دمـشقَ أعـزّةً ... عليَّ وإن لم يحفظوا عهدَ مَن ظَعَنْ[1]
أحبـةَ قلـبي في الـدُّنو وفي النَّـوى[2] ... وأقصى أماني النَّفس في السِّر والعلَّنْ
أناسـاً أعـدُّ الغـدر مـنهم بـذمتي ... وفـاءً وأُلفـي كـلَّ مـا ساءني حسنْ
وكم فوَّقوا[3] نحوي سِهاماً على النوى ... فأصمتْ فؤادي واعتـددتُ بهـا مِننْ
وقد وعَـدَتني الـنفسُ عـنهم بسلوةٍ[4] ... ولكن إذا ما قمـتُ في الحـشر بـالكفنْ
يُـذكرني الـبرقُ الـشآميُّ إن خَفـا[5] ... زمـاني بكـم، يـا حبـذا ذلـك الـزمنْ
ويا حبذا الهـضبُ الـذي دون عزَّتـا[6] ... إذا مـا بـدا والـثلجُ قـد عمَّـم القُـنَنْ
أأحبابنـا لا أسـألُ الطيـفَ[7] زَورةً ... وهيهات: أين الـديلمياتُ مـن عَـدَنْ؟

(*) الأمير بدر الدين مودود بن شاهنشاه بن أيـوب، كـان شـحنة دمـشق (حاكمهـا)، انظـر البدايـة والنهاية 15:13. الديوان ص 77. والقصيدة من الطويل، والقافية من المتدارك.

(1) ظعن: سار وارتحل.

(2) النوى: البعد. والأماني: جمع أمنية، وهي البغية.

(3) فوق السهم: وضع فوقه في الوتر ليرمي به، والفُوق: موضع الوتر من الـسّهم أصـمت فـؤادي: أصابته ونفذت فيه. واعتددتُ بها: اهتممتُ بها وعـددتها. والمنن: جمـع مِنّـة وهـي الإحـسان والإنعام.

(4) السّلوة: كل ما يُسلي، أي يُنسي ويطيب النفس.

(5) خفا البرق: لمع. وزماني: ظرف. وبكم: متعلق بيذكرني. ويا حبذا ذلك الزمن: أحببْ به.

(6) عزّتا: لم أجده في كتب البلدان بين يدي، وهو موضع قـرب قريـة الفيجـة ظـاهر دمـشق. انظـر الحاشية 5 ص69 من الديوان. والقُنن: الأعالي، جمع قنّة.

(7) الّطيف: الخيال الطائف. وهيهات: اسم فعـل مـاضٍ بمعنـى بَعـد. والـديلميّات: مـن ضـواحي دمشق؛ بستان في قرية كفرسومه، انظر وفيـات الأعيـان 15:5، وحاشـية محقـق الـديوان رقـم 2 ص78.

وهَبْكُمُ[1] سمحتُم – والظنون كواذبُ– بطيفكمُ، أينَ الجفونُ منَ الوَسَنْ؟
وكم قيل لي: في ساحة الأرض مذهبُ وعن وطنٍ للنفس مَيْلٌ إلى وطن
وهل نافعي أنَّ البلاد كثيرةٌ أطوفُ بها والقلبُ بالشامِ مُرتَهَنْ[2]؟
وما كنتُ بالراضي بصنعاءَ[3] منزلاً ولو نلتُ من غُمدانَ مُلكِ ابن ذي يزن
عسى عطفةٌ بدريةٌ[4] تعكس النوى فألفى قريرَ العين بالأهل والوطنْ

(1) هَبْ: من أخوات ظنّ من أفعال القلوب، وهي كلمة وضعت للأمر فقط، وهي تنصب مفعولين أصلها مبتدأ وخبر، انظر: معجم النحو ص 421. وبطيفكم: متعلق بسمحتم، وما بينهما اعتراض. والوسن: النعاس.
(2) مُرتَهن: مأخوذ رهناً.
(3) صنعاء: عاصمة اليمن. وغُمدان: قصر عظيم بصنعاء. وسيف بن ذي يزن: من ملوك اليمن.
(4) بدريّ: نسبة إلى من كتب له القصيدة.

المبحث الرابع

علي بن المقرَّب العيوني (-630 هـ / 1233 م)

في بلدة "العيون" بالأحساء من بلاد البحرين[1]، وُلد الأمير الشاعر جمال الدين أبو عبد الله علي بن المقرّب بن منصور بن المقرّب العيوني البحراني، سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة هجرية، بإجماع المؤرخين الذين تناولوا سيرته.

والمعروف عنه أنه ينتمي إلى الأسرة العيونية التي حكمت الأحساء والبحرين بعد القضاء على القرامطة[2] من سنة 466 هـ إلى سنة 636 هـ. وتُنسب هذه الأسرة إلى بلدة «العيون» الواقعة على مشارف الأحساء، كما أن أصولها تعود إلى ربيعة بن نزار. ويشير الشاعر إلى ربيعة كثيراً في شعره، ويضع قومه في الذروة منها، إذ يقول[3]:

حللنا من ربيعة في ذُراها وجاوزنا الفُروعَ إلى الفِراع

لا نعرف كثيراً عن نشأة الشاعر، وكل ما يمكن ذكره أنه نشأ في الأحساء، حيث نال قسطاً من العلم والمعرفة في اللغة والتاريخ والأدب وقد علمنا من خلال ديوانه أنه «نظم بدائع الكلم قبل بلوغ أوان الحلم، وبرّز على الكهول في الشعر ولم تزد سنّه على عشر»[4]، مما ينمُّ عن تفتح موهبته الشعرية منذ الصغر. وأنه كان يُقيم في نجد في بعض الفصول حيث يخرج إلى الصحراء في موسم الربيع. ولا نعرف كثيراً عن أحوال أسرته، إذ لا يتضمن شعره إلا قدراً يسيرا عنها، فهو يفتخر بأبيه وينوّه بشجاعته حين كفى عشيرته يوم إضحيان، من العناء، إذ يقول[5]:

---

(1) مقدمة الديوان، ص 7 وما بعدها.

(2) القرامطة: حركة باطنية تنسب إلى حمدان قرمط، ظاهرها التشيّع لآل البيت، وحقيقتها الإلحاد والإباحية وهدم الأخلاق والقضاء على الدولة الإسلامية.

(3) الديوان، ص 270. والفراع: ما علا من الأرض.

(4) مقدمة الديوان، ص 5.

(5) الديوان، ص 628.

أبـي مَـنْ علمـتَ ولـيس يخفـى بـضاحي شمـس يـوم إضـحيانِ
سَـلِ العلمـاءَ يـاذا الجهـل عنـه ونـارُ الحـربِ سـاطعةُ الـدخانِ
غـداةَ كفـى العـشيرة مـا عناهـا بعزمـةِ ماجـدٍ كـافٍ مُعـانِ

ولا يذكر والدته إلا نادراً في شعره، وكذلك زوجته، أما أولاده فلا دليل في شعره عليهم البتة، وإنما يشير إلى بناته وخوفه عليهن بعد سفره، إذ يقول:

ولـولا بنـاتُ العامريّـةِ لم أكـنْ لألـوي علـى دارِ المذلّـة جانبـا

إلا أن كنيته وهي (أبو عبد الله) قد تدلّ على أن له ولداً بهذا الاسم، إذ يتذكر (أم العُبيد) وهو في البصرة إبّان رحلته الأولى التي يحسُّ فيها بألم الفراق والغربة[1]:

سمـا لـكَ مـن أمّ العُبيـدِ خيـالُ ودونَ لقاهـا أجْـرُعٌ وسَـيَالُ[2]

علاقته بأمراء أسرته

نشأ الشاعر في بيت إمارة، وشبّ بين أسرته، التي ضمَّت أمراء الدولة العيونية. وكان شجاعاً، توّاقا إلى معالي الأمور، وشاعراً معروفا بين الناس، فأوجسوا خيفة منه، واضطهده أمير الأحساء وسجنه، واغتصب أمواله وصادر أملاكه، وزجّ به في السجن، وحمله على الترحُّل عن الأحساء.

وتجدر الإشارة إلى أن الإمارة تعاقب عليها فرعان من أبناء مؤسسها عبد الله بن علي: أولهما أحفاد الفضل بن عبد الله، وثانيهما أحفاد أخيه علي بن عبد الله. أما الشاعر فينتمي إلى فرع ثالث هو صبار بن عبد الله، وكان مهمشا ولا يُشارك في الحكم. وكانت علاقته بالفرع الأول جيدة، في حين كانت سيئة بآل علي بن عبد الله الذين توارثوا الحكم لفترات طويلة. ويسجل الشاعر ذلك في شعره، فيحدّثنا عن معاناته من بني عمه الذين جاهروا بعداوته، فيقول[3]:

(1) انظر: علي الخضيري، علي بن المقرب العيوني، ص 67.

(2) الديوان، ص 434.

(3) م.ن، ص 61.

بلــى إنــني قاســيتُ فــيكم مــصائباً تهــدُّ القــويّ إذ أدركَ الثــأرَ طالبُــهْ
ولــولا هــواكم مــا شــقيتُ ولا غــدا يــصكُّ برجلــي القيــد مــن لا أشــاغبُهْ

وإذ دبَّ الصراع بين أمراء البيت العيوني، فقد سعى الشاعر إلى رأب الصّدع وإصلاح ذات البين، فنراه يُعاتبهم ويُسدي إليهم النُّصح والإرشاد، فلم يسمعوا الرُّشد، حتى سقطت إمارتهم بيد الأعراب والقبائل المعادية، وكان الشاعر يحسُّ بأن الإمارة على وشك السقوط، فنسمعه يقول[1]:

كم لُمْتُ قومي، لا بل كم أمرتهمُ! بحسم داء العدا فيهم فلم أُطَعِ
فلم أجدْ بعد يأسي غير مُرتحلي عنهم لِهَمٍّ أُسلّيه ومُتَّدعِ

رحلاته واتصالاته برجالات عصره

اضطر الشاعر إلى أن يرحل عن إمارة العيون، نائياً بنفسه عن بني عمه الذين اضطهدوه، وسلبوه حقوقه، فتردّد بين البصرة وبغداد والموصل، فقام بخمس رحلات، عاد خلالها إلى الأحساء ليسترجع أمواله وأملاكه فلم يفلح.

ويُرجَّح أن تكون رحلته الأولى إلى العراق في حدود سنة 604 هـ[2]، بعد إطلاق سراحه، التقى خلالها أمير البصرة شمس الدين باتكين، وخصَّه بمدائح عدَّة، تضمنت إحداها إشارة إلى أنه قد امتهن التجارة، ويشكو فيها ابن الدبيثي ضامن المكوس في واسط.

ثم توالت رحلاته، حتى سنة 623 هـ، وهي السنة التي تولى فيها الخليفة العباسي المنتصر بالله الخلافة، وقد مدحه بقصيدة أشار فيها إلى ما لحقه من ظلم ومصادرة أموال، وكأنه يستنصره ويطلب عدله، إذ يقول[3]:

وكــم أخــي ثــروةٍ أودى بثروتــه ظُلــمُ الــولاةِ وتأويلاتهــا الكُــذُبُ

(1) الديوان، ص 278.
(2) م.ن، ص 94.
(3) م.ن، ص 94.

وقد شهد له علماء العراق بالجودة والنبوغ، بوصفه أحد الشعراء الموصوفين المشاهير في ذلك العصر[1]. وفي طليعتهم أبو البقاء محب الدين العكبري شارح ديوان المتنبي[2].

عودته ووفاته

لم تمتد حياة الشاعر بعد رحلته الأخيرة إلى العراق سوى بضع سنين، انفرط فيها عقد الدولة العيونية، إذ دبّ النزاع بين أمرائها، وذهبت أملاكها، وانتقل النفوذ منها إلى غيرهم من بدو وأعداء. وقد دهمته المنية في أواخر المحرّم سنة ثلاثين وستمائة [3]، وقيل: سنة إحدى وثلاثين وستمائة[4]. ودفن بمقبرة العيون بالأحساء البلد الذي وُلد وانتسب إليه[5].

ديوان ابن المقرَّب

طُبع ديوان ابن المقرَّب مّرات عّدة، أولها سنة 1307 هـ بالمطبعة الميريّة بمكة لعهد السلطان عبد الحميد بنفقة الشيخ عبد الله باخطمه أحد تجار مكة آنذاك. ثم طُبع في الهند سنة 1310 هـ.

وفي عام 1381 هـ أصدر المكتب الإسلامي طبعة جديدة لديوان ابن المقرّب على نفقة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني، كما طبع في عام 1383 هـ بالأحساء بتحقيق الدكتور عبد الفتاح الحلو، وحققه الدكتور صلاح نيازي ضمن دراسة نقدية لنيل درجة الدكتوراه من كلية الدراسات الشرقية بجامعة لندن.

وأيا كان الأمر، فإن الديوان بحاجة إلى طبعة جديدة محققة تحقيقاً وافياً، ذلك أن الطبعات السابقة لم تشمل قصائد الشاعر كلها[6].

---

(1) انظر: قلائد الجمان في شعراء الزمان، 126/5.

(2) انظر: الديوان، ص 382.

(3) مقدمة الديوان، ص 9.

(4) م.ن.

(5) علي الخضيري، علي بن المقرّب العيوني، ص 98.

(6) انظر: م.ن، ص 106-109.

أغراض شعره

تتضح لنا في شعر ابن المقرّب أغراض عدّة، نذكر في هذه الدراسة أبرزها، فنعرض لمدحه الذي يشكل القسم الأكبر من ديوانه، ثم نتحدّث عن الشكوى والعتاب، فالفخر، فالحماسة، فالأغراض الأخرى، من وصف وغزل وهجاء ورثاء وحكمة.

1. المديح

لابن المقرب ما يربو على خمسين قصيدة في المديح، حصرها في بني عمه، وفي الخلفاء ورجالات الدولة، وفي إخوانه.

أما مدائحه لبني عمه، فتصل إلى ثلاثين قصيدة، سجّل فيها مآثر أمراء الدولة العيونية، وهم يزيدون على الخمسة عشر، ويأتي في طليعتهم الأمير محمد بن أبي الحسين الذي نال القسط الأوفر من مدائحه، تغنى فيها بشجاعة الأمير وبطولته، وأشاد بفصاحته، وكثرة نواله. وإذ عهد إليه الخليفة العباسي الناصر لدين الله حماية الحجاج وهم في طريقهم إلى مكة، نرى الشاعر يُسجّل هذا الحدث، فيقول[1]:

ومالَ أميرُ المؤمنين بودّه إليه وسمّاه زعيم الأعارب
حمى البرَّ من حدّ العراق فحازه إلى الشام واستولى على حدٍّ ناعبِ

وبنواله[2]

ونِعمَ ملاذُ المعتفين إذا نبا زمانٌ وهبَّتْ عامَ محلٍ شمالها

ويشيد أيضا بفصاحته، بوصفه خطيباً ينطق بلسان قومه[3]:

ونِعمَ لسانُ القومِ إنْ قيل مَنْ لها خطيبٌ وأعيا الحاضرين مقالُها
وإذا نظرتَ إلى فصاحة نُطقه ألهاكَ عن قسٍّ وعن سحبانِ

(1) الديوان، ص 51. وناعب: اسم حيّ من العرب.
(2) م.ن، ص 622.
(3) م.ن.

وقد مدح منهم الفضل محمد الذي سار على نهج أبيه واكتسب صفاته، إذ يقول[1]:

أشبهتَ والدكَ الهُمام وإنما   عُرفت بنو الآساد من أصواتها

شيّدْتَ دولة آل فضلٍ بعدما   خرَّتْ قواعدها على آلاتها

ويمضي على هذا المنوال حتى يصل إلى آخر أمير فيهم وهو محمد بن محمد الذي انتهى حكمه سنة 636 هـ، بعد وفاة الشاعر ببضع سنين.

ولم يمدح من الخلفاء العباسيين سوى الناصر لدين الله (-622 هـ) والمستنصر بالله (-640 هـ). وقد خصّ الأول بثلاث قصائد، في حين لم يمتدح الثاني إلا بقصيدة واحدة. وأسبغ عليهم من المعاني ما يناسب مقام الخلافة، كالذَّود عن الإسلام، وجمع شمل المسلمين، والتصدّي لأعدائهم، ومحاربة الشرك والفساد، إذ يقول[2]:

الحقُّ إلا دعوةٌ هاشّميةٌ   هي الحقُّ لا دعوى غَويٍّ وغاشِمِ

بها أصبح الإسلام في كل موطنٍ   ينوءُ بركنٍ منه عقد الدّعائمِ

أقامَ له في كل ثغر كتائباً   ترى الشّركَ من شَدَّاتها في مآتمِ

وفي الموصل سعى إلى لقاء الملك الأشرف بن العادل الأيوبي، وأعدّ قصيدة في مديحه، تُعدّ من أجود مدائحه، أسبغ عليها من المعاني ما يُناسب مقام الملك، فأشاد باستبساله في قتال الصليبيين في دمياط بمصر، إذ يقول[3]:

سلِ الكُفرَ من أودى بدمياط رُكنه   وقصَّر أعلى فرعه وهو باسقُ

يُخبّرك صدقاً أنّ موسى هو الذي   بصارمه باقَتْ عليه البوائقُ

ولم يتمكن الشاعر من لقاء الملك، لأن الأشرف كان قد خرج لقتال الصليبيين، وبدلاً من ذلك لقي في الموصل ياقوت الحموي الذي سجّل هذا اللقاء، وأشار إلى قصيدته في بدر الدين صاحب الموصل، ومنها:

(1) الديوان، ص 111.

(2) م.ن، ص 494.

(3) م.ن، ص 439.

حُطُّوا الرِّحالَ فقد أودى بها الرَّحَلُ ... ما كُلِّفتْ سيرَها خيلٌ ولا إبلُ

بلغتم الغايةَ القصوى فحسبكمُ ... هذا الذي بِعُلاه يُضربُ المثلُ

وقد لقي الشاعر اهتماماً من بدر الدين فأغدق عليه، ويشير إلى مدح أمير الموصل بدر الدين الأتابكي بقصائد ياقوت الحموي إلى ذلك بقوله: «لقيته بالموصل في سنة 617 هـ، وقد مدح بها بدر الدين وغيره من الأعيان فأرفدوه وأكرموه»(1).

وارتبط ابن المقرّب بعدد من الأصدقاء والإخوان، نذكر منهم النقيب تاج الدين إسماعيل بن جعفر الذي مدحه بقصيدة أشاد فيها بنسبة القرشي، «وكان قد خلع عليه ثوبين لهما قيمة ثمينة»(2). وفخر الدين الدوامي الذي مدحه بقصيدة في بغداد، أشاد فيها بفضله وإحسانه إليه، وكان قد أسدى إليه معروفاً وإبراهيم بن عبد الله بن أبي مروان الذي مدحه بقصيدة امتزجت بالشكوى. وتاج الدين إبراهيم بن محمد الطباخ الذي هنأه بمقطوعة بمناسبة شفائه من مرضٍ ألَمَّ به. والشيخ محب الدين الواسطي الذي خصّه بقصيدة أشاد فيها بمكانته العلمية، ووصف رحلته إلى الحج.

2. الشكوى والعتاب

تكثر الشكوى في ديوان ابن المقرّب، إذ انتشرت على لسانه، وعبّر بها عن حالٍ لازمته طوال حياته، من خلال تصوير تجربته المؤلمة مع بني عمّه الأقربين، آل فضل بن عبد الله الذين صادروا أمواله وضياعه، وزجّوا به في السجن. وإذ خلّوا سبيله ارتحل إلى العراق، يبثُّ أحزانه حينا، وينشد العون والمساعدة حيناً آخر بعد أن سُدَّت في وجهه السُّبُل.

وإن كان ابن المقرّب قد بلغ من الشكوى حداً كبيرا، فإنه استطاع أن يلّون فيها، فهناك الشكوى من بني عمه، والشكوى من الناس، والشكوى من السجن، والشكوى من الفقر، والشكوى من التفريط في دولة آبائه.

(1) انظر: معجم البلدان: العيون.

(2) الديوان، ص 649.

ولم يبلغ شاعر عربي في الشكوى من أقربائه ما بلغه ابن المقرّب، وإذا عُدنا إلى ديوانه وجدناه يردد الشكوى، فضلاً عن أنه يُحمّل الدهر الكثير مما لحقه من محنة، ألجأته إلى الرحيل عن بلده وأهله، فنسمعه يقول[1]:

لحا اللهُ دهراً ألجأتني صُروفه ... إلى حيثُ يُلغى حقٌّ مثلي ويُهمل
وعاقب قومي الغُرَّ شرَّ عقوبةٍ ... وخَصَّصَ من ينمي عليٍّ وعَبْدَلُ

ويُبدي أسفه على بني عمّه الذين خَصَّهم بدُرر نظمه، إذ يقول[2]:

فآهِ من زفراتٍ كلما صَعَدَتْ ... في الصَّدر كادتْ تُوَرّي النارَ في ضلعي
يسوقها أسفٌ قد ثارَ من ندمٍ ... يُربي على ندمِ المغبونِ من كُسَعِ
وليس ذاك على مالٍ نعمتُ به ... حيناً وأفناه صَرْفُ الأَزْلَمِ الجَذَعِ[3]
ولا على زَلَّةٍ أخشى عواقبها ... والناسُ حزبان: ذو أمنٍ وذو فَزَعِ
لكنْ على دُرَرٍ تزهو جواهرُها ... في عِقدِ كلٍّ نظامٍ غيرِ مُنقطعِ

فانصرف عنهم وكره المُقام بأرضٍ تجمعه بهم، حاثًا نفسه على فراقها[4]:

لا تنسبوني إلى منشايَ بينكمُ ... التُّربُ تُربٌ وفيه منبتُ الذّهَبِ
لا تحسَبُوا بُغضيَ الأوطانَ عن مَلَلٍ ... لا بُدَّ للودِّ والبغضاء من سَبَبِ
إذا الدّيار تغشّاك الهوانُ بها ... فخلّها لضعيفِ العزم واغتربِ

ولكن هذه الشكوى لم تمنعه من عتاب بني عمه آل فضل بن عبد الله، إذ يقول[5]:

يا آلَ فضلٍ أماتَ اللهُ حاسدكمْ ... بغيظه وكفاكُمْ زلَّة القَدَمِ
كم يمضُغُ الدهرُ فيما بين أظهُرِكمْ ... لحمي ويشربُ شُرْبَ الهيمِ فضل دمي

(1) الديوان، ص 428.
(2) م.ن، ص 274.
(3) الأزلم: الدهر الشديد.
(4) م.ن، ص 74.
(5) م.ن ، ص 560.

أفي المـروءة أنْ أظمـى وحوضُـكمُ   للكلـبِ والـذئبِ والجُـرذانِ والـبُهَمِ
ويُـصطفى مَـنْ أبـوه كـان عبـدَ أبـي   دونـي ويُقطـع فيمـا بيـنكم رَحِمِـي

ويئن ويتوَجّع مما لحقه في السجن، مع أن أيامه فيه كانت معدودة، فيتحدث عن هذه التجربة بقوله[1]:

وبـتُّ عزائـي الـسجنُ في مُدْلَهِمّـةٍ   يجـاوبُني فيهـا ثِقـال الأداهـم
وأخـرجني مـن بعـد يـأسٍ وقـد أتـى   علـى نـشبي أشـكو إلى غـير راحـم

كما يذكر سجنه في قصيدة يشكو فيها أحواله ويُعرِّض بأعدائه، متأسّياً بالنعمان، فيقول[2]:

فـلا تحـسَبِ الأعـداءُ أنّـي لمـا جـرى   تضعضعتُ أو أعطيتُ حبلـي مُـشاغبا
فقبلي قضى النعمانُ في الـسّجن نحبَـه   وغـودر مـسلوباً وقـد كـان سـالبا[3]

ويدرك قارئ ديوان ابن المقرّب أن الشاعر كان يعيش في غُربة وقد ألحّت عليه الفاقة وضيق ذات اليد، ولعلّه كان يستدرّ عطف ممدوحيه في العراق لسدّ حاجته، فقد علمنا أنه مدح الملك الأشرف موسى بن العادل الأيوبي، فنسمعه يقول[4]:

إليـكَ رمـتْ بـي نائبـاتٌ هـوارقٌ   لـدمعي وأحـداثٌ لعظمـي عـوارقُ[5]
أتيـتُ وفي صـدري مـن الـبين خـارقٌ   وفي عُنقـي مـن كَظْمـة الغـمِّ خـانقُ
ولم يبـقَ بعـد الله إلا لـه مقـصِدٌ   تمـدُّ إليـه بـالأكفِّ الخلائـقُ

فهو يفتنُّ في عرض جوانب محنته، إذ يشكو من أحداث الزمان وما لحقه من فقر. ومن سوء حظ الشاعر أن الأمير كان قد غادر الموصل في طريقه إلى مصر لقتال

(1) الديوان، ص 496.

(2) م.ن، ص 35 و 36.

(3) النعمان بن المنذر هو الذي حبسه كسرى حتى مات في سجنه.

(4) الديوان، ص 302.

(5) عرق العظم: أكل ما عليه من لحم.

الصليبيين، فلم يجد بُدّاً من التوجّه إلى أمير الموصل بدر الدين بن عبد الله الأتابكي، فمدحه وشكا إليه، متخلّيا عن كبريائه إذ يقول[1]:

أفنيتُ زادي ومركوبي وشيَّبني   على عُتُوٍّ جنابي الخوف والوَجَلُ
وقد بلغتُ الجَنابَ الرَّحبَ بعد وَجىً   وليس إلا على علياكَ مُتَّكَلُ[2]

ولم يكن بدر الدين ليردّ الشاعر، فقد أعطاه وأكرمه، ويشير ياقوت إلى ذلك بقوله: «لقيته بالموصل – أي الشاعر – في سنة 617 هـ، وقد مدح بها بدر الدين وغيره من الأعيان، فأرفدوه وأكرموه»[3]

صنو ذلك أبياته التي يخاطب بها كمال الدين بن أبي المكارم، التي يصوّر فيها فقره أصدق تصوير، إذ باع مركوبه بثمن بخس[4]:

فإني بعتُ مركوبي ومالي   سواه يدٌ أنوءُ به ورَحْلُ
بأوكسِ قيمةٍ في شرّ وقتٍ   وعَضْلُ البيعِ في الحاجات بَسْلُ[5]

ويبلغ بالشكوى مبلغاً تأسى له القلوب حين يلوم قومه على اشتداد الصّراع بينهم، وتخاذلهم عن التصدّي للأعداء، فيحذّرهم من سوء المصير، وكأنه يستشعر قرب نهاية دولتهم[6]:

فآهٍ لقومي لو أُطعتُ لديهمُ   دَرَوا أنّ فيهمْ حازمَ الرأيَ فيصلا
لقد كنتُ لا أرضى الدنيَّةَ فيهمُ   ولا يزدهيني عنهمُ مَنْ تمحَّلا

وإذ يبدو مهيض الجناح، فإنه يُركّز على أمرين: أن يبعث الله الفرج أو أن يُعجّل بموته قبل أن يشهد سقوط دولة آبائه:

فيا ربِّ لا صبراً على ذا ولا بقاً   فسُقْ فرحاً أو لا فموتاً مُعجَّلا

(1) الديوان، ص 447.
(2) وجىً: شدة الجفاء.
(3) معجم البلدان، 181/4.
(4) م.ن، ص 394.
(5) العضل: المنع. والبسل: الحرام.
(6) م.ن، ص 370.

ومات الشاعر قبل أن تسقط الدولة بست سنوات.

3. الفخر

أول ما نلحظه على فخره، أنه لم يُفرد له قصائد مستقلة، وإنما يأتي به في تضاعيف قصائده، مادحاً وشاكيا وهاجياً ومتغزّلاً. وجاء فخره واضحاً، وكثيراً في ديوانه، كما أنه كان بارعاً في عرض مفاخره في مختلف أغراضه الشعرية.

كان ابن المقرّب يفخر بقومه وينسبه، وكان يفخر بنفسه: برأيه، وشجاعته، وفصاحته، وانتهى إلى الفخر بشعره.

فهو يفخر بمآثر البيت العيوني، ويركز على أمرين: الأول، مفاخر ربيعة في الجاهلية، بوصفها حامية الحمى، والذائدة عن محارم نزار، إذ يقول[1]:

في الجاهليـة سُـدنا كـل ذي شـرفٍ ... بالمأثراتِ وسُـدنا العُـرْب والعَجَمـا
حُطنـا نـزاراً وذُدنـا عـن محارمهـا ... ولم نَـدَعْ لمنـاوي عزِّهـا حَرَمـا

والثاني مآثر أسرته، فيضعها في الذروة من ربيعة، ويتغنى بقضائها على نفوذ القرامطة ودولتهم[2]:

سلِ القـرامطَ مـن شـظّى جماجمهمْ ... فِلقاً وغـادرهمْ بعـد العُـلا خَـدَما
مـن بعـد أنْ جـلّ بـالبحرين شـأنهمُ ... وأرجفـو الـشّامَ بالغـاراتِ والحَرَمـا

ويفخر بنفسه كثيراً، فيتغنى بشجاعته وفصاحته وصبره على النوائب، ويتعالى على قومه؛ فهو أرفعهم بيتاً وأكرمهم خُلقاً وأوفاهم عهداً[3]:

ألـستُ أوفـاكمُ عهـداً وأحلمكـم ... عَقـداً وأقـومكم بـالفرضِ والنَّفْـلِ؟!
ألـيسَ بيـتكمْ في العـزِّ مركـزُهُ ... بيتي فما كـان مـن فخرٍ فمِـن قبلـي؟
ألـستُ أطـولكمْ في كـل مكرمـةٍ ... باعـاً وأحملكـم للحـادثِ الجلَـلِ؟

(1) الديوان، ص 530.

(2) م.ن، ص 531.

(3) م.ن ، 267.

ويشيد بقدرته على نظم قوافٍ لم يقلها كبار الشعراء من أمثال الفرزدق والأعشى الكبير وأعشى باهلة والحطيئة، على نحو قوله لكمال الدين بن أبي الكرم محمد بن علي[1]:

إليكَ كمالَ الدينِ عِقْدَ جواهرٍ أضُنُّ بها عمَّنْ سواكَ وأبْخَلُ
يُقصِّرُ عن ترصيعها في عُقودِها أخو دارمٍ والأعشيانِ وجرولُ

ويفخر بعذوبة شعره وجمال ألفاظه التي يُقرُّ بها فحول الشعراء[2]:

فدونكَ عذبةَ الألفاظِ جاءت بنورٍ ساطعٍ يغشى البلادا
تُريكَ سطورُها والليلُ داجٍ فريدَ الدُّرِّ مثنى أو فُرادى
لو اجتازت بسامعتيْ جريرٍ لقام لها جلالاً واستعادا

ولعل فخره واعتداده بنفسهُ يوضّح لنا إعراض بني عمه عنه، فقد علا مقامه وذاعت أشعاره بين الناس.

خصائص وسمات

1. أجمع النقاد على مكانة الشاعر ونبوغه، قال عنه صاحب قلائد الجمان: «هو أحد الشعراء الموصوفين المشاهير في عصرنا المعروفين، أقرّ له بالحذق أئمة العراق من ذوي الأدب والعلم. ومذهبه في الشعر مذهب الشعراء المتقدمين في جزالة الألفاظ وإبداع المعاني»[3]. وإلى ذلك يشير صاحب المنهل، فذهب إلى أنه «شاعر مطبوع فخم الألفاظ جذابها، ويلوح على صفحة شعره أنه صادر من منهل قريحة صافية وفطرة سليمة، لا أثر فيه لتكلف ولا موضع فيه للتعسف»[4].

(1) الديوان، ص 433.
(2) م.ن، ص 190.
(3) قلائد الجمان في شعراء الزمان، 5/ 126.
(4) من محاضرة الأستاذ عبد القدوس الأنصاري، جريدة صوت الحجاز، العدد 225 في 6/ 7/ 1355هـ.

2. الموضوعان اللذان يشكلان القسم الأكبر من ديوانه هما: المدح، والشكوى والعتاب. وقد خصّ مدائحه بقصائد مستقلة، في حين مزج شكواه وعتابه بأغراضه الأخرى.

3. تبرز ذاتية الشاعر في قصائده، إذ تبدو شخصيته الحزينة التي تعكس إحساسه بظلم ذوي القربى، كما تبدو شخصيته الأبيّة بوصفه أميراً يعتزّ بقومه وعشيرته. ومن ثمّ فقد تجلّت ذاتيته في الأغراض التي تلامس حياته ومشاعره، واقترن حديثه عن الدهر بإبراز هاتين الظاهرتين في وقت واحد؛ فاقترنت الشكاوى والتحسر بالتعالي والفخار.

4. يتردد أسلوبه بين العفوية والتكلف، وبين الطبع والصنعة. ولكنه لا يُعدّ من أصحاب الصناعة اللفظية.

5. مذهبه في الشعر مذهب المتقدمين في جزالة الألفاظ وإبداع المعاني على حدّ تعبير صاحب قلائد الجمان فقد كانت مفاخره صدىً لفخر المتنبي، سواء في معانيه أو في قوة بنائه الشعري كما أن مبالغاته في مدائحه كانت صدى لتأثره بشعراء العصر العباسي. كما نراه يتأثر في قصائده بنفر من الجاهلين منهم معن بن أوس وزهير والنابغة.

6. تميّز بثقافته اللغوية العميقة، وتمكنه من حشد قدر هائل منها في ديوانه.

7. يُعد شعره وثيقة تاريخية، سجّل فيه أحداثا تاريخية للإمارة العيونية التي أغفلتها المصادر التاريخية، فقد ذكر كثيراً من أخبارها وأسماء أمرائها ووقائعهم، وصراعهم على الحكم. فضلا عن أنه صوّر بيئته البدوية وتقاليدها الاجتماعية.

المتخير من شعره(*)

وقال في غرضٍ له وهو عابر في دجلة وسمع صوت حمام يسجع(*):

صبا[1] شوقاً فحنَّ إلى الدِّيار ... ونازَعَهُ الهوى ثوبَ الوقارِ
وهاجَ لهُ الغرامَ غِناءُ وُرْقٍ[2] ... هواتِفُ في غصونٍ من نُضارِ
صدَحنَ[3] غُديَّةً فتركنَ قلبي ... - وكان الطَّودَ - كالشَيءِ الضِّمار
رُويداً[4] يا حمامُ بمستهامٍ ... مَشوقٍ منَّهُ طُولُ السِّفارِ
براهُ الشَّوقُ[5] بَرْيَ القدحِ جدًّا ... فغادَرهُ بقلبٍ مستطارِ
فوا عَجباً لكنَّ تَنُحْنَ خوف الـ ... ـفِراقِ وما بدَت خيلُ المِغارِ[6]
ولم تُصدَعِ[7] لكنَّ عصاً ببينٍ ... ولم تَعبَثْ لكُنَّ نوىً بعارِ
وأنتُنَّ النَّواعمُ بينَ بانٍ[8] ... وخِيريَّ يَرِفُّ وجُلَّنارِ
وبَينَ بنفسجٍ يزداد حُسناً ... كلونِ القرْص في وُجْنِ[9] الجواري
تَردنَ نميرَ[10] دِجلةَ لا لغِبٌّ ... بِطاناً من بواكيرِ الثِّمار

(*) نقلا عن: نصوص من شعر عصور الدول المتتابعة، للدكتور عمر الأسعد، ض 226-231.

(*) الديوان ص 214. والقصيدة من الوافر، والقافية من المتواتر.

(1) صبا: حنّ وتشوّق.

(2) الوُرْق: جمع ورقاء وهي الحمامة. وهَتفْ الحمائم: أصواتها. والنُّضار: أثل ورسيّ اللون.

(3) صدحت الحمائم: صاحت وصوّتت. والغدّية: تصغير الغداة. والطّود: الجبل العظيم. والضِّمار: كلّ ما لا تكون منه على ثقة.

(4) رويداً: مهلاً. والمستهام: المشغوف بالحب. ومَنَّه السِّفار: أضعفه وأعياه. والسّفار: مصدر سافر.

(5) براه الشوق: هَزَله. والقِدْح: السّهم قبل أن يُراش ويركَّب نصله. وقلب مستطار: مذعور مفزَّع.

(6) الأمغر من الخيل: وهو الذي شُقرته تعلوها مُغرة أي كدُرة.

(7) صدع العصا عبارة عن التفرق. والبين والنوى: البعاد.

(8) البان: شجر ليّن. والخِيري: نبات له زهر. والجلنار: زهر الرمان، معرّب.

(9) الوُجن: جمع وجنة. شبّه آثار قرص الوجنات بلون زهر البنفسج.

(10) النّمير من الماء: الطيّب الناجع في الرّي. والغِبّ: ورود الماء يوماً وتركه يوماً. وبطاناً: ممتلئة.

لـدى أوكـارِكنَّ بحيثُ تاجُ الـ ـخليفة لا بأجوازِ[1] البراري
فكيفَ بكُنَّ لو نِيطَت شُجوني[2] بكُنَّ ونارُ وجْدِي وادّكاري
مُنيتُ[3] من الزَّمانِ بعنقفيرٍ قليلٌ عندَها حزُّ الشِّفارِ
فِراقُ أحبَّةٍ وذهابُ مالٍ وضَيْمُ[4] أقاربٍ وأذاةُ جارِ
فلا واللهِ ما وَجْدٌ[5] كوجدي ولا عُرفَ اصطبارٌ كاصطباري
ولائمةٍ وأحزَنَها مَسيري وقدْ شرِقَتْ[6] بأدمُعِها الغِزارِ
تقولُ وقدْ رأتْ عيسي[7] ورحلي وصدِّي عن هواها وازوراري
عَلامَ[8] تَجَشَّمُ الأهوالَ فرداً بغُبْرِ البيدِ أو لُجَجِ البحارِ
أمالاً ما تُحاولُ أم عُلُوًّا - هُديتَ - أم اجتواءً للدِّيارِ[9]
أتقنَعُ بالعَلاةِ من العَلالي بَديلاً والمُثارِ من الوِثارِ[10]

(1) الأجواز: جمع جَوز، وجوز كل شيء: وسطه.

(2) الشجون: جمع شَجَن، وهو الهم والحَزَن. ونيطت شجوني بكنّ: علقت، وادّكر: ذكر بعد نسيان، وأصله: اذتكر فأدغم، قال تعالى ﴿وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف 12: 45].

(3) مُنيت: ابتليت. والعنقفير: الداهية. والشّفار: جمع شفرة وهي السكين العظيمة، وشفرة السيف. حدّه.

(4) الضيم: الظلم.

(5) الوجد: الحزن.

(6) شرق: غصّ.

(7) العيس: الإبل. والرّحل: ما يوضع على ظهورها للركوب. والازورار: الميل والانحراف.

(8) علام: الأصل: على ما، حذفت ألف ما الاستفهامية لجرّها بحرف جر. وتَجشم: الأصل: تتجشّم. وتَجَشّم الأهوال: تكلّفها بمشقة. والبيد: جمع بيداء وهي الفلاة. وبيد غُبْر: كثيرة الغبار ثائرة: جمع لُجّة، ولُجّة الماء: معظمه.

(9) الاجتواء للديار: النّزوع إليها.

(10) العلاة: النّاقة الجسيمة. والعلالي: جمع عُلّيّة وهي الغرفة. والمُثار: صفة لموصوف محذوف، التقدير: والغبار المثار: الوثار، الفراش الوطيء.

فقُلتُ لها غِشاشاً [1] والمَطايا | إلى التَّجليحِ حاضِرةُ الحِضارِ
ذريني لا أبالَكِ كيفَ يرضى | بدار الهَونِ[2] ذُو الحسبِ النُّضار
فظِلُّ السِّدرِ [3] عندَ الذُّلِّ أولى | بأهلِ المَجْد من ظلِّ السِّدارِ
فكمْ أُفني على التَّسويف[4] عُمراً | أتى في إثرِ أعمارٍ قِصارِ
وحتَّامَ الخُلودُ إلى مكانٍ | على مَضضٍ[5] به أبداً أداري
ولو أنّي أُداري قَرمَ [6] قومٍ | كريمَ المُنتهى حَامي الذِّمار
عُذِرتُ وقُلتُ للنَّفسِ اطمئِني | ومِلتُ إلى التَّحلُّم [7]والوَقارِ
ولكنِّي أُداري كلَّ قَرٍّ | يُجَلُّ إذا يُعَدُّ من القَرارِ
كَليلِ الطَّرفِ[8] عن سُبُلِ المعالي | بَصيرِ بالمآثِرِ والأثارِ
تعلَّق من عُرا قومي بِسِبٍّ[9] | ضعيفٍ ليسَ بالسَّبَبِ المُغار
فأصبحَ كالحُبارَى[10] مُقذَحرًّا | بِجذرِيَةٍ لهُ لا كالحَذاري
فيا شَرَّ الدُّهورِ جُزيتَ شرَّ الـ | ـجزاء وذُقتَ فقدانَ الشَّرارِ

(1) الغشاش: العجلة، والتجليح: السير الشديد. والحِضار: ضرب من عدو الدّواب.

(2) الهُون: الهوان، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ [يوسف 6: 93] والحسب النُّضار: الخالص.

(3) شجر النّبق والسّدار: شبه الكلّة تُعرَّض في الخباء.

(4) التسويف: الصبر والمطل.

(5) على مضض: على كره وتألُم.

(6) القرم: السيد المعظّم. حامي الذّمار: حامي العرض والأهل.

(7) التحلُّم: تكلُّف الحلم. والوقار: الرزانة.

(8) كليل الطرف: ضعيفه. المآثر: جمع مأثرة وهي المكرمة المتوارثة. يعني هو عظامي لا عصامي!

(9) السُّب: الحبل. والحبل المُغار: المحكم الفَتْل.

(10) الحُبارى: طائر طويل العنق. والمقذحرّ: المتهيء للسباب المعدّ للشّر. وحذرية الديك: ريش عنقه، والجمع الحذاري والحذارى.

لِتَــرْأَمَ كــلَّ ذي شــرفٍ قــديمٍ[1] وتــذرو مــا برأسِــكَ مــن ذرارِ
فقــد كلّفْــتَني خُططــاً[2] أشــابَتْ قَــذالي قبــلَ خــطٍّ في عِــذاري
ولــو أجرضْــتُ[3] منــكَ بغــير ريقــي لكــانَ بأعــذبِ المــاءِ اعتــصاري
فقُــلْ للــشَّامتين بنــا عِلانــاً[4] هَنيئــاً بالمهانــةِ والــصَّغارِ
مكــائكُمُ[5] فِــسخُّوا فالمعــالي صِــعابٌ لــيسَ تُــدرَكُ بالــسِّرارِ
فقــدْ نِلــتُ المُنــى غَــضًّا[6] بجِــدٍّ وعَــزمٍ لا يَقَــرُّ علــى قَــرارِ

(1) رأم ذا الشرف القديم: أصلحه وأعاد إليه شرفه. وتذرو: تفرّق. والذّرار: الإعراض غضباً.

(2) كلفتني خططاً: أوقعت بي مصائب: والقذال: جماع مؤخر الرأس. والعذار: جانب اللحية. أراد أن المصيبات أشابت شعر رأسه قبل أن ينبت شعره وجهه ويبلغ مبلغ الرجال.

(3) أجرضه بريقه: أغصّ به. والاعتصار: شرب الماء قليلاً لإساغة ما يُغصُّ به من طعام.

(4) العلان: المعالنة. والصّغار: الرضى بالذل.

(5) اسم فعل أمر بمعنى اثبتوا. وسخّت الجرادة: غرزت ذنبها في الأرض.

(6) نَيل المنى غضًّا: عبارة عن تحصيله لا وراثته.

المبحث الخامس
بهاء الدين زهير (-656 هـ/1258 م)

بهاء الدين زهير بن محمد بن علي، ينتهي نسبه إلى المهلب بن أبي صفرة. ولد في الحجاز بمكة[1]، في أثناء حجّ أبويه. ويبدو أنه قضى من الزمن في مسقط رأسه، ترك فيه بعض الذكريات، غير أنه نشأ وتربّى في قوص[2] وهي بلدة في صعيد مصر، حيث تلقى علومه الأولى، وتفتّحت موهبته الشعرية، ومضى يقرأ المتخيرات الأدبية، ويجدّ في دراسة الحديث. ومن ثمّ قال الشعر مبكرا، وهو ابن أربع عشرة سنة، إذ مدح الملك المنصور علي بن عبد العزيز، وهنّأه بعيد الأضحى. التحق بخدمة الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل، وصار «متمكنا من صاحبه كبير القدر عنده لا يطلّع على سّره الخفيّ غيره»[3] ويُذكر أنه اصطحبه معه في رحلاته إلى الشام وأرمينية وعهد إليه بديوان الإنشاء. وحافظ على ولائه إبّان نكبته، فحفظ له ذلك، إذ إنه لما عاد إلى الحكم قرّبه إليه.

وكانت تربطه صداقة بالشاعر ابن مطروح، إذ التحقا معاً في خدمة الملك الصالح «ولعلّ من الطريف أنّ الصديقتين كانا من ذوق يميل إلى السهولة المطلقة إلا أن البهاء يتفوّق بخفة الروح والعذوبة في الأسلوب»[4]. ويكاد مؤرّخوه يجمعون على تمتعه بالخلق النبيل والمروءة، يقول ابن خلّكان: «كنت أودّ لو اجتمعت به، لما كنت أسمع عنه. فلما وصل اجتمعت به، ورأيته فوق ما سمعت عنه من مكارم الأخلاق، وكثرة الرّياضة، ودماثة السّجايا. وكان متمكناً من صاحبه، كبير القدر عنده»[5]. وقد نشأت بين الشاعر وبين ابن خلكان صداقة، إذ التقيا مرّات عدّة. وأملى عليه نسبه وأخبره بمولده وأنشده كثيراً من شعره. وسجّل ابن خلكان ترجمته «وهو في قيد الحياة

(1) انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 232/2.

(2) انظر: م.ن.

(3) انظر: م.ن.

(4) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص 497.

(5) ابن خلكان، م.س، 322/2.

منقطعاً في بيته بالقاهرة بعد موت مخدومه»[1] ووصف بأنه «من فُضلاء عصره وأحسنهم نظماً ونثراً وخطّاً»[2].

وبعد وفاة الملك الصالح اعتزل الشاعر عمله، وأقام في داره حتى «حصل بالقاهرة ومصر مرض عظيم لم يكد يسلم منه أحد»[3] فلم يلبث أن توفي سنة 656 هـ.

طبع ديوان البهاء زهير مرّات عدة، فطبع في كمبريج بتحرير المستشرق إدوارد بالمر سنة 1876 م. ثم طُبع غير مرة، آخرها طبعة دار صادر في بيروت سنة 1980 م.

خصائص وسمات

1. يُشكّل الغزل الجانب الأكبر في ديوانه، إذ شغل نفسه به طوال حياته. وله مقطوعات شعرية في الإخوانيات والأحاجي والألغاز؛ وبعض القصائد في التصوّف، والمديح الذي خصّ به بني أيوب بعامة، والملك الصالح بخاصة.
2. أسلوبه سهل ممتنع، لكنه يُوشى شعره بضروب البديع من جناس وطباق وتورية فضلاً عن أنه كان يُكثر من التضمين فيه، كقوله:

وقفتُ على ما جاءني من كتابكم (وقوف شحيحٍ ضاع في التُّرب خاتمُه)

فقد ضمَّن شطره الثاني من المتنبي[4] وأيّا كان الأمر، فشعره بعيد عن التصنع، بل إنه يُمعن في السهولة، ويقترب من اللغة المحكيّة.

3. تبدو في شعره الروح الشعبية، وتأثره باللهجة العاميَّة المصرية التي كان يملأ بها كثيرا من أشعاره، حتى بدت في أسلوبه ومعانيه.

في مثل قوله:

كل ما يُرضيكَ عندي فعلى رأسي وعيني

(1) وفيات الأعيان، 337/2.

(2) م.ن، 332/2.

(3) م.ن، 338/2.

(4) انظر: شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص 498.

وقوله:

إيـــاكَ يـــدري حـــديثاً بيننـــا أحـــدٌ   فهـــم يقولـــون للحيطـــان آذانُ

4. يميل أحيانا إلى الأوزان المجزوءة ذات الإيقاع الموسيقي المطرب، كقوله:

مـــن اليـــوم تعارفنـــا   ونطـــوي مـــا جـــرى منّـــا

ولا كـــان ولا صـــار   ولا قُلـــتم ولا قُلنـــا

وإن كـــان ولا بُـــدَّ   مـــن العَتْـــبِ فبالحُـــسنى

ولكنه نظم أيضا كثيراً من أشعاره على الأوزان الطويلة، كالطويل والوافر والمتدارك، في شعر المديح على وجه الخصوص.

5. يميل إلى استخدام الأوزان المولّدة كالدّوبيت في مثل قوله:

يـــا مَـــنْ لعبـــتْ بـــه شمـــولٌ   مـــا ألطـــفَ هـــذه الـــشمائل

نـــشوانُ يهـــزّه دلالٌ   كالغُـــصنِ مـــع النـــسيم مائـــل

لا يُمكنـــه الكـــلامُ لكـــنْ   قـــد حَمّـــلَ طَرْفَـــهُ رســـائلْ

والقصيدة متوسطة الطول من بحر السلسلة ووزنه: (فَعْلُن مُتفاعلن فعولن) هو مجزوء الدوبيت. والدوبيت لفظ مأخوذ من الفارسية، ووزنه: فَعْلن متفاعلن فعولن فعِلن.

المتخير من شعر البهاء زهير

في الغزل والحنين[*]:

رُويدَكَ[1] قد أفنيتَ يا بَينُ أدمُعي ... وحَسبُكَ قد أضنيتَ يا شوقُ أضلُعي
إلى كَمْ أقاسي فُرقةً بعد فُرقةٍ ... وحَتى متى يا بَينُ أنتَ معي معي
لقد ظَلَمْتني واستطاَلْت[2] يدُ النوى ... وقد طَمِعتْ في جانبي كُلَّ مطمعِ
فلا كانَ من عرَّف البينَ موضعي ... لقد كنتُ منهُ في جنابٍ مُمنَّعِ[3]
فيا راحلاً لم أدرِ كيفَ رحيلُه ... لِمَا راعَني من خَطبِهِ[4] المُتسرِّع
يُلاطِفُني بالقولِ عندَ وَداعِهِ ... ليُذهبَ عني لَوعَتي[5] وتَفجُّعي
ولَمَّا قضى[6] التَوديعُ فينا قَضاءَه ... رجعتُ ولكن لا تسلْ كيفَ مرجعي
فيا عيني العَبرى عليّ فاسكبي ... ويا كبدي الحرّى عليهم تقطَّعي[7]
جزى الله ذاكَ الوجهَ خيرَ جزائهِ ... وحيَّته عني الشَّمسُ في كلِ مطلعِ
ويا رَبِّ جَدّدْ كلَّما هبَّتِ الصَّبا ... سلامي على ذاكَ الحبيبِ المودَّعِ[8]

(*) الديوان ص195. والقصيدة من الطويل، والقافية من المتدارك، نقلاً عن: نصوص من شعر عصور الدول المتابعة لعمر الأسعد، ص 269-277.

(1) رويدك: اسم فعل أمر بمعنى تمهّل. وحسبك أي كافٍ لك.

(2) استطالت: تطاولت واعتدت.

(3) الجناب الممنَّع: المكان المجار والحمى المحميّ.

(4) الخَطْب: الحال والشأن.

(5) لوعة الفراق: حُرقته. والتفجّع: التألّم للمصيبة.

(6) قضى فينا قضاءه. وقع.

(7) العين العَبْرى: الباكية، فاسكبي: كذا في الديوان، وقطعت همزتها لضرورة الوزن، والحّران: العطشان، والأنثى الحرى.

(8) الصَّبا: ريح تهبّ من موضع مطلع الشمس.

قفـوا بعـدنا تَلقـوا مكـانَ حـديثنا ... لـهُ أرجٌ كـالعنبرِ المُتـضوِّعِ[1]
فيعلَـق في أثـوابِكُم مـن تُرابِـهِ ... شذا المسكِ مهما يُغسل الثوبُ يسطعِ[2]
أأحبابنـا لم أنـسكمْ وحيـاتِكم ... ومـا كـان عنـدي وُدُّكُـم بمـضيَّعِ[3]
عتبْـتم فـلا واللهِ مـا خنـتُ عهـدكم ... ومـا كنـتُ في ذاكَ الـودادِ بمُـدَّعِ[4]
وقُلـتُم علمنـا مـا جَـرى منـك كُلَّـه ... فلا تظلموني، ما جرى غـيرُ أدمعـي[5]
كمـا قُلـتُمُ يهنيـكَ[6] نومُـكَ بعـدَنا ... ومـنْ أيـن نـومٌ للكئيـبِ المـروَّعِ
إذا كنـتُ يقظانـاً أراكُـم وأنـتُمُ ... مُقيمـونَ في قلـبي وطـرفي ومـسمعي
فما ليَ حتَّـى أطلـبَ النَّـوم في الهَـوى ... أقـولُ لعـلَّ الطَّيـف يطـرُقُ مـضجعي
ملائُم فـؤادي في الهـوى فهـو مُـترعٌ[7] ... ولا كـان قلـبٌ في الهـوى غـيرَ مُـترعِ!
ولم يَبـقَ فيـهِ موضـعٌ لـسواكُمُ ... ومَن ذا الـذي يـأوي إلى غـير موضـعِ
لحـى اللهُ[8] قلـبي هكـذا هـو لم يـزلْ ... يحـنّ ويـصبو لا يفيـقُ ولا يَعـي
فـلا عـاذِلي[9] ينفَـكّ عنّـيَ إصـبعاً ... وقـد وَقَعَـتْ في رزَّةِ الحـبِّ إصـبعي
لـئِنْ كـان للعـشَّاقِ قلـبٌ مُـصرَّعٌ ... فما كانَ فـيهِم مـصرعٌ مِثْلُ مـصرعي

(1) الأرج: توهُّج ريح الطيب، وكذا الأريج. والعنبر: ضرب من الطِّيب. والمتضوع: المنتشر الرائحة.
(2) المسك من الطيب: فارسي معرَّب، وكانت العرب تسميه المشموم. وشذاء: حدة ذكاء رائحته. وسطع الثوب: ارتفعت رائحته.
(3) أأحبابنا: نداء. عندي: متعلق بمضَّع.
(4) مدّع: زعيم.
(5) جانس بين جرى: وقع، وجرى: سال.
(6) يهنيك: الأصل: يهنئك، مسهّل الهمزة مجزوم بلام الأمر. والكئيب: الحزين. والمروَّع: المفزَع.
(7) مُترع: مليء.
(8) لحاه الله: قبّحه ولعنه: وصبا: مال إلى الجهل والفتوة. ووعى الأمر: أدركه على حقيقته.
(9) العاذل: اللائم. والرَّزَّة: حديدة يُدخل فيها القفل. والحِبّ: المحبوب.

وقال متغزّلاً[*]:

يــا مَــن لعِبــتْ بــه شَــمولٌ[1] مــا ألطــفَ هــذه الــشمائلُ
نــشوانُ[2] يهــزّه دلالٌ كالغُــصنِ مــع النــسيم مائــل
لا يُمكنــه الكــلامُ لكــنْ قــد حمّــلَ طَرْفَــهُ[3] رســائلْ
مــا أطيــبَ وقتنــا وأهنــى والعــاذِلُ[4] غائــبٌ وغافِــل
والبــدرُ يلــوحُ في قِنــاعٍ والغــصنُ يميــلُ في غلائِــل[5]
والــوَردُ علــى الخُــدودِ غــضٌّ[6] والنّــرجسُ في العيــونِ ذابِــلْ
والعــيشُ كمــا نُحــبّ صــافٍ والأُنــسُ بمــا نُحــبّ كامِــلْ
مَــولايَ يحــقّ[7] لــي بــأنّي عــن مثلِــكَ في الهــوى أقاتــل
لــي فيــك - وقــد علِمْــتَ - عِــشقٌ لا يَفهَــمُ ســرَّهُ العــواذلْ
في حُبّــك قــد بَــذلْتُ روحــي إنْ كنــتَ لِمــا بــذلتُ قابِــلْ

(*) الديوان ص277. والقصيدة من بحر السلسلة ووزنه: فعْلن متفاعلن فعولن، وهو مجزوء الدّوبيت. والدّبيت لفظ مستعارِ من الفارسية، وهو من الأوزان المولّدة ووزنه: فَعْلن متفاعلن فعولن فعِلن.

(1) الشّمول: الخمر. والشمائل: جمع شِمال وهو الخُلُق.

(2) نشوان: سكران.

(3) الطَّرْف: العين.

(4) العاذل: اللائم.

(5) الغلائل: جمع غِلالة وهي ثوب رقق يلبس تحت الدّثار.

(6) غضّ: طري ناضر.

(7) حقّ وحق بمعنى.

المبحث السادس

الشرف الأنصاري (-662 هـ/1264م)

هو عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصاري الأوسي، والمعروف بابن الرّفاء. ولد في دمشق سنة 586 هـ. وتعود أصوله إلى قبيلة أوس الأنصارية، ويشير إلى ذلك في شعره، بقوله:

وإذا ما الأوسُ عُدُّوا فإني   من ذويهم في لُباب اللّباب[1]

نشأ في مملكة حماة الأيوبية، وفي بيئتها العلمية المزدهرة، على سُنّة أبيه الذي كان خطيباً ومترسلاً وفقيها وشاعراً، فتلقى العلوم الدينية والأدبية بإشرافه، ثم أخذ ينهل من علماء عصره في دمشق وبغداد.

عاد إلى حماة واستقر فيها، حيث توافد العلماء وطلبة العلم على مجلسه، نذكر منهم: عز الدين ابن القاضي الفاضل، وسبط ابن الجوزي، وبدر الدين جماعة، وغيرهم كثير. وتألّق نجمه العلمي فصار يدعى شيخ شيوخ حماة، ونال احترام ملوكها وتقديرهم، إذ اعتمدوا عليه في تدبير شؤون الدولة فاستوزره الملك المنصور الأول وأصبح شاعره، فمدحه أماديح عدّة، وهنأ زوجته بولدها محمود، إذ يقول:

يا عصمةَ الدينِ والعلياءِ والجُودِ   لكِ الهناءُ بعزٍّ غير محدودِ

يا مَنْ غَدَتْ خيرَ أملاكِ الزمان لقد   وَلَدْت مَلِكَ البرايا خيرَ مولود

ثم مدح ولده الملك المظفر الثاني الذي ظفر بالملك، بمساعدة عمّه بعد اضطرابات وأحداث، وكان هذا الحدث فاتحة عهد جديد في حياته؛ إذ استوزره الملك لما عُرف عنه من فكر ثاقب ورأي أصيل. وتوطّدت صلته بالأيوبيين، وآية ذلك أنه أصبح رئيس مجلس الوصاية على الحكم حين آل الملك إلى المنصور الثاني وهو حَدَث لم يتجاوز العاشرة من عمره، ثم غدا وزيرا له بعد بلوغه سنّ الرشد، وأسهم في توطيد الصلات بين الأيوبيين في مصر والشام.

(1) ديوانه، ص 84.

وحين اكتسحت جيوش التتار بلاد الشام توجّه الملك المنصور إلى مصر ومعه حريمه وأولاده، وطلب نجدة السلطان قطز، فلبى طلبه، وخرج معه إلى الشام حيث التقى المسلمون بالتتار في موقعه عين جالوت في 25 رمضان سنة 658 هـ؛ وشارك فيها الملك المنصور نفسه وأخوه الملك الأفضل مشاركة فعلية، وهُزم التتار وعاد المنصور إلى ملكه في حماة[1]، وأقبل عليه شاعره شرف الدين مهنئاً ومادحاً بقصيدة مطلعها[2]:

رُعْتَ العِدا فضمنْتَ ثلَّ عروشها ولقيتها فأخذْتَ فَلَّ جيوشها

وأيّاً كان الأمر، فقد كان شرف الدين وطيد الصلة بالأيوبيين في حماة، اصطفوه لأنفسهم، وعاصر معظم ملوكهم وظلّ على رأس عمله حتى وافته المنية إبان عهد المظفر الثالث[3] حيث دفن بظاهر حماة.

لشرف الدين ديوان شعره المختار، نشره مجمع اللغة العربية في دمشق عام 1967 بتحقيق الدكتور عمر موسى باشا. وله ديوان آخر أشار إليه الصفدي في اللزوميات سماه صاحبه «إلزام الضروب بالتزام المندوب» وكثير منها في ديوانه الأصلي ويبدو أنه نظمها في أواخر حياته، وأن معظمها يدور حول المعاني الذاتية التي عبّر بها الشاعر عن نفسه وأحواله[4]. وله منظومة تحدّث فيها عن والده عنوانها: «تذكار الواحد بأخبار الوالد».

(1) انظر: مختصر أبي الفداء، 214/3.

(2) الديوان، ص 270.

(3) هو محمود بن محمد، تولى حماة بعد وفاة أبيه المنصور الثاني (الأعلام، 7/ 182).

(4) انظر: عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، ص 384.

أغراض شعره

تدور أشعاره حول عدة أغراض، أهمها المديح والغزل، وله مطارحات وألغاز.

1. المديح

قصر مدائحه على ملوك الأيوبيين الذين عاصرهم، فقد كان أسيراً لديهم، وتحدّث عنهم في أوقات الحرب والسلم، فقد أشار إلى معركة عين جالوت في قصيدته التي مدح بها الملك المنصور، إذ يقول[1]:

يا ملكاً لم تزلْ عزائمهُ تكفُّ عنا الأذى وتكفينا
أنتَ المليكُ المنصورُ أشرفُ من فاق البرايا عزّاً وتمكينا
بعينِ جالوتَ خُضْتَ بحرَ وغىً يُخالُ فُلكاً بالأسدِ مشحونا

وله مدائح نبوية متعددة، لم يخرج فيها عن نهج من سبقه من الشعراء.

2. الغزل

سار في غزله على نهج معاصريه، ولكنه جدّد فيه وابتكر «فتحدّث عن خال وجنة الحبيب، وعقارب الأصداغ وليل الشَّعر، ووصف ذلة العاشق وبكاءه، وصدود الحبيب وإعراضه، وتجنّي الرّقيب على المحبّ، ولوم العاذل والكاشح والرقيب»[2]، في مثل أبياته التي يُحدثنا فيها عن جارته ذات الخالين، إذ يقول:

لنا من ربّة الخالين جارهْ تواصلُ تارةً وتصدُّ تارهْ
تُؤانسني وتنفرُ من قريبٍ وتعرضُ ثم تُقبل في الحرارهْ
وفي الوصفين من كَحَلٍ وكُحْلٍ حَوَتْ حُسنَ البداوةِ والحضارهْ
وقتلُ العمدِ قد قتلتْهُ علماً وما وصلتْ إلى بابِ الإجارهْ
وقالوا: قد خسرتَ الرُّوح فيها فقلتُ: الرّبحُ في تلك الخسارهْ

---

(1) ديوانه، ص 469.

(2) عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، ص 390.

فهو يتحدث عن جارته الحسناء بأسلوبه العذب الرشيق، ويسلك فيها مسلك شعراء الغزل الحسّي المادّي. وهو لا يخرج على هذا النهج في سائر غزلياته.

خصائص وسمات

1. استعمال الأساليب البلاغية والتورية على وجه الخصوص، إذ تفنّن فيها وأكثر من ذكرها «فهو رائد المذهب الرمزي في أدبنا العربي خلال هذا العصر في بلاد الشام»[1] كقوله في جاريته مارية:

أوقعني في قيد أسر الهوى جاريةٌ أوصافُها جامعةْ
ثالثةُ البدرين في حُسنها مع أنها في نُسكها رابعةْ

2. استعمال المصطلحات النحوية والعروضية، كقوله:

رفعتَ ذوي الإعرابِ من بعد خفضهم فأثنى عليك الرّفعُ والنَّصب والجرَّ

وقوله:

وبحرٌ طويلُ الباعِ مُنسرحُ النّدى بسيطُ المعالي وافرُ الفضلِ كامِلُهْ

(1) عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، 398.

المتخير من شعر شرف الدين الأنصاري

وقال(*):

سُــــروري بــــساقيةٍ جاريــــهْ[1] ووجــــدي بجاريــــةٍ ســــاقيهْ
أهــزُّ بهاتيــكَ عِطْــفَ[2] القَــريض لِيُــثني علــى هــذه الثَّانيــه
مهــاةٌ[3] نــشأتُ علــى حُبِّهــا كمــا هــي في حــسنها ناشِيــه
سَــبَتني[4] كاســيةٌ بالجمــالِ فرُوحــيَ عنــدي لهــا عاريــهْ
علــى الجــسمِ حاكمــةٌ بالــضَّنى[5] وفي القلــبِ آمِــرةٌ ناهيــهْ
تعــالى عــن النَّــدِّ[6] نــشرٌ لهــا يَطيــبُ بــه النَّــدُّ والغاليــهْ
وأوْلَــتْ مــن الوَصــلِ[7] أضــعافَ مــا رَجَــوتُ ولم تكفــني كافيــهْ
فُــؤادي علــيَّ رقيــبٌ لهــا يُطالِعُهــا عينَــهُ الــصَّافيه
ترانــي إذا لم أزُرْ بيتَهــا كــأنّيَ بَيْــتٌ بــلا قَافيــه
تُواصِــلُني فــأحوزُ المُنــى وأجلــسُ في الدَّســتِ[8] والحاشيــه

(*) الديوان ص 528. والقصيدة من المتقارب، والقافية من المتدارك. نقلاً عن كتاب «نصوص من شعر عصور الدول المتتابعة» لعمر الأسعد، ص 301-303.

(1) الساقية الجارية: الجدول الجاري ماؤه. والجارية الساقية: الأمة تسقي الشَّرْب.

(2) عِطْف كل شيء: جانبه.

(3) المهاة: البقرة الوحشية، ذكرها على التشبيه. وناشية: مسهّلة الهمزة.

(4) سَبَتْه: أسرته. والعارية: ما تعطيه غيرك على أن يعيده إليك، يقال: كل عارية مستردّة. وفي اللفظة تورية.

(5) الضّنى: المرض أو الهزال الشديد.

(6) النَّد: ضرب من الطّيب يُتبخَّر به، والنَّد من الطّيب ليس بعربي. والغالية: أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر. والنّشر: الريح الطّيبة.

(7) أولت من الوصل: أعطت منه.

(8) الدّست: صدر المجلس.

وتنـــأى فـــأجلسُ في مَـــسجدي   وحيـــداً والتـــفُّ بالباريـــه[1]
فطَـــوراً بخُفَّـــي[2] حُـــنَينٍ أعُـــود   وطَـــوراً بقُـــرطين مـــن مَاريـــه
فهـــلْ مـــن مُعـــين علـــى عـــاذلي   فيأخُـــذَهُ أخـــذةً رابيـــهْ[3]؟
تَحـــسَّرَ إذ لم أطِـــعْ أمـــرهَ   فيـــا ليتَهـــا كانـــتِ القاضـــيهْ[4]
ولـــستُ أبـــالي بِـــسُخْطِ العَـــذولِ   إذا أنـــا ألفَيْتُهـــا راضِـــيهْ
ولَمّـــا شـــكوتُ إليهـــا الجَـــوى[5]   وعَتْـــهُ لهـــا أُذنٌ واعِيـــه
فقالَـــتْ: بعـــينيَ هـــذا الـــسَّقام   فقُلـــتُ: علـــى عَينِـــك الواقِيـــهْ!
أضـــاحكةَ الـــسِّنِّ لـــو زُرتِـــني   عَجِبـــتِ لِمُقلـــتيَ الباكيـــه!
وأنقَـــذْتِني مـــن أســـىً زادنـــي   فلـــم يبـــقَ في جَلَـــدي باقيـــهْ[6]
وإنّـــي، وإن نـــالَ منّـــي الأذى   مُعـــافى إذا كنـــتِ في عافيـــه

(1) الباريّ والبارياء: الحصير المنسوج، فارسي معرّب.

(2) من أمثال العرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة: رجع فلان بخفّي حنين. انظر أصل المثل في مجمع الأمثال 308:1، وثمار القلوب ص 606. ومن أمثالهم: خذه ولو بقرطي مارية. وهي مارية بنت ظالم.. الغسّاني، أول عربيّة تقرّطت وسار ذكر قرطيها في العرب وكانا نفيسي القيمة. انظر المستقصى 73:2، وثمار القلوب ص629.

(3) من قوله تعالى: ﴿ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ ﴾ [الحاقة 10:69] وأخذة رابية: زائدة في الشّدة.

(4) في الديوان: إذا لم، وبه ينكسر الوزن. وضمّن البيت قوله تعالى: ﴿ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴾ [الحاقة 27:69].

(5) الجوى: الحرقة وشدة الوجد من عشق أو حزن. وضمّن البيت قول تعالى: ﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحاقة 12:69].

(6) ضمنّه قوله تعالى: ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الحاقة 8:69].

المبحث السابع
الشابّ الظّريف (-688 هـ/1289 م)

حياته

هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين التلمساني، ولد بالقاهرة سنة 661 هـ. وقد عُرف بين مُعاصريه بـ «الشاب الظريف»؛ لرّقته وطرافة شعره، فكان كما وصفه ابن العماد «ظريفاً لعّابا مُعاشِراً، وشعره في غاية الجود»[1].

ويُقال له أيضا ابن العفيف نسبة إلى أبيه الذي عُرف بالعفيف التلسماني، وكان شاعراً أيضاً. ومتصوفاً على طريقة ابن عربي وسلوكه، وكان قد نزح عن تلمسان في المغرب الأوسط، واستقرّ بالقاهرة، حيث تزّوج ثم أنجب ابنه شمس الدين محمد (الشاب الظريف) الذي قضى فيها عهد الصِّبا.

ولم يلبث الشاعر أن انتقل بمعيّة أبيه إلى دمشق، حيث استقّرت الأسرة في منزل على سفح جبل قاسيون، وعمل الأب في ديوان المكس.

ويشير الشاعر إلى مصر التي عاش فيها سنوات الصّبا إذ يقول[2]:

يا ساكني مصرَ شملُ الشوقِ مجتمعٌ   بعد الفراقِ وشملُ الشكر أجزاءُ
كأن عصر الصِّبا من بعد فُرقتكم   عصرُ التصابي به للّهو إبطاءُ

وكذلك نراه يشير إلى دمشق وجبل قاسيون، إذ يقول[3]:

يا قَطْرُ عُمَّ دمشقَ، واخْصُصْ منزلاً   في قاسيونَ، وحَلّه بنباتِ
وترنّمي يا وُرْقُ فيه، ويا صَبَا   مُرِّ عليه بأطيبِ النَّفَحاتِ

(1) فوات الوفيات، 422/2.

(2) الديوان، ص 3.

(3) م.ن، ص 23.

وقد أمضى الشاعر حياته القصيرة في دمشق الفيحاء، حيث بلغ أوج مجده وهو في شرخ شبابه، ونال إعجاب الناس بعامة، والأدباء بخاصة، ولكنه تعرّض لأذى الحُسّاد الشانئين.

وأصابه يأس شديد، فأزمع على اعتزال الناس، ثم فاجأته المنيّة، وهو في السابعة والعشرين سنة 688 هـ، دون أن يُمتَّع بالشباب، وجزّع عليه والده جزعاً شديداً ورثاه بشعر كثير.

العوامل المكوّنة لشاعريته

تأثرت شخصيته الأدبية بعاملين، هما: الوراثة والبيئة معاً. فقد رُزق موهبة شعرية، جعلته ينظم الشعر في سن مبكرة، كما نشأ في بيئة الشام الغنية بجمال الطبيعة، والعبقة بجوّ التصوف والدين. ولقي الشاعر اهتماماً ورعاية سواء من والده الذي تعهده وثقّفه وهيّأه لأن يصبح مثله شاعراً مجيدا. أو من أهل عصره الذين افتتنوا بشعره، وخاصة أهل دمشق؛ «فإنه بين غمائم غياضهم ربا، وفي كمائم رياضهم حبا، حتى تدّفق نهره، وأينع زهره»[1].

هذا الشاعر الذي أوتي الشباب الغض، وتوافر له المال اختلط في لفّ من الخلطاء على اللهو والشراب، بحيث وصفه الصلاح الصفدي بقوله: «شاعر مُجيد، وكان فيه لعب وعِشرة وانخلاع ومجون»[2]، وهو ما تجلى في غزله وخمرياته، ولعل مجونه كان خروجاً عن نزعة أبيه الصوفية، إذ لا نجده يتأثر بها في شعره، سوى أنه استخدم بعض المصطلحات الصوفية.

وكذلك فإن حسّاده الذين تمادوا في إيذائه وأهبطوا من نفسه الطموح، حتى ليبلغ به اليأس حدّا بعيدا، أودى بالشاعر، فمات وهو في غضارة الشباب، فنسمعه يشكو ويتمنى الخلاص منهم[3]:

كيف خلاصي مِنَ الذي أجدُ؟ قد أعوزَ الصّبرُ عنه والجَلَدُ

(1) انظر: ابن شاكر، فوات الوفيات، 263/2.

(2) الوافي بالوفيات، 3/ 129.

(3) الديوان، ص 72.

مـا قلـتُ يومـاً: قـد انقـضى عـددٌ   مـن الأعـادي إلا أتـى عَـدَدُ
قـد عَرفـوا مـن أنـا؟ وعـاقهمُ   عـن اعـترافٍ بفـضليَ الحـسدُ
مـا بلغـوا مـا حويـتُ مـن أدبٍ   فبـالغوا في آذايَ واجتهـدوا

وبذلك انتهت حياة هذا العبقري النادر الذي أمتع الناس بشعره، دون أن تصفو له حياة ودون أن يُمتَّع بشباب.

آثاره

للشاب الظريف ديوان شعر، عُرف بين الناس، وتداوله الأدباء، وقد كتبه بخطّ يده الجميل. وهو كما روى ابن الفرات عن الصفدي «في غاية القوة والقلم الجاري»[1]. ويرى الدكتور عمر موسى باشا أن جماعة خُلطائه المعجبين بشعره من هُواة مذهب التورية، قاموا بجمعه وترتيبه بحسب الحروف الأبجديّة[2].

ونشر الديوان مرّات، منها نشرة النجف الأشرف، بعناية شاكر هادي شكر، سنة 1967 م. وأنشأ رسالة نثرية أسماها «مقامات العُشّاق» تحدّث في مستهلها عن ولعه بالأراحيز وتدور هذه الرسالة حول عاشقين التقاهما الشاعر في إحدى الرياض حيث تحدّث معهما. وقد نشرت في ملحق ديوان التلعفري.

أغراضه الشعرية

نَظَمَ الشاب الظريف المقطّعات والقصائد الموشحات. وأكثر شعره في المديح، والغزل والخمريات، والوصف، والمسامرة والدّعابة.

1. المديح

وتتوزّع مدائحه على نوعين من المدائح: أولهما، المدائح التقليدية، وثانيهما المدائح النبوية. أما التقليدية فقد خصّ بها بعض رجالات عصره، أمثال ابن عبد الظاهر الذي مدحه بثلاث قصائد، وملك حماة الأيوبي المنصور محمد، الذي لم

(1) تاريخ ابن الفرات، 85/8.

(2) عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة ص 408.

يمدح من ملوك العصر وسلاطينه سواه، فقد مدحه ومدح الأيوبيين بقصيدة دالية. إذ يقول[1]:

أأخافُ صرفَ الدّهرِ أم حِدْثانَهُ والدهرُ للمنصور بعض عبيدِهِ
ملكٌ إذا حدَّثتُ عن إحسانِه حدّثت عن مُبدي النّدى ومعيدِهِ
سادَ الملوكَ بفضلِهِ وبنفسه والعزُّ من آبائه وجُدودِهِ

وتجدر الإشارة إلى أن الشاعر قد أفاد من منصب أبيه الكبير في دمشق، إذ تعرّف إلى ممدوحيه وعقد صدقات متينة معهم. ومن ثمَّ لم يتكسّب بشعره، ولم يكن يتوخى أعطياتهم وهياتهم:

يا آلَ أيوبٍ جُزيتم صالحاً من محسنٍ فعلِ الملوكِ مُجيدِهِ

ومدح الأمير ناصر الدين الحراني، فتجاوز الحد المألوف، وأغرق وبالغ، في مثل قوله[2]:

ولو تلوتَ على ميْتٍ مناقبه ردّ الإلهُ له الروحَ التي سلبا

أما المدائح النبوية، فقد خصَّ بها النبي ﷺ، افتخر فيها بالعرب في زمن علا فيه غير العرب، استهلها بقوله[3]:

أرضَ الأحبّةِ من سَفْحٍ ومن كُثُبِ سقاكِ منهمرُ الأنواء من كَثَبِ

ثم أعلن صرخته العربية المُدويّة:

قومٌ همُ العربُ المحميُّ جارُهُم فلا رعى الله إلا أوجهَ العربِ
أعزُّ عندي من سمعي ومن بَصري ومن فؤادي ومن أهلي ومن نسبي

(1) الديوان، ص 26 و27.
(2) م.ن، ص7 و8.
(3) م.ن، ص 5.

2. الغزل والخمريات

عُرف الشاب الظريف بأنه شاعر غزل، وأنه صوّر في غزلياته حياته الخاصة خير تصوير. ونالت إعجاب مُعاصريه بما فيها من رقة وعذوبة، وبُعد عن التكلف والتصنع، وإن لم تخلُ من البديع وألوان الصناعة اللفظية.

ووقف الدكتور عمر موسى باشا عند غزلياته، فوجد «أنها لا تختلف كثيراً عن نسيبه، إذ استطاع ببراعة ومهارة أن يتخذ من نسيب مديحه صورة حقيقية عن حياته الخاصة»[1]؛ فقد أُعجب معاصروه بمقدمته الغزلية في قصيدة مديح بائية، يقول فيها[2]:

لي مِنْ هواكِ بعيدُه وقريبُه ... ولكِ الجمالُ بديعُهُ وغريبُهُ
يا مَن أعيذُ جمالَهُ بجلالهِ ... حذراً عليه من العيونِ تصيبُه
إن لم تكن عيني فإنك نورُها ... أو لم تكنْ قلبي فأنت حبيبُه
هل رحمةٌ أو حُرمةٌ لِمتيّمٍ ... قد قلَّ منكَ نصيرُهُ ونصيبُهُ

وواضح أنه يعمد إلى الطباق (بعيده وقريبه – بديعه وغريبه)، وكان يُضيف إليه هذا الجناس الناقص (جمال وجلال) أو المقلوب (رحمة وحرمة)، وشاكل بين العين والنور، وبين القلب والحبيب.

وأعجب الصفدي ببيتين له في الغزل تلاعب فيهما بالجناس، إذ يقول:

يا بأبي معاطفٌ وألسنٌ ... يصول منها رامحٌ ونابلُ
فهذه ذوابلٌ نواضِرٌ ... وهذه نواظرٌ ذوابلُ

وجعله من أعلى طبقات الجناس، «لأنه ردّ العجز على الصدر بألفاظه مع اختلاف المعنى»[3].

وأُعجب بأبيات أُخر في الغزل ووصف المحاسن، إذ يقول: «وعلى ذكر ثقالة الرّدف فما أحلى قول شمس الدين محمد بن العفيف وأرشقه[4]:

(1) أدب الدول المتتابعة، ص 414.
(2) الديوان، ص 6.
(3) شرح لامية العجم، 124/1.
(4) الديوان، ص 63.

تلاعُبَ الشَّعر على ردفهِ   أوقع قلبي في العريض الطويلْ
يا رِدفَهُ جُرْتَ على خصره   رفقاً به ما أنتَ إلا ثقيلْ

مما يدل على مكانة الشاعر، على الرغم من صغر سنه، وآية ذلك افتتان الناس بشعره وإعجاب النقاد به.

ونظم الموشحات الرقيقة، ومنها موشح مطلعه(1):

قمرٌ يجلو دُجى الغَلَس   بَهَرَ الأبصار منذُ ظهرْ
آمنٌ من شُبهة الكِلف
ذُبتُ في حُبّه بالكلِف
لم يزلْ يسعى إلى تلفي
بركابِ الدّلّ والصَّلِف

ويمضي فيه حتى يختمه بخرجة لطيفة فيقول:

نصبتْ عينايَ له شركا   فاتني والقلبُ قد هلكا
قمرٌ أضحى له ملِكا   قال لي يوماً وقد ضحكا
أتحبى من أرض أندلسٍ
نحو مصر تعشق القمرا؟!

وأيّاً كان الأمر، فغزل الشاب الظريف رقيق، يصوّر حياة صاحبه، طبعه بأسلوب التصوّف، الذي يعد ثمرة ثقافته الدينية على يد أبيه إذ تتردد في شعره كثير من المصطلحات الصوفية، في مثل قوله(2):

وما الكونُ إلا صورةٌ أنتَ روحها   وجسمٌ بغير الروح كيف يقوم؟
يلذُّ لقلبي في هواك عذابه   وذُلي وبالأحوالِ أنت عليمُ

(1) شرح لامية العجم، 175/1.
(2) الديوان، ص 72.

وفي جوّ الغزل قد ينصرف إلى اصطناع المصطلحات على سبيل التورية، إذ يقول:

رُبَّ طبـــــاخٍ ملـــــيح فـــاتن الطّـــرف غزيـــرِ
مـــا لكـــي أصـــبح لكـــن شـــغلوه بالقـــدور

فقد ورّى بـ«مالكي» و«القدور»، فالمعنى القريب هو «المذهب المالكي» و«القدوري» الفقيه الحنفي.

ويسوقنا الحديث عن غزله إلى الحديث عن خمرياته، إذ مزج بين نعته الخمر وغزله الخليع. فكان يجتمع بجماعة من أصحابه، ويُنفق معهم الساعات في متنزّهات دمشق وملاهيها، حيث ينغمسون في اللذاذات والمفاسد. ونراه يُمعن في مجونه إذ يُظهر تهتكه وخلاعته دون تستّر أو خجل، فنسمعه يقول[1]:

وأزورُ حانـــاتِ المـــدام ولا أرى غـير الـذي قـضتِ الخلاعـةُ مـذهبا
فلأهجـــرنَّ أخـــا الوقـــارِ وشـــأنه ولأركـــبنَّ مـــن الغوابـــة مركبـــا

وهو بذلك يسير على درب أبي نواس الذي كان يجاهر بحبه للخمر ويُفضلها على كل شيء ومن ثمَّ فهو يُمثّل المدرسة الخمرية الشامية في النصف الثاني من القرن السابع الهجري[2]. وهي مدرسةُ طبعت بطابع الخلاعة والمجون.

وقد استخدم الشاعر الأبحر القصيرة أو المجزوءة ذات الإيقاع الموسيقي الراقص، في مثل قوله[3]:

نـــاوليني الكـــأسَ في الـــصُّبح ثُـــمّ غنَّـــي لـــي علـــى قَـــدَحِ
وأديـــري شمـــسَ وجهـــك لـــي فـــضياء الـــشمسِ لم يَلُـــحِ

وهي تمضي على هذا النحو من الخلاعة والمجون، مستمدا من إيقاعها جوّاً من الغناء والطرب.

(1) الديوان ص 4.

(2) عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، ص 420.

(3) الديوان، ص 24.

خصائص وسمات

1. يعد امتداداً لمذهب الشرف الأنصاري في التورية والانسجام.
2. أكثر شعره رقيق الألفاظ، وهو من السهل الممتنع، الذي يسهل على الحُفّاظ ولكنه لا يخلو من الألفاظ العامية، وما تحلو به المذاهب الكلامية، فلهذا علق بكل خاطر، وولع به كل ذاكر[1]:
3. تكثر التورية في شعره، في مثل قوله[2]:

وافى بأحمرَ كالشقيق وقد غدا   يهتزُّ فيه بقامةٍ هيفاء
فعجبت منه وقد غدا في حُلّةٍ   حمراءَ، إذ ما زال في سوداء

فقد ورّى بكلمة «سوداء» إذ جاءت على معنيين، معنى قريب، هو أنه في حلّة سوداء، ومعنى بعيد هو سوداء القلب أو حبّته.

4. استخدم الأبحر القصيرة أو المجزوءة في غزله وخمرياته، في حين استخدم البحور الطويلة في مدائحه.
5. الإكثار من ذكر العرب والفخر بهم، في مطالع بعض القصائد الغزلية، وفي مقدمة مدحته النبوية.
6. استخدم بعض المصطلحات الصوفية في شعره، وقد مزجها بتورياته اللطيفة.
7. تتسم بعض مدائحه بالغلو في نعت المدوح، بحيث يخرج عن المعقول. وقد أقرّ الشاعر بذلك، إذ يقول[3]:

ولي مِدَحٌ بالغتُ فيها بلاغةً   وأثنيتُ فيها بالذي أنا عالمُ
وإنّ لساني ذو الفقار عليُّهُ   علاكَ، فمن مثلي ومثلك غانم؟[4]

---

(1) ابن شاكر، فوات الوفيات، 267/1.

(2) الديوان، ص 5.

(3) م.ن، ص 75 و76.

(4) ذو الفقار: هو سيف بن منبه، قتل يوم بدر كافراً، فصار إلى النبي ﷺ، ثم صار من بعده إلى ابن عمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

الفصل السابع

أعلام الشعر: شعراء القرن الثامن

المبحث الأول: الشهاب محمود

المبحث الثاني: صفيّ الدين الحلّي

المبحث الثالث: جمال الدين بن نُباتة

الفصل السابع

أعلام الشعر: شعراء القرن الثامن

المبحث الأول

الشهاب محمود (-725هـ/1325م)

في دمشق الفيحاء، ولد شهاب الدين محمود سنة 644هـ، حيث تلقى علومه عن كبار علماء عصره في اللغة والأدب والفقه. وهو يعدّ أفضل الكُتّاب الذين جاءوا بعد القاضي الفاضل، كما شهد له معاصروه، ولهذا تولى عدداً من المناصب الكبرى في دواوين الإنشاء في كل من مصر والشام؛ فقد تولى دواوين الإنشاء بدمشق في الثلاثين من عمره، فخدم فيه نحواً من خمسين سنة[1]، نقل خلالها إلى مصر، حيث أصبح صاحب ديوان الإنشاء عند السلطان بيبرس سنة 708هـ، وذلك بعد وفاة محيي الدين ابن عبد الظاهر، ثم نقل إلى دمشق سنة 717هـ بعد وفاة ابن فضل الله العمري، وظلّ صاحب ديوان الإنشاء فيها، طوال ثمانية أعوام، حتى توفي سنة 725هـ[2] في منزله[3]، ودفن بقاسيون.

عُرف الشهاب محمود بتواضعه وحسن خُلقه، وتجلّى ذلك في معاملته الحسنة للناس، الذين أحبوه واحترموه، ونال تقدير نائب السلطنة، فضلاً عن أنه «كان مُحبًّا لأهل الخير، ومواظباً على التلاوة والأدعية والنوافل»[4]. وقد كان كاتبا وشاعرا إذ برع في الشعر والنثر، وسندخر الحديث عن نثره إلى فصل آخر.

(1) شذرات الذهب، 70/6

(2) ابن حجر، الدرر الكافية، 396/4.

(3) هو منزل القاضي الفاضل نفسه في دمشق.

(4) ابن حجر، الدرر الكامنة، 324/4.

يُسلكه شوقي ضيف بين الشعراء المجيدين، ويعدّه الشاعر الشامي الوحيد الذي صوّر حروب الظاهر بيبرس مع التتار، وحروبه وحروب قلاوون وابنه السلطان الأشرف خليل مع الصليبيين. وهو ما حمل ابن تغري بردي على أن يقتصر في أغلب الأمر على وصفه لمعارك هؤلاء السلاطين[1].

سجَّل انتصارات الظاهر بيبرس، فذكر الهزيمة النكراء التي ألحقها بالتتار على الفرات فينشده وقد عاد إلى دمشق منصوراً:

سرْ حيث شئت لك المهيمنُ جارُ   واحكمْ فطوعُ مُرادِكَ الأقدارُ
حملتكَ أمواجُ الفُراتِ ومن رأى   بحراً سواكَ تُقلّهُ الأنهارُ

يُذكرنا البيت الأول بقول ابن هانئ، وهو يخاطب المعزّ لدين الله الفاطمي، «ما شئت لا ما شاءت الأقدار..» مع اعتدال في اللهجة والخطاب. وفي البيت الثاني جعل ممدوحه بحراً، واستغرب من حمل الأنهار له دون سواه.

ولم يلبث التتار والروم أن حشدوا جُموعاً لهم على نهر جيحون سنة 675هـ، لكنهم انكسروا ولحقت بهم الهزيمة على يد القائد الظاهر بيبرس فيقول:

كذا فلتكُنْ في الله تمضي العزائمُ   وإلا فلا تجفو الجفونُ الصوّارم
سَرَتْ من حمى مصر إلى الروم فاحتوتْ   عليه وسواره الظُّبا واللهاذم
بجيشٍ تظلُّ الأرضُ منه كأنها   على سعة الأرجاء في الضيق خاتم
كتائبُ كالبحرِ الخِضَمِّ جيادُها   إذا ما تهادتْ، موجُه المتلاطمُ
مليكٌ به للدين في كل ساعة   بشائرُ للكفار منها مآتمُ
جلا حين أقذى ناظرُ الكفر للهدى   ثغوراً بكى الشيطان وهي بواسِمُ
من التركِ، أما في المغاني فإنهم   شموس، وأما في الوغى فضراغمُ
فلا زلتَ منصورَ اللواءِ مؤيّداً   على الكفرِ ما ناحتْ وأبكتْ حمائمُ

(1) انظر: عصر الدول والإمارات (الشام)، ص 158.

وقد عارض الشهاب بها المتنبي في قصيدته التي مدح بها سيف الدولة الحمداني، بانتصاره على الروم، ومطلعها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائمُ   وتأتي على قدر الكرامِ المكارمُ

فهذه القصيدة تمثل الحالة الشعورية التي انتابت الشاعر وهو ينظمها، وهي حالة الفرح والابتهاج بالنصر. فالمطلع هو إعلان حرب على أعداء الله (التتار والروم) ففي شبه الجملة «في الله» دلالة على أنها في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

ويمضي الشاعر بعد هذا المطلع ليصف لنا سير الجيش من مصر حيث دولة المماليك، إلى نهر جيحون حيث الروم والتتار، ثم يصف هذا الجيش الذي سرت جحافله بأنه جيش عظيم، سواء في عدده (تضيق به الأرض) أو في عُدده (جيادٌ كالبحر الخِضمّ) تتضح براعة الشاعر في ربط هذا النصر الذي أنجزه الظاهر بيبرس بدين الله وهو الإسلام، يتجلى ذلك في قوله: «مليك يلوذ الدين عن عزماته» و«مليك له الدين في كل ساعة بشائر». في حين ربط هزيمة الأعداء بالشيطان. ويصور الجو النفسي لطرفي المعركة، فبشائر النصر لاحت للمسلمين هي مآتم الهزيمة التي ستحل بالأعداء، الذين يصمهم بالكفر (أقذى ناظر الكفر) يشير إلى المماليك ذوي الأصول التركية، وما بذلوه في خدمة المسلمين، فهم بمنزلة الشموس في رفعتهم وعلوّ قدرهم، وهي صورة استمدها الشاعر من النابغة الذبياني (فإنك شمسٌ والملوك كواكب)، وهم كالأسود في شجاعتهم وأخيراً يدعو للقائد بنصر الله وتأييده على أعدائه.

ويشهد الشاعر نصراً آخر في عهد السلطان قلاوون الذي سار على خُطا الظاهر في منازلة الصليبيين، وذلك باستيلائه على طرابلس مملكتهم الثالثة التي أسسوها بعد مملكة بيت المقدس، وعلى حصن المرقب، فيكبّر لهذا النصر العظيم، فيقول:

الله أكبرُ هذا النصرُ والظَّفرُ   هذا هو الفتحُ لا ما تزعم السِّيَر
هذا الذي كانت الآمالُ إنْ طمحتْ   إلى الكواكبِ ترجوه وتنتظر

فالله أكبر من كل كبير، وهو ما يُردده المسلم صباحَ مساءَ. وقد اشتمل البيت الأول على مترادفات توحي بتحقيق النصر بشكل لا لُبس فيه (النصر، الظفر، الفتح).

ولما كانت القضية قضية تخليص الأرض من العدو، فإن هذا النصر المؤزّر هو ما كان كل مسلم يأمله ويطمح إليه.

ويأتي نصر آخر لعهد السلطان الأشرف خليل، وكان بطلا كأبيه السلطان قلاوون، فيحاصر عكا في شهر ربيع الآخر سنة 690هـ، ثم يدخلها بعد قتال عنيف ويفتحها في السابع عشر من جمادى الأولى سنة 690هـ، فينشد الشاعر قصيدة بديعة، يهنئ فيها الأشرف خليل بهذا النصر العظيم:

الحمد لله! زالت دولةُ الصُّلُبِ — وعزَّ بالتُّركِ دينُ المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمالُ لو طلبتْ — رُؤياه في النّوم لاستْحيتْ من الطَّلبِ
ما بعد عكا، وقد هُدَّت قواعدُها — في البرّ والبحر ما يُنجي سوى الهَربِ
يا يوم عكا! لقد أنسيْتَ ما سَبَقتْ — به الفتوحُ وما قد خُطَّ في الكتب
لم يبلغِ النطقُ حدّ الشُّكر فيك فما — عسى يقوم به ذو الشعر والخُطب
بُشراك يا ملكَ الدينا لقد شَرُفتْ — بكَ الممالكُ واستعلتْ على الرُّتَبِ

وقد عارض الشاعر بهذه القصيدة قصيدة أبي تمام في مدح المعتصم، بمناسبة فتح عمّوريّة:

السيفُ أصدقُ أنباء من الكتب — في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب

فهو ينسج على منوال أبي تمام، ويأخذ بعض عباراته، ففي البيت الرابع: يا يوم عكا..، نظر إلى قول أبي تمام: يا يوم وقعة عمورية...، وفي البيت الخامس نظر إلى قوله:

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به — نظمٌ من الشعر أو نثر من الخطب

وأيّاً كان الأمر، فإن القصيدة تسجل هذا الحدث بلغة جزلة قوية بعيدة عن تعقيد الألفاظ، وعن التصنع البديعي الذي عُرف به أبو تمام، فعندما بدأ الشاعر المطلع – وبالتالي القصيدة – بجملة (الحمد لله)، فكأنما يريد القول إن الله خلَّص المسلمين من الصليبيين الذين طال أمد احتلالهم. وفي البيت الثاني يُدلل على عِظَم الحدث،

فهذا النصر الذي تحقّق في الواقع لم يكن المسلمون بقادرين على طلبه في النوم وكأنه يريد أن يقول لهذا القائد: لقد تحقق هذا الحلم الرائع على يديك.

ويمضي بعد هذا المطلع، فيحدّثنا عن هذا الفتح العظيم، ويركز على أمرين:

أولهما: ما أصاب الصليبيين من انكسار وذل بعد أن دُمّرت قواعدهم، وأنه لم يبق أمامهم سوى الموت أو الهرب، وفي الواقع لم يكن أمامهم سوى الموت وحده، فقد علمنا أنه لم ينجُ منهم إلا القليل.

ثانيهما: ما نال أبناء الإسلام في هذا اليوم من نصر لم تسجل مثله كتب التاريخ وأخيراً يهنئ هذا القائد الذي أنجز هذا النصر، الذي شَرُفت به البلاد وعَلَتْ مكانتها.

المبحث الثاني
صفيّ الدين الحلّي (-750 هـ/1395 هـ)

هو عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم السنبسي الطائي الحلّي. نُسب إلى بلدة «الحِلّة» الواقعة بين بغداد والكوفة، ولا تزال معروفة بهذا الاسم إلى يومنا هذا. وبها ولد يوم الجمعة خامس شهر ربيع الآخر سنة سبع وسبعين وستمائة هجرية (677 هـ)[1].

تلقى علوم العربية والأدب منذ بلغ الحلم ونبغ في الشعر في سن مبكرة في حدود السابعة من عمره ثم أصبح مؤلفاً[2].

ينتمي إلى عشيرة من بني سنبس الطائيين، وكانت ذات مكانة عالية، وقعت بينها وبين بعض العشائر العربية، خلافات على الولاية، انتهت بمصرع خاله صفي الدين أبي المحاسن غدراً، وغضب الشاعر وحرّض خاله الآخر جلال الدين على الأخذ بثأر أخيه.

ثم وقعت بين العشيرتين وقائع شارك فيها الشاعر، وقد ذكر الصفدي «أنه كان من الشجعان الأبطال، قُتل خاله، فأدرك ثأره»[3] وهو يذكر ذلك في شعره. ثم اضطرته الأحداث إلى النزوح عن بلده فقد مُني بالهزيمة هو وعشيرته في وقعة الزوراء، إذ يقول[4]:

قتلوا رجالي بعد أن فتكوا بهم ... في وقعة الزوراء فتكاً بيّنا

كلُّ الذين غشُوا الوقيعة قُتّلوا ... ما فازَ منهم سالماً إلا أنا

ليس الفرارُ عليّ عاراً بعدما ... شهدوا ببأسي يوم مُشتبك القنا

---

(1) انظر: فوات الوفيات، 235/2.

(2) انظر: محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 465/3.

(3) فوات الوفيات، 2/ 235.

(4) ديوانه، ص 33.

فتوجه إلى ماردين بديار بكر، حيث انقطع إلى بعض ملوك الدولة الأرتقية[1] بضع سنوات، ويشير إلى ذلك بقوله:

حتى أنختُ بماردين مطيَّتي فهناك قال لي الزمان: لك الهنا

فمدح منهم الملك المنصور غازي الأرتقي وولده الملك الصالح نجم الدين بما عُرف بالقصائد المنصوريات، وتشمل ثماني قصائد، والصالحيات وهي خمس عشرة قصيدة، وهذا فضلاً عن قصائد أخرى دبّجها في مديحهم.

ثم ترك ماردين قاصداً الحج والزيارة، ومرّ وهو في طريقه إلى الديار المقدسة بالقاهرة ومدح فيها السلطان الناصر قلاوون (-709هـ/ 1309م) بقصائد ثلاث عُرفت بالناصريات.

وارتحل من مصر إلى الشام، وأخذ يتردّد بين دمشق وحلب وحماة. فالتقى في دمشق بالشاعر الكاتب شهاب الدين محمود (-725هـ/ 1325م)، وكانت بينهما مداعيات، من ذلك ماكتبه إليه، وهو بدمشق، وكانا قد تواعدا على أن يزوره في بيته، فحال سقوط الغيث دون تلك الزيارة، فكتب الحلّي إليه معتذراً[2]:

أعادَ الغيثُ كفَّكَ حين جادا فأفرطَ في تواتره وزادا

أظنُّ الغيث يحسدنا عليه فيمنع من زيارتك العبادا

وفي حماة اتصل بأحد ملوك الأيوبيين وهو الملك الصالح شمس الدين أبو الفداء، فكان يقترح عليه نظم الشعر والموشحات، وكان يخرج معه في رحلات الصيد؛ لاصطياد الغزلان والأرانب والطيور.

ولم تنقطع صلة الشاعر ببلده الحِلّة، وكيف ينساها وقد تربّى فيها، وعاش بها عيشاً هنيئا، فيبعث وهو بمدينة حماة بالشام بأبيات إلى ابن عمٍّ له، ومنها[3]:

كيفَ أنسى تلكَ الديارَ ومغنىً عامراً قد رُبّيتُ فيه طُفيْلا

---

(1) نسبة إلى مؤسسها أرتق التركماني، أحد مماليك السلطان «ملكشاه» السلجوقي. ضمّ أبناؤه أرمينية إلى الدولة، واستقرّوا في ديار بكر وقلعة مادرين.

(2) الديوان، ص 289.

(3) م.ن، ص 270.

أتمنّى العراق من أرضِ حرَّا نَ، وهل تُدركُ الثُّريَّا سُهيلا
يا ديارَ الأحبابِ ما كان أهنى بمغانيكِ عيشنا، وأحْيَلى

وأيّا كان الأمر، فقد كان الشاعر يتردد بين بلاد الشام ومصر والعراق، وليس ذلك بعجيب من رجل كان يعمل في التجارة وقد علمنا أنه لم يتكسَّب بشعره، ولم يقصد الممدوحين بطلب الجوائز والعطايا، إذ يقول في مقدمة ديوانه «وأعدّ الشعر من أدب الفضائل، وأحقر الوسائل، فكنت أستره ستر المحارم، وأعد البخل به من المكارم[1]» بوصفها مصدر رزق وقد أحبّ هذه البلاد وترك فيها ذكريات طيبة، وأعجب به أدباؤها وشعراؤها. قال عنه ابن حبيب: «كان حسن الأخلاق، مديد الأوراق، جميل المحاضرة، بديع المحاورة ذا نسب ورئاسة، وحسب وحماسة»[2] وقال عنه الصفدي: «أجاد القصائد المطوّلة والمقاطيع، وأتى بما أخجل زُهر النجوم في المساء، فما قَدَرُ زهر الأرض في الربيع؟ تطربك ألفاظه المصقولة، ومعانيه المعسولة، ومقاصده التي كأنها سهام راشقة، وسيوف مسلولة»[3].

واستقرّ في أخريات حياته ببغداد، وكانت وفاته بها. واختلف المؤرخون في تحديد زمنها؛ فالصفدي يذكر أنه علم بوفاته سنة 749هـ[4]، في حين يذكر ابن تغري بردي أنها كانت سنة 750هـ[5].

آثاره الأدبية

له ديوان شعر ضخم، نشرته دار صادر ببيروت، تبدو فيه ثقافة الشاعر ومطالعاته. وهذه الطبعة غير محققة، فالديوان يفتقر إلى الضبط والفهارس الفنية، وقد

(1) انظر: مقدمة الشاعر لديوانه، ص 11.
(2) تذكرة النبيه، 3/138-139.
(3) الوافي بالوفيات، 8/482.
(4) م.ن.
(5) المنهل، 7/280.

ضمّنه الشاعر أغراضه الشعرية في اثني عشر بابا أولها باب الفخر والحماسة، وآخرها باب الأداب والزهديات[1].

وله ديوان ثان أسماه «دُرر النحور في مدائح الملك المنصور، يتضمن قصائده التي مدح بها الملك المنصور الأرتقي، وعددها تسع وعشرون قصيدة، كلٌّ واحدة منها تسعة وعشرون بيتا على حرف من حروف المعجم، وتسمى «الأرتقيات» أو «المحبوكات». مما يدل على مقدرته الشعرية واللغوية وقد طبعت الدرر ملحقة بديوان الشاعر.

ومن أشهر مؤلفاته: «العاطل والحالي» في فنون النظم المعروفة في عصره كالزّجل والمواليا و«الأغلاطي» وهو معجم للأغلاط اللغوية، و«الخدمة الجليلة، وهو رسالة في وصف الصيد بالبندق، و«صفوة الشعراء وخلاصة البلغاء».

أغراض شعره

حدّد الحلي أغراضه الشعرية في مقدمة ديوانه، كالمديح وكان يكره التكسب به، وقد برع في وصف الحروب والمعارك التي شارك فيها مع أهله على أعدائه، وكذلك برع في وصف الطبيعة ووصف الربيع على وجه الخصوص. وترفّع عن الهجاء لكراهيته تتبع مثالب الرجال. ورثى عظماء الرجال الذين دحروا الأعداء، وكذلك رثى بعض أقاربه.

عرف بمعارضاته الشعرية، فقد عارض المتنبي وكان معجبا به ويحفظ شعره ويستأنس به. وعارض أيضا ابن زيدون في قصيدته النونية المعروفة (أضحى التنائي بديلاً من تدانينا)، فضلاً عن شعراء آخرين.

1. المديح

ارتبطت أولى مدائحه بنزوحه عن الحِلّة إلى ماردين بديار بكر حيث وجد ملاذاً عند الأرتقيين، ووجد عند المنصور الأرتقي المأوى والمال، تحت وطأة الزمن الذي ألجأه إليه. يقول في مقدمة الديوان: «ثم جَرَتْ بالعراق حروب ومحن وطالت خُطوبٌ

(1) انظر: مقدمة الشاعر لديوانه، ص 11.

وإحن أوجبت بُعدي عن عريني وهجر أهلي»[1] وهو يشير بذلك إلى الهزيمة التي لحقت به وبأهله في موقعة الزوراء سنة 701هـ.

وجمع الشاعر مديحه للمنصور في ديوان مستقل أسماه «درر النحور في مدائح الملك المنصور»، أشاد فيها بكرمه وشجاعته ومكارم أخلاقه من ماردين.

توثّقت علاقة الشاعر بالأرتقيين، فقد كتب إلى أحد أصدقائه بالحلة، يقول[2]:

ولكنّ لي في ماردين معاشراً شددْتُ لّما قد حللتُ بهم أزري
ملوكٌ إذا ألقى الزمانُ حبالَه جعلتُهمْ في كل نائبة ذُخري

واستمرَّت علاقة الشاعر القوية بهم، بعد رحيله إلى مصر، فكان يراسل الملك الصالح شمس الدين بعد وفاة والده، فقد بعث إليه بمدائحه وتهانيه، من ذلك قوله[3]:

ولكم ألفتُ الاغتراب ولم يزلْ جودُ ابن أرتق في التغرّب موطني
الصالح الملك الذي إنعامه كنزُ الفقير وطوقُ جيد المغتني

ومدح السلطان الناصر محمد بقصيدة عارض فيها قصيدة المتنبي التي مطلعها[4]:

بأبي الشموسُ الجانحاتُ غواربا اللابساتُ من الحرير جلاببا

وقد تجاوزت قصيدة الحلي الستين بيتا، استهلها بمقدمة غزلية، ثم انتقل إلى مديحه بجملة صفات متلاحقة وتشبيهات متراكمة، بالغ فيها كثيراً، وتلاعب بألفاظها، إذ يقول[5]:

لم تخلُ أرضٌ من ثناهُ وإنْ خَلَتْ من ذكره مُلئتْ قناً وقواضبا

---

(1) انظر: مقدمة الشاعر لديوانه، ص 11.

(2) ديوانه، ص 286.

(3) م.ن، ص 189.

(4) ديوان المتنبي، 250/1. والمقصود بالشموس النساء الحسان، والجانحات: المائلات، والغوارب: البعيدات.

(5) ديوان صفي الدين الحلي، ص 71.

تُرجى مواهبُه ويُرهبُ بطشُه   مثل الزمان مُسالماً ومُحاربا
فإذا سطا ملأ القلوبَ مهابةً   وإذا سخا ملأ العيون مواهبا

ونراه يحشد مجموعة من القيم في سلسلة من التشبيهات لا يخرج منها بصورة طبيعية للممدوح، فهو مرّة كالغيث، ومرة كالليث، ومرة كالسيف، ومرة كالسيل[1]:

كالغيث يبعثُ من عطاه وابلا   سَبْطا ويُرسل من سطاه حاصبا
كالليث يحمي غابه بزئيره   طوراً، ويُنشبُ في القنيص مخالبا
كالسيفُ يُبدي للنواظر منظرا   طلقاً، ويمضي في الهياج مُضاربا
كالسيلِ يُحمد منه عذباً واصلا   ويعدُّه قوم عذابا واصبا
كالبحر يُهدي للنفوس نفائسا   منه، ويُبدي للعيون عجائبا
فإذا نظرتَ ندى يديه ورأيه   لم تُلْفِ إلا صائبا أو صائبا

ووقف الحلي أمام ملك حماة المؤيّد عماد الدين الأيوبي، يمدحه بقصيدة، اقترح عليه بحرها وقافيتها، فقال[2]:

لا راجعَ الطَّرف وَسَنَهْ   إن ذاق غمضاً بعدكم وسِنَهْ
طال على الصَّبِّ عُمْرُ جفوتكمْ   فكلُّ يومٍ من الفراقِ سَنَهْ

وله مدائح نبويّة تحدّث فيها عن معجزات النبي ﷺ وعن هيامه به وعشقه له، نلمس فيها نفحات صوفية، من ذلك قوله[3]:

إلى خيرِ مبعوثٍ إلى خيرِ أُمّةٍ   إلى خيرِ معبودٍ دعاها بشيرُها
ومن نطقتْ توارةُ موسى بفضله   وجاء به إنجيلها وزَبُورُها
ومن بشّر الله الأنام بأنه   مُبشّرها عن إذنِه ونذيرها
محمدُ خيرُ المرسلين بأسرها   وأوّلها في الفضل وهو أخيرها

(1) ديوانه، ص 95.
(2) م.ن، ص 213.
(3) م.ن، ص 92.

وأياً كان الأمر، فقد استطاع الحلي أن يعارض فحول الشعراء، أمثال الأعشى والمتنبي وابن زيدون، تسعفه ثقافة واسعة، وطاقة شعرية فيّاضة. وكانت معانيه تقليدية تدور حول صفات الملوك، تغلب عليها صنعته البديعية.

2. الوصف

كان لشعر الوصف أوفى نصيب في ديوان الشاعر، وبخاصة وصف الطبيعة، وهي ترفل في حلل الجمال في فصل الربيع؛ فيقول[1]:

خلعَ الربيعُ على غُصونِ البانِ ... حُلَلاً فواضلها على الكُثبانِ
وَنَمتْ فُروعِ الدّوحِ حتى صافَحَتْ ... كَفَلَ الكثيبِ ذوائبُ الأغصانِ
وتتوّجَتْ هامُ الغصون وضرَّجَتْ ... خدَّ الرّياضِ شقائقُ النُعمانِ
وتنوّعتْ بُسْطُ الرّياضِ فزهرُها ... مُتباينُ الأشكالِ والألوانِ
من أبيضٍ يقَقٍ، وأصفرَ فاقعٍ ... أو أزرقٍ صافٍ، وأحمرَ قانِ
والظّلُّ يسرقُ في الخمائلِ خطوُهُ ... والغصنُ يخطِرُ خِطرَةَ النّشوانِ
وكأنّما الأغصانُ سوقُ رواقِصٍ ... قد قُيِّدتْ بسلاسِلِ الرّيحانِ
والشمسُ تنظرُ من خلالِ فروعها ... نحو الحدائقِ نظرةَ الغيرانِ

فهو يصف الربيع ويشخصه، بما فيه من مباهج ومحاسن، تبدو في أغصانه المائسة، وأزهاره ذات الأشكال والألوان، ووهاده ونجاده، وظلاله وشموسه، فإذا هي تزهو، أو ترقص، أو تختال، أو تسترق الخطو، أو تغار كأنها كائنات حيّة ناطقة.

وقد تفيض أوصافه رقة سهولة، ويجسد فيها فنون البديع من طباق وجناس وتورية واقتباس وغيرها، فنسمعه يقول[2]:

ورد الربيعُ فمرحباً بوُرودِهِ ... وبنُور بهجته ونَوْر وُرودِهِ
وبحُسن منظرهِ وطيب نسيمه ... وأنيقِ ملبسه ووشْيِ بُرودِهِ
فصلٌ إذا افتخر الزمانُ فإنه ... إنسانُ مُقلتِه وبيتُ قصيده

(1) ديوانه، ص 99.

(2) م.ن، ص 551.

يُغني المزاجَ عن العلاجِ نسيمُهُ ... باللُّطفِ عند هُبوبهِ ورُكودِهِ
يا حبذا أزهارُهُ وثمارُهُ ... ونباتُ ناجِمِهِ وحَبُّ حصيدِهِ[1]
والغُصنُ قد كُسِيَ الغلائلَ[2] بعدما ... أخَذتْ يدا كانونَ في تجريدِهِ[3]
نالَ الصِّبا بعد المشيبِ وقد جرى ... ماءُ الشبيبة في منابتِ عُوده
والوردُ في أعلى الغصون كأنه ... ملكٌ تحفُّ به سراةُ جنودِهِ

ففي البيت الأول ورّى في كلمة «وروده» الثانية. وكذلك بين كلمتي (نُور، ونَور). ونلمس في البيت الثاني جمال التقسيم. وفي البيت الثالث توريتان (إنسان وبيت)، وطباق بين (هبوبه، وركوده) في البيت الرابع، واستعمل الاقتباس في قوله: (وحبّ الحصيد) في البيت الخامس، وفي البيت السادس طباق بين (كُسي وتجريده) وبين (الصِّبا، والمشيب) في البيت الأخير.

وافتتن الحِلّي، افتتان ابن الرومي، في وصف الأزهار، وعقد مقارنات ومحاورات بينها، إذ أجرى حواراً بين النرجس والورد والسّوسَن، وجعل كلاًّ منها يفتخر بحسنه ولونه[4]:

قد نشرَ الزّنبقُ أعلامه ... وقال: كل الزَّهرِ في خدمتي
لو لم أكنْ في الحُسْنِ سلطانه ... ما رُفِعتْ من دونهم رايتي
فقهقه الوردُ به هازئاً ... وقال: ما تحذرُ من سطوتي؟
وقال للسّوسن: ماذا الذي ... يقوله الأشيبُ في حضرتي؟
وامتعضَ الزّنبقُ من قوله ... وقال للأزهارِ: يا عُصبتي
يكون هذا الجيش بي مُحدِقاً ... ويضحكُ الوردُ على شيبتي؟

(1) النجم من النبات ما لم يكن على ساق، قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن: 6].
(2) الغلائل: جمع غُلالة وهي ما يُلبس تحت الثياب. والمراد أوراق الأغصان.
(3) سراةُ جنوده: أشرافهم ورؤساؤهم، جمع سرّي.
(4) ديوانه، ص 554.

وهو لا يقف عند وصف الربيع وإنما يصف معالم الطبيعة في القاهرة والنيل، ويصف وادياً به زروع ومياه، ويصف الخيل والطّرد وآلاته وحيوانه، وبخاصة وصف صيد الطير بالبندق. ويصف آلات الموسيقا ومنها العود. ويصف المدن التي حلّ بها في رحلاته كالقاهرة وبغداد وماردين[1].

3. الغزل

يأتي غزله في مطالع قصائده، ويتخذه وسيلة للوصول إلى غرضه الرئيس، وهو المديح. من ذلك قصيدته البائية التي مدح بها السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وجعلها على وزن ورويّ قصيدة المتنبي المشهورة[2]:

بأبي الشموسُ الجانحاتُ غواربا ... اللابساتُ من الضياء جلاببا

فيقول في مقدمتها[3]:

أسبلْنَ من فوق النّهود ذوائبا ... فجعلْنَ حبّاتِ القلوب ذوائبا

وجَلَوْنَ من صُبْحِ الوجوه أشعةً ... غادرْنَ فَوْدَ الليل منها شائبا

بيضٌ دعاهُنّ الغبيُّ كواعبا ... ولو استبانَ الرُّشد قال كواكبا

أشرقْنَ في حُلَلٍ كأنّ وميضها ... شَفَقٌ تدرَّعَهُ الشموس جلاببا

وغَرَبْنَ في كِلَلٍ، فقلت لصاحبي: ... «بأبي الشموسُ الجانحاتُ غواربا»

ولعلك تلاحظ أن هذه الأبيات قريبة في روحها من شعر الأقدمين، إذ تبدو المحبوبة في صورة جمالية تكاد تقترب وتلتقي معه، بخصلات الشعر الفاحمة، والوجه المضيء، واتخاذ الكِلّة ستاراً، مقتصراً بذلك على أمور جزئية.

ولعل جمال هذه الأبيات يعود إلى هذه الصور الخيالية، التي وشاها بمختلف فنون البديع من طباق وجناس وتورية وتضمين.

---

(1) انظر: ديوانه، ص 268 و 254، و257، و480 و 271 و 217 و 289.

(2) ديوان المتنبي، 250/1.

(3) ديوان الحلّي، ص 71 وما بعدها.

وقد يأتي غزله في مقطوعة مفردة، فيتغزل بالتركيات، ولربما أخذته الحميّة العربية، فيتغزل بالعربيات، على غرار المتنبي، فيقول(1):

أيـــن في الحِمـــى عـــربُ   لـــي بـــربعهمْ أدبُ
كلمـــا ذكـــرتُهمْ   هزّنـــي لهـــم طَـــرَبُ
جـــيرةٌ بحـــبهمُ   لـــيس يُحفـــظ النـــسبُ
في خيـــامهمْ قمـــرٌ   بالـــصّفاح محتجـــبُ

4. الرثاء

وأول ما يطالعنا في مراثيه تلك التي رثى بها خاله الذي قُتل غدراً، وتتسم بصدق العاطفة، وتفيض بالنقمة على القتلة، إذ يقول(2):

سَـفَهاً إذا شُـقّتْ عليـك جيـوب   إنْ لم تُـشقَّ مرائـرٌ وقُلـوبُ
وتملّقاً سكبُ الدموعِ على الثرى   إنْ لم يُمازجْها الدّمُ المسكوبُ

فهو يُهوّل المصيبة فيه، فيبكيه بالدم لا بالدمع. وقد يتمنى الموت، على غرار ابن الرومي، قبل أن يُغيّب الموت خاله القتيل فنسمعه، يقول(3):

قـد كنـت أختـارُ أن أُغيَّـبَ في التّـ   ـرُبِ، وتُبلـي عظـاميَ الـرِّممُ
ولا أرى اليـوم مـن أكابرنـا   أسـفاً وفيهـا الـذئابُ قـد حكمـوا

وأما في رثاء السلطان الناصر محمد بن قلاوون (-742هـ) فيبدو الرزء الذي أصاب المسلمين بموته، ولم يجدوا فيه زوال فرد، وإنما وجدوا فيه زوال آمال أمة بأسرها، وأظلمت لموته أرض الشام ومصر، وفي ذلك مبالغة، إذ يقول:

تُوفّيتِ الآمالُ بعد موتِ محمدٍ   وأصبح في شُغلٍ عن السفرِ السَّفْرُ
وزالتْ حصاةُ الحلمِ عن مُستقرّها   وأصبح كالخنساء في قلبه صخرُ

(1) ديوانه، ص 250.
(2) م.ن، ص 333.
(3) م.ن، 328.

وسارى قلوبَ النـاسِ في النـاسِ رُزْؤه   كـأنّ صـدور النـاسِ في حزنهـا صَـدْرُ
فـإن أظلمـتْ أرضُ الـشآم لحزنــه   فلم يخلُ مـن ذاك الـصعيدُ ولا مـصرُ

وأيا كان الأمـر، فهـو في مراثيـه يترسـم خُطـا الأقـدمين، لا يكـاد يخـرج عـن معانيهم، ولا نجد عنده سوى هذه الصناعة البديعية، التي تقوم علـى الجنـاس، فـضلاً عن غلوه ومبالغته.

خصائص وسمات

1. مذهبه مذهب الصنعة البديعية، ويعتمد علـى الجنـاس بخاصـة، ويحقـق بـه إيقاعـاً موسيقيا، وقد يصبح أحيانا عبئاً على معانيه.
2. يستخدم مصطلح العلوم العربية والدينية في شعره، ويوظفه توظيفـاً دلاليـا، يخـرج عن المعنى الاصطلاحي إلى المعنى العام للكلمة، في مثل قوله:

يــا جــاعلاً خـــبري بـــالحبر مبتـــدأً   لا عطف فـيكم، ولا لـي عـنكم بـدلُ
رفعــتُ حــالي، ورفــع الحــال ممتنــع   إلـــيكم وهـــو للتميـــز يُحتمـــل

ولكن استعمال مثل هذه المصطلحات يُفسد الشعر ويُفقده جماله.

3. يُكثر من التناص مع سور القـرآن الكـريم وآياتـه، ومـن أسـف أنـه يـستخدمه في موضوعات محظورة كالخمر مثلاً، وهو في ذلك يُسير على خُطا ابن الرومـي الـذي أساء مثله استخدام التناص.
4. يستخدم أوزان الشعر الطويلة من مختلف أغراضـه الـشعرية. وكـثيرا مـا يلجـأ إلى مجزوءات البحور، ليُكسب شعره بها إيقاعاً راقصاً. ونظم الموشحات والمزدوجـات المعروفةَ بإيقاعاتها الخاصة.
5. يعمد إلى الألفاظ العامية الدارجة أحياناً، مع تجنب الألفاظ الحوشية والغريبة.
6. عرف بثقافته الشعرية الواسعة، وقد مكّنه ذلك من معارضة كبـار الـشعراء؛ أمثـال المتنبي وابن زيدون والأعشى.

المتخيّر من شعره

قال الحلي في المديح(*):

لا يمتطي المجد من لم يركب الخطرا، ولا ينالُ العُلا من قدّم الحَذَرا
ومَنْ أراد العُلا عَفْواً بلا تعبٍ، قضى(1)، ولم يقضِ من إدراكها وَطَرا
لا بُدَّ للشَّهدِ من نحلٍ يُمنِّعُه، لا يَجتني النَّفعَ من لم يَحملِ الضَّررا
لا يُبلَغُ السُّؤْلُ(2) إلاَّ بعد مُؤلمةٍ، ولا تَتِمُّ المُنى إلاَّ لمن صَبرا
وأحزَمُ النَّاس من لو ماتَ من ظَمإٍ، لا يقرَبُ الوِردَ حتى يَعرف الصَّدَرا(3)
وأغزَرُ النَّاس عَقلاً من إذا نظرَتْ عيناهُ أمراً غدا بالغَيرِ(4) مُعتبِرا
فقد يُقالُ عِثارُ(5) الرِّجلِ إن عثرتْ ولا يُقال عِثار الرّأي إنْ عَثَرا
مَنْ دبَّر العيشَ بالآراء دامَ لهُ صَفواً(6)، وجاءَ إليه الخَطبُ مُعتذِرا
يَهونُ بالرَّأي(7) ما يَجري القضاءُ به، من أخطأ الرَّأي لا يَستذنبُ القَدَرا
مَنْ فاتهُ العِزُّ بالأقلام(8) أدركهُ بالبيضِ يقدَحُ من أعطافها الشَّرَرا

(*) هذه القصيدة في مدح الملك وتهنئته بعيد النحر وتحريضه على التحرّر من المغول. الديوان ص، 69 والقصيدة من البسيط، والقافية من المتراكب. نقلاً عن نصوص من شعر عصور الدول المتابعة، ص 379-384.

(1) قضى: هلك. وقضى وطره: أدرك حاجته.

(2) السُّؤل: ما يسأله الإنسان، قال تعالى ﴿أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه 20: 36].

(3) الصَّدَر: الانصراف عن الماء. والوِردْ: خلاف الصَّدر.

(4) أدخل أل على غير خلافاً للقاعدة النحوية، لأنها متوغّلة في الإبهام والتنكير

(5) أقال عثاره: صفح عنه وتجاوز.

(6) صفواً: خالصاً من الكدر، وصفو العيش: أصفاه. واعتذر الخطب من رائق الاستعارة!

(7) أي أن الرأي السديد يهوّن جريان القضاء.

(8) عنى بالأقلام الآراء التي يكون التعبير عنها بالتّعليم بالقلم. والبيض: جمع أبيض وهو السيف. وأعطافها: جوانبها، جمع عِطف. أراد: من فاته تحقيق المجد بحسن الرأي لم يَفُتْه ذلك بالشجاعة والإقدام.

بكلّ أبيضَ[1] قد أجرى الفِرندُ به   ماءَ الرّدى، فلو استَقْطَرْتَهُ قَطَرا
خاضَ العجاجةَ[2] عُرياناً فما انقشعَتْ   حتى أتى بدمِ الأبطال مُؤتزِرا
لا يَحسنُ الحِلمُ[3] إلاَّ في مواطنه،   ولا يَليقُ الوفا إلاَّ لمن شَكَرا
ولا يَنالُ العُلا إلاَّ فتىً شَرُفَت   خِلاَلُهُ[4]، فأطاعَ الدّهرُ ما أمرا
كالصّالحِ[5] الملكِ المرهوبِ سَطوتُه،   فلو توعَّدَ قلبَ الدَّهر لانفطَرَا
لَمَّا رأى الشَّرَّ قد أبدى نواجذه[6]،   والغَدرَ عن نابهِ للحربِ قد كَشَرا
رأى القِسيَّ[7] إناثاً في حقيقتها،   فعافَها، واستشار الصَّارمَ الذَّكَرَا
فجرَّد العزْمَ من قَتلِ الصِّفاح[8]لها   مَلْكٌ عن البيضِ يَستغني بما شُهرا
يكادُ يُقرأ[9] من عُنوانِ هِمَّته   ما في صحائفِ ظَهرِ الغيبِ قد سُطِرا

---

(1) بكل أبيض: متعلّق بما تعلّق به «بالبيض» في البيت السابق. والفرند: السيف. وفرند السيف: وشيه وتموّجه. وماء الردى: في غاية الحُسْن! واستقطاره: إسالته قطرة قطرة، عنى بذلك قطرات الدّم.

(2) العجاجة: غبار المعركة. وانقشعت: انجلت وتكشّفت. مؤتزراً: ملتفًّا بالإزار.

(3) الحِلم: الأناة.

(4) خلاله: خصاله، جمع خَلّة.

(5) كالصالح: متعلق بصفة محذوفة لـ «فتى»، وفي البيت حسن تخلّص. والسطوة: القهر بالبطش. وانفطر: انشقّ.

(6) النواجذ: أواخر الأضراس وهي أربعة.

(7) القسي: جمع قوس، والقوس يذكّر ويؤنث. عافها: كرهها. واستشارة الصارم من أبدع الصور! وفي عودة الفرند مؤتزراً بالدم – كما وُصف في الأبيات السابقة – قال الشاعر القديم:

ومن عجبٍ أنّ الصوارم والقنا   تحيض بأيدي القوم وَهْيَ ذكورُ!

(8) الصفاح: جمع صفيحة وهي وجه السيف. لها: الضمير عائد على القسيّ. أي يستغني عن البيض بما عُرف عنه من العزم.

(9) هذا كقول المتنبي في مدح سيف الدولة (الديوان 282:1):

ذكيٌّ تظنّيه طليعةُ عينه   يرى قلبُهُ في يومه ما ترى غدا

كالبحر والدَّهرِ في يومَيْ ندىً[1]ورَدىً، والّيثِ والغيثِ في يَومَيْ وغىً وقِرى
ما جادّ للنَّاسِ إلاَّ قبل ما سألوا، ولا عفا قَطُّ إلاَّ بعد ما قَدَرا
لاموهُ في بَذلِهِ الأموالَ، قلتُ لهم: هل تقدرُ السُّحبُ ألاَ تُرسلَ المَطرا؟
إذا غدا الغصنُ غضّاً[2] في مَنابِتِه، من شاءَ فليَجنِ من أفنانه الثَّمَرا
مِنْ آلِ أرْتُقِ المشهورِ ذِكرهُمُ، إذ كانَ كالمسكِ إن أخفيتَهُ ظَهَرا
الحامِلينَ مِنَ الخَطِّيِّ[3] أطولَهُ، والنَّاقلينَ مِنَ الأسيافِ ما قَصُرا
لم يَرحلوا عن حِمى أرضٍ[4] إذا نزلُوا إلاَّ وأبقَوْا بها من جوهم أثَرا
تبقى صنائعهم[5] في الأرض بعدهُمُ والغَيثُ إن سارَ أبقى بعدهُ الزَّهَرا
للهِ دَرٌّ[6] سما الشَّهباءِ من فلكٍ، فكلَّما غابَ نجمٌ أطلَعتْ قمرا
يا أيّها الملكُ الباني لدولَتِهِ ذِكراً طوى ذكرَ أهلِ الأرض وانتشرا
كانتْ عِداكَ لها دَستٌ[7]، فقد صدعتْ حَصاةُ جَدّك ذاك الدّستَ فانكسرا
فاوقِعْ[8] إذا غدروا سَوطَ العَذابِ بِهم يظلّ يخشاك صَرفُ الدّهر إن غدرا

---

(1) الندى: الجود. والرّدى: الهلاك. والوغى. الحرب. والقِرى: إكرام الضيف. شبهّه في كرمه بالبحر والغيث، وفي شدّته وبأسه بالدر وبالليث.

(2) غضن غضّ: طري. والأفنان: جمع فنن وهو الغصن.

(3) الرماح الخطّية: نسبة إلى خطّ هجر، موضعٍ باليمامة تُحمل إليه الرماح من بلاد الهند فتُقوَّم به. وكلّما طال الرمح وقصر السيف كان أجود.

(4) حمى أرض: أرض محميّة محظورة.

(5) الصنائع: جمع صنيعة، وهي ما عُمل من خيرٍ أو إحسان.

(6) استعملت العرب هذا التعبير: لله درّه، للتعجب دون قياس. والشهباء: لقب مدينة حلب لبياض حجارتها.

(7) لها دست: مبتدأ وخبر. والدّست: الحيلة والخديعة، فارسية معرّبة. والحصاة: العقل واللب. وصدعته الحصاة: شقّته وبدّدته.

(8) لجأ إلى الضرورة في جعل همزة القطع وصلاً في قوله: فاوقع، لضرورة الوزن. وسوط عذاب: عذاب مؤلم دائم. وصَرف الدهر: حدثانه ونوائبه.

وارعَبْ قلوب[1]العِدا تُنصَر بخذْلِهمُ ... إنّ النَّبيَّ بفَضلِ الرّعب قد نُصِرا
ولا تُكدّر[2] بهم نفساً مُطهَّرةً ... فالبحرُ من يَومِه لا يَعرف الكَدَرا
ظَنّوا تأنّيكَ عن عَجزٍ، وما عَلِموا ... أنَّ التّأنّيَ فيهِمْ يُعقِبُ الظَّفَرا[3]
أحسنْتُم[4]، فبغوا جهلاً وما اعترَفوا ... لكم، ومن كَفَر النُعمى فقد كَفَرا
واسعَدْ بعيدك ذا الأضحى وضَحٍّ به ... وصِلْ[5] وَصَلِّ لِربِّ العرشِ مُؤْتَمِرا
وانحرْ عِداكَ فبالإنعامِ ما انصلحوا،[6] ... إن كانَ غيرُكَ للأنعامِ قد نَحرا

(1) ارعبْ قلوب العدا: أفزعها. وفي البيت تضمين لمعنى قوله ﷺ «نُصرت بالرُّعب» (انظر صحيح مسلم 1:370 من حديث جابر بن عبد الله).

(2) الكدر خلاف الصّفو. ومن يومه: أي منذ كان: لا يعرف الكدر: لاتّساعه.

(3) يُعقب الظفر: يُورثه.

(4) الإحسان: إتقان العمل أو نفع الخلق: والبغي: التعدّي والتّطاول على الناس ظلماً. والنُّعمى والنعمة بمعنى. وكَفْر النعمة: جَحَدها. فقد كفر: الكفر ضد الإيمان.

(5) وصِلْ: من الصلة والعطاء، أو من الوَصلْ: ضد الهجران. ومؤتمرا: أي ممتثلاً الأمر.

(6) الإنعام: مصدر أنعم عليه. والأنعام: جمع نَعَم وهي المال الراعية.

المبحث الثالث

جمال الدين بن نُباتة (-768 هـ/1366م)

جمال الدين محمد بن شمس الدين بن شرف الدين محمد بن أبي الحسن بن نُباتة[1] يتصل نسبه بابن نُباتة الخطيب، عبد الرحيم بن محمد المتوفى سنة 374هـ[2]. ويشير إلى ذلك في شعره، إذ يقول[3]:

ورثتُ اللفظَ عن سَلفي وأكرمْ　　بآلِ نباتةَ الغُرِّ السُّراةِ

فلا عجبُ للفظي حين يحلو　　فهذا اللفظُ من ذاك النَّباتِ

ولد في القاهرة سنة 686هـ، ونشأ في أسرة عريقة في العلم والأدب، فكان والده من علماء مصر، وقد اهتمّ بتعليمه، فأخذ الحديث والأدب من عُلماء عصره.

تفتحت مواهبه في سن مبكرة، فنظم الشعر وهو في الرابعة عشرة من عمره. وقضى المرحلة الأولى من حياته في مصر، منذ ولادته حتى بلوغه الثلاثين من عمره، ولم ينل عند الأيوبيين في مصر حظوة، فارتحل إلى الشام واتصل بالملك المؤيد أبي الفداء صاحب حماة، فكتب له في ديوان الإنشاء، فنال عنده حظوة وعلتْ منزلته ولازمه حتى وفاته. ثم صار ناظراً على كنيسة القيامة في القدس، وكذلك اتصل بالقاضي شهاب الدين بن فضل الله العمري فأدخله ديوان التوقيع، ثم اتصل بآل السبكي في دمشق ومنهم تقي الدين وابنه تاج الدين ومدحهما.

عاد إلى القاهرة سنة 760هـ، وهو في سنّ متقدمة، واختصّ بالسلطان الناصر حسن وصار صاحب سرّه، واضطربت حياته بعد مصرع هذا السلطان سنة 762هـ، واستقرّ بالقاهرة حتى وفاته بها سنة 768هـ.

---

(1) انظر: الموسوعة الإسلامية، 288/1

(2) خطيب حلب، اجتمع بالمتنبي في بلاط سيف الدولة، وكان يكثر من خطب الجهاد ويحث عليه، (الوفيات، 156/3).

(3) الديوان، ص 50.

آثاره

ابن نُباتة شاعر ناثر له آثار في الصناعتين، وصفه صاحب الأعلام بأنه «شاعر عصره وأحد الكتّاب المترسلين العلماء بالأدب»[1]، له ديوان شعر ضخم، طبع مرات عدّة، في مصر سنة 1950م ثم في بيروت. وله «الديوان الصغير» الذي يشتمل على «المؤيدات» وهي قصائد مدح بها صاحب حماة. وله أرجوزة تاريخية موسومة بـ «فرائد السلوك في مصائر الملوك»، ومجموعة المديح النبوي باسم«منتخب الهداية في المدائح النبوية».

وله مُصنفات عدة، من أهمّها «سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون» وديوان خُطب منبرية أعدّه للسلطان الناصر حسن في مصر سنة 761هـ، وهو مجموعة خُطب بعدد أسابيع السنة يُخطب بها في أيام الجمعة ويدعو فيها الخطباء للسلطان.

أغراضه الشعرية

تدور أغراضه الشعرية حول المديح، والرثاء، والغزل، والخمريات والغنائيات، والوصف، والأحاجي والألغاز.

1. المديح

يشكل المديح الجانب الأكبر في ديوانه، وكان يتكسّب به لضيق ذات اليد، فمدح الأيوبيين في أواخر عهودهم، وأولهم الملك المؤيد صاحب حماة، وقد سميت مدائحه المؤيّدات، تحدّث فيها عن حماة، إذ يقول[2]:

لِحِماكَ يا بْنَ المالكينَ ترقّبت ... فِكَرُ الرّجا رُقبى العيون هلالَها

أمّا «حماةُ» فنِعمَ دارُ سيادة ... نصبتْ بمدرجةِ الطريقِ جلالها

يسعى لمكّة وافدٌ ولأرضها ... ولَنِعمَ أرضاً وافدٌ يسعى لها

هاتيكَ قبلةُ مَنْ يرومُ رشادَها ... وحماةُ قبلةُ مَنْ يرومُ نوالَها

(1) الزركلي، الأعلام، 7/ 38.

(2) الديوان، ص 379.

وهو يُركّز في مدح المؤيد على جوده وكرمه، وتقواه، ووفرة علمه وكثرة تصانيفه، وكثيرا ما تقترن في شعره صورة الملك العالم بالملك الجواد، كقوله[1]:

العالمُ الملكُ السيّارُ سُؤدُدُه في الأرضِ سيرَ الدّراري بين أفلاكِ
ذاكَ الذي قالتِ العَليا لأنعُمِهِ: لا أصغرَ اللهُ في الأحوالِ مُمساكِ

وكذلك مدح المنصور وهو الملك الأفضل فخلع عليه صفات الزهد والجود والكرم في مدائحه الموسومة بـ «الأفضليات» وهي لا تختلف عن «المؤيدات».

ومن ممدوحيه بعض أفراد من الأسر الكريمة، ومنها أسرة آل فضل الله، وأسرة آل السبكي وغيرهما ويركز فيها على صفتين[2]، هما: الكرم والحديث عن الطروس والأقلام، وتفتقر إخوانياته إلى صدق العاطفة، فضلاً عن قصر نفسه فيها.

2. الرثاء

ألمّ ابن نُباتة بفن الرثاء، ويرى الدكتور عمر موسى باشا أن مراثيه تُصنَّف في قسمين: أحدهما سمّاه المراثي الخاصة، والثاني سماه المراثي العامة.

فقد رثى أبناءه جميعاً وابنه عبد الرحيم على وجه الخصوص، وكانت لوعته به شديدة، جعلت الوزير الأميني يصطحبه معه إلى القدس الشريف؛ ليخفف عنه الأسى والحزن، فيرثيه متأسيا بالأمم التي مضت وبالملوك الغايرين الذين طواهم الموت، فيقول[3]:

بُنيَّ، إنْ تُسقَ كاساتِ الحِمام فكمْ مليكٍ حَسَنٍ كما شاء الزمانُ سُقي
بُنيَّ، إنّ الرّدى كأسٌ على أممٍ ما بينَ مُصطبحٍ منها ومُغتبِقِ
ما ردَّ سيفَ الرّدى سيفُ ابن ذي يزنٍ ولا نجا تُبَّعٌ في الزَّغفِ[4] والحَلَقِ

(1) الديوان، ص 361.
(2) انظر: عمر موسى باشا، ابن نُباتة المصري، ص 290.
(3) الديوان، ص 348.
(4) الزّغف: الدرع.

ورثى جاريته «شهدة» وكانت امرأة مسلولة، وأبدى حزناً شديداً لفقدها ينمُّ عن أنه كان يعشقها، إذ يقول[1]:

بكيتُكِ للحُسنِ الذي قد شهدْتُهُ ... وللشِّيمِ الغُرِّ التي قد عهدتها
وروضةِ خدٍ حلَّها غصنُ قامةٍ ... لعمري لقد طابتْ وقد طاب نبتُها
وآنسةٍ قد كان لي لينُ عِطفِها ... فلم يبق لي إلا نِداها ونعتُها
كلانا طريحُ الجسمِ بالٍ فلو دَرَتْ ... إذاً ندبتني في الثرى مَنْ ندبتُها
أُنادي ثرى الحسناءِ والتُّربُ بيننا ... وعزَّ على صَمْتِ المتيَّمِ صمتُها

ورثى عدداً من أهل وُدّه كالمؤيد أبي الفداء إسماعيل وابنه الأفضل، فبكاهما وبكى آل أيوب جميعا، مستمداً من أيوب عليه السلام الصبر والسلوان إذ يقول:

يا آل أيوبَ صبراً إنّ إرثكمُ ... من اسم أيوبَ صبرٌ كان يُنجيهِ
هي المنايا على الأقوام دائرةٌ ... كُلٌّ سيأتيهِ منها دورُ ساقيهِ

ويقول في أخرى[2]:

كفى ببني أيوبَ للناسِ واعظاً ... وإن صَمَتَتْ أفواههمْ في الضّرائحِ
وترقى المنايا نحو آفاقِ عرشهمْ ... وما كان يرقى نحوها طرفُ طامحِ
سلامٌ على جنّاتِ أجداثِهمْ ولا ... سلامٌ لنارِ الحزنِ بين الجوانحِ

فأنت تحسّ أن الشاعر يتجرّع الأسى على زوال بني أيوب، وذهاب دولتهم التي لم يكن يجرؤ عليها الطامحون في الملك.

أما مراثية العامة فتدور حول رثاء العلماء والقضاة والكُتّاب، في مثل قوله في صديقه تقي الدين السبكي الذي تمنى اللحاق به، إذ يقول[3]:

وخفَّف الحزن أنّا لا حقون بمَنْ ... مضى فأمضى شباةَ الحادثِ الأشِبِ
إنْ لم يَسِرْ نحونا سرنا إليه على ... أيامناً والليالي الدُّهْبِ والشُّهُبِ

(1) الديوان، ص 74.

(2) م.ن، ص 100.

(3) م.ن، ص 42.

3. الغزل

برع ابن نُباتة في الغزل، وتفنَّنَ في أوصافه، وقد ألمّ بصنوف الجمال، فتارة يصف الجمال الفرعوني الذي تمثله في حسناء مصرية، إذ يقول[1]:

بَـدَتْ في رداءِ الـشّعر باسمـةَ الثغـر ... فعوذتُهـا بالـشمس والليـلِ والفجـر
ولو شئتُ قسَّمتُ الـذّوائبَ مقسماً ... بطيـبِ ليـالِ مـن ذوائبهـا عـشر

ويصف الجمال الشامي الذي أرّق خياله تارة أخرى، وتمثّله في حسناء شاميّة[2]:

شـاميّةٌ بـين جفنيهـا يمانّيـةٌ ... تقـدُّ بالـسّحر قلبـا قبـلَ أوصـالِ
ماضـي الولايـةِ في العُـشّاقِ ناظرُهـا ... واحـرَّ قلبـاه مـن ذا النـاظر الـوالي

وإذ أعجبه الجمال التركي الذي تمثل في الخدود المُشربة بحُمرة، فإنه لم ينسَ الجمال العربي الذي تبدّى له في محبوبة عربية سماها «لمياء»، فيقول[3]:

صُـدودك يـا لميـاءُ عـّني ولا البُعـدُ ... إذا لم يكـنْ مـن واحـدٍ منهمـا بُـدُّ
بروحـيَ مـن لميـاءَ عطـفٌ إذا زهـا ... على الغصنِ، قال الغصنُ: ما أنا والقدُّ
وعُنُقٌ قـد استحـسنتُ دمعـي لأجلـها ... وفي عُنُـقِ الحـسناء يُستحـسن العِقـدُ

وقد يتحدّث عن طيف الحبيب مستمداً صورته من لوعة الحرمان، وقد اختلس إليه، فيقول[4]:

أهـلاً بطيـفٍ علـى الجرعـاء مُختِلسِ ... والفجـرُ في سَـحَرٍ كـالثّغر في لَعَـسِ
والـنّجمُ في الأفـقِ الغربـيِّ مُنحـدِرٌ ... كـشُعلةٍ سـقطتْ مـن كـفُّ مقتـبس

وقد يأتي غزله على شكل مُقطّعات، تضم مختلف أشكال الشعر من مزدوجات ورباعيات وخماسيات وغيرها، تقوم على التضمين حينا وعلى الرمزية حينا آخر.

---

(1) الديوان، ص 195.

(2) م.ن، ص 385.

(3) م.ن، ص 135.

(4) م.ن، ص 263.

ومن أغراضه الأخرى الخمريات والغنائيات، فكان يتورّط في حضور مجالس الأنس والطرب، ويشهد الندامى وهم يتبادلون الأقداح، فيخلع نسكه ووقاره ويمضي في طريق الضلال. فنسمعه يصف مجلساً على البديهة، ويتفنّن في وصف الساقية، فيقول:

الكأسُ في كفِّ غادةٍ رُودِ   قُم يا أخا النُّسْكِ غيرَ مطرودِ
تحثُّها بالغناءِ غانيةٌ   تُعربُ فيه عن لحن داودِ
إن شئتَ كالغصنِ ذاتِ مُنعطفٍ   أو شئت كالطير ذاتِ تغريدِ
تكادُ إن مسَّ عودُها يدّها   تجري مياهُ الدلالِ في العُود

وإنك لتعجب من ابن نُباته، وهو الشيخ الوقور، كيف وقع في هذا الإثم، فتجرّع الخمر من هذه الساقية. ومن أسفٍ أن تنتشر الحانات في ذلك العصر، فكان يتجرّعها «لينسى شقاءه وهمومه في حياته وهو النازح البعيد عن موطنه»[1] إذ ارتحل إلى بلاد الشام، وأخذ ينتجع أعيان الناس، فكانوا يعطونه حينا، ويمتنعون عن عطائه أحايين أخرى، وكذلك توالت عليه المصائب، إذ فقد أهله جميعاً.

ويعد ابن نباتة أحد أصحاب الموشحات المشهورين، فقد نظم أحد عشر موشّحاً، تدور حول الغزل والمدح[2].

خصائص وسمات

1. حَفَل شعره بألوان الصناعة اللفظية والتورية على وجه الخصوص، في مثل قوله لصديقه صفيّ الدين الحلّي مداعباً[3]:

أوقعني وُدّي مَعْ هاجرٍ   يبخلُ بالدَّرْجِ وبالوَصْلِ
والله لا غُررْتُ من بعدها   ولا جعلتُ الودّ في حلّي

---

(1) عمر موسى باشا، ابن نباتة المصري، ص 326.

(2) م.ن، ص 338.

(3) الديوان، ص 429.

وهي تورية تنمّ عن روح الدعابة من شاعرٍ عُرف بأنه كان تعِساً في حياته.

2. الاقتباس من القرآن الكريم في مثل قوله[1]:

يــا مُليحــاً طــرفي بــه في نعــيمٍ   وفــؤادي في (النــارِ ذات الوقــود)

لا تــسلْ عــن مــسيل دمعــي بخـدّي   قَتَــلَ الــدمعُ صــاحب الأخــدود

فقد أورد الاقتباس كاملاً في «النار ذات الوقود» ثم حرّفه بما يناسب المعنى المقصود كما (في صاحب الأخدود) والنص هو (أصحاب الأخدود).

3. تأثره بالحديث النبوي الشريف، في مثل قوله[2]:

والــــذي أهـــواه بـــدرٌ قاتـــلٌ   «اعملــوا مــا شــئتم يــا أهــلَ بــدر»

4. التضمين في شعره، وهو كثير في شعره كثرة مُفرطة، وقد يضمّنه بيتاً كاملاً، في مثل قوله[3]:

أتـــاني علـــيٌّ البالِـــسيُّ بـــسعره   فيالــكَ مــن شــعرٍ ثقيــلُ مطّــولِ

(مِكَــرٌّ مِفَــرٌّ مُــدبرٍ مُقبــلٍ معــاً   كجلمود صخرٍ حطّه السيلُ مـن عَـلِ)

فقد ضمّن الشاعر بيت امرئ القيس وهو البيت الخمسون من معلقته المشهورة أو يُضمّنه نصف بيت، في مثل قوله[4]:

لم أنْـــسَ موقفنـــا بكاظمـــةٍ   والعـــيشُ مثـــلُ الـــدارِ مُـــسْوَدُّ

والـــدّمعُ يُنـــشدُ في مـــسائله   (هـــل بـــالطلولِ لـــسائلٍ ردُّ)

فقد ضمَّن نصف بيت من القصيدة المعروفة بـ «الدُّرّة اليتيمة» وتمام البيت: «أم هل لها بتكلم عهد».

(1) الديوان، ص 152.

(2) م.ن، ص 193.

(3) م.ن، ص 422.

(4) م.ن، ص 172

5. استعمال المصطلحات النحوية والعروضية: استعمل أوفى نصيب من هذه المصطلحات، في مثل قوله في رثاء السبكي[1]:

وجاءنا عن إمام مُبتدا خَبرٍ لكنْ به السمعُ منصوبٌ على النَّصَبِ

وقوله أيضا في التعريف والتنكير[2]:

ما أعجب الدهرَ في حالَيْ تقلُّبِهِ وصلٌ وصدٌّ وتعريفٌ وتنكيرُ

6. يميل إلى المعارضات الشعرية، فقد عارض كعب بن زهير في قصيدته (بانت سعاد....)، وابن النبيه في قصيدته (ياساكني السَّفح...).

7. الألغاز والأحاجي في شعره، من ذلك قوله مُلغزاً في (علي)[3]:

أ مولايَ ما اسمٌ جلّى إذا تعوّض عن حرفه الأوَّلِ

لك الوصفُ من شخصه سالماً فإن قلعْتَ عينه فهو لي

وأيّا كان الأمر، فقد عدّه معاصروه أمير الشعر وحامل لواء الشعراء، وتتلمذ على يديه في الأدب جماعة من الشعراء[4]، فكان صلاح الدين الصفدي أقربهم له؛ قال ابن إياس: «ومما وقع للشيخ جمال الدين هذا أنه كان يخترع المعنى الغريب في شعره الذي لم يُسبق إليه فيعارضه فيه صلاح الدين الصفدي ويأخذه منه وزناً وقافية وينسبه إلى نفسه[5]» وقد جمع ابن نُباتة سرقاته في كتاب سمّاه «خبز الشعير».

(1) الديوان، ص 41.

(2) م.ن، 221.

(3) م.ن، 413.

(4) انظر: محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 342/3.

(5) تاريخ ابن إياس، ص 223.

الفصل الثامن

فنون النثر الشفاهي

الخطابة

أنواع الخطابة

الفصل الثامن
فنون النثر الشفاهي

الخطابة

تمهيد

الخطابة فن شفاهي (لساني) من فنون النثر الأدبي، وقد عُرفت عند العرب منذ العصر الجاهلي، فكانوا يستخدمونها في عرض قضاياهم، في السلم أو الحرب ثم ازدهرت في الإسلام، فاتخذها النبي ﷺ أداة للدعوة إلى الدين الحنيف، ثم فرضها الإسلام وجعلها من شعائره في الجمعة، والعيدين، وفي يوم الحج الأكبر. وفي العصر الأموي شهدت الخطابة السياسية ازدهارا، لكثرة الأحزاب السياسية والمذاهب الدينية، إذ أصبحت وسيلة للدعاية، وأداة يثبت كل منها أنه على الحق وأن منافسه على الباطل.

واقتصرت الخطابة في العصر الأيوبي والمملوكي على الخطابة الدينية التي عكست الأحداث الكبرى، وقامت بدور نشط في الدعوة إلى الجهاد وإنقاذ البلاد من الصليبيين. وكذلك عُرفت الخطابة الاجتماعية التي تُغطي بعض المناسبات العامة في المحافل ابتهاجاً بنصر، أو افتتاح مدرسة، أو عقد زواج، وعرفت أيضا الخطابة الحربية التي واكبت الحروب في هذا العصر. وهناك الخطب الدفاعية التي تمثلت في دفاع ابن تيمية عن نفسه خلال مجالس الحكم التي عُقدت من أجله.

أنواع الخطابة

1. الخطب الدينية

ازدهرت الخطابة الدينية في هذا العصر، بسبب الأحداث الخطيرة التي واجهها العالم الإسلامي، وتمثلت في الحروب التي شنَّها الفرنجة والتتار. وقد أسهمت في الدعوة إلى الجهاد والتصدّي للغزاة، وألحت على التضحية والبذل والفداء. وكان

للخطب الجمعية صدى كبير في أسماع المسلمين وقلوبهم، فكان صلاح الدين يقصد بوقعاته أيام الجُمع، ولاسيما أوقات صلاة الجمعة، تبرّكاً بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة[1].

وقد عُرف الخطباء في هذا العصر ببراعتهم في هذا الفن، وكانوا من رجالات القضاء والإفتاء وأساتذة المعاهد الدينية المشهورة. أمثال قاضي دمشق محيي الدين بن الزكي (-598هـ) الذي ألقى خطبة الجمعة الأولى في المسجد الأقصى بعد تحريره، وسبط ابن الجوزي شمس الدين يوسف (-597هـ) الذي عرف بخطبه في الجامع الأموي بدمشق إبان عودة الفرنجة إلى القدس عام 626هـ، فكان يحث المسلمين على الجهاد والتضحية والبذل والفداء. والعزّ بن عبد السلام (-660هـ) خطيب الشام وفقيهها، وقد أُخرج منها بعد أن أفتى بخطأ التصالح مع الفرنجة، على يد الصالح، عماد الدين إسماعيل بن العادل، والي دمشق. وفي مصر استقبله الملك الصالح نجم الدين أيوب، فولاه القضاء وعمارة المساجد، ووقف مع السلطان قطز في التصدّي للتتّار[2].

(1) انظر: ابن شداد، النوادر السلطانية، ص 61.

(2) انظر: عمر الساريسي، نصوص من أدب الحروب الصليبية، ص 119 و120.

نص من «خطبة القدس» للقاضي محي الدين بن الزكي[1]

الحمد لله، معزِّ الإسلام بنصره ومذلِّ الشرك بقهره، ومصرِّفِ[2] الأمور بأمره، ومديمِ النعم بشكره، ومُستدرجِ الكافرين بمكره، الذي قدّر الأيام دولاً[3] بعدلِه، وجعل العاقبة للمتقين بفضلهِ وأفاض[4] على عباده من ظله، وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يُمانعُ، والظاهر على خليقته فلا يُنازَع، والآمر بما يشاء فلا يُراجَع، والحاكم بما يريد فلا يدافع.

أحمَدُه على إظفاره وإظهاره[5]، وإعزازه لأوليائه، ونصْره لأنصاره، وتطهير بيته المقدس من أدناسِ الشرك وأوضارهِ[6]، حمدَ من استشعر الحمدَ باطِنْ سره وظاهرُ جهاده.

أيها الناس!! أبشروا برضوان الله الذي هو الغايةُ القُصوى والدرجةُ العليا، لما يسّره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة[7] من الأمة الضالّة، وردِّها إلى مقرها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريباً من مئة عام[8]، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يُرفعَ ويذكر فيه اسمُه، وإماطةِ الشرك عن طرقه، بعد أن امتد عليها رواقهُ واستقر فيها رسمُه؛ ورَفْعِ قواعده بالتوحيد، فإنه بُني عليه، وإنَّه أسس بالتقوى من خلفه ومن بين يديه.

---

(1) انظر: عمر الساريسي، نصوص من أدب الحروب الصليبية، ص 119 و120.

(2) مدّبر.

(3) متداولة بين الجهتين مرة لؤلاء ومرة لغيرهم.

(4) أنعم إنعاماً كثيراً.

(5) نصره.

(6) أوساخه.

(7) الهدف المنشود والحق الضائع.

(8) من 492 هـ- إلى 583هـ.

وهو موطنُ أبيكم إبراهيم[1] ومعراجُ نبيكم محمد، عليهما السلام، وقبلُتكم التي كنتم تصلّون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقرُّ الأنبياء ومقصُد الأولياء، ومقر الرسل[2]، ومهبط الوحي، ومنزل تنزُّل الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر[3]، وهو في الأرض المقدسة التي ذكرها في كتابه المبين[4]، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله ﷺ، بالملائكة المقربين[5] وهو البلد الذي بعث الله إليه عَبدَهُ ورسولَهُ وكلمتهُ التي ألقاها إلى مريم وروحَه عيسى، الذي شرفه الله به برسالته، وكرَّمه بنبوته، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته، فقال تعالى:﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ ﴾ [النساء: 172]، وقال: ﴿ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ﴾[المائدة: 17].

وهو أولى القبلتين وثاني المسجدين[6]، وثالث الحرمين، لا تُشدُّ الرحال بعد المسجدين، إلا إليه[7]، ولا تعقد الخناصر، بعد المواطنين، إلاَّ عليه.

ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سكان بلاده، لما خصَّكم بهذه الفضيلة، التي لا يجاريكم فيها مُجارٍ، ولا يباريكم فيها مُبارٍ فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزاتُ النبويةُ، والوقعاتُ البدريةُ، والعَزَماتُ

---

(1) إشارة إلى قرب المكان الذي مر منه إبراهيم، ويقال إن قبره موجود فيه، في الحرم الإبراهيمي في مدينة الخليل بفلسطين.

(2) موسى وعيسى ومحمد، عليهم السلام.

(3) عن ميمونة مولاة النبي ﷺ قالت: قلت: يا رسول الله: افتنا في بيت المقدس. قال: أرض المحشر والمنشر، ائتوه فصلوا فيه» سنن ابن ماجة، جـ1 ص 451 الحديث 1407.

(4) الآية 20 من سورة المائدة.

(5) كما جاء في حديث الإسراء والمعراج في صحيح البخاري.

(6) لقول الرسول ﷺ: «إن أول ما بني في المساجد المسجد الحرام، ثم المسجد الأقصى وبينهما أربعون عاماً». (صحيح مسلم، الجزء الأول ص 370 الحديث رقم 520).

(7) لقول الرسول ﷺ: «لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا»: (صحيح البخاري مجلد 1 ص 181).

الصدِّيقية، والفتوح العمرية، والجيوش العثمانية، والفتكات العلوية. جدّدتهم للإسلام أيام القادسية، والوقعات اليرموكية والمنازلات الخيبرية والهجمات الخالدية. فجزاكم الله عن محمد، نبيّه أفضلَ الجزاء وشكر لكم ما بذلتموه من مُهجكم في مقارعة الأعداء، وتقبّل منا ومنكم ما تقربتم به إليه من مهراق الدماء، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء.

فاقدُروا، رحمكم الله، هذا النعمة، حقَ قدرها، وقوموا لله بواجب شكرها. فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة، وترشيحكم[1] لهذه الخدمة. فهذا هو الفتح الذي فتحت له أبواب السماء[2]، وتبلّجت[3] بأنواره وجوه الظلماء، وابتهج به الملائكة المقربون، وقرَّ به عيون الأنبياء المرسلون. فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزمان، والجندَ الذي تقوم بسيوفهم، بعد فترة من الرسل، أعلامُ الإيمان، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء[4] أكثر من التهاني به بين أهل الغبراء[5]!.

أليس هو البيت الذي ذكره الله في كتابه، ونصَّ عليه في خطابه؟ فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: 1].

أليس هو البيت الذي عظمته الملوك، وأثنت عليه الرسل، وتُلبت فيه الكتب الأربعة من إلهكم ﷻ؟

(1) رشّح الشيء للشيء إذا أهّله وربّاه.

(2) لعله يشير إلى قول أبي تمام في وصف فتح المعتصم عمورية:

فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب

(3) أضاءت.

(4) السماء للونها الأخضر. (المعجم الوسيط).

(5) الأرض، وفي الحديث: ما أقلّت الغبراء (حملت) ولا أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبي ذر. (سنن ابن ماجة، فضل أبي ذر، الحديث 156).

أليس هو البيتَ الذي أمسك الله، ﷻ، فيه الشمس على يوشعَ لأجله، أن تغرب، وباعد بين خطواتها ليتيسَّر فتحهُ وبقرب[1]؟

أليس هو البيت الذي أمر الله تعالى موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان، وغضب عليهم من أجله، وألقاهم في التيه عقوبة العصيان[2]؟

فاحمدوا[3] الله الذي أمضى عزائمكم لما نَكِلت عنه بنو إسرائيل، وقد فضلهم على العالمين، ووفقكم لما خُذل عنه أمم من كان قبلكم من الأمم الماضية، وجمع كلمتكم وكانت شتى، وأغناكم بما أمضته «كان وقد» عن «سوف وحتى»[4].

جو الخطبة

فقد ذُكر أنه لما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفتح، وهو الرابع من شعبان، لعام 583هـ، حضر المسلمون الحرم الشريف، فغصّ بالزحام، فاجتمع بعدد كبير من المصلين، وحضر السلطان إلى قبة الصخرة، وكان جماعة من العلماء والأكابر قد رّشحوا أنفسهم للخطبة في جمعة الفتح بهذا المسجد، وأخذوا لذلك أهبته وألّفوا ما يخطبون به، ومنهم من عرّض للسلطان يطلب ذلك، ومنهم من صرّح، والسلطان صامت لا يُبدي سرّه. ولما حان وقت الخطبة نصّ[5] على القاضي محيي الدين وهو يومئذ كبير القضاة بدمشق، وقدّمه لهذا الأمر الجليل، فرقي المنبر، وهو متشح بالأهبة[6] العباسية السوداء، فألقى خطبة بليغة، ابتدأها بفاتحة الكتاب، ثم تلاها بالتحميدات في أول سور الأنعام والإسراء والكهف والنمل وسبأ وفاطر، ثم شرع

(1) انظر تاريخ الطبري، الجزء السادس الصفحة 117، وكذلك سفر يشوع 12/10،13.

(2) الآيات 20-22 من سورة المائدة. ﴿ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ﴾.

(3) أي ضعفت.

(4) أي أغنى العزم والتنفيذ الفوري عن التسويف والمماطلة.

(5) البداية والنهاية، 314/12.

(6) زيّ الخطباء الدينيين في هذا العصر.

يخطب الخطبة الأولى، فأتمّها وجلس، ثم قام وخطب الخطبة الثانية، ودعا للخليفة العباسي، واختتمها بالدعاء للسلطان الناصر صلاح الدين يوسف(1).

أولاً: البناء الفني

حرص الخطيب على تقسيم خطبته تقسيما منطقياً، يتماشى مع طبيعة الخطبة الدينية، وبخاصة خطبة الجمعة، فبناؤها الفني يتألف من ثلاثة أجزاء، هي:

1. **مقدمة**: تعد فاتحة الخطبة، استهلها بما اختاره من آيات بيّنات تضّمنت ذكر الحمد لله، ثم الحمد المطول، ثم الثناء على النبي ﷺ وعلى خلفائه الراشدين وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.
2. **العرض**: ويشكل الجانب الأكبر من الخطبة، ويتضمن عدّة فِكَر، كالحديث عن الجهاد والمسجد الأقصى، وتهنئة السلطان الناصر صلاح الدين بهذا الفتح العظيم، وحث الجند على شكر الله الذي أنعم عليهم بهذا النصر، وبيان أن النصر هو من عند الله، والتحذير من الزهو والغرور، ومن اقتراف المعاصي، وما سوى ذلك.
3. **الخاتمة**: وهي الجزء الثاني من خطبة الجمعة، يُتمّ بها الخطيب خطبته، وتتضمن أدعية لله للمسلمين وللسلطان صلاح الدين.

خصائص وسمات

أ. تعد هذه الخطبة من أعظم الخطب الدينية في هذا العصر، لمناسبتها العظيمة التي تؤرخ لها، وهي فتح القدس وتخليص المسجد الأقصى من دَنَس الفرنجة وما اقترفت أيديهم فيه.

ب. الالتزام ببناء الخطبة الدينية، ولاسيما خُطب الجمعة، مع الإكثار من الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة، والأخبار التاريخية التي تأتي في سياق الحدث.

(1) انظر الخطبة كاملة في ابن خلكان والروضتين، 110/2.

ج. الألفاظ ذات موسيقا مؤثرة، وهي ألفاظ منتقاة ينظمها الخطيب في عبارات رائعة التقسيم، في مثل قوله: ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية، والوقعات البدرية، والعزمات الصّدّيقيّة، والفتوح العُمريّة». تقوم على السجع الجميل والمزواجة بين العبارات.

د. ظهور أثر الثقافة الواسعة في كلام الخطيب، القرآنية، واللغوية، والتاريخية. ويبدو تأثره بابن نُباتة في خطبه المسجوعة والمرصّعة بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة.

ه. في الخطبة إشارات كثيرة إلى مآثر المسجد الأقصى، وفضائله، استمدها من القرآن الكريم والحديث النبوي، وفيها حضّ للمسلمين على الجهاد والاستمرار فيه.

و. الإطناب الذي يأتي به لتثبيت فكرة في أذهان السامعين مرّة، بالتكرار اللفظي كقوله: والجهاد! الجهاد! أليس هو البيت الذي عظمه الملوك أليس هو البيت الذي أمسك الله؟ أليس هو البيت الذي أمر الله؟ ومرّة بالترادف الذي يوضح المعنى الواحد بجمل متعدّدة، كقوله: أحمد الله على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه، ونصره لأنصاره» وقوله: «الله أكبر! فتح الله ونصر! وغلب الله وقهر! وأذلّ الله من كفر!

2. الخطب الحربية

عكست الخطابة الحربية ما كان يجري في هذا العصر من أحداث كبرى بين المسلمين من جهة والصليبيين والتتار من جهة أخرى. وهذا النوع من الخطابة يشكل سلاحاً لإثارة الحماسة في الجند المقاتلين، ورفع معنوياتهم وتتسم بجملة خصائص، هي: الإيجاز، والبعد عن التكلف والتجرد من السجع، والارتجال.

ومن أشهر الخطب الحربية في هذا العصر خطبة السلطان صلاح الدين التي ألقاها في أمراء جيشه، وأصحاب المشورة فيه، بعد المصاب الأعظم على عكا وقد، قال فيها[1]:

---

(1) أبو شامة، الروضتين، 146/1.

«بسم الله، والحمد لله، والصلاة على رسول الله. اعلموا أنّ هذا عدوّ الله وعدّونا، قد نزل بلدنا، ووطئ أرض الإسلام، وقد لاحت لوائح النصر عليهم، إن شاء الله تعالى، وقد بقي العدو في هذا الجمع اليسير، ولا بد من الاهتمام بقلعه والله قد أوجب علينا ذلك، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا، ليس وراءها نجدة تنتظرها سوى الملك العادل، وهو راحل، وهذا العدو، وإن بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر، جاءه مدد عظيم، والرأي كل الرأي عندي مناجزته، فلينجزنا كل منكم ما عنده في ذلك».

3. خطب الزواج

عُرف هذا اللون الخطابي منذ الجاهلية، فكانت له تقاليد اجتماعية متعارف عليها، منها أن يُلقي أهل الخاطب خطبة على أهل المخطوبة إليهم، ثم يرد عليهم أهل المخطوبة بخطبة موجزة تتضمّن الرّد عليهم بالقبول أو الرفض.

ثم جاء الإسلام فكانت له أصوله وتقاليده، منها أن تكون خطبة الخاطب طويلة، وخطبة المجيب قصيرة، وأن يلقي الخاطب خطبته وهو جالس. وهو ما يعني على حد تفسير ابن المقفع قرب الوجوه من الوجوه.

ومن أمثلة هذه الخطب في هذا العصر ما نقتبسه من خطبة لزين الدين بن الوردي في زواج أحدهم على ابنة عمّه، بدأها بالتحميد، فالثناء على العروس، مبيّناً جمالها وخلقها، فالصلاة على النبي ﷺ، فموضوع الخطبة، إذ يقول:

«وبعدُ، فإنَّ أوْلى ما بادر إليه أولو الأحلام، وتنافس فيه كِرامُ الأبناء وأبناء الكرام ما كان لتكثير الأُمَّةِ متضمنا، ولفضيلة العاجل والآجل نافعا نبيّنا، وهي سُنَّةُ النّكاح التي عَظُمتْ بها المنَّة، وأثنى عليها لسانُ الكتاب، وأشارت إليه يدّ السُّنَّة؛ وخصوصاً بنات العم التي أرشدت قصة البتولِ عليها السلام إليها، وحسن أن يتبنى لها بطريق الأولى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ [الروم: 21]. فإن بنات العم أجدى بالصحبة وأجدر، وأوفى بالمودة وأوفر، وأصبى إلى العهد وأصبر، ولاسيّما منْ حازت كرم الأوائل والأواخر، وحميت عناصر الكرم وكرم العناصر، وأصبحت سليلة الأعيان والأكابر..» إلى آخر الخطبة.

4. الخُطب التدريسية

وهي من الخطب المستحدثة في هذا العصر، وقد كان الفقهاء يفتتحون مواسم الدراسة أو المساجد أو المدارس التي يُسند إليها التدريس أو التحديث فيها[1].

ومنها خطبة لتقي الدين السُبْكي (-744هـ) افتتح بها دروسه بالمدرسة الركنية بمصر، وقد بدأها بمقدمة تتضمّن حمد الله والشهادة والصلاة على النبي، وجاء فيها[2]:

«أما بعد فإنّ غريب الدار ولو نال مناط الثُّريّا فيكفي أن يقال: غريب، وبعيد المزار ولو تهيًّأ له ما تهيّأ، فما له في الراحة منهم نصيب. ولمشّقة الغربة ازدادت رتبة الهجرة في العبادة. وشرفت الوفاة حتى جاء موت الغريب شهادة.

والغُربة كُربة ولو كانت بين الأقارب، ومفارقة الأوطان صعبة، ولو عن سَمّ العقارب، فأنى يقاس ببلاد الغربة الوطن وإن شرف قدرها وعذُبَ شرابها.

بلاد بها نيطتْ عليّ تمائمي وأول أرضٍ مسَّ جلدي ترابها

وأيا كان الأمر، فالخطيب يتحدث عن الغربة، إذ اغترب عن مصر بأمر سلطاني ليتولّى قضاء الشام على غير رغبة منه وإذ عاد إلى مصر ألقى هذه الخطبة وقد قامت على السجع غير المتكلف، وفيها شيء من التضمين. ومن حيث المعنى فإنها تدور حول الحض على محبّة الأوطان.

(1) انظر: عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، ص 792.

(2) انظر: محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 2/ 14 و15.

الفصل التاسع

فنون النثر الكتابي

المبحث الأول: الكتابة والرسائل

المبحث الثاني: الإخوانيات وما شابهها

الفصل التاسع
فنون النثر الكتابي

المبحث الأول
الكتابة والرسائل

من فنون الكتابة التي ازدهرت في هذا العصر فن الرسائل، وقد برز فيه عدد من كبار الكُتّاب، في طليعتهم القاضي الفاضل صاحب الطريقة الفاضلية، ومنهم العماد الكاتب، وابن الأثير، وابن عبد الظاهر، وابن فضل الله العمري. وقد احتلَّ أكثرهم مراتب عليا في الدولة، فكان صاحب ديوان الإنشاء بمنزلة الوزير، وقد يصبح نائب السلطان.

وكانوا يشترطون في الكاتب الأول شروطا كثيرة، تقوم على مقدرته البلاغية واللغوية. وقد تحدّث القلقشندي عن ديوان الإنشاء والمكاتبات وأشار إلى صفات الكاتب الذي يتولى الإنشاء.

تطور فن الرسالة كبقية الأنواع الأدبية المعروفة، وأبرز ما نلاحظه أنها اتجهت اتجاهين اثنين:

1. الاتجاه الرسمي الذي تمثل في الرسائل الديوانية.
2. الاتجاه الذاتي الذي تمثّل في الرسائل الإخوانية.

وقد أدت الرسائل الديوانية دوراً كبيرا في مواكبة الأحداث الكبرى في هذا العصر فسجّلتها في حالات الكرّ والفر، وشاركت في صنع القرارات السياسية والحربية.

الرسائل الديوانية

تعدّدت الرسائل التي تصدر عن ديوان الإنشاء، فمنها رسائل البشرى، والاستنجاد، والفتوح، والمراسيم والمنشورات والتقاليد، والتوقيعات، والحرب والنفير والجهاد، والوثاق المعرّبة.

1. رسائل البشرى

كانت الانتصارات بعامة والفتح القدسي بخاصة باعثاً على إنشاء هذا اللون من الرسائل، وكان ينشئها كبار الكُتّاب في هذا العصر على ألسنة الملوك والسلاطين، لترسل إلى الخليفة العباسي في بغداد وإلى سائر الحكام والولاة في الأمصار.

وقد عرفت هذه الرسائل منذ عهد نور الدين محمود، وكثرت في عهد السلطان صلاح الدين وسجلت انتصاراته في موقعة حطين والفتح القدسي وغيرهما، فقد أنشأ القاضي الفاضل رسالة على لسان السلطان صلاح الدين أُرسلت إلى الخليفة العباسي، وأنشأ العماد الكاتب سبعين كتاب بشارة بهذا الفتح، وفي عهد توران شاه أُرسلت رسالة إلى نائب الشام بمناسبة هزيمة الإفرنج في المنصورة عام 648هـ.

وعرفت في مصر رسائل البشارة بوفاء النيل، وهو عيد يفرح له أهل مصر، لأنه يبشر بالخير العميم، ويُهنّئ بعضهم بعضاً.

ومن تلك الرسائل ما كتبه ابن حجّة الحموي في كتابه الموسوم بـ «تأهيل الغريب»، ونستلّ منه قطعة بشارة له بوفاء النيل كتبها سنة 819هـ عن الملك المؤيّد شيخ[1]:

«ونبدي لعلمه الكريم ظهور آية النيل الذي عاملنا الله فيه بالحسنى وزيادة، وأجراه لنا في طرق الوفاء على أجمل عادة.. دقّ السودان فالراية البيضاء من كل قلع[2] وقبّل ثغور الإسلام وأرشفها ريقه الحلو فمالت غصونها إليه، وحَضَنَ مشتهى الروضة في صدره وحنا عليه حنوّ المرضعات على الفطيم:

(1) نقلاً عن: شوقي ضيف، أدب الدول والإمارات، ص 308.

(2) يريد قلع السفن وشراعها:

وأرشـــفنا علـــى ظمـــأ زُلالاً ألـــذّ مـــن المدامـــة للنّـــديم

وراق مديد. بحره لما انتظمت عليه تلك الأبيات، وسقى الأرض سلافته الخمرية فخدمته بحلو النبات، وأدخله إلى جنات النخيل والأعناب فالق النّوى والحبّ، فأرضع في أحشاء الأرض جنين النّبت وأحيا له أمهات العصف والأبّ.. ونسي الزهر بحلاوة لقائه مرارة النّوى، و هامت به مُخدَّرات[1] الأشجار فأرخت ضفائر فروعها عليه من شدّة الهوى... ودارت دوائره على وَجَنات الدهر عاطفة، وثقلت أرداف أمواجه على خصور الجواري واضطربت كالخائفة».

وهذه الرسالة تحمل ملامح عصر المماليك بعامة، وأسلوب ابن حجة الحموي بخاصة، وتدور فكرتها حول فيضان النيل الذي يجلب الخير - بإذن الله - لمصر وأهلها. وعلى المستوى الأسلوبي نجد الكاتب يسير على نهج الطريقة الفاضلية، والتي تقوم على المزج بين المحسنات البديعية التي تتمثل في السجعات الطويلة، والمحسنات المعنوية التي تتمثل في هذه التوريات، فقد ورّى بالأبيات عن الدور والسكن، وورّى بالأبّ عن نوع من النبات، وورّى بالنّوى عن البعد، وورّى بالجواري عن السفن، وتجدر الإشارة إلى اهتمام الكتاب بالتورية في هذا العصر.

والكاتب يأخذ بعناصر التعبير البديعي الأخرى كالتضمين وحل آيات القرآن، ويستخدم المصطلحات العروضية، فيذكر مديد النيل، والمديد في بحور الشعر.

2. رسائل الفتوح

وهي الرسائل التي يصف فيها الكُتّاب أحوال العدو وقت الهزيمة التي تلحق به، أو وصف البلاد المفتوحة. فقد أنشأ العماد الكاتب رسالة على لسان السلطان صلاح الدين إلى أخيه سيف الدين صاحب اليمن، بعد فتح اللاذقية:

«وهذه اللاذقية مدينة واسعة، وخطة جامعة، معاقلها لا ترام، وأعلاقها لاتُسام، وهي أحسن بلاد الساحل وأحصنها، وأزيدها أعمالاً وصُنّاعاً وأزينها، وما في البحر

(1) المخدّرات: النساء يلزمن بيوتهن.

مثل ميناها، ولا للمركب الواردة إليها مثل مرساها، وهي جنة كان يسكنها أهل الجحيم، وطالما مكثت بالكفر دار بؤس، فعادت بالإسلام دار نعيم»[1].

وأنشأ ضياء الدين بن الأثير رسالة قدسية يعارض فيها رسالة القاضي الفاضل القدسية، وقد كتبها عن السلطان صلاح الدين إلى ديوان الخلافة ببغداد، وهي رسالة طويلة، ومنها وصفه خضوع الصليبيين وإذعانهم ورغبتهم في دفع الفدية، ثم قال[2]:

«ولقد كان يوم التسليم عريض الفخار، زائد العمر على عمر أبويه من الليل والنهار، واشتقّ من اسمه معنى السلامة للمسلمين والهلاك للكفار، وزاده فخراً إلى فخره أنه في تلك الأرض وافق اليوم المسفر عن ليلة المعراج النبوي الذي كان موعده، ومن صخرتها مصعده. وذلك هو الإسراء الذي ركب إليه البراق، واستفتح له أبواب السبع الطباق، ورقى فيه الأنبياء على اختلاف درجاتهم... ولما رأوا طلعة الإسلام داخلة عليهم أعلنوا بالجؤار، واصطرخوا جميعا كما يصطرخون غداً في النار، وزادهم غيظاً إلى غيظهم أنهم رأوا الصلاة قائمة، وأقيمت الجمعة وهي أولى جمعة حظي الأقصى بمشهدها؛ وحضرتها الأمة الإسلامية بأحمرها وأسودها: فمن باكٍ بدمعة سروره الباردة، ومن مُجيل نظرة في نعمة الله الواردة، ومن شاكر للزمن الذي أبقاه إلى يومه هذا الذي كان الأيام له حاسدة».

فهذه الرسالة تحمل ملامح الطريقة الفاضلة، أراد بها ابن الأثير أن يجاري القاضي الفاضل، وأن يُظهر تفوقه عليه. كما تدل على أنه أقرب إلى السهولة في تأليف الكلام. ولعل ذلك ينبع من رغبته في التحرر من قيود التصنع والتكلف مع المحافظة على الصنعة المطبوعة.

3. رسائل الاستنجاد

ورسائل الاستنجاد والتحريض نوع من أنواع الرسائل الديوانية تصدر عن الديوان بقصد طلب العون والحض على الأخذ بالثأر من الأعداء. وقد افتنّ العماد الكاتب في هذا اللون من الرسائل، من ذلك ما كتبه على لسان السلطان

(1) ابن واصل، مفرّج الكروب، 2/ 203-205.

(2) الروضتين، 1/98.

صلاح الدين، بعد استيلاء الفرنجة على عكا وغدرهم بمن أسروهم من أهلها، في استنهاض همم المسلمين، فمما قاله بعد الافتتاح والتحميد[1]:

«... وللكرم آجال، والحرب سجال، ولله من المؤمنين رجال. والآن فقد ثارت الحميات وهبّت النخوات، ووجب على كل مسلم أن ينهض لنصرة الإسلام، ويتدارك، مع ما حدث من الكسر بالجبر والإحكام، ويُعيد ما وهى من عقد الفتوح إلى النظام. فأين ذوو الأنفة والحميّة والهمم العليّة والنفوس الأبية؟ أما يهتمون لمصرع من استشهد من إخوانهم؟ أما يثورون لثأر إيمانهم؟ أما تبكي العيون لمن قتل من أماثلهم وأعيانهم؟ فإن مصابهم عظيم، ومقامهم عند ربهم كريم، وأراد الله بذلك تنبيه الهمم الراقدة وإثارة العزائم الراكدة».

والواضح من قراءة هذه الرسالة أنها سهلة واضحة، فلا غريب في الألفاظ ولا تعقيد في التراكيب. والعماد حريص فيها على السجع، إذ تتوالى السجعات القصيرة التي تقوم على الجناس الناقص مثل آجال وسجال ورجال، والراقدة والراكدة. والطباق واضح بين كلمتي الكسر والجبر.

يعمد العماد إلى الترادف كثيراً؛ ليؤكد فكرته في استنهاض الهمم والعزائم، والأخذ بالثار، وغرس الأمل بالنصر. والحق أن هذه الرسالة تتسم بالعاطفة الجياشة، فهي تؤثر في الوجدان وتمسّ المشاعر مسّاً قوياً.

وتجدر الإشارة إلى أن عكا قد تعرّضت لحصار طويل، وصمدت. وإذ لم تفلح مساعي فك هذا الحصار، فقد أرسلوا للسلطان الناصر صلاح الدين بهذه الرسالة:

«يا مولانا: لا تخضع لهؤلاء الملاعين الذين قد أبوا عليك الإجابة إلى ما تدعوهم فينا؛ فإنا قد بايعنا الله على الجهاد حتى نُقتل عن آخرنا، والله المستعان»[2].

وقد أحزن ذلك السلطان صلاح الدين، ذلك أنّ أهل عكا قد اشتدّ عليهم الحصار، وأصابهم الجوع والوباء، فجاءت رسالة العماد برداً وسلاماً عليه، وردّت إليه الطمأنينة والصبر.

---

(1) انظر: أبو شامة، الروضتين، 190/2.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، 344/12.

4. المراسم والمنشورات

وتُوجّه إلى الناس لعلاج أحوالهم الاجتماعية، ومن أبرزها الرسائل التي تتصدّى لبعض العادات الاجتماعية المرذولة، التي تخالف الدين، ومثالها ما كتب به محيي الدين بن عبد الظاهر من رسالة في إبطال الحشيش، ومنها:

«يُعلم أن المنكرات التي أمرنا أن تُملأ الصحائف بأجرها وتفرغ الصّحاف، ألا يخلو بيت من بيوتها من كسر أو زحاف. قد بلغنا الآن أنها احتضرت، وأن كلمة الشيطان بالتعويض عنها قد نُصرت، وأن أم الخبائث ما عقمت، والجماعة التي كانت ترضع ثدي الكأس قد أرتعت بعد ما فطمت.

ونحن نأمر أن تُجتثَّ أصولها وتُقتلع، ويؤدب غارمها حتى يحصد الندامة كل زارع، وتُطهرَّ منها المساجد والجوامع، ويُشهَّر مستعملها في المحافل تنتبه العيون من هذا الوسن وحتى لا تُشتهى بعدها خضراء ولا خضراء الدمن».

ومن السهل على القارئ أن يلمح ما في هذه الرسالة من حرص على السجع، ثم فيها تصوير جميل يتمثل في الاستعارات والكنايات: فقد شخص الكأس وجعل لها ثديا، وكنّى بخضراء الدمن عن المرأة الجميلة التي تنبت في منبت غير حسن، وكنّى بأم الخبائث عن الخمر. وورّى واستخدم مصطلح العروض في قوله: «ألا يخلو بيت من بيوتها من كسر أو زحاف. وفيها اقتباس وتضمين، وهي سمات تمت بصلة إلى الطريقة الفاضلية المعروفة.

5. التقليد

التقليد هو ما يُكتب من الخليفة أو السلطان لكفلاء الملك، كأكابر النُّواب والوزراء، ومن كان في معناهما، وقد يكون لأكابر القضاة[1]، من ذلك ما كتبه الصلاح الصفدي في تقليد أحد الكُتاب وهو عبد الله بن تاج الرئاسة لما رَسم له بوزارة الشام سنة 733هـ عن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، والمرسوم طويل، ومما جاء فيه[2]:

---

(1) انظر: ابن فضل الله العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، 1/ 115-117.

(2) نقلا عن: محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 34/2.

«ولأنك إذا كنت معنا في المعنى فما غبت في الصورة عنّا، وابسط أملكَ ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾[يوسف: 53]، ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون: 49]، والوصايا كثيرة وأنت ابن بجدتها علما ومعرفة، وفارس نجدتها الذي لا يقدم على أمر حتى يعرف مصرفه، فما نحتاج إلى أن نرشدك منها إلى علم، ولا أن نشير لك فيها بأنملةِ قلم

وتقوى الله ﷻ هي العروة الوثقى، والكعبة التي من يطوف بها «فلا يضل ولا يشقى»، فعُضَّ بالناجذ عليها، وضُمّ يدك على معطفيها. والله يتولى ولايتك، ويعين دربتك بالأمور وعنايتك. والخط الشريف – شرفه الله وأعلاه – حجَّة ثبوته العمل بمقتضاه إن شاء الله تعالى.

6. التوقيعات

لون من الرسائل الديوانية تصدر عن السلطان، تُجهّز إلى البلاد وتُوزع فيها وتتناول بعض مظاهر الحياة المهمة، نعرف منها صورة الحاكم المثالي كما يُفترض أن يكون[1].

من ذلك ما جاء في توقيع أنشأه خالد بن القيسراني لنور الدين بإلغاء الضرائب التي كانت تؤخذ من المواطنين بغير حق، إذ يقول: «وقد علمتم معاشر الرعايا، وفقكم الله ورعاكم، ما كان مُرتّباً من المظالم المجحفة بأحوالكم، والمكوس المستولية على شطر أموالكم، والرسوم المطبقة عليكم في أرزاقكم، والمؤن التي تساهمكم في منافع أملاككم، واستمرار ذلك عليكم، إلى أن فوّض الله ﷻ إلينا تدبير أموالكم، واسترعانا على كبيركم وصغيركم، فأمرنا بإزالة ذلك عنكم أولا فأولا، وقد كان بقي من رسوم الظلم ومعالم الجور في سائر الأعمال بولايتنا ما أمرنا بإزالته الآن، وأضفنا إلى ذلك ما كنا أسقطناه أولاً، رأفة ولطفا، وتخفيفاً عليكم وعطفاً؛ ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾ [الأنفال: 66]».

ولا شك في أن التوقيعات في هذا العصر تتّسم بطولها، وهي أقرب ما تكون إلى المراسيم.

(1) انظر: عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، ص 795.

المبحث الثاني
الإخوانيات وما شابهها

وهي رسائل ترد على ألسنة الأدباء وتتنوع في موضوعاتها إذ تتضمن الاعتذار والتهنئة والتعزية، وما شابهها من الرسائل الوصفية.

1. الاعتذار

ونمثل لهذا النوع برسالة اعتذار كتب بها ابن منير الطرابلسي إلى صديقه زين الدين بن حليم، وكان قد نزح عن دمشق إلى قلعة شيزر خوفا من ابن الوصفي وزير حاكمها آبق، وحاول هذا الصديق أن يسترجعه إليها، فأجابه برسالة طويلة ومنها قوله(1):

«إن جراحي إلى الآن لم تذق حلاوة الاندمال، وقروحها تزداد قرحاً مع الحلّ والترحال، وبين جوانحي من الأين؛ لما لقيتُ بدمشق من الغَبْن، ما لا يحلّه إلا عَقْدُ الكفن، ولا يرفع حَدَثه إلا التيمّم بصعيد المدفن، ويلقاكَ فلان وفلان من كل ذي خَلْق دميم، وخلُق ذميم، وأصل لئيم، وفرع زنيم، ووجه لطيم، وقفاً كليم، وهلمّ جرّاً من عذاب أليم وصراط في الودّ غير مستقيم».

فهذه الرسالة تدل على أسلوب ابن منير وهو ليس من كُتّاب الإنشاء، إنما هو أديب ناثر شاعر يعمد إلى استخدام السجع الذي لا تطول عباراته، فيأتي به عذبا رقراقا. ونلمس الموسيقا الداخلية في العلاقة بين الصوت والمعنى. فقد لعبت الميم والنون دوراً في التعبير عن الجو النفسي الحزين الذي كان يعيشه ابن منير.

2. التهنئة

ومن الرسائل الإخوانية ما تبادله الأدباء فيما بينهم من التهاني، فتلقانا رسائل الشهاب محمود في كتابه الموسوم بـ «زهر الربيع في الترسل البديع»، وقد نقل

(1) العماد الكاتب، الخريدة، قسم شعراء الشام، 1/ 91.

القلقشندي كثيراً منها في «صبح الأعشى»، ونمثل لهذا النوع برسالة في التهنئة بعيد الأضحى، إذ يقول[1]:

«جعله الله أبرك الأعياد وأسعدها، وأيمن الأيام وأمجدها، وأجمل الأوقات وألذّها وأرغدها، ولا برح مسروراً مستبشراً، منصوراً على الأعداء مقتدرا، مسعوداً محموداً، مُعاناً بملائكة السماء معضوداً، مُهنّأ بالسعود الجديدة والجدود السعيدة، والقوة والناصر، والعمر الطويل الوافر... ألبسه الله من السعادة أجمل حُلّة، ومنحه من المكارم أحسن خَلّة».

ونلمس في هذه الرسالة عبارات المجاملة للمرسَل إليه، التي تنفر منها أذواقنا اليوم. ونلاحظ في هذه التهنئة استخدام السجع على طريقة أهل العصر، الذي يكسوه بمحسنات البديع، كالجناس المقلوب في قوله: «السعود الجديدة والجدود السعيدة».

3. الرسائل الوصفية

وتدور حول موضوعات متنوعة، كوصف المدن، أو الطبيعة، أو الطير كالديك والببغاء، أو الشمعة والسّراج ونقف مع ابن الوردي (-749هـ) في رسالته الموسومة بـ: «منطق الطير»، فنسمعه يصف الديك، بقوله[2]:

«فصاح الديك: ها أنا أُناديك، أنا قد أذّنت، فأقم الصلاة أنت، هذا أوان صفّ الأقدام، ووضع الجباه. ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله؟ كم أُوقظك! وبانقضاء الأوقات أعظك، فأشفق عليك بصياحي، وأرفرف عليك بجناحي. أُقسِّم لك الوظائف بلا حساب، وأعرف المواقيت بغير الاصطرلاب، أنهاكمْ عن معصية الله بخروج الوقت، فلا تعصوه، والله يُقدّر الليل والنهار، علم أن لن تُحصوه، فمن ادّعى حُسن الصُّحبة، فليؤثر كإيثاري، ولا يختصّ من رفاقه بحبه. كم منحتُ أهل الدار إخائي! ووليتهم ولائي، وهم يذبحون أبنائي، ويستحيون نسائي».

وأسلوب ابن الوردي واضح في هذه الرسالة لا بأسجاعه الجميلة ذات الجرس والإيقاع، بل أيضا بتوجّهها الديني التي تهدف إلى الوعظ والاعتبار، من خلال اقتباسه

(1) صبح الأعشى، 46/9.

(2) مطالع البدور، 67/1.

بعض الآيات الكريمة ونثرها. وفيها تشخيص لهذا الطائر، إذ جعله شخصاً ينطق ويعظ.

ومن جميل ما وقع في الوصف قول أبي الخصال في وصف «سراج»[1]:

«عذراً إليك – أعزّكُ الله – فإني حططت والنوم معازل، والعزّ منازل، والريح تلعب بالسراج، وتصول عليه صولة الحجّاج، وطوراً تُسدّده سنانا، وطوراً تحركه لساناً وآونة تطوي جنابه، وأخرى تنشره ذؤابة، وتُقيمه إبرة لهب، وتعطفه برة ذهب، أو حمة عقرب. وتقوّسه حاجب فتاة ذات غمزات، وتتسلّط على سليطه، وتُزيله عن خليطه، وتخلفه نجماً، وتمدّ رجماً، وتسلّ روحه من ذُباله، وتُعيده إلى حاله، وربما نصبته أذن جواد، ومسخته حدق جراد، ومشقته خافق برق بكفّ ودق، ولثم سناه قنديله، ولفت على أعطافه منديله، فلا حظّ منه للعين، ولا هداية في الطرس لليدين».

وأسلوب أبي الخصال واضح في هذه الرسالة بأسجاعه ذات الإيقاع الموسيقي، بل أيضا بما فيها من تشبيهات، تناسب هذا اللون من الرسائل.

وهناك ألوان أخرى من الرسائل الإخوانية التي تداولها الأدباء فيما بينهم، يستعرضون فيها قدراتهم العلمية والأدبية، أو يطلبون فيها الإجازة برواية ديوان أو كتاب من صاحبه، أو يُقدّمون بها هداياهم، أو يمدحون بها مدينة أو يذمونها، وما إلى ذلك.

(1) مطالع البدور، 1/ 88.

الفصل العاشر

السّرديات القصيرة (المقامات)

المقامات

المبحث الأول: عمر بن الوردي وأنموذج من مقاماته «المقامة الدمشقية»

المبحث الثاني: السيوطي وأنموذج من مقاماته «مقامة الرياحين»

الفصل العاشر
السّرديات القصيرة (المقامات)

المقامات

تمهيد

من الفنون التي عُرفت في العهد المملوكي فن المقامة، والمقامة نوع أدبي يشبه القصة القصيرة استحدثه بديع الزمان الهمذاني (-398هـ) في القرن الرابع الهجري. وقد اتخذ لمقاماته بطلا هو أبو الفتح الإسكندري، يظهر في شكل أديب متسول يحتال على الناس بعباراته المسجوعة كي يعطوه شيئا يسدّ حاجته، ويروي مغامراته وأخباره راوٍ واحد هو عيس بن هشام. وسار الحريري على هذا النهج فاتخذ أبا زيد السروجي بطلًا وبنى مقاماته على الرواية، فكان الحارث بن همّام يروي أحاديثه. ومن ثمّ استطاع أن يبلغ بهذا الفن شأوا بعيداً أوفى به على الغاية.

ويرى شوقي ضيف أنّ هذا الفن لم يُعرف في بلاد الشام ومصر لفترة طويلة امتدت حتى منتصف القرن السابع الهجري، لانشغال الناس بالحروب الصليبية والمغولية. فلما استقرّت الأحوال السياسية إبان العصر المملوكي أخذت تظهر نماذج من المقامات تقوم على المناظرات والمفاخرات.

فتلقانا مقامة في المفاخرة بين التوت والمشمش لتاج الدين الصّرخدي (-670هـ)، ومقامة في مصر والنيل والروضة لابن قُرناص (-672 هـ)، وتلقانا مقامة الشاب الظريف (-688 هـ) الموسومة بمقامات العشاق، وفيها يُصوّر شغفه باللهو والتنزه في الرياض ولقاءه فيها ذات مرة بعاشقين وكيف حاورهما حواراً طريفاً.

ويذكر صاحب فوات الوفيات مقامة للشهاب محمود (-725 هـ) تسمى مقامة العشاق، ولعمر بن الوردي(-749 هـ) عدة مقامات، منها مقامة في وصف حريق دمشق سمّاها «صفو الرحيق في وصف الحريق» وقد حاكاه فيها معاصره صلاح الدين

الصفدي (-764 هـ) سمّاها «رشف الرحيق في وصف الحريق». وتلقانا في أواخر عصر المماليك مقامات السيوطي (-911 هـ) وأشهرها «مقامة الرياحين». وسنتحدث بشيء من التفصيل عن اثنين من أصحاب المقامات، هما: ابن الوردي والسيوطي.

المبحث الأول
عمر بن الوردي وأنموذج من مقاماته «المقامة الدمشقية»

عمر بن الوردي (-749 هـ/)

في معرّة النعمان بلدة أبي العلاء، ولد زين الدين عمر بن المظفر بن علي المعري، المعروف بابن الوردي. ونشأ بها وتلقى علوم اللغة والأدب والفقه على شيوخ زمنه، وبخاصة قاضي حلب ومفتيها شرف الدين البارزي.

تولى بعض الأعمال الرسمية، فناب في الحكم في قضاء حلب، وولي قضاء منبج. ولم يلبث أن اعتزل هذا العمل لخلاف بينه وبين قاضي الشام ابن الزّملكاني. وانصرف إلى التدريس والتأليف، ينظم الشعر ويصوغ النثر.

له منظومات شعرية في الفقه واللغة، منها: «اللُّباب في الإعراب» و«ضوء الدُّرّة» و«البهجة الوردية في نظم الحلوى في الفتاوى» وغيرها. وله في الأدب «منطق الطير» و«مقامة في الطاعون» وخمس مقامات أخرى، نشرها في ديوانه على النحو التالي[1]:

1. المقامة الصوفية: حكاها على لسان رجل من أهل المعرّة، إذ يُجري حواراً مع عشرة من الصوفية، وينتقدهم على لسان هذا الرجل بقوله: «إن المتصوفة أصحاب أكل وشُرب ونوم، يروون الأقوال، ولا يُتبعون الأفعال، وافقوا أسلافهم ملبساً، وخالفوهم أنفساً»[2].
2. المقامة الأنطاكية: وقد بناها على الوصف، على لسان رجل من أهل المعرّة يزور أنطاكية فيصف محاسنها ومحاسن الطبيعة من حوله، ويحمد الله على استردادها من الفرنجة إلى المسلمين.
3. المقامة المنبجية: وقد بناها أيضا على الوصف، على لسان رجل معرّي يدخلها في بعض أسفاره، فيأسى لما أصاب مساجدها وأبنيتها من خراب على أيدي الفرنجة. ويُجري حواراً مع قاضٍ في المدرسة النورية في موضوعات أدبية.

---

(1) انظر ترجمته في: شذرات الذهب، 191/6؛ وفوات الوفيات، 229/2؛ والنجوم الزاهرة، 240/10.
(2) الديوان، ص133.

4. المقامة المشهدية: وبناها على نقد البدع والضلالات على لسان أمير يُحدّث هذا المعرّي، عن الاحتفالات والمواسم حول بعض الأضرحة وما يرى فيها من اللهو واختلاط النساء بالرجال كأعياد النصارى والمجوس.

5. المقامة الدمشقية المعروفة بـ:«**صفو الرحيق في وصف الحريق**»: وصف فيها حريق دمشق، ورواها عن شخص يدعى غيث بن سحاب عن ندى بن بحر، استهلّها بقوله:

«حدث غيث بن سحاب عن ندى بن بحر قال: بينما أنا ذات ليلة من سنة سبع مائة وأربعين، وقد أويت من دمشق ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[المؤمنون: 50]، وإذا بضجيج أهلها قد ملأ الآفاق، والنيران في أسافلها وأعاليها قد بلغت التخوم والطباق، فبادرت إلى الجامع الأموي لأمنه ويُمنه، فوجدت العالم كأنهم قطعة لحم في صحنه، وقد أُرسل على أحاسن دمشق ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ [الرحمن: 35]، وقربت النار من جامعها الخَضِر[1] حتى كاد يحصل منه الياس[2] وثارت النار لأخذ الثأر مشرقَةً في كَلَبها، وجاءت﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: 4] فتبت يدا أبي لهب[3].

حمراءُ ساطعةُ الذوائبِ في الدجى ترمي بكلِّ شرارةٍ كطرافِ

(1) الخضر: هو الرجل الذي علم موسى عليه السلام، كما ورد في سورة الكهف، ويقال: إنه كان معاصراً لإبراهيم عليه السلام، كما قيل غير ذلك، ويعدّه المتصوفة من كبار الأولياء وجعلوا له مقامات كثيرة. (دائرة المعارف الإسلامية المترجمة 347/8).

(2) الياس عليه السلام: نبي أرسله الله إلى أهل بعلبك فدعاهم إلى الإيمان وترك عبادة (بعل)، فكذبوه وأرادوا قتله، فهرب منهم واختفى حتى أهلك الله ملك بعلبك، فأتى إلى الملك الجديد ودعاه فآمن، ولقد ورد ذكره في القرآن الكريم، سورة الصافات 125. (البداية والنهاية 135/1).

(3) قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: 1]

فكم أحزاب[1] زمر[2] جاثية[3] كغاشية[4] ذلك الدخان[5]، وكم صاحب دار ﴿زُلْزِلَتِ﴾[الزلزلة: 1]، ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: 1] وقال قد أتى الحريق على مال هبة لم يكن فـ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ [الإنسان: 1].

فقيلَ تخلصُ نفسُ المرءِ سالمةً   وقيلَ تشركُ نفسُ المرءِ في العطبِ

ولما استولى الحريق من الدور على المجالس السامية، وترقى في الأسواق إلى الجنابات العالية، وصعَد من المنارة (الشرقية) إلى المقر الأشرف، ووصل منها إلى المقام الكريم فنكّر منه ما تعرَّف.

سمتْ نحوَهُ الأبصارُ حتى كأنَّهُ   بناريْهِ من هنّا وثمَّ صوالى

وكيف لا؟ وهي المنارة لهذا المعبد العظيم، والمقاسمة له في نحو الحسن فمنها الإعراب في النداء ومنه البناء في الترخيم، فتبادر إليها فتية قالوا: النار ولا العار، رزقهم الله الجنة﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: 175]، هذا وقد ذوى باللهب بنفسج الظلماء، وشب لينوفر[6] النار وقوى على الماء، فارتاع النائب بدمشق لهذه النائبة، ورأى قلوب الناس كأموالهم ذائبة، وتطيَّر بذلك من تكدر دولته فكان كما تطّير. وتضوَّر هنالك من تغير صولته فسبحان من لا يتغير، وصادم النار فغلبها وكيف لا و«تنكز»[7] تفسيره البحر، وقابل كبد جمرها بالقطر، وعَنقَ لظاها بالنحر، وكاثرها بالماء الذي بلغ من وجهين القلل، وسدَّ بمماليكه وأمرائه خلل هذا الأمر

---

(1) السورة رقم (33) في القرآن الكريم.

(2) السورة رقم (39) في القرآن الكريم.

(3) السورة رقم (45) في القرآن الكريم.

(4) السورة رقم (88) في القرآن الكريم.

(5) السورة رقم (44) في القرآن الكريم.

(6) (نيلوفر) وهو نوع من النبات له زهر أكثر الشعراء من وصفه.

(7) تنكز: (ت – 740 هـ) كان نائب الشام عظيم السطو شديد الغضب تمكن كثيراً حتى خشى منه السلطان الملك الناصر فأضمر هلاكه وقبض عليه، له في دمشق والقدس وغيرهما آثار حسنة وأوقاف. (تتمة المختصر 466/2).

الجلل، وأحكم بالماء الذي بلغ من وجهين إخمادها، واستأصل شأفتها بالردم وأبادها وأصبح أهل دمشق من حيارى ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: 2]، لا يكادون من الوجل يستثبتون اسمها، ولا يعرفون حد حانوت ولا دار ولا رسمها.

فحقَّ لمثلى أن يقولَ لمثلها فديناكَ (منْ ربع وإن زدتنا كربَا)
(وكيفَ عرفنا رسمَ مَنْ لم يدعْ لنا) فؤاداً لعرفانِ الرسوم ولا لُبَّا
كأنَّ نجومَ الليلِ خافَتْ مغارَهُ فمدَّت عليها مِنْ عجاجته حُجُبا

فلو رأيت درج الساعات خالية من دقائق الأرصاد، ودكك[1] الشهود تتلو ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: 14]، والدهشة مدهوشاً عنها، واللبادين ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: 5]، فلا إليها ولا منها.

ذكَرتْ جواهَرها بحرٌ النارِ بَرْدَ مغاصها
أصحابُها كحمائم ناحَتْ على أقفاصِها

والوراقين وقد انتظمت أوراقها في أغصان اللهب، وتطايرت الصحف كأنها فضة قد مسّها ذهب، قال: وما نفض الناس غبار هذا القادح، حتى وقع بالمدرسة الأمينية[2] حريق فادح، عيل عليه الصبر، وتمنوا قبله القبر.

ما كانَ أقربَ وقتاً كانَ بينهما كأنّهُ الوقتُ بينَ الوردِ والغَرَبِ

فقلت لمن يليني: وقد عدمتُ الاصطبار، (و) كنت أسمع أن دمشق جنة فإذا هي نار.

فأحفظَهُ هذا الكلامُ وغاظَهُ وأنشدني في صدِّهِ وازوراره
دمشقُ - كما كنتَ تَسْمعُ - جنةٌ أَلَمْ تَرَها محفوفةً بالمكارهِ

(1) دكة: بناء يسطح أعلاه للجلوس عليه.

(2) تقع خلف الجامع الأموي، بناها أمين الدولة كمشتكين بن عبد الله الطغتكى الأتابكى 541م (الأعلاق الخطيرة، قسم تاريخ مدينة دمشق 121-231).

تعليق

فهذا وصف رائع لحريق دمشق الذي أتى على كثير من أحيائها وأسواقها وعمائرها سنة 740 هـ. ويتحدّث ابن الوردي عن ضجيج أهل دمشق، وكيف أصبحوا حيارى، وكأنهم في مشهد من مشاهد يوم القيامة، تحولت فيه أحياؤهم إلى كتلة من اللهب.

وهو يكسو مقامته بألوان البديع من جناس وطباق فقد جانس بين «أمنه ويمنه» و«النائب والنائبة» و«نائبة وذائبة» و«اسمها ورسمها» و«لهب وذهب» و«القادح والفادح» و«الصبر والقبر» والطباق واضح في كلمتي «أسافلها وأعاليها» و«الجنة والنار» و«إليها ومنها» ونراه يتصنّع مصطلحات النحو مثل «الإعراب في النداء» و«البناء في الترخيم». ومن تتمة براعته الأدبية قدرته على تضمين الأشعار، وهو يأتي بها كثيراً ويضعها في مواضعها الملائمة، وكذلك يثبت قدرته على اقتباس الآيات والكلم القرآنية، وهو تارة يأتي بالآيات تامة، وتارة يأتي بكلم منها.

وأيا كان الأمر، فإن هذه المقامة تدور حول حدث مأساوي وقع في دمشق، وهو حريق دمشق، مما يدل على أن الأدب في هذا العصر يقدّم إلى المؤرخين وثائق تاريخية قد لا يجدونها في كتب التاريخ المعروفة.

المبحث الثاني
السيوطي وأنموذج من مقاماته «مقامة الرياحين»

جلال الدين السيوطي (-911 هـ/1505 م)

هو الإمام الحافظ أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر، عالم موسوعي، ولد في القاهرة سنة 849 هـ، وفيها تلقى العلم حتى تبحَّر فيه، إذ يقول: «ورزقت التبحر في سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو والمعاني، والبيان والبديع... ودون هذه السبعة في المعرفة: أصول الفقه والجدل والتصريف، ودونها الإنشاء والترسّل والفرائض»[1].

تولى مشيخة الخانقاه البيبرسية، إحدى أكبر زوايا المتصوفة بمصر، وقد ولاّه السلطان قايتباي عليها سنة 891 هـ، وظل يديريها حتى أُقصي عنها سنة 903هـ، وتعرّض لأذىً شديد. وقد أُهدر دمه إبان عهد السلطان طومان باي، ولم ينجُ إلا بعد مقتل هذا السلطان[2].

وإذ انتشر الطاعون والوباء في زمنه، فقد رُزئ بموت إخوته وأبنائه، فيحزن على موتهم، ويعدّ ذلك مُصاباً يصدع القلوب. ومما خفّف عنه هذا المصاب أنهم ماتوا في زمن ظهر فيه الفساد[3]. ثم رُزئ بموت زوجته «غصون» فقال يرثيها[4]:

يا من رآني بالهموم مُطوّقا   وظللتُ من فقدي غصوناً في شجون

تولّى عدة مناصب دينية وعلمية (أهمها التدريس)، ثم انصرف إلى التصنيف والتأليف. أدركته المنيّة سنة 911هـ في مدينة أسيوط، وإليها نُسب.

---

(1) السيوطي، حُسن المحاضرة، 1/ 338-339.

(2) انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، 338/2.

(3) السيوطي، شرح مقامات السيوطي، 972/2.

(4) السيوطي، شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، ص 114.

آثاره

للسيوطي تصانيف ومؤلفات تزيد على ثلاثمائة كتاب ورسالة، منها: كتاب «المزهر في علوم اللغة»، و«الإتقان في علوم القرآن»، و«تاريخ الخلفاء» و«حُسن المحاضرة»، و«تفسير الجلالين». وله ديوان شعر (من شعر الفقهاء)، ومجموعة مقامات محققة ومنشورة، تزيد على ثلاثين مقامة، تعد أفضل ما كُتب نثراً في وصف الطبيعة وورودها وأزاهيرها، وبخاصة المقامة الوردية أو الرّياحين. ومن مقاماته الأخرى المقامة التفاحيّة، والزمردية، والفستقية، والمسكيّة، والياقوتيّة، وتدور كلها حول المفاخرات والمقامة المكية تدور حول مسائل علمية، والمقامة الأسيوطية وتدور حول ألغاز نحوية. وله مقامة لم ينشرها المحقق هي مقامته في النساء تسمى «رشف الزّلال من السحر الحلال»، لما تنطوي عليه من صراحة، تسمى في الأدبيات المعاصرة «الأدب المكشوف».

والحديث عن السيوطي يسوقنا إلى الحديث عن أشهر مقاماته، وهي مقامة الرياحين.

جوّ المقامة

لهذه المقامة دلالة على العصر الذي عاش فيه السيوطي، فقد عاش في العقود الأخيرة من العصر المملوكي. والمماليك طبقة عسكرية حاكمة، كانت تهيمن على شؤون البلاد. وقد عرفوا بالشجاعة، وقدَّموا في أول عهدهم أعمالاً بطولية جعلت المسلمين ينظرون إليهم باحترام وتقدير، فقد خلّصوا البلاد من بقايا الصليبيين، وصدّوا عنها جحافل التتار القادمين من قلب آسيا. ولكنهم في أواخر عهدهم تخلوا عن كثير من تقاليدهم العسكرية وأعمالهم الإصلاحية، إذ انغمسوا في اللهو والفساد، وأذاقوا الناس الويلات من اعتداء على الأعراض والأرواح وفرض الضرائب الباهظة، وبلغ الاستبداد حدا بعيداً، فكان السلطان الناصر محمد يطوف بالقاهرة بعد العشاء، فإذا رأى أحداً يمشي في الشارع قطع أذنيه مع أنفه، وقد يُوسّطه «يضرب وسطه بالسيف»، وقد يضربه بالعصي، فقتل عدداً كبيراً من الأبرياء في وقت قصير، وإذا سمع بفتاة أو امرأة جميلة هاجمها في عُقر بيتها»[1].

---

(1) انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، 387/2.

وقد عاش السيوطي في هـذه الفـترة الـتي اشـتدت فيهـا الفـتن والاضـطرابات وانتشرت الأوبئة والطواعين، ناهيك عن المجاعات والاقتتال في أحياء المـدن وأزقتهـا، واشتد الصراع على السلطة عقب وفاة السلطان قايتباي سنة 901هـ/ 1495م.

ولقد كانت عساكر الرياحين رمزاً للتسلط والصراع على الإمرة والسيادة، وهي تمثل أمراء المماليك الذين أوصلوا البلاد إلى هـذه الحالـة الـسيئة، وعـاثوا فيهـا فـساداً وخراباً، ومن ثمّ بدأت دولتهم تنحدر نحو السقوط، حتـى تغلّـب الـسلطان العثمـاني على أمرهم سنة 923هـ/ 1516م.

مقامةُ الرّياحين

بسم الله الرحمن الرحيم

حدثنا الريانُ، عن أبي الريحان، عن أبي الوردِ أبان، عـن بُلْبـل الأغـصانِ، عـن نَاظرِ الإنسانِ، عن كَوكبِ البُسْتان، عن وَابلِ الهتانِ[1]، قال:

مَررتُ يومـاً علـى حَديقـةٍ، خَـضَرةٍ نـضرة أنيقـة، طُلولها وديقـةٌ، وأغـصانُها، وكوكُبها أبدى بَريقَهُ، ذات ألوانٍ وأفنان[2]، وأكمام وأكنان[3]، وإذا بها أزرارُ مُجتمعةٌ، وأنوارُ الأنوارِ مُلْتمِعةٌ، وعلى مَنَابر الأغـصان أكـابرُ الأزاهـرِ، والـصَّبا تـضربُ علـى رؤوسها من الأوراقِ الخُضرِ بالمزاهر، فقلتُ لبعضِ من عَبرَ:

ألا تَحدُّثوني ما الخبر؟

فقال:

إنَّ عساكَرِ الرياحين قـد حَـضرتْ، وأزاهِـرُ البـساتينِ قـد نظـرتْ لما نـضرتْ، واتفقت على عقد مَجلسٍ حَافلٍ؛ لاختيار من هـو بالُملـكِ أحـقُّ وكافـلُ، وهـا أكـابرُ الأزهارِ قد صعدت المنابرَ، ليُبدي كلّ حُجَّتهُ للناظر، ويُناظر من بـين أهـل المنـاظر، في أنّه أحقُّ أن يُلحظَ بالنواظِر، من بين سَائرِ الرياحين النواضِـر، وأولى بـأن يتـأمَّر علـى البوادي منها والحَواضِر، فجلستُ لأحضرَ فصلَ الخِطابِ واسمعَ إلى ما يـأتي بـه كـلٌّ من فُنونِ الحَديثِ المُستَطاب.

فهجم الوردُ بشوكته، ونجمَ من بينِ الرياحينِ مُعجباً بإشـراقِ صُـورتِهِ، وإفـراقِ صَولتِهِ وقال:

بسم الله المُعينِ، وبه نَستعينُ، أنا الوردُ مَلكُ الرّياحين، والواردُ مُنعشاً لـلأرواح، ومتاعاً لها إلى حين، ونديمُ الخُلفاءِ والسّلاطين، والمرفوعُ أبداً علـى الأسِـرَّة لا أجلـسَ على تُربٍ ولا طين، والظاهرُ لوني الأحمرُ على أزهار البـساتين، والأشـرفُ مـن كـلٍّ

---

(1) وابل: مطر شديد ضخم القطر. الهتّان: وهو انصباب الماء.

(2) أفنان: جمع فن وهو الضرب من الشيء، (اللسان: فنن).

(3) أكمام: براعم، أكنان: أغطية (اللسان: كمم، كنن).

كتابخانه تخصصی تاریخ اسلام و ایران ۱۳۷۴ تاسیس

ريحان فخراً؛ لأني خُلقت من عَرقِ المُصطفى وجبريلَ والبُراق ليلةَ الإسراء[1] والمظفرُ بقُوةِ الشوّكةِ والصّولةِ، والمنصُورُ على من ناوأني؛ لأني صاحب الدّولةِ، والعزيز عندَ الناس، والمودودُ بين الجُلاس للإيناسِ، والعادِلُ في المزاجِ، والصالحُ في العلاجِ، وأسكِنُ حرارةَ الصفراءِ، وأقويّ الباطنَ من الأعضاءِ.

وأُطيّبُ رائحةَ البدنِ، ومن شمّ مائي وبه غَثْي أو صُداعٌ حارٌّ سَكن وأقوّي المِعدَ، وأفتحُ من الكبدِ السُّدد[2]، وأنفعُ الأحشاء، وأقوّي الأعضاءَ، أنا ومائي ودُهني كيف شاءَ، وأبرّدُ أنواعَ اللهيبِ الكائنةِ في الرأس، وربّما أستخرجُها منها بالعُطاس.

وأُنبتُ اللحمَ في القُروح العميقةِ، وأقطعُ الثآليل[3] كلّها إذا استُعملتْ أزراري سحيقةً، وأنفعُ من القُلاعِ والقُروحِ، وأنا بعطريَّتي مُلائمٌ لجوهر الرُّوح، وشَمي نافعٌ من البُخارِ، مُسكنٌ للصُّداعِ الحارِّ، وبزري، نافعٌ للثّةِ الفم، وأقماعي تقطعُ الإسهالَ ونفثَ الدّمِ[4]، ومائي يُسكنُ عن المعدةِ حرّاً، وينفعُ من التهاب المِرَّةِ الصّفراء، وشَرابي يُطلق الطبيعةَ القويةَ، وينفعُ من الحُميات الصفراويةِ، وإذا شُربَ مائي بالسُّكر الطبرزَدِ[5] قطع العطشَ من المادة، ونفعَ أصحاب الحُمّى الحادةِ، وإذا ضُمدتِ العينُ بورقي الطَري نفعَ من أنصبابِ المواد.

ومطبوخي طرّياً ويابِساً ينفَعُ من الرّمد بالضّماد، ومطبوخٌ يابسي صالحُ لغلظِ الجفونِ، ومسحوقُه إذا ذُرَّ في فراش المجدور والمحصُوب من العُفونِ.

ومن تجرعَ من مائي يسيراً نفعَهُ من الغَشي والخَفَقان كثيراً، ودُهني شَديدُ النفع للخُراجاتِ، وفيه مآرب كثيرة لذوي الحاجاتِ.

---

(1) أورد ابن الجوزي في عن أنس، قال ﷺ:«الورد الأبيض خلق من عرقي ليلة المعراج، وخلق الورد الأحمر من عرق جبريل عليه السلام، وخلق من الورد الأصفر عرق البراق».

(2) السّدد: جمع سدّة وهي كل انسداد يكون في مجرى من مجاري البلدان.

(3) الثآليل: زيادة في الجسد، منها صلبة مركوزة تسمى المسامير، ومنها لينة متعلقة (مفيد العلوم للحشاء: 28).

(4) نفث الدم: خروجه (اللسان: نفث).

(5) الطبرزد: السكر الأبيض الصلب، فارسي محض.

وأنا مع ذلكَ جَلدٌ صبّارٌ أجري من الأقدارِ، إذا صُليتُ بالنارِ، وكَفى رفعةً على الأقرانِ، أن لفظي مَذكورٌ في القُرآنِ، في قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴾ [الرحمن: 37].

وقد حماني أميرُ المؤمنينَ المتوكلُ كما حَمى الشقائقَ النعمانُ وهذا تَقليدٌ[1] من الخِلافة بالمُلْكِ على سائر الريحانِ.

ولي من بينهم ابنٌ يخلفني في الحُكْم إذا غبتُ طُولَ الزمانِ، فلهذا رُفعَتْ من أغصاني الأشائرُ، ودُقَّتْ من دَاراتي[2] البشائرُ وأعلمت في المشاعِرُ، وقال فيَّ الشاعِرُ [الماهِرُ]:

للورد عندي محلٌّ ... لأنّهُ لا يُمَلُّ
كلُّ الرّياحين جُنْدٌ ... وهو الأميرُ الأجلُّ
إن جاءَ عَزُّوا وتاهُوا ... حتى إذا غَابَ ذلّوا

وقال الآخرُ:

مَليكُ الوردِ أقبلَ في جُيوشٍ ... من الأزهارِ في حُلَلٍ بهيّه
فوافتهُ الأزاهِرُ طَائعاتٍ ... لأنَّ الوردَ شوكتُهُ قويّه

فقامَ النرجس على ساقٍ، ورمى الوردَ منه بالأحداقِ، وقال:

لقد تجاوزتَ الحدّ يا وردُ، وزعمتَ أنكَ جمعٌ في فردٍ، إن اعتقدت أن لك بحمرتك فخرةً، فإنّها منكَ فجرةٌ، قال النبي ﷺ: «إن الشيطانَ يحبُّ الحُمرةَ فإيّاكم والحُمرَةَ، وكلَّ ثوبٍ ذي شُهرة».

---

(1) التقليد: هو ما يكتب من الخليفة أو السلطان لكفلاء الملك، كأكابر النواب والوزراء، ومن كان في معناهما، وقد يكون لأكابر القضاة، انظر: التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري: 1/ 115-117.

(2) الدارات: جمع دارة وهي المحلّة (اللسان: دور).

وإن قَلتَ: إنك النافعُ في العلاج، فكم لـكَ مِنهـاج الطـبِّ مـن هـاج؟ ألـستَ الضارَّ للمزكوم، المُعطّش للمحرورِ الدّماغِ عنـد المـشمومِ المـضعّف للباهِ، النـائمَ بـلا انتباه.

أتغترُّ بُبْردِكَ القشيبِ، وأنت الجالِبُ للمشيبِ؟! فاحفظْ بالصّمْتِ حُرمتكَ، وإلاّ أكسِرُ بقائمِ سيفي شوكتكَ، ويكفيكَ قولُ ابنِ الرّومي فيك:

يا مَادحَ الـوردِ لا ينفـكُّ مـن غَلطِـهْ   ألـستَ تنظـرُه في كـفِّ مُلتقطـهْ

كأنـهُ سُـرمُ بغـلٍ حـين سـكرجَهُ   عندَ الـبرازِ وبـاقي الـروثِ في وسـطه

وقاله بعضُهم وفيه غرابةٌ:

أقـولُ لَـهُ إذ شـكَى صُـفرةً   بطـرفٍ يـصولُ علـى الأنفـسِ

عُيونـك يـا نـاظِري نَـرجِسٌ   ولا عيـبَ في صُـفرة النـرجس]

ولكن أنا القائمُ للّه في الدياجي على ساقي، الساهِرُ طول الليـل في عبـادة ربّـي فلا تطرفُ أحداقي، وأنا مع ذلك المُعدُّ للحُروبِ، المدعو عنـد تَـزاحمِ الكُـروبِ، الا ترى وسطي لا يزالُ مُشدّداً، وسيفي لا يبرحُ مُجرداً.

وأنا فَريدُ الزّمانِ، في المحاسن والإحـسانِ، ولهـذا قـال فيّ كِسرى أنـو شـروان: «النَّرجسُ يَاقوتٌ أصفرُ، بينَ دُرّ أبيضَ على زُمرد أخضرَ».

وأنا المشبَّهُ بي عُيونُ الملاح، والمعروف في مهمات الأدْواء بالصّلاح، أنفـعُ غايـةَ النّفع من داءِ التّعلبِ والصرّعِ، وقد رُوي فيَّ حديثٌ – رواية غير مُقـلٍ ولا مُفْلـسٍ:- «شُموا النّرجسَ فإنَّ في القلب حبةً من الجُنون والجُـذام والـبرصِ لا يقطعُهـا إلاّ شـمُّ النّرجس»، وفي أصلي قوةٌ تلُحم الجَراحَات العظيمة، وتنفعُ ذَكَرَ العِنّينِ وتُجيد تقويمُه، وشمّي ينفعُ من وجع الرأسِ والزُّكام الباردِ، وفيّ تحليلٌ قويّ لِمن هو قاصـدٌ، ودُهـني نافعٌ لأوجاع العَصبِ والأرحامِ، وأوجاع المثانةِ والأذنِ والصّلب مـن الأورامِ، ولـولا اشتهاري بالنفعِ من الجَوى[1]، ما أكثر النُّحاةُ التمثيل بقولهم: «نَرجسِ الـدواءَ»، ومـن الدليل على صلاحي، أن أبا نُواسٍ غُفرَ له بأبياتٍ قالها في امتداحي:

---

(1) الجوى: الحرقة وشدّة الوجد من عشق أو حزن (اللسان: جوا).

تأمّــلْ في رِيــاض الأرضِ وانظُــرْ إلى آثــار مــا صَــنَعَ المليــكُ
عُيــونٌ مــن لُجــينٍ فــاخِراتٌ بأحــداقٍ كمــا الــذهبُ الــسبيّكُ
علــى قُــضبِ الزَّبرجــدِ شــاهِداتٌ بــأن الله لــيسَ لَــهُ شَــريكُ
[وإن همــا خــيرُ البرايــا إلى الــثقلينِ أرســلَهُ المليــكُ]

وقال الشاعر أيضاً:

عُيــون إذا عاينتهــا فكأنمــا مَــدامِعُها مــن فــوقِ أجفانِهــا دُرُّ
مَحَاجِرُهــا بِــيضٌ وأحــداقُها صُــفرٌ وأجــسامُها خُــضرٌ وأنفاسُــها عِطــرُ]

ولقد أحسنَ ابنُ الرُّومي حيثُ قال، مبيناً فَضلي [عليك] بكلّ حَال:

أيُهــا المحــتجُّ للــور دِ بِــزُورٍ ومُحــالِ
ذهــبَ النّــرجِسُ بالفــضـ ـلِ فأنــصفْ في المقــالِ
لا تُقــاسُ الأعــينُ النُّجــ ـلُ بأسْــرَامِ البغــالِ

فقام الياسَمينُ وقال:

آمنتُ بربِّ العالمينَ، لقد تجبّستَ يا جِبسُ، وأكثرُك رَجِسٌ نجسٌ، وأنت قَليلُ الحُرمةِ، واسمُك مَشمولٌ بالعُجْمَةِ، وكيفَ تطلَبُ المُلكَ وأنتَ بعدُ قائمٌ مشدودُ الوسطِ في الخدمةِ؟!

رأسكُ لا يزالُ وهو مَنكوسٌ، وأنتَ المُهيّجُ للقيءِ المُصدّعُ من المحرورينَ للرؤوسِ، تُسقطُ الجَنين، ولا ترث للحنين، أصفرُ من غيرِ علّةٍ، مكَسوٌّ أحقَر حُلّةٍ، ويكفيكَ قولُ بعضِ واصفيكَ:

أرى النرجِسَ الغضَّ الذكي مُشمّراً علــى ســاقِهِ في خِدمــةِ الــورد قَــائم
وقد ذلَّ حتى لفَّ من فوقِ رأسِهِ عَمــائمَ فيهــا لليهُــودِ عَلائــم

ولكن أنا زيَنُ الرّياض، والموسومُ في الوجه بالبياضِ، «والبياضُ شَطرُ الحُسنِ» كما ورد، وأنا ألطفُ ورد جاء ورد، وجاء ذكري في حديث فاحَ بنشره: «إنَّ قارئ

القُرآنِ يُؤتى بياسَمين الجنّة في قبرِهِ»، فحدثني «أصدق» من حديثكَ سنداً، ونشري[1] أعبقُ من نشرِكَ صباحاً وندى، فأنا أحقُّ بالمُلكِ مِنك منصُوراً ومُؤيّداً.

وأنا النافع من أمراض العَصبِ الباردة، والمُلطفُ للرطوبات الجامِدة، والصالحُ للمشايخ القَاعدة، أنفعُ من اللّقوة والشقيقة[2] والزُّكام، ومن وجع الرأس البلغَمي[3] والسّوداوي وأقطعُ نزف الأرحام، ودهُني نَافعٌ من الفَالجِ ووجعِ المفاصل، ويحُلّلُ الإعياءَ ويجلبُ العرقَ الفَاضِلَ.

يقولُ لي لِسانُ الحالِ: لستَ الهزيلَ مُقاماً يا سَمينُ، ويشهد [لي] لِسانُ الألثغِ بأنّي الدّرُّ الغالي إذا قال يا ثمينُ، [وقال بعضُ البُلغاءِ فيّ]:

أنا الياسَمينُ الذي لَطفتُ فنلتُ المُنى
فَريحي لِمنْ قدْ نأى وعيني إلى مَنْ دَنا
وقد شرفتْ حَضرَتِي بَصبري علَى مَنْ جَنى

فقام البَانُ[4]: وأبدى غايةَ الغضبِ وأبان، وقال:

لقد تَعديتَ يا ياسمينُ طورّك، وأبعدتَ في المدى غورَكَ، وكونُك أضعفَ الكَونِ، وكثرةُ شمّك تُصفّر اللّون، وإذا سُحِق اليابِسُ مِنكَ ورُضّ، وذُرَّ على الشعرِ الأسود ابيضَّ، وإذا قُسم اسمُك قسمينِ، صارَ ما بين يأس ومَينِ، وإن ذكرتَ نفعَكَ، فأنت كما قِيلَ لا تُساوي جمعَكَ، ولقد صدقَ القائِلُ من الأوائل:

لا مَرْحباً بالياسَمين وإن غَدا في الرّوضِ زَيْناً
صحّفتُه فوجدتُه مُتقا بلا يَأساً ومَيناً

(1) النّشر: الريح الطيبة (اللسان: نشر).

(2) الشقيقة: وجع يأخذ في الأذن ونصف الرأس والوجه من جانب (مفيد العلوم للحشاء:125).

(3) البلغمي: نسبة إلى البلغم، هو أحد أخلاط البدن الأربعة، والخلط: جسم رطب سائل متكون من الكيلوس في الكبد، انظر: (قاموس الأطباء للقوصوني 2:58،1:246).

(4) البان: شجر يسمو ويطول كالأثل في استواء، أوراقه هدب، وثمرته تشبه قرون اللوبياء، وفيها حب، إذا انتهى انفتق وانتشر منه حب أبيض، ومنه يستخرج دهن البان، انظر: (المعتمد لابن رسول: 17)، وسقطت من (هـ): «وأبان».

ولكن أنا ذو الاسمَيْنِ، والظاهِرُ من الأصل والفرع بالقسمين، والقريبُ من البَازِ، والمضروبُ بقَدي المثلُ في الاهتزاز: أزهاري عاليةٌ، وأدهاني غَاليةٌ، وقد أُلبستُ خلعةَ السَّنجابِ[1]، واتفق على فضلي الأنجابُ، أنفع بالشمِّ مَن مزاجُه حَارٌّ، وأرطّب دِماغَهُ وأسّكن صُداعَه الكائنَ من البُخار، ودُهني نافعٌ لموضع كلِّ وجع باردٍ، وتحتَ ذلكَ صُورٌ كثيرةُ الموارِدِ، من الرأس والأذنِ والضرسِ وفقارِ المفلوجِ والمخدورِ، والمعدة والكَبد والطحالِ وكلٌّ عَصب بالصّلابةِ مقصورٌ، ويكفي في وردي قولُ ابن الوردي:

تجادلنا: أمَاءُ الزّهر أذكَى ... أم الخِلاّفُ[2] أم وَرقُ القَطَافِ[3]

وعُقْبى ذلك الجَدلِ اصطلحنا ... وقدْ وقعَ الوِفاقُ على الخِلافِ

فقام النِّسرِيْنُ[4] بَيْنَ القائمينَ، مُنتصراً لأخيه اليَاسَمين، وقالَ:

أتتعدى يا بانُ على شَقيقي، وأين الفِرَى من المذهب الدّبيقي وكيف يُفاخِرُ البلورُ، من هو مشبَّهٌ بذِنبِ السِّنَّورِ ألم يّعرفكَ الحالُ قولَ من قالَ:

للّه بُستانٌ حَللنا دَوحَهُ ... في جَنّةٍ قد فُتّحتْ أبوابُها

والبّانُ تَحسبُهُ سَنانِيراً رأتْ ... بعضَ الكِلابِ فنفّشتْ أذنابها

ولكن أنا زينُ البستانِ، وفيَّ من الذهبِ والفضةِ لونانِ، أنفعُ من أورام الحَلقِ واللوزتين ووجع الأسنان، ومن برد العَصبِ والدويّ والطنين في الآذانِ، وأفتحُ ما

---

(1) السنجاب: حيوان على حد اليربوع، وشعره في غاية النعومة، انظر: (حياة الحيوان للدميري 1:575).

(2) الخلاف: نبت يشبه الصفصاف، ثمرته ذكية الرائحة، ناعمة المشم والملمس، انظر: (المعتمد لابن رسول: 134).

(3) القطاف: مفردها القطف ويسمى: السرمق، معرب عن الفارسية، وهو نبت كالرجلة إلاّ أنه يطول وورقه غض طري، انظر (تذكرة داود 260:1 الألفاظ الفارسية المعربة لشير: 90)، وفي (ط ق)، (ط م): «ورد»: «ورق» وهو تحريف.

(4) النّسرين: نبت يشبه شجر الورد ونوّاره، أكثر ما يكون مع الورد الأبيض، وهو قريب القوة من الياسمين، يسميه بعض الناس ورداً صينياً، انظر: (المعتمد لابن رسول: 522).

يُسدُّ به المنخران، وأقتلُ الديدانَ وأسكنُ القيءَ والفُواق[1]، وأقوّي القلبَ والدماغَ على الإطلاق وأحلل الرياح من الصدّر والرأسِ، وأُخرجُها منه بالعُطاسِ.

وينتفعُ بي أصحابُ المِرَّة السّوْداءِ غايةَ الانتفاع، والبريُ مني إذا لطُخ به الجبهةُ سكّن الصُّداعَ، وإذا تُدلّكَ في الحمامِ بما مني انسحقَ، طيّبَ رائحةَ البشرةِ والعَرقِ.

وإذا شُرِبَ من مجففي نصفُ مثقال، منَعَ إسراعَ الشيبِ على التوال، ودُهني يُحلل أوجاعَ الأرحام الكائنة برداً، وينفعُ من الشُّوصةِ[2] العارضةِ من سوءِ المزاجِ والبلغمِ والمِرَّة السوداءِ، ويكفيكَ من المعاني، قولُ من عَناني:

ما أحسنَ النسرينَ عِندي وما أملحَهُ مُذْ كان في عَيني
زَهرٌ إذا ما أنا صحّفتُهُ وجدتُهُ بُشرى ويسْرين

فقامَ البَنَفْسَجُ[3]: وقد التهبَ، ولاحت عليه زرقةُ الغَضبِ، وقال: أيها النِّسرين، لستَ عندنا من المعدودين، ولا في العلاج من المحمودينَ؛ المُبلغينَ، وأنت كثيرُ الإذاعةِ، فلستَ على حفظِ الأسرارِ بأمين، ويعجبُني ما قالهُ فيك بعضُ المتقدّمين، [رحمةُ الله تعالى عليهم أجمعين]:

ولم أنسَ قولَ الوردِ لا تركنوا إلى مُعاهدةِ النِّسرين فهو يَمينُ
ألا تنظروا منه بنَاناً مُخضَّباً «وليس لمُخضُوبِ البنانِ يَمينُ»

(1) الفُواق: حركة تشنجية من المعدة لدفع مؤذ محتقن في جرمها، أو جار على فمها لاذع، أو ليبس مفرط جامع مشنج (المختارات في الطب لابن هبل 362:3).

(2) الشوّصة: بفتح الشين وضمها، وهي ورم الحجاب الفاصل بين الصّدر والبطن وقد يسمى به ورم الجنب كله المسمى ذات الجنب (مفيد العلوم للحشاء 126).

(3) البنفسج: معرب عن بنفشه الفارسي، وهو نبات بستاني ويري، ورقه دون السفرجل، وزهره ربيعي، طيب الرائحة، انظر: (تذكرة داود 84:1).

ولكن أنا اللطيف الذاتِ، البديعُ الصّفات، المشبهُ بزرق اليَواقيت، وأعناقِ الفَواخيت[1]، ومزاجي رطبٌ بَاردُ، ومنافعي كثيرةُ الموارد أولّدُ دَماً في غاية الاعتدال، وأنفع الحار من الرّمدِ والسُّعال، وأسْكِنُ الصُّداع الصّفراوي والدموي لمن شمّ أو ضمدَ، وألينُ الصدرَ وأنفعُ من التهابِ المعدِ، وأنفعُ من ورمِ العين ومن كلِّ ورمٍ حارٌ، ومن نُتو المقعدةِ إذا تُضمّد بي على التكرار، وشرابي لذاتِ الجنب[2] والرئة والكُلى، وللسّعَالِ والشّوصة ويدرُّ البولَ محللاً، ويابسي يستعملُ للصفراء فيسهلُ غايةَ الإسهالِ، والمربّى مني بالسُّكّر يُليّنُ الحلقَ والبطنَ وينفع [من] السُّعال، وورقي طلاءٌ جيدٌ للجربِ الصّفراوي والدّموي، وزهري ينفعُ من النزلاتِ الصدريةِ والزُّكامِ القوي، وإذا شُربَ بالماء نفعَ من أمِّ الصبيّانِ وهو الخُناق، أو سفّه من به إطلاقٌ صفراوي لذاعٌ أحدر بقيةَ الخلطِ وقطعَ الإطلاقَ، وكَفاني شَرفاً بينَ الإخوانِ، ما رُوي عن سيدِ ولدِ عدنانَ: أن دُهني سيّدُ الأدهان[3].

باردُ في الصيفِ حارٌّ في الشتاءِ فهو صالحٌ في كلِّ الأزمان، وذلك لأنهُ يُسكن القلق، وينوِّمُ أصحاب الأرقِ، وينفعُ مع المُصْطَكى[4] من الورمِ الصّفراوي بين أصابع الإنسانِ، ويجذبُ الصُداعَ من الرّأسِ إذا دُهنَ به الرجلان، ويُليّنُ صلابةَ المفاصلِ والعصبِ، وهو طلاءٌ جيدٌ للجربِ، ويُعدّلُ الحرارةَ التي لم تتعدّل، ويُسهِّلُ حركةَ المفاصلِ فتتسهلّ، وينفعُ سعُوطاً من الصُّداع الحارِّ، ويحفظُ طلاءً صحة الإظفار، وينفعُ من الحرارةِ والحُرقةِ التي تكون في الجسد، ويصلحُ من الشعر المنتثر دُهناً ما فسدَ، وإذا

---

(1) الفواخيت: جمع الفاختة وهي ضرب من الحمام المطوّق (اللسان: فخت).

(2) ذات الجنب: ورم في الجنب من داخل في نواحي الحجاب، يكون في جوانبه اللحمية، وهي الشوصة (مفيد العلوم للحشاء: 50)، وفي (ن1)، (ل2): «في» بدل: «و».

(3) يشير إلى قوله ﷺ: «إن البنفسج على سائر الأدهان، كفضل الإسلام على سائر الأديان» (الجامع الكبير للسيوطي 249:1)، وانظر: «المعجم الكبير للطبراني 141:3؛ الموضوعات لابن الجوزي 64:3).

(4) المصطكى: معرب عن مصطيخا اليوناني، يسمى: الكنة والعلك الرومي، والمراد بهذا الاسم عند الإطلاق الصمغ (تذكرة داود 299:1)، وانظر: (مفيد العلوم للحشاء: 85)، وفي (ن1).

قطر في الإحليل سكَّنَ حرقتهُ وحرقةَ المثانةِ، وينفعُ من يُبسِ الخياشيم فجلّ الخالِقُ الباري سبحانهُ.

وإذا تُحسّي منه في الحمام وزنُ درهمين، نفعَ من ضيقِ النّفس على الرّيق بلا مَينٍ، وإذا حُلَّ فيه شَمْعٌ مقطورٌ أبيضُ ودهنَ به صُدورُ الأطفال، نفعهم منفعةً قويةً من السُّعال، [روى ابنُ أبي حاتم وغيرُهُ عن الإمام الشافعي، صاحب المَذْهب المُذْهب، أنه قال: «لم أرَ للوباءِ أنفعَ من البنفسجِ يُدهَن به ويشربُ».

ومنافعي لا تُحصى، وما أودعَهُ خالِقي فيّ لا يُستقصى، وبي تُعطَّرُ الجيوبُ، ويشبهُ عِذّارُ المحبوبِ، وأنا مع ذلك حَسنُ الفَالِ، بديعُ الجمالِ، من رآني آذن بالانشراحِ، وتفاءَلَ بالانفساحِ، أما سمعت قول من باحَ وصَاحَ:

يا مُهدياً لي بَنفسجاً أرجاً ... يَرتاحُ صَدري له وينشرح
بشّرني عَاجلاً مُصحّفُهُ ... بأنَّ ضيقَ الأمور ينفسحُ

وقال الشاعر الآخر:

بنفسجُ ماسَ في أغصانِهِ فَحَكى ... زُرقَ الفُصُوصِ على بيضِ القَراطِيسِ
كأنَّهُ وُهبوبُ الرِّيحِ تَجْمَعُهُ ... بينَ الحدائقِ أذنابُ الطَواويسِ]

فقام النَّيْلُوفَر(1) على سَاقٍ، وحشدَ الجيوشَ وسَاقَ، وأنشدَ بعدَ إطراق:

بَنفسجُ الرّوضِ تَاه عُجباً ... وقالَ طيبي للجو ضَمّخ
فأقبلَ الزهرُ في احتفالٍ ... والبانُ من غيظِهِ تَنفّخ

ثم قال:

أيُها البنفسجُ بأي شيء تَدّعي الإمارةَ، وتُطاوعُ نفسَك والنفسُ أمّارةٌ؟ وأكثرُ ما عندك أنك تُشبّه بالعذارِ وبالنارِ في الكبريت، وحاصلُ هذين [الشيئين] يرجعُ إلى أشنع

---

(1) النيلوفر: ضرب من الرياحين، ينبت في المياه الراكدة، له أصل كالجزر وساق أملس يطول بحسب عمق الماء، فإذا ساوى سطحه أورق وأزهر، فارسي معرب، انظر: (تذكرة داود: 1:333؛ الألفاظ الفارسية لشير: 155).

صيتٍ، وما من نفع ذَكَرْتَهُ عنكَ إلاّ وأنا أفعلُ مثلَه وأكثرَ، وأنا أحرى بسلامةِ العاقبةِ منكَ وأجدرُ.

من شَربَ اليابسَ منكَ ولّدُهُ قبَضاً على القلب، وربا في معدته وأمعائه وأحدثَ له الكَرَبَ، وانحلالُكَ يطفئُ المادةَ، لا سيّما لمن به حُمّى حادةٌ، ومُربّاك يُسقطُ الشّهوةَ، ويُرخي المعدةَ عن القوّة، وقد كفانا الوردُ مؤونة الرّدِّ عليكَ، وحذّرنا من القُربِ منك، والإصغاء إليك فقال:

أعلـــيّ يفتخـــرُ البَنَفْـــسجُ جَـــاهِلاً ... وإلـــيَّ يُعـــزَى كـــلُّ فـــضلٍ يُبْهِـــرُ
وأنـــا المُحبَّـــبُ للقُلُـــوبِ زَمانُـــهُ ... وبمقـــدمي أهـــلُ المـــسرّةِ يفخـــرُ

وقال الحاكي، عن الوردِ الباكي:

عَاينـــتُ وردَ الـــرّوضِ يَلطـــمُ خَـــدّهُ ... ويقـــولُ وهـــو علـــى البَنَفْـــسجِ مُحْنَـــقُ
لا تقرَبـــوهُ وإن تـــضوّعَ نَـــشرُهُ ... مـــا بيـــنكُم فهـــو العـــدوّ الأزرقُ

ولكن أنا اللطيفُ الغوّاصُ، الكثيرُ الخواصِّ، أسكّنُ الصُّداعَ الحارَّ، وأذهبُ بالأرقِ والإسهارِ، وشرابي شَديدُ الإطفاءِ، بعيدٌ عن الاستحالة إلى الصّفراء، صَالحٌ لأصحاب الحُمياتِ الحادة، نافعٌ من السُّعالِ والشُّوصةِ ويُبسِ المادّةِ، ويُشربُ للاحتلامِ لمن أراد إسكانه.

وبزري وأصلي نافعان لوجعِ المثانةِ، وأنا أشدُّ من البنفسجِ ترطيباً، وأبعدُ عن ضررهِ بالمعدةَ وأدنى إليها طيباً، وما أحسن ما قالَ فيَّ بعضُ واصفيّ:

يَرتـــاحُ للنَّيلَـــوْفرِ القَلـــبُ الـــذي ... لا يـــستفيقُ مـــن الغـــرام وَجَهـــدِهِ
والـــوردُ أصـــبحَ في الـــروائحِ عبـــدَهُ ... والنَّـــرجِسُ المـــسكيُّ خَـــادم عبـــدِهِ
يـــا حـــسنهُ في بركـــةٍ قـــد أصـــبحتْ ... محـــشُوّةً مـــسكاً يُـــشابُ بنـــدِّهِ

ومني صنفٌ يقال له «البُشْنينُ»[1] يُشابُهني في التكوين لا في التلوين يحدثُ عند إطباقِ النيّل، ولَهُ في مَنَافعِ الطبِّ// تنويلٌ دُهْنُهُ [نافعٌ] محمودٌ في البِرْسَامِ، إذا تسعط به ذوو الأسقام، وأصلُهُ البَيَارونُ يزيدُ في الباهِ الكثير، ويسخنُ المعدةَ ويقوّيها ويقطعُ الزَّحيرَ[2]، وقد أنشدَ فيه، من أرادَ أن يوصّلَه حقَّهُ ويوفيه [في التشبيه]:

وبركــةٍ بغــدير المــاءِ قــد طَفَحــتْ بهـا عُيـونٌ مـن البُـشْنِينِ قـد فُتِحـتْ

كأنهــا وهــي تَزهــو في جوانبهــا مثـلُ الـسماءِ وفيهـا أنجـمٌ سـبَحتْ

فقام الآس – وقد استعدَّ – وقال:

لقد تجاوزتَ يا نيلوفُر الحدَّ، ألستَ المضعّفَ للبَاهِ، الجالبَ للإنسانِ صفةَ الشّيخوخةِ في صباه؟ تُرخى الذكر وتجمُّدُ المنيّ، وتنغصُ على المتزوجين عيشَهُم الهني، ولقد عرفَك من قالَ حينَ وصفكَ:

ونَيْلــوفَرٍ أبــدى لنــا بَاطنــاً لَــهُ مـع الظّـاهرِ المُخـضر حُمـرة عَنْـدَم

فــشبهته لمــا قَــصدتُ هِجــاءَهُ بكاسـاتِ حَجّـامٍ بهـا لَوثـةُ الـدّمِ

ولكن أنا أحقُّ بالمُلك [مِنْكَ] بالُحجة المبنية، فقد أخرجَ ابن أبي حاتم وابن السّني عن ابن عباس [رضي الله عنهما]: «أولُ شيءٍ غَرسَ نوحٌ [عليه السلام] الآسَ حينَ خرجَ من السفينة» وهذه حُجةٌ على الاستحقاقِ قويةٌ، لأن للأوليةِ نوعاً من الأولوية، ثم يَعتضدُ هذا القياسُ، بما أخرجَه ابنُ السنيّ وأبو نُعيم عن ابن عباسٍ [رضي الله عنهما]، قال «أهبط آدم من الجنة بسيّدة ريحانِ الدُّنيا الآسِ»، وهذا نصٌ في المُرادِ قاطعٌ للالتباس.

(1) البُشْنين: يدعى بمصر عرائس النيل، لأنه ينبت فيما يخلفه النيل من الماء عند رجوعه، ويقوم على ساق تطول بحسب عمق الماء، وزهره إلى البياض يظهر في الشمس، ويخفى إذا غابت، وأصله نحو السّلجم لكنه أصغر يسميه المصريون بيارون (تذكرة داود 76:1).

(2) الزحير والزّحار: إخراج النفس بشدة وأنين عند الكدّ والتعب، ونقل ذلك لجميع أجزاء البطن استعانة بها على دفع ما يدفع منه وعصره لأجل ما يتبع ذلك من شدة النفس والأنين، وتسميه العامة العصار، والتزحر، تكلف ذلك (مفيد العلوم للحشاء: 57).

وأنا المقوي للأبدان، الحابسُ للإسهال والعرقِ وكلِّ سيلان، المنشفُ من الرطوباتِ المانعُ من الصُّنان، المسكنُ للأورامِ والحمرةِ والشَّري والصُّداعِ والسعُّالِ والخفقانِ، إذا دّقَّ وَرقي الغضُّ وضُرِبَ بالخلِّ ووُضع على الرأسِ قَطعَ الرِّعافَ، وحبِّي يقطعُ العطشَ والقيءِ وينفعُ إذا تدخّنت به المرأةُ من الإنزاف، ورمادي يدخلُ في أدوية الظَّفَرةِ ودُهني لحرق النارِ وشقاقِ المقعدةِ والبترةِ وليس في الأشربة ما يعقلُ وينفعُ السُّعالَ والرئةَ غير شرابي، وإذا أُتخذَ من قُضباني حَلقةٌ وأدخل فيها الخنصرُ سكنت ورم الأرابي وأنا الباقي على طولِ الزمانِ، و[قد] قال فيَّ بعض الأعيانِ [شعراً].

الآسُ سيدُ أنواعِ الرّياحين في كلِّ وقتٍ وحينٍ في البّساتين
يَبقى على الدهرِ لا تُبلى نَضارتُهُ من المصيف ولا مِن بَردِ كانونِ

وقال آخر:

للآسِ فَضْلُ بَقائِه ووفائِهِ ودوامُ منظرِهِ على الأوقاتِ
قامتْ على أغصانِهِ ورَقائُهُ كنصُولِ نَبْلٍ جئن مؤتلفاتِ

فقام الريحانُ، وقال:

يا آسُ، لأجرحنَّك جُرحاً ما له من آسٍ، ألم يردْ فيكَ من طرقِ الأئمةِ الأعلامِ، عن النبي عليه أفضل الصلاة والسلام: أنه نهى عن التخلّل بكَ والاستياكِ؛ لأنَّكَ تَسقي وتُحرك عروقَ الجُذامِ.

قال الشاعر:

إذا قَالَتْ حَذَامِ فَصدِّقُوها فإنَّ القَولَ ما قَالَتْ حَذامِ

وأنا الوارد فيّك «بالمرْزَنْجوش[1] فشموه فإنه جيدٌ للخُشام[2] والمؤذنُ لأصحاب الأرقِ بالنيام، والنافعُ من الماليخُوليا[3] واللّقوةِ وسيلانِ اللُّعابِ وبردِ الأحشاءِ، ومن عُسر البولِ والمغصِ وابتداءِ الاستسقاءِ، ومن الأوجاعِ العارضةِ من البرد والرطوبةِ وأُجففُ رطوبةَ المعدة والأمعاء، وأُحللُ النفخَ وأفتح السُّدَدَ. وأدرُّ الطمثَ وأنفعُ من لسعةِ العقربِ لمن بالخلّ ضُمّد، ودُهني لما يعرضُ في الرحمِ من الاختناقِ والانضمامِ والانقلابِ، ويدخلُ في ضمادات الفالجِ الذي يعرضُ فيه ميلُ الرقبة إلى خلف وفي تشنج الأعصاب، وتسكينِ وجع الظهر والأربيّةِ[4] ويخرجُ المشيمةَ وناهيك بها تبرئةً.

ومع هذا فأنا المنوهُ باسمي في القرآنِ، وفي قوله تعالى﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ [الواقعة: 89]، وإن كانَ الجنسُ في الآيةِ هو المرادَ فقد قصر هذا الاسم عليَّ في العُرف قصرَ إفرادٍ، وقد ورد في الصحيحين عن سيد بن كنانةَ: «مَثَلُ الفاجِرِ الذي يقرأ القرآنَ كمثلِ الريحانة» وحسبكَ مني في التشبيهِ، قولُ من قال [هذا الشعر] على البديه:

أما ترى الرّيحان أهدى لنا ... حَماحِماً[5] منه فأحيانا
تحسبُهُ في طلّه والنَّدى ... زُمرداً يحملُ مرْجَاناً

فعطف عليه الآسُ، وقالَ: يا ريحانُ أتريدُ أن تسودَ، وأنت مشبهٌ بهاماتِ العبيدِ السودِ، ألم يُغنكَ عن مقصورِي، قولُ الشهابِ المنصوري:

أهلاً وسهلاً برياحيننا ... كأنّها هَاماتُ تَكْرُوري

(1) المرزنجوش: ويقال: مردقوش، وهو فارسي، واسمه السمسق بالعربية والعبقر أيضاً، وهو نبات كثير الأغصان، ينبسط على الأرض في نباته، وله ورق مستدير، عليه زغب، وهو طيب الرائحة (المعتمد لابن رسول: 488).

(2) الخُشام: داء يأخذ في الأنف وسدّة (اللسان: خشم)، وفي (الطب النبوي لابن قيم الجوزية: 309): «الخشام: الزكام».

(3) الماليخوليا: فساد الفكر وسوء الظنون وميل إلى الخوف من غير مخيف (مفيد العلوم للحشاء: 73).

(4) الأربية: ما بين أعلى الفخد وأسفل البطن (اللسان: ربا).

(5) الحماحم: جنس من الريحان (نزهة الأنام للبدري: 156).

وقول الآخر:

وريحـــانٍ تمـــيسُ بـــه غُـــصونٌ   يطيـــبُ بـــشمّهِ لـــثمُ الكـــؤوسِ
كـــسُودانٍ لبـــسْنَ ثِيـــابَ خـــزٍّ   وقـــد قَـــاموا مَكَاشِـــيفَ الـــرّؤوسِ

قال الراوي:

فلما أبدى كلٌّ ما لديه، وقال وردَّ عليه، اتفقَ رأي الناظرينَ، وأهل الحلِّ والعَقدِ من الحاضرين، على أن يجعلوا بينهم حَكَماً عادِلاً، يكونُ لقطع النـزاعِ بيـنهم فاصِـلاً، فقصدوا رجلاً عالماً بالأصولِ والفروعِ، حافظاً للآثارِ الموقوف منهـا والمرفـوع، عارفـاً بالأنسابِ، مميّزاً بين الأسمـاء والألقـابِ والأتبـاع والأصـحابِ، مَديـدَ البـاع، بـسيط اليدين في معرفة الخلافِ والإجماعِ، خبيراً بمباحث الجدل واستخراج مـسالك العلـل، متبحراً في علوم اللغةِ والإعراب، مـضطلعاً بعلـوم البلاغـة والخطـاب، محيطـاً بفنـون البديع، حافظاً للشواهدِ الشعريةِ التي هي أبهى من زهرِ الربيعِ، سـديدَ الرّميـة، شـديدَ الإصابة إذا فوّق لفني الشعر والكتابة، الشعر والنظم صَوغْ بيانه، والنثر والإنشاءُ طوعُ بنانهِ، والتاريخُ الذي هو فضيلةُ غيرهِ فضلةُ ديوانهِ[1]، فلّما مَثُلـوا بـين يديـه، ووقعـتْ عينهم عليه، قالوا: يا فريدَ الأرض، يا عـالَم البـسيطةُ مـا بـينَ طولهـا والعـرض، إنـا أخصامُ بَغى بعضُنا على بعضٍ، فانظرْ في حالنا ليكون ذلك ذخيرةً لك يـومَ العـرضِ، واحكم بيننا بالحقِّ، واقضِ لأيّنا بالملك أحق.

فقال:

أيّها الأزهار إني لستُ كالذي تحاكم إليه العنـبُ والرطـبُ، ولا الـذي تقاضـي إليه المشمشُ والتوتُ ولا التينُ والعنب، إني لا أقبـلُ الرُّشـا، ولا أطـوي علـى الغـل الحَشا، ولا أميلُ مع صاحبِ رشوة، ولا أسـتحلُّ مـن مـال المـسلمين حـسوةً[2]، إنمـا أحكمُ بما ثبت في السُّنةِ، ولا أسلكُ إلاّ طريقـاً موصـلاً للجنـة، فقـصُّوا علـى الخـبرَ، لأعرف من فجرَ منكم و[من] بَرَّ.

---

(1) تجدر الإشارة هنا إلى أن السيوطي يعرضُ بشمس الدين السخاوي.

(2) الحسوة: ملء الفم (اللسان: حسا).

فلما قصَّ عليه كلٌّ قولَه، وأبدى هَينهُ وهَولَهُ، قال ليس أحد منكم مستحقاً عندي للملك، ولا صالحاً للانخراط في هذا السلك، ولكن الملك الأكبر، والسيد الأبرّ، وصاحب المنبر، ذو الشر الأعطر، والقدر الأخطر، السيّد الأيّد، الصالح الجيد، من شاع فَضلُه وانتشر، وكان أحبَّ الرّياحين إلى سيّد البشر، واشتملَ على ما في الرّياحين من الحُسنى وزيادة، وحكم له النبي ﷺ بالسيّادة، وشَهدَ له بها وناهيك منه بالشهادة، فقالوا: أيها الإمامُ أوضح لنا هذا الكلام، وارو لنا ما ورد عن النبي عليه [الصلاة و] السلام، ولنبلغ من إتباعه غايةَ المرام، وينقطع [عنا] الملامُ، فقال: روى الطبراني والبيهقيُّ وابن السُّني وأبو نعيم وغيرهم بالأسانيدِ العالية، من حديث بُريدة عن النبي ﷺ صلاةٌ متتالية، أنه قال: «سيدُ الرّياحين في الدُّنيا والآخرة الفاغيةُ» وروى الطبرانيُّ من حديث [عبد الله] بن عمرَ مرفوعاً: «سيدُ ريحان أهل الجنة الفاغيةُ» وكفى// بذلك سطوعاً، وروى البيهقي في «شُعب الإيمان» عن أنسٍ بن مالك، [رضي الله عنه] قال: «كان أحب الرّياحينِ إلى رسولُ الله ﷺ الفاغية» وناهيك بذلك.

هذا، وفيه منافعُ للمُعالج من أوجاع العصب والتمدّد والفالج، ومن الصُّداع وأوجاعِ الجنبِ والطحال، وإذا جُعلَ في ثياب الصّوفِ، منعَ السوسَ من فسادِها بكلِّ حال، ودهنه يلين العصب، ويحلل الإعياءَ والنصبَ، ويوافق الخناق وكسر العظام والشوصة وأوجاع الأرحام، وما يعرض في الأربية من حار الأورام، ويقوي الشعور ويزينها، ويكسبها حمرةً وطيباً ويحسنها، وحناؤه المسحوق ينفع من الأورام الحارة والبلغَم ويفتح أفواه العروق وينفعُ القروح والقُلاع ومواضعَ حَرقِ النارِ، ومن شرب ماءَ نقعت فيه حسن ما نقص منه في الأظفارِ، ونفعُهُ من ابتداءِ الجُذامِ بالإيمان.

وإذا خُضب بها رجل مجدَورِ حَصَلَ لها منه الأمانُ، وإذا ضمدَ بها الجبهةَ والصُّدْغَ انصباب الموادّ إلى العينِ، وإذا شُربَ بزرهُا بمثقالٍ من العَسل نفَعَ الدّماغ بلا رينٍ.

وقد رَوى التّرمذيُّ وأبو نُعيمٍ عن سَلمى[1] [رضي الله عنها] قالت:

«ما كان برسـولِ الله ﷺ قَرحـةٌ ولا نَكبـةٌ إلاّ أمرنـي أن أضـعَ/ عليهـا الحنّـآء»، وروى البزّار وابنُ السُّنيِّ وأبو نعيمٍ عن أبي هُريرةَ [ﷺ] قال:

«كان رسول الله ﷺ إذا نَزَلَ عليه الوحي صُدعَ فيغلـف رأسَـهُ بالحِنـاءِ»، ورَوى البزار حديثَ: «اختضبوا بالحنَّاءِ فإنّه يزيدُ في شبابكم ونكاحِكُم» يعني الوقـاعَ، وروى ابنُ السُّني حديث: «عليكم بسيدِ الخِضَابِ الحنـاء يطيـبُ البـشرةَ ويزيـد في الجمـاع»، والأحاديث في الحّثِّ على صبغِ الـشعر بـه كـثيرةٌ، وعلـى خـضابِ أيـدي الـنساءِ بـه شهيرةٌ، وأنا القائلُ فيه، لأوصّلهُ حقَّهُ وأوفيّه:

كأنمـــا دَوحَـــةُ الحِنـــاءِ إذ فُتحـــت أنوارُهـــا وبـــدتْ في عَـــينِ مُرتقـــبِ
عَـــروسُ حُـــسنٍ تجلّـــت في غلائِلـــها خُـضرا وقـد حُلّيـت بـاللؤلؤ الرطـبِ

قال:

فلما سمعت الرّياحينُ هذه الأحاديث [في فضلِهِ] أطرقـوا رؤوسَـهم خاشـعينَ، وظلت أعناقُهم لها خاضِعينَ، ودخلُوا تحتَ أمره سامعينَ طـائعينَ، ومـدّوا أيـديهم لـه مُبايعينَ بالإمرةِ ومتابعينَ، وقالوا:

لقد كنّا قبلُ في غفلةٍ عن هذا إنّا كنّا ظالمين، وتواصوا على إشاعةِ مـا فـضَّله الله [تعـالى] بـه، وقـالوا: ﴿وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾ [المائـدة: 106]، ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: 75]. تمت هـذه المقامـةُ في ثالـثِ شعبان المكرم سنة 967.

بناء المقامة

تتألف مقامة الرياحين من ثلاثة أجزاء متلاحقة يتوالد واحدهما من سابقه:

1. **مقدمة:** تتضمن مرور الراوي على الحديقة التي اجتمعت فيها الأزهار والرياحين، فيسأل عابر سبيل عن خبر هذا الاجتماع وخبر المجتمعين، فيرد عليه بـأن عـساكر

(1) هي سلمى أم رافع، خادم النبي ﷺ، انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر 295:3.

الرياحين قد عقدت هذا الاجتماع لبحث. مسألة الحكم، لمن يكون؟ ومن هو صاحب الحق فيه؟ ومن ثم اعتلى أكابر الأزهار المنابر، ليدلي كل واحد، بحجته التي تؤهله لتولّي السلطة.

2. **عرض:** تتسلسل فيه الأحداث، وتؤدي الشخصيات أدوارها، بدءاً من ظهور الورد بصورة درامية على مسرح الأحداث، فظهور النرجس المتحفز للقتال، ومروراً ببقية القوى المتصارعة، وانتهاء بالآس والريحان. وكل واحد من هؤلاء يُدلي بحجته ليثبت حقه في الحُكم، فيظهر محاسنه، ويغضّ من غيره.

3. **خاتمة المقامة:** وهي هنا مزدوجة، واحدة تتضمن الحل، وهو حرمان أمراء الرياحين من الحكم، وتولي الفاغية (نور الحناء) الملك، والثانية تتضمن تسويغ هذا الحكم، بأنه يستند إلى السُّنَّة النبوية الشريفة.

الشخصيات وملامحها

في مقامة الرياحين شخصيات عدّة، هي:

1. **الراوي:** لا يكتفي السيوطي براوٍ واحد على نحو ما دأب عليه أصحاب المقامات، وإنما يروي على طريقة رواة الأحاديث النبوية الشريفة، وهي سلسلة السند، إذ يقول: «حدّثنا الرّيّان، عن أبي الريحان، عن أبي الورد أبان، عن بلبل الأغصان، عن ناظر الإنسان، عن كواكب البستان، عن وابل الهتّان»؛ وهي سلسلة تتناسب مع عالم الطبيعة الذي استمدّ منه شخصيات المقامة ومكانها وزمانها. والراوي لا يشارك في الأحداث وإنما يكتفي بروايتها.

2. **الأزهار والرياحين:** وهي الورد، والنرجس، والياسمين، والبان، والنسرين، والبنفسج، والنيلوفر، والآس، والرّيحان. وترمز إلى أمراء المماليك الذين ينتمون إلى أصول متعددة، من تركية وشركسية وكردية.

أ. **الورد:** ويرمز إلى السلطان المملوكي، إذ أصبح يجلس على سرير الملك، برعاية الخليفة العباسي، وينادم الخلفاء والسلاطين. فكان أول المتحدثين، ونراه يتباهى بمحاسنه، وأنه ظاهر على الأزهار، ومنتصر منها بقوة الشوكة والصولة، ويُدلّ عليها بفوائده الطبية.

ب. **النرجس**: ويرمز إلى الشخصية الثانية التي تنازع السلطان على الملك؛ فهو يتلو الورد في مكانته؛ وتبدو عليه سيماء الغضب، والاستعداد للقتال، فينهض على ساق، ويرد عليه مفاخراً بمحاسنه، وغاضّاً منه، مستخدماً أسلوب الجدل فهو إن افتخر بحمرة لونه، فهذا مما نهى عنه النبي ﷺ؛ ذلك أن الشيطانُ يحب هذه الحمرة وهو أكثر منه فائدة، ثم لا يلبث أن يُهدّده ويتوعّده ويهزأ به، ويتباهى عليه بالتقوى والصلاح والبطولة، وبأنه فريد في محاسنه تُشبّه به العيون الجميلة، مُدلّلاً على ذلك بأبيات ابن الرومي في المفاضلة بين النرجس والورد. وتجدر الإشارة إلى أن ابن الرومي خلع عليهما بُعداً مذهبياً، وكان يؤثر النرجس على الورد.

ج. **الياسمين**: ويرد على النرجس محاولاً أن يغضّ منه، فينكر عليه تبختره، ويُعيّره بأصله الأعجمي، وهذه نزعة جاهلية، ثم ينكر عليه طموحه إلى السلطة، بوصفه حديث عهد في الخدمة، ويصمه بالذّل والانكسار، رابطاً بين صفرته وعمائم اليهود الصفراء، وكأنه يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[البقرة:61].

وتمضي المناظرة بين سائر الأزهار، فيبدو البان مستضعفاً، إذ ينتصر النسرين لأخيه الياسمين ويهاجم البان، ولكنه بدوره يتعرض لهجوم البنفسج وفي ذلك دلالة على احتدام الصراع بين هذه القوى، إذ يقوم النيلوفر بحشد جيوشه للقتال، وأخيراً يتأجّج الصراع بين الآس والريحان، وكأنه صراع عرقي يقوم على اختلاف الألوان.

الحل:

ويأتي الحل على يدي عالم بالأصول والفروع، يحكم بينهم بالعدل. فبعد أن يُدلي كل واحد بأقواله، بين يديه، يصدر الحكم التالي:

«ليس أحد منكم مستحقا عندي للملك»؛ وهذا حكم يتعلق بأمور السيادة والسلطان، يُجرّد أمراء المماليك من سلطاتهم. أما الريحان (الفاغية) فهو المستحق للملك، وهذا حكم يصدر لصالح هذا النوع من الريحان، استنادا إلى أحاديث النبي ﷺ التي تُؤثره على غيره:

- «سيد الرياحين في الدنيا والآخرة الفاغية».
- «سيد ريحان أهل الجنة الفاغية».
- «كان أحبّ الرياحين إلى رسول الله ﷺ الفاغية».

وإذ سمعت الرياحين هذه الأحاديث الصحيحة «دخلوا تحت أمره سامعين طائعين، ومدّوا أيديهم له مُبايعين بالإمرة ومُتابعين، وقالوا: لقد كنا قبل في غفلة عن هذا إنا كنا ظالمين، وتواصلوا على إشاعة ما فضّله الله تعالى به»

خصائص وسمات

1. ابتكر السيوطي هذه المقامة في إطار التقاليد الأدبية السائدة في عصره، إذ أصبحت المقامة تقوم على الوصف أو المناظرة، ولم تعد تعمد إلى الكدية على نحو ما كانت عليه عند الهمذاني والحريري.
2. كتب مقامته بلغة موسقة (إيقاعية)، تقوم على السجع المصنوع. وألوان البديع من جناس وطباق، واعتمد كثيرا على الاستعارات والتشبيهات، فقد شخّص هذه الأزهار والرياحين بحيث أصبحت تنطق وتعقل، بوصفها ترمز إلى أمراء المماليك.
3. يعمد إلى اقتباس الآيات الكريمة، في مواضع من مقامته، فالورد يتباهى على أقرانه بأن لفظه مذكور في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴾ [الرحمن: 37] وكذلك الريحان المنوه باسمه في قوله تعالى: ﴿ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ ﴾ [الواقعة: 89]: وهو تارة يأتي بالآيات تامة وتارة، يأتي بكلم منها، ونراه يُنهي مقامته بقوله تعالى: ﴿ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر: 75].
4. يعمد كثيرا إلى تضمين الأحاديث النبوية الشريفة، إذ تتوالى في الجزء الأخير من المقامة، حين يُصدر الحكم رأيه في قضية النزاع بين أمراء الرياحين.

ومن تتمة براعته الأدبية قدرته على تضمين الأشعار وهو يأتي بها كثيراً ويضعها في مواضعها الملائمة، في معرض مفاخرة أو هجاء، أو مفاضلة، أو دحض حُجج

وإثبات رأي. وهو تارة ينسب هذه الأشعار إلى أصحابها، ويأتي بها دون نسبة تارة أخرى، وقد يأتي بأبيات مجهولة النسب حيناً، أو مُختلف في نسبتها، حيناً آخر.

5. تتميّز مقامة الرياحين بوحدة المكان والزمان، فالأحداث تدور في مكان واحد هو تلك الحديقة التي يُمعن في وصف جمالها، إذ يقول: «حديقة وريقة، وكوكبها أبدى بريقه، ذات ألوان وأفنان، وأكمام وأكنان، وإذا بها أزرار الأزهار مجتمعة، وأنوار الأنوار ملتمعة، وعلى منابر الأغصان أكابر الأزاهر».

ولا تتجاوز الأحداث مقدار يوم واحد، وهو يُحدد الزمان بقدر ما يُشير إليه، إذ يقول: «والصبًّا تضرب على رؤوسها من الأوراق الخضر بالمزاهر»، وغالبا ما تهبُّ الصَّبا وقت الصباح، وآية ذلك قول ابن الرومي: «هَبّت سُحيراً فناجى الغصن صاحبه».

وللمقامة دلالة على العصر الذي كتبت فيه وهو أواخر العصر المملوكي وقد أخذت الأحوال السياسية والاقتصادية تسوء وتتدهور.

6. تنطوي هذه المقامة على روح فكاهية ساخرة، من الورد الذي يبدو في صورة قبيحة شوهاء، وهي صورة خلعها عليه النرجس، في حين يخلع الورد على النرجس صفة الذل؛ متمثلاً لونه الأصفر بعمائم اليهود الصفراء، وما يجمع بينهما من ذلّ وانكسار ضُربتَ عليهما وتجدر الإشارة إلى أن سلاطين المماليك أصدروا مراسيم بخصوص أهل الذمة، منها ما يتعلّق بلون العمائم، فعمائم النصارى الأقباط زرقاء، وعمائم اليهود صفراء، وعمائم السامريين حمراء[1]. وكذلك شهادة الألثغ للياسمين إذ يخاطبه بقوله «يا ثمين»، مما ينمّ عن السخرية بالمماليك الذين لا يحسنون نطق العربية. ومن المشهد الختامي، حيث يمثل أمراء الرياحين أمام الحَكَم، ويسمعون الأحاديث وقد أطرقوا رؤوسهم خاشعين، وذلّت أعناقهم لها، خلافاً لما كانوا عليه من تباهٍ بمحاسنهم وقوّتهم.

(1) انظر: بدائع الزهور، 1/ 143.

7. ليس في المقامة عقدة بالمعنى المعروف، بل نجد الأحداث يتلو بعضها بعضا، من خلال ظهور الشخصيات، فالورد يهجم بشوكته ويؤدي دوره المنوط به، ثم يظهر النرجس المتحفّز للقتال، فيقوم على ساق، ويرمي الورد بالأحداق، ويُظهر محاسنه ويكشف عن مساوئ خصمه، ولا يلبث أن يظهر الياسمين وهكذا حتى نصل إلى الريحان الذي يتوقف عنده الصراع. ليبدأ حل الصراع الشديد بين الأمراء.
8. يُعد الحوار عنصراً بارزاً في المقامة، وهو حيوي فيها وقد دار بين الأزهار والرياحين، مما أضفى طابعا مسرحيا عليها.
9. تتصف أحداث هذه المقامة بالنزعة التصاعدية، والنمو، فالسيوطي يدفعها إلى الأمام، فهو يُفاجئنا بهجوم الورد الذي يعتدُّ بشوكته وقوته، ويزهو بجماله وبفوائده الطيبة، ثم ينبري له النرجس، وينقض عليه محاسنه، ويفخر عليه بأمور يرضى عنها الرأي العام، وهكذا حتى تبلغ الأحداث. نهايتها والأحداث حسنة التوقيع، فالسيوطي يدفع بها حفاظا على سيرها بشكل طبيعي، وتشويقا للقارئ بمتابعتها.
10. حشد السيوطي في هذه المقامة مفردات لغوية تتصل بالحياة العسكرية للمماليك مثل: عساكر الرياحين، وقوة الشوكة والصولة، وجَلْد صبّار، وقام على ساق، ومبايعين بالإمرة، وحشد الجيوش وساق، والأمثلة في ذلك كثيرة. وبالمواصفات والفوائد الطبية، التي يسرف في ذكرها، وكأنه خبير أعشاب طبية، يصف لكل داء دواء، وهي وصفات ترد على لسان كل أمير من عساكر الرياحين، وتدل على وسائل التداوي في زمن المؤلف.

ولاشك في أن السيوطي أراد أن يضع حدا لهذا الصراع، فنراه يقول على لسان الراوي: «اتفق رأي الناظرين، وأهل الحل والعقد على أن يجعلوا بينهم حكما عادلا، يكون لقطع النزاع بينهم فاصلا». وهنا تبلغ الأحداث ذروتها، مما يتطلّب الحل.

لا نجد في مقامة الرياحين شخصية محورية، وإنما نجد عدة شخصيات تمثل أمراء المماليك وقد احتدم الصراع بينها على السلطة، غير أن هذا الصراع «ينتهي بطريقة

سلمية قائمة على المحاورة والإقناع، ودرء المفاسد الناجمة عن خلافتهم»[1] ومن هنا فقد أنهى السيوطي مقامته وقد «مدّوا أيديهم له مبايعين بالإمرة ومتابعين، وقالوا: لقد كنا في غفلة عن هذا إنا كنا ظالمين»[2].

وقد نجح في الربط بين هذه الرياحين المتعدّدة الألوان، وبين المماليك الذين ينتمون إلى أصول متعددة، فمنهم: التركي والمغولي والكردي والجركسي واليوناني والألباني والحبشي والتكروري وغيرهم من الأجناس. إلا أن هذه الرياحين التي تمثل رموزاً لأمراء المماليك، هي بمنزلة دُمىً صنعها السيوطي بخياله، وأخذ يتدّخل فيها بآرائه السياسية في مواقفها ومشاعرها.

ولعل موقفه من المماليك يشبه موقف المتنبي من الأعاجم الذين استولوا على الحكم في زمنه، فدعا إلى إعادة الملك العربي إلى صفائه وصحته بقوله[3]:

وإنما الناسُ بالملوكِ وما تُفلحُ عُرْبٌ ملوكُها عَجَمُ

ولئن كان المتنبي يدعو إلى التغيير من منطلق العروبة، فإن السيوطي يدعو إليه من منطلق إسلامي، فكان يتمنى أن تعود الخلافة العباسية إلى عهودها الزاهرة، وقد كان ينظر بأسى وحرقة إلى الخليفة العباسي في العهد المملوكي، الذي أصبح فيه دُمية بأيدي المماليك، لا حوْل له ولا طول. وهم لم يُحيوا الخلافة العباسية في مصر إلا ليستمدوا منها شرعية سلطتهم ويُدعّموا بها حكمهم.

وأيًّا كان الأمر، فقد أكدّ السيوطي أهمية هذه الخلافة التي علتْ فيها السُّنّة، وعفتْ فيها البدعة، وصارت محل سَكن العلماء ومحط الرجال الفضلاء[4].

(1) سمير الدروبي، الرمز في مقامات السيوطي، ص 98.

(2) السيوطي، شرح مقامات السيوطي، 1/ 477-478.

(3) ديوان المتنبي، 179/3.

(4) حُسن المحاضرة، 65/2.

الفصل الحادي عشر

السرديات القصيرة (ألوان أخرى)

المبحث الأول: الحكايات والمنامات

المبحث الثاني: كتب السيّر والقصص الشعبية

المبحث الثالث: كتب النوادر

الفصل الحادي عشر
السرديات القصيرة (ألوان أخرى)

المبحث الأول
الحكايات والمنامات

ظهرت الحكايات والأخبار منذ العهد الأيوبي ويغلب عليها طابع الذكريات والجانب الوعظي الأخلاقي، ومن أشهر كتب الحكايات كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ، وقد سجّل فيه بعض الحكايات التي هي أشبه بمذكرات محارب قديم، فقد تحدّث عن نشأته في حصن شيزر وهو موطن آبائه، وما وقع له إبان عهد الصّبا والشباب. ووصف المواقع الحربية بين المسلمين والفرنجة، وقد شارك في كثيرٍ منها، فكان شاهداً عليها.

ونراه يصف الحياة في مصر قُبيل سقوط الدولة الفاطمية، وكانت تربطه صداقة وثيقة بالوزير الفاطمي طلائع بن رُزّيك، حين استقرّ بمصر آنذاك. ومن ثمّ أخذ يروي ما كان فيها من مؤامرات وخصومات بين الدول. وتحدّث فيه عن الحروب التي خاضها في عهد عماد الدين زنكي وابنه نور الدين، ووصف معيشة الفرنجة بديار الشام، وكانت تربطهم بالمسلمين إبان أوقات الهدنة علاقات الجار بجاره، وكان ينزل بينهم في بعض الأوقات، فيصفهم بأنهم «بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير»[1] وبذلك صوّرهم متأخرين حضاريا عن المسلمين، وجرّدهم من الغيرة والشرف على نسائهم ونراه يتحدّث عن تخلفهم في الطب تخلفاً شديداً، فيقصّ هذه النادرة[2]:

(1) أسامة بن منقذ، كتاب الاعتبار، ص169.

(2) م.ن، ص17 و171.

«ومن عجيب طبهم أنّ صاحب المنيطرة (في أعالي الشام) كتب إلى عمّي أمير شَيْزَر يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه، فأرسل إليهم طبيباً نصرانياً يُقال له ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد، فقلنا له: ما أسرع ما داويتَ المرضى! قال: أحضروا عندي فارساً قد طلعتْ في رجله دُمَّلة، وامرأة قد لحقها نشاف فعملت للفارس لُبيخة، ففتحتْ الدُّمَّلة وصلحتْ. وحميتُ المرأة ورّطبت مزاجها. فجاءهم طبيب إفرنجيٌّ فقال لهم: هذا ما يعرف شيء[1] فكيف يداويهما؟ وقال للفارس: أيُّما أحبّ إليك؟ تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة، فقال أحضروا لي فارسا قويّا وفأساً قاطعاً، فحضر الناس والفأس، وأنا حاضر، فحطّ ساقه على قرمة (قطعة) خشب، وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة، اقطعها، فضربه وأنا أراه ضربة واحدة، فما انقطعت، وضربه ضربة ثانية، فسال مخّ الساق، ومات من ساعته. وأبصر المرأة، فقال: هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشقها، احلقوا شعرها، فحلقوه. وعادت تأكل من مأكلها: الثوم والخردل، فزاد بها النشاف، فقال: الشيطان قد دخل في رأسها، فأخذ الموسى، وشقَّ رأسها صليباً، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكّه بالملح فماتت في وقتها، فقلت لهم: أبقيَ لكم إليّ حاجة؟ قالوا: لا، فجئت وقد تعلّمتُ من طبّهم ما لم أعرفه».

ولعلّ هذه الحكاية تدل على ما بلغه الفرنجة من تخلف علمي وجهل بأصول الطب والمداواة؛ مما جعل هذا الطبيب المسلم يسخر ويهزأ بهم.

ويمضي أسامة في ذكرياته التي يسردها وفق تيار الوعي، فيتحدث عن ذكرى من الكهولة فذكرى من الشباب، وذكرى من الشيخوخة، مما يدل على أنه سجل هذه الذكريات وقد بلغ من العمر عتيّا، إذ عاش طويلاً نحو مائة عام من سنة 488 هـ إلى سنة، 584 هـ، متنقلاً بين دمشق والقاهرة والموصل.

أما المنامات فتحاكي الصورة العامة لفن المقامة، إلا أنها ترتبط بما يراه النائم في منامه، إذ يُحقق هدفه من خلالها. وقد برع في هذا اللون ابن محرز الوهراني

(1) عاميّة.

(-575هـ)؛ وهو أديب أندلسي ارتحل إلى بلاد الشام إبان حكم السلطان نور الدين والسلطان صلاح الدين[1].

وذكر الأقدمون أنه سار على خُطا أبي العلاء في رسالة الغفران. وخلاصة هذا المنام أنه «تخيّل في حلمه يوم نُفخ في الصور، فقامت القيامة، ونادى فيه المنادي ليوم العرض أمام الله، وجاء دوره فقام من جدثه (قبره)، واتجه نحو هول يوم المحشر، فرأى الناس هناك، واستطاع أن يتعرّف إلى كثير ممّن عاصرهم أو لقيهم في الحياة الدنيا، أو ماتوا قبله، فأظهر سخريته منهم، وتحدَّث عمّا يُحاسبون عليه في هذا المحشر العظيم»[2].

وقد حفلت أعماله بالسخرية والنقد الاجتماعي اللاذع، ومنها رقعة كتبها باسم مساجد دمشق؛ لتُرفع إلى مسجد بني أمية الجامع.

(1) انظر: صلاح الدين المنجد، الوهراني ورقعته عن مساجد دمشق، مجلة المجمع العلمي العربي، المجلّد الأربعون، 243/1.

(2) انظر: عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، ص 833.

المبحث الثاني
كتب السيّر والقصص الشعبية

وقد أخذت كتب السيّر تظهر منذ أيام الفاطميين، ومنها ما يدور حول الأنبياء والرسل، أشهرها ما كُتب في السيرة النبوية، ومنها ما يدور حول الأبطال وتمثلت في سيرة عنترة[1].

وتلقانا في العصر المملوكي السيرة الهلالية[2]، التي كُتبت بالعامّية، في القرن السابع الهجري أو بعده في القرن الثامن. وهي تقوم على أساس تاريخي، هو هجرة بني هلال والقبائل القيسية إلى المغرب واستيلائهم على بعض مدنه. ثم امتزجت فيها الحقيقة بالخيال، فأسندت البطولة إلى أبي زيد الهلالي، وسُمّي خصمه الزناتي خليفة. وتقع أحداثها في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وفيها يتوجه أبو زيد الهلالي وأبناء أخته يحيى ومرعي ويونس إلى بلاد المغرب، وفي تونس يُلقى بهم في غياهب السجون، ويتمكن أبو زيد من الفرار من السجن، ويستنفر القبيلة لتخليص أبنائها الثلاثة.

المرحلة الثانية: وتسمى التغريبة، إذ يهاجر بنو هلال إلى تونس، بمساعدة سُعدى ابنة الزناتي خليفة، ويستولي الحسن بن سرحان على القيروان، ودياب على تونس، وأبو زيد على الأندلس، ويمتد نفوذهم إلى المغرب.

المرحلة الثالثة: وشخصياتها من الجيل الثاني، إذ يجمع زيدان بن أبي زيد الهلالي العرب من الشام والحجاز ويلتقي بهم في صعيد مصر، ويتوجّه بهم إلى تونس، ويحاصر أميرها دياب بن غانم ثم يأتيه المدد من هلالية الأندلس، فيفتحون المدينة ويقتلون الأمير دياب. ثم يتنازل الهلالية عنها لابن الزناتي خليفة، ويتآمّر على الهلالية ابن الحسن بن سرحان، ويعود زيدان الهلالي إلى صعيد مصر، كما يعود الهلالية الذين قدموا من الأندلس إليها[3].

---

(1) انظر: دائرة المعارف الإسلامية (عنترة).

(2) م.ن

(3) انظر: شوقي ضيف، أدب الدول والإمارات (قسم مصر)، ص 484-486.

وتلقانا في هذا العهد سيرة الظاهر بيبرس[1]، بطل معركة عين جالوت سنة 658هـ، الذي ألحق هزيمة بالتتار، وتتبّع فلولهم حتى اتجهوا إلى شمالي العراق. وإذ استولى على الحكم بعد التخلص من مولاه قطز، فقد استدعى الخليفة العباسي الذي نجا من المذبحة، وبايعه بالخلافة، وأصبح حامياً لها، وبذلك أعاد ثقة الناس به، وجعل القاهرة مقرا للخلافة العباسية وتبعه في ذلك سلاطين المماليك إلى أن استولى السلطان سليم العثماني على مصر، فأخذه إلى القسطنطينية. وفضلا عن ذلك فقد ألحق بالصليبيين ضربات قاصمة، واستولى على كثير من قلاعهم وحصونهم، ودان له الحشاشون داخل الشام بالطاعة.

كُتبت هذه السيرة في القرن السابع الهجري أو بعده بقرنين، وشارك في كتابتها أربعة رواة هم ابن الديناري، وكاتم السر، والصاحب والدويداري وهو الأمين الخاص للسلطان.

وقد اختلطت فيها الحقائق التاريخية بالخيال والأساطير والأعمال الخارقة. وهو ما تتسم به الملاحم الشعبية التي تحفل بهذه الخوارق.

وتلقانا أيضا سيرة سيف بن ذي يزن[2] وهو بطل من سلالة ملوك حمير اليمنين، وتصوّر الصراع بين العرب والأحباش قُبيل الإسلام. وكيف طردهم من اليمن بعد أن سيطروا عليها. وتقع في سبعة عشرة جزءاً. وهي مملوءة بالأساطير.

وقد وُضعت في هذا العصر بعض حكايات ألف ليلة وليلة، وهي ذات أصول متعددة فارسية وعربية، وقد كتبت في عصور متباعدة «لتكون غذاءً للجماعات الشعبية ومحركاً لخيالها، ومُسلّياً لها في مجالسها»[3] ومن الحكايات المصرية التي أُضيفت إليها حكاية أبي قير وحكاية أبي صير، والمصباح العجيب، وحكاية مريم الزنارية، وحكاية الصعيدي وزوجته الإفرنجية.

(1) انظر: دائرة المعارف الإسلامية (بيبرس).

(2) انظر: م.ن، (سيف بن ذي يزن).

(3) جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص 471.

المبحث الثالث

كتب النوادر

وتلقانا في هذا العصر كتب النوادر، ويُقصد بالنوادر أحد أمرين «فهي تارة يراد بها الأقاصيص القصيرة التي تُروّح عن النفس أو التي يُقصد بها إلى غرض خُلُقي نبيل، وتارة يراد بها أقاصيص فكهة قصيرة سخرية بحاكم أو معلم أو قاص أو بخيل»[1].

ومن أشهرها «كتاب القاقوش في حكم قراقوش، لابن مماتي (-604هـ). وقد كتبه بالعامّية، ونسب ما فيه من النوادر إلى قراقوش التركي أحد أعوان صلاح الدين الأيوبي، إذ أنابه عنه مدة بالديار المصرية وفوّض أمورها إليه، وهو منصب رفيع، وقام ببعض الأعمال العمرانية، سخّر فيها المصريين، ومنها بناء السور المحيط بالقاهرة والقلعة والقناطر الواقعة في طريق الأهرام، وقد عاملهم بشدّة وقسوة، وكانت فيه غفلة وشيء من الحمق. ومن هذا المنطلق ألصق به ابن مماتي طائفة من النوادر بحيث أصبح حكمه مضرب المثل في الظلم وهو ليس كذلك - فقيل: «حكم ولا حكم قراقوش».

وقد سجل ابن خلكان ترجمة قراقوش في وفياته ودافع عنه إذ يقول: «في الكتاب أشياء يبعد وقوع مثلها فيه، والظاهر أنها موضوعة؛ فإن صلاح الدين كان معتمداً في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوّضها إليه»[2].

---

(1) شوقي ضيف، أدب الدول المتتابعة والإمارات (مصر)، ص477.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 91/4 وما بعدها.

الفصل الثاني عشر

أدب الرحلات

المبحث الأول: ابن جبير وأنموذج من رحلته

المبحث الثاني: ابن بطوطة وأنموذج من رحلته

الفصل الثاني عشر

أدب الرحلات

عرفت عهود الدول المتتابعة فنا نثريا جديدا هو أدب الرحلات، طوال ثلاثة قرون تمتد من أواخر القرن الخامس الهجري حتى أواسط القرن الثامن الهجري. وقد امتازت هذه العهود بوفرة المصنفات في التاريخ وعلم البلدان والرحلات وكتب التراجم، فيلقانا ابن خلكان صاحب «وفيات الأعيان» والقزويني صاحب «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات».

أما أدب الرحلات فقد عرف عند رجال الأسفار الذين زاروا حواضر العالم الإسلامي وسجلوا انطباعاتهم ومشاهداتهم في رحلاتهم، بلغة سهلة تنأى بنفسها عن الصنعة اللفظية التي اتسم بها ذلك العصر، ويكاد بعضها يقترب أحياناً من اللغة المحكية. وقد اشتهر في هذا الأدب ثلاثة رحالين هم:

1. ناصر خسرو صاحب كتاب «سفر نامة» وقد زار بلاد الشام ومصر إبان العهد الفاطمي.
2. ابن جبير الذي خرج من الأندلس باتجاه دول المشرق العربي الإسلامي، حاجّاً وسائحا، ودُونت رحلاته في الكتاب الموسوم بـ «اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك».
3. ابن بطوطة الذي خرج من المغرب إلى الشرق حاجاً وعُرفت رحلته باسم «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار».

وسنقف عند اثنين منهم، هما ابن جبير وابن بطوطة.

المبحث الأول
ابن جبير وأنموذج من رحلته (-614 هـ)

هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جُبير الكناني الأندلسي، ولد ببلنسية سنة 539 هـ، وقيل سنة 540 هـ. وعني به والده، فدرس العلوم الدينية والشرعية، وتفتحت موهبته الشعرية، فأخذ يقرض الشعر، فيمدح الموحّدين، ويهجو الفلاسفة ويذم الفلسفة؛ لخصومة كانت بينه وبين ابن طفيل الفيلسوف الأندلسي المعروف، فضلاً عن أن عصره شهد انقلاب الموحدين على الفلاسفة. ورثى زوجته أم المجد عانكة بنت الوزير أبي جعفر الوقشي، وخصّها بديوان سمّاه «نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح»[1]، ومن أسف أنه ضاع. وقد وصلنا بعض أشعاره الأخرى، وتدور حول أغراض تقليدية، وهي ذات مستوى متوسط.

وُصف ابن جبير بأنه كان فاضلا، يميل إلى الزهد، ويخلد إلى التصوف. وقد اشتغل بالكتابة حيناً، وبالتدريس حينا آخر. وتوفي في الإسكندرية، إبّان رحلته الثالثة إلى المشرق سنة 614 هـ أو السنة التي بعدها.

وذكر حاجي خليفة مؤلفاته التالية:

1. رحلة ابن جبير الكناني.
2. نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح.
3. نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان.

قام ابن جبير برحلات ثلاث، زار خلالها حواضر العالم الإسلامي، مُنطلقاً من الأندلس. وقد سجلّ فيها انطباعاته ومشاهداته فيها، وذلك على النحو التالي:

الرحلة الأولى: وهي الموسومة بـ: «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار»، وهي المعروفة برحلة ابن جبير، وقد شرع فيها سنة 578هـ، وانتهت سنة 581 هـ وكان

(1) انظر: كشف الظنون لحاجي خليفة، 109/6؛ والذّيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي، 595/5؛ والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد، 384/2؛ والإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين الخطيب، 230/2 ونفح الطيب للمقرّي التلمساني، 3/ 138.

يرافقه فيها أحمد بن حسان القضاعي. استغرقت عامين وثلاثة أشهر ونصفاً، زار خلالها مصر والشام وشبه الجزيرة العربية وصقلية وقد دفعه إليها أن الأمير أبا سعيد، أحد أمراء الأندلس أرغمة على شرب الخمر، فشرب. ثم أحسَّ بالذّنب، وعزم على أداء فريضة الحج تكفيراً عن ذنبه.

الرحلة الثانية: وهي رحلة الابتهاج ببيت المقدس سنة 583هـ، على يد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي وانتهت سنة 587هـ.

الرحلة الثالثة: وهي رحلته إلى الحج سنة 614هـ، وقد دفعه إليها وفاة زوجته، تخفيفاً عن نفسه. فأقام بمكة فترة، ثم ارتحل إلى الإسكندرية، فأدركته المنيّة في السنة نفسها، أو التي تليها.

كتب ابن جبير مشاهداته في رحلته الأولى على صورة يوميات ثم دُوِّنت بحسب الترتيب الزمني في كتابه الموسوم بـ: «اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك» وقد أفاد منه الذين جاءوا بعده بعامة وابن بطوطة بخاصة، ولقي عناية المستشرقين، من حيث التحقيق والترجمة والنشر.

وقرّظه المعاصرون، فقال نقولا زيادة: «عني كاتبها – أي الرحلة – بالرسوم الدينية والنواحي الاجتماعية عناية فائقة... وهو في كل هذا دقيق الملاحظة، سوي العبارة، واضح الأسلوب»[1]، وقال محمد زغلول سلام «تعدّ درّة من دُرر أدب الأسفار والرحلات.. بل إنه يمتاز فيها بملكة لاقطة مصورة»[2].

وأيا كان الأمر، فإن رحلة ابن جبير ذات فوائد عظيمة، وستظل مصدراً يُعوّل عليه للوقوف على حال الحواضر الإسلامية في العصر المملوكي.

(1) انظر: مقدمة رحلة ابن جبير، ص 20.

(2) م.ن.

من رحلة ابن جبير

ما خص الله تعالى به مكة

هذه البلدة المباركة سبقت لها ولأهلها الدعوة الخليلية الإبراهيمية، وذلك أن الله ﷻ يقول حاكيًا عن خليله ﷺ: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37]، وقال ﷻ ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: 57]. فبرهان ذلك فيها ظاهر متصل إلى يوم القيامة، وذلك أن أفئدة الناس تهوي إليها من الأصقاع النائية والأقطار الشاحطة. فالطريق إليها ملتقى الصادر والوارد ممن بلغته الدعوة المباركة. والثمرات تُجبى إليها من كل مكان، فهي أكثر البلاد نعمًا وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر.

ولم يكن لها من المتاجر إلا أوان الموسم ففيه مُجمع أهل المشرق والمغرب، فيُباع فيها في يوم واحد، فضلاً عما يتبعه، من الذخائر النفيسة كالجواهر، والياقوت، وسائر الأحجار، ومن أنواع الطيب: كالمسك: والكافور، والعنبر والعود؛ والعقاقير الهندية، إلى غير ذلك من جلب الهند والحبشة، إلى الأمتعة العراقية واليمانية، إلى غير ذلك من السلع الخراسانية، والبضائع المغربية، إلى ما لاينحصر ولا ينضبط، ما لو فُرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافقة ولعمَّ جميعها بالمنفعة التجارية، كل ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم، حاشا ما يطرأ بها من طول الأيام من اليمن وسواها فما على الأرض سلعة من السلع ولا ذخيرة من الذخائر إلا وهي موجودة فيها مدة الموسم. فهذه بركة لا خفاء بها وآية من آياتها التي خصها الله بها.

وأما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات فكنا نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد حتى حللنا بهذه البلاد المباركة فألفيناها تغصّ بالنعم والفواكه: كالتين، والعنب، والرمان، والسفرجل، والخوخ، والأترج، والجوز، والمُقل، والبطيخ، والقثاء، والخيار، إلى جميع البقول كلها: كالباذنجان، واليقطين، والجزر، والكرنب، إلى سائرها، إلى غير ذلك من الرياحين العبقة والمشمومات العطرة. وأكثر هذه البقول كالباذنجان والقثاء والبطيخ لا يكاد ينقطع مع طول العام، وذلك من عجيب ما شاهدناه مما يطول تعداده وذكره. ولكل نوع من هذه الأنواع فضيلة

موجودة في حاسة الذوق يفضل بها نوعها الموجود في سائر البلاد، فالعجب من ذلك يطول.

ومن أعجب ما اختبرناه من فواكهها البطيخ والسفرجل، وكل فواكهها عجب، لكن للبطيخ فيها خاصة من الفضل عجيبة، وذلك لأن رائحته من أعطر الروائح وأطيبها، يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العبقة قد سبقت إليك، فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب ريّاه عن أكلك إياه، حتى إذا ذُقته خُيل إليك أنه شِيبَ بسكر مُذاب أو بجنى النحل اللباب، ولعل متصفح هذه الأحرف يظن أن في الوصف بعض غلو، كلا لعمر الله! إنه لأكثر وفوق ما قلت، وبها عسل أطيب من الماذي المضروب به المثل يعرف عندهم بالمسعودي.

وأنواع اللبن بها في نهاية من الطيب، وكل ما يصنع منها من السمن، فإنه لا تكاد تميزه من العسل طيباً ولذاذة. ويجلب إليها قوم من اليمن يُعرفون بالسرو نوعاً من الزبيب الأسود والأحمر في نهاية الطيب، ويجلبون معه من اللوز كثيراً.

وبها قصب السكر أيضاً كثير، يُجلب من حيث تُجلب البقول التي ذكرناها والسكر بها كثير مجلوب وسائر النعم والطيبات من الرزق، والحمد لله.

وأما الحلوى فيصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى، إنهم يصنعون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة. وفي الأشهر الثلاثة: رجب، وشعبان، ورمضان، يتصل منها أسمطة بين الصفا والمروة، ولم يُشاهد أحد أكمل منظراً منها لا بمصر ولا بسواها، فقد صُورت منها تصاوير إنسانية وفاكهية وجُلبت في منصّات كأنها العرائس ونُضّدت بسائر أنواعها المُنضدة الملونة، فتلوح كأنها الأزاهر حسناً، فتقيد الأبصار وتستنزل الدرهم والدينار.

وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب، قد وقع القطع من كل من تطوف على الآفاق وضرب نواحي الأقطار أنها أطيب لحم يؤكل في الدنيا. وما ذاك، والله أعلم، إلا لبركة مراعيها، هذا على إفراط سمنه، ولو كان سواه من لحوم البلاد ينتهي ذلك المنتهى في السمن للفظته الأفواه زهماً ولعافته وتجنبته.

والأمر في هذا بالضد، كلما ازداد سمنا زادت النفوس فيه رغبة والنفس له قبولاً، فتجده هنيئاً يذوب في الفم قبل أن يُلاك مضغاً، ويسرع لخفته عن المعدة انهضاماً. وما أرى ذلك إلا من الخواص الغريبة، وبركة البلد الأمين قد تكلَّفتْ بطيبه لا شك فيه. والخبر عنه يضيق عن الخبر له، والله يجعل فيه رزقاً لمن تشوّق بلدته الحرام، وتمنى هذه المشاهد العظام، والمناسك الكرام، بعزته وقدرته.

وهذه الفواكه تُجلب إليها من الطائف، وهي على مسيرة ثلاثة أيام منها، على الرفق والتؤدة، ومن قرى حولها. وأقرب هذه المواضع يُعرف بأدُم، هو من مكة على مسيرة يوم أو أزيد قليلاً، وهو من بطن الطائف، ويحتوي على قرى كثيرة، ومن بطن أودية بقرب من البلد كعين سليمان وسواها، قد جلب الله إليها من المغاربة ذوي البصارة بالفلاحة والزراعة فأحدثوا فيها بساتين ومزارع، فكانوا أحد الأسباب في خصب هذه الجهات، وذلك بفضل الله ﷻ، وكريم اعتنائه بحرمه الكريم وبلده الأمين.

ومن أغرب ما ألفيناه فاستمتعنا بأكله وأجرينا الحديث باستطابته، ولا سيما لكوننا لم نعهده، الرُّطَب، وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر في شجره يُجنى ويؤكل، وهو في نهاية من الطيب واللذاذة، لا يسأم التفكه به، وإبّانه عندهم عظيم، يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة أو كخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب، ثم بعد ذلك عند تناهي نضجه يُبسط على الأرض قدر ما يجف قليلاً ثم يُرَكمُ بعضه على بعض في السلال والظروف ويرفع.

ومن صنع الله الجميل وفضله علينا أنّا وصلنا إلى هذه البلدة المكرمة فألفينا كل من بها من الحجاج المجاورين ممن قدم عهده فيها وطال مقامه بها يتحدث على جهة العجب بأمنها من الحّرابة المتلصصين فيها على الحاج المختلسين ما بأيديهم والذين كانوا آفة الحرم الشريف، لا يغفل أحد عن متاعه إلا أحَدَّ يد القميص، فكفى الله في هذا العام شرهم إلا القليل، وأظهر أمير البلد التشديد عليهم فتوقف شرهم، وبطيب هوائها في هذا العام، وفتور حمّارة قيظها المعهود فيها، وانكسار حدة سمومها. وكنا نبيت في سطح الموضع الذي كنا نسكنه، فربما يصيبنا من برد هواء الليل ما نحتاج معه إلى دثار يقينا منه. وذلك أمر مستغرب بمكة.

وكانوا أيضاً يتحدثون بكثرة نعمها في هذا العام، ولين سعرها، وأنها خارقة للعوائد السالفة عندهم. كان سَوْم الحنطة أربعة أصواع بدينار مؤمني، وهي أويتان من كيل مصر وجهاتها، والأويتان قدحان ونصف قدح من الكيل المغربيّ. وهذا خفاء بيمنه وبركته على كثرة المجاورين فيها في هذا العام وانجلاب الناس إليها وترادفهم عليها. فحدثنا غير واحد من المجاورين الذين لهم بها سنون طائلة أنهم لم يروا هذا الجمع بها قط، ولا سمع بمثله فيها. والله يجلعه جمعاً مرحوماً معصوماً بمنّه.

وما زال الناس فيها يُسلسلون أوصاف أحوالها في هذه السنة وتمييزها عمّا سلف من السنين، حتى لقد زعموا أن ماء زمزم المبارك زاد عذوبة ولم يكن قبل بصادقها.

وهذا الماء المبارك في أمره عجب، وذلك أنك تشربه عند خروجه من قراراته، فتجده في حاسة الذوق كاللبن عند خروجه من الضرع دفيئاً، وتلك فيه من الله تعالى آية وعناية، وبركته أشهر من أن تحتاج لوصف واصف، وهو لما شرب له كما قال ﷺ أروى الله منه كل ظامئ إليه، بعزّته وكرمه.

ومن الأمور المجرّبة في هذا الماء المبارك أن الإنسان ربما وجد مسَّ الإعياء وفتور الأعضاء إما من كثرة الطواف أو من عُمرة يعتمرها على قدميه أو من غير ذلك من الأسباب المؤدية إلى تعب البدن، فيصبُّ من ذلك الماء على بدنه فيجد الراحة والنشاط لحينه ويذهب عنه ما كان أصابه.

المبحث الثاني
ابن بطوطة وأنموذج من رحلته (-779 هـ/1377 م)

في مدينة طنجة بالمغرب الأقصى، ولد ونشأ الرّحالة المشهور ابن بطوطة، وهو محمد بن عبد الله اللُّواتي نسبة إلى لواته المغربية، سنة 703هـ. وتلقّى ثقافته الدينية والعربية في بلده، ولما بلغ الحادية والعشرين من عمره عزم على الطواف في العالم القديم، تدفعه رغبة في أداء فريضة الحج، والتعرف إلى علماء المشرق العربي الإسلامي، إبان حكم المماليك بمصر والشام والحجاز.

وقام برحلات ثلاث استغرقت قرابة ربع قرن؛ فقد خرج من طنجة قاصداً الحجّ فزار المغرب ومصر والشام وانتقل من دمشق إلى الحجاز، ثم أكمل رحلته حتى بلغ الهند والصين وجاوا، أدّى خلالها فريضة الحج مرة أخرى. ثم عاد فزار الأندلس، وأخيرا تجوّل في السودان حتى بلغ تمبكتو، ورجع بعدها إلى بلاده سالماً.

وقد اتصل خلال رحلاته بالملوك والأمراء، وأدى شعائر الحج غير مرة، واطّلع على أحوال البلاد التي زارها وظروف أهلها وأملى مشاهداته على ابن جزيّ الكلبي سنة 754هـ ببلده المغرب، ودوّنت رحلته في كتابه الموسوم: «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» وهو بحق من أفضل كتب الرحلات؛ لما حواه من فوائد ولكونه مصدراً يسعفنا في الوقوف على حالة العالم الإسلامي في عهد صاحبه وقد تُرجم إلى عدّة لُغات أوربية.

ولما كان الأسلوب هو أسلوب ابن جزيّ، فإننا نورد كلاما يدور حول مشاهدات ابن بطوطة بوصفه شاهداً على أحوال عصره، بأسلوب مهذّب.

من رحلة ابن بطوطة

ثم وصلنا إلى بيت المقدس (شرفه الله) ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل: ومصعد رسول الله ﷺ تسليماً ومعرجه إلى السماء. والبلدة كبيرة منيفة، مبنية بالصخر المنحوت. وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب (جزاه الله عن الإسلام خيراً) لما فتح هذه المدينة، هدم بعض سورها، ثم أتم الملك الظاهر هدمه، خوفاً من أن يقصدها الروم فيمتنعوا بها. ولم يكن في هذه المدينة نهرٌ فيما تقدم. وجلب لها الماء في هذا العهد الأمير سيف الدين أمير دمشق.

ذكر المسجد الأقصى

وهو من المساجد العجيبة الرائقة، الفائقة الحسن، يقال: إنه ليس على وجه الأرض مسجد أكبر منه، وإن طوله من الشرق إلى الغرب سبعمائة واثنتان وخمسون ذراعاً بالذراع المالكية[1]، وعرضه من القبلة أربعمائة ذراع وخمسون وثلاثون ذراعاً، وله أبواب كثيرة من جهاته الثلاث، وأما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها إلا باباً واحداً، وهو الذي يدخل منه الإمام. والمسجد كله فضاء غير مسقوف، إلا المسجد الأقصى فهو مسقوف، وفي النهاية من إحكام العمل وإتقان الصنعة، مموّه بالذهب والأصبغة الرائقة، وفي المسجد مواضع سواه مسقوفة.

ذكر قبة الصخرة

وهي من أعجب المباني وأتقنها وأغربها شكلاً، قد توافر حظها من المحاسن، وأخذت من كل بديعة بطرف. وهي قائمة على نشزٍ[2] في وسط المسجد، يصعد إليها في درج رخام، ولها أربعة أبواب، والدائر بها مفروش بالرخام أيضاً، محكم الصنعة، وكذلك داخلها. وفي ظاهرها وباطنها من أنواع التزويق، ورائق الصنعة ما يعجز الوصف، وسطح القُبّة مغشى[3] بالذهب. فهي تتلألأ نوراً، وتلمع لمعان البرق، يحار بصر متأملها في محاسنها، ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها. وفي وسط القبة الصخرة

(1) الذراع المالكية: طولها 32 إصبعاً.

(2) مرتفع.

(3) مغطى.

الكريمة، التي جاء ذكرها في الآثار، فإن النبي ﷺ عَرَجَ منها إلى السماء. وهي صخرة صماء، ارتفاعها نحو قامة، وتحتها مغارة في مقدار بيت صغير، ارتفاعها نحو قامة أيضاً، يُنزل إليها على درج[1]. وهناك شكل محراب، وعلى الصخرة شباكان اثنان محكما العمل، يغلقان عليهما، أحدهما (وهو الذي يلي الصخرة) من حديد بديع الصنعة، والثاني من خشب، وفي القبة دَرَقَة[2] كبيرة من حديد معلقة هنالك والناس يزعمون أنها درقة حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه).

(1) صعد.

(2) ترس من جلد.

الفصل الثالث عشر

الموسوعات

- تمهيد
- أسباب ظهور الموسوعات
- أنواع الموسوعات
  - الموسوعات اللغوية
  - الموسوعات الأدبية
  - الموسوعات الجغرافية
  - الموسوعات التاريخية
  - موسوعات الدواوين

الفصل الثالث عشر
الموسوعات

تمهيد

يُعدّ العصر المملوكي عصر الموسوعات العربية، والموسوعة هي «كتاب ضخم تُعالج فيه موضوعات شتى في الأدب، والفن، والعلم، والتاريخ، والجغرافيا وسواها من المعارف، والمهارات البشرية، وتتضمّن المحصّلات التي انتهى إليها رجال الاختصاص في كل باب»[1].

ولم يبالغ الدارسون في وصف هذا العصر بأنه عصر الموسوعات العلمية، ففيه جُمع التراث العلمي والأدبي وفق منهجية علمية تقوم على تحرّي روايات المصادر وتوثيقها، دون أن يغفل أصحاب هذه الموسوعات عن دراسة البيئة المصرية في مختلف نواحيها الأدبية والاجتماعية والسياسية والتاريخية والاقتصادية والجغرافية.

أسباب ظهور الموسوعات

اختلفت الآراء في أسباب ظهور هذه الموسوعات في مصر إبان العصر المملوكي، وهي:

1. سقوط بغداد على أيدي التتار سنة 656هـ، وقد أدى ذلك إلى القضاء على الحركة العلمية والأدبية في العراق، إذ ألقيت الكتب في نهر دجلة، وخُربت المكتبات العامرة بكنوز المعرفة، مما يُعدّ جريمة كبرى في حق المعرفة الإنسانية والتقدم العلمي. ومن ثمّ حرص العلماء والأدباء في مصر على جمع ما تبقى من التراث العربي الإسلامي في هذه الموسوعات.

---

(1) جبور عبد النور، المعجم الأدبي، ص 270.

2. قيام دولة المماليك بتوفير الجو العلمي المناسب، إذ حضّت على العلم والأدب، وأنشئت المدارس، وكان كثير منها قد أُنشئ في العهود السابقة، ومن ثمّ رغب العلماء والأدباء في القراءة والتحصيل العلمي.
3. حاجة كُتّاب الدواوين إلى التزود بمختلف العلوم كالتاريخ والجغرافيا وعلوم اللغة والدين وغيرها. وقد كان السلاطين يتخيرون وزراءهم ورؤساء ديوان الإنشاء من ذوي الكفاءات المثقفة التي تُحسن الكتابة والإنشاء.
4. انفتاح العالم الإسلامي علميا وثقافيا، فلم تكن يومئذٍ حدود تفصل البلدان الإسلامية، ولم يكن التأليف العلمي والأدبي في مصر بمعزل عن بلدان شهدت ازدهاراً علميا كالأندلس التي زخرت بكبار العلماء والفلاسفة والأدباء.
5. إن الكتابة في العصر المملوكي على حد تعبير محمد زغلول سلام كانت ظاهرة تأليف، ولم يكن ذلك مقصوراً على موضوع بعينه، ومن ثم كثرت الكتب الجامعة والموسوعات.

ومن العجيب أن يذهب بعض الدارسين إلى أنّ هذا العصر كان عصر تخلف علمي، وتأخر أدبي، دون أن يفطنوا إلى أن الثقافة العربية الإسلامية قد توحّدت فيه بين أبناء الأمة الواحدة. وهو لم يقتصر على جمع المعارف العلمية وتراكمها، وإنما نجد فيه شيئا من الإبداع والابتكار، وآية ذلك ظهور ابن خلدون صاحب المقدمة المشهورة التي جعلته رائد علم الاجتماع.

أنواع الموسوعات

وقد شمل التأليف الموسوعي اللغة والأدب والجغرافيا والتاريخ والدواوين، واتسمت هذه الموسوعات بضخامة الحجم وجودة المحتوى. ومن أشهرها:

1. لسان العرب لابن منظور
2. نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري.
3. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري.
4. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي.
5. صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي.

1. الموسوعات اللغوية

تهدف هذه الموسوعات إلى تدوين اللغة وحفظ ألفاظها وبيان دلالاتها. ومن أبرزها: «لسان العرب» لابن منظور، وهو جمال الدين أبو الفضل محمد بن علي بن أحمد الأنصاري، المصري المولِد ووفاةً (633-711هـ).

ويُحدثنا عن الدافع إلى تصنيف هذه الموسوعة اللغوية، فيقول: «وإني لم أزل مشغوفاً بمطالعات كتب اللغة والإطلاع على تصانيفها وعلى تصاريفها؛ ورأيت علماءها بين رجلين: أمّا من أحسن جمعه فإنه لم يحسن وضعه، وأما من أجاد وضعه فإنه لم يُجد جمعه، فلم يُفد حسن الجمع مع إساءة الوضع، ولا نفعت إجادة الوضع من رداءة الجمع»[1]. ومن ثم أراد أن يُحسن جمعه ووضعه، مُستمداً مادته من خمسة مصادر رئيسة، هي: «تهذيب اللغة» للأزهري، و«المحكم» لابن سيدة الأندلسي، و«الصحاح» للجوهري، و«حواشي ابن تري علي الصحاح»، و«النهاية» لأبي السعادات ابن الأثير. وقد أخذ من كل منها أفضل ما فيه. ومن ثمَّ جمع ما توزّع في هذه الأصول، وصاغها في وحدة تأليفية واضحة، وصار كتابه هو المعتمد عند الدراسين؛ في حين تهمّشت تلك الأصول.

وتجدر الإشارة إلى تواضع ابن منظور واعترافه بجهود سابقيه وفضلهم، إذ يقول في مقدمة كتابه «وأنا مع ذلك لا أدّعي فيه دعوى، فأقول شافهتُ، أو سمعتُ، أو فعلتُ أو صنعتُ، أو شددتُ، أو رحلتُ، أو نقلت عن العرب العَرْباء.. فكل هذه الدعاوى لم يترك فيها الأزهري وابن سيده لقائل مقالً، ولم يخلّيا فيه لأحد مجالاً»[2].

يعد معجم «لسان العرب» من أضخم الموسوعات اللغوية وأشملها، إذ يضم ثمانين ألف مادة، تقع في عشرين مجلداً[3]. رُتبت فيه الألفاظ بحسب أواخرها وهي طريقة (الصّحاح)، التي تنطلق من الحرف الأخير في الجذور الثلاثية، بوصفه بابا، فالحرف الذي يسبقه، فالحرف الأول بوصفه فصلاً، فتأتي كلمة (نسَأ) مثلاً قبل

---

(1) مقدمة اللسان، طبعة دار صادر، بيروت، ص7.

(2) م.ن.

(3) في طبعة بولاق.

(أسن) لأن الحرف الثالث هو الهمزة، في حين أنّ الحرف الثالث في الثانية هو النون وإن ابتدأت بالهمزة. ويشمل على مادة لغوية وأدبية بما تضمنّه من لغة ونحو وصرف وفقه وتفسير للقرآن الكريم وشرح للحديث الشريف. وقد أُضفي على نظامه طابع عصري، لتيسير الإفادة منه، فقد رتّب محمد البخاري ألفاظه جميعا على حروف الهجاء، كما هو الحال في شأن كثير من المعجمات الحديثة.

2. الموسوعات الأدبية

ومن الموسوعات الأدبية الضخمة كتاب «**نهاية الأرب في فنون الأدب**» للنويري وهو شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب القرشي التيّمي البكري المصري. ولد في قرية نُويرة ببني سويف في صعيد مصر في عام 677هـ، ومن ثمَّ عُرف بالنويري. وقد توفي عام 732هـ بمرض أصاب أطراف أصابع يديه.

يقول النويري في المقدمة(1):

«ورغبت في صناعة الآداب، فرأيت غرضي لا يتمّ بتلقّيها من أفواه الفضلاء شفاها، فامتطيتُ جواد المطالعة، وركضت في ميدان المراجعة، حيث ذلّ لي مركبها، وصفا لي مشربها، آثرت أن أُجرّد منها كتابا أستأنس به وأرجع إليه وأعوّل في ما يعرض لي من المهمات عليه».

كان النويري يشغل مناصب إدارية في عهد الملك الناصر قلاوون، فقد تولى إحدى فرق جيوش المسلمين في بلاد الشام، ثم ما لبث أن تخلى عن ذلك كله وتفرغ للكتابة، فكتب موسوعة «نهاية الأرب» في ثلاثين جزءاً. تضمّ ألوانا من المعرفة. وقد جاءت في خمسة أقسام:

1. **القسم الأول:** عن السماء والآثار العلوية والمعالم السفلية؛ فهو مقصور على علوم الفلك والتاريخ الطبيعي.
2. **القسم الثاني**: عن الإنسان وكل ما يتصل به من الآداب والعادات وكل ما له علاقة بالحياة الاجتماعية.

(1) انظر: مقدمة نهاية الأرب.

3. **القسم الثالث**: يتحدّث عن الحيوان بشكل مُفصّل ويورد كل ما له علاقة بالصيد وغيره.
4. **القسم الرابع**: عن النباتات وكل ما له علاقة بها.
5. **القسم الخامس**: عن تاريخ الأمة، ويذكر ما حدث فيه من الدول والإمارات حتى عصره.

وهو يسير على طريقة الجاحظ في كتاب «الحيوان»، وابن قتيبة في «عيون الأخبار»، وهو يعترف بذلك في مقدمته للكتاب بقوله: «وما أوردتُ فيه إلا ما غلب على ظني أن النفوس تميل إليه، وأن الخواطر تشتمل عليه، ولقد تتبّعت فيه آثار الفضلاء قبلي، وسلكت منهجهم فوصلت بحبالهم حبلي»، فأنت تراه يتحدث عن موضوع ثم ينتقل إلى غيره.

وأيا كان الأمر، فقد اشتملت موسوعته على كثير من العلوم الفريدة، والأخبار التاريخية المهمة، وأفاد منه المؤرخون؛ قال ابن تغري بردي: «رأيته واقتنيته، ونقلت منه بعض شيء في هذا التاريخ، يعني «النجوم الزاهرة» وغيره[1].

3. الموسوعات الجغرافية

ومن أشهرها موسوعة «**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**» لشهاب الدين أحمد ابن يحيى بن فضل العمري، نسبة إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، ولد بدمشق سنة 700هـ وبها نشأ ثم تقلّد ديوان الإنشاء متنقلاً بين دمشق والقاهرة لعهد الناصر محمد بن قلاوون، غير أن علاقته ساءت به، فقطع يده وزجّ به في غيابة السجن[2]، ثم ما لبث أن أفرج عنه. وتوجّه إلى مكة لأداء فريضة الحج، وتوفي بها سنة 749هـ. ونقل تابوته إلى دمشق، ولم يكد يبلغ الخمسين من عمره.

وتقع موسوعته في أكثر من عشرين مجلداً، ونراه يبين منهجه في هذه الموسوعة – في مقدمتها – التي جاءت في قسمين «أولهما في الأرض وثانيهما في سكان الأرض،

(1) النجوم الزاهرة، 298/9.

(2) فوات الوفيات، 12/1.

والقسم الأول منها – أي الأرض – على نوعين: أولهما المسالك وثانيهما الممالك». ويشتمل على معلومات جغرافية مهمة، ويشير إلى ذلك بقوله: «ولم أذكر عجيبة حتى فحصت عنها ولا غريبة حتى ذكرت الناقل عنه لتكون عهدتها عليه» وهو لا ينقل إلا عن العلماء الثقات.

وهو لا يتحدّث عن المسالك والممالك فقط، بل يخصّص بعض الفصول لتراجم أعلام الثقافة الإسلامية حتى عصره، فضلاً عن تراجم لشعراء صقلية. فينتقل بقارئه من موضوع جغرافي أو تاريخي إلى موضوع أدبي. وهو بذلك «يُهمّ كل عالم ومثقف، كُلاً في تخصصه، ولكنه من الناحية الخاصة يهمّ علماء الجغرافيا بمختلف فروعها، ويهمّ عالم الأدب لتوسّعه في موضوع بعينه متصل بالأدب العربي في جانب منه اتصالاً وثيقاً وهو موضوع «الديارات» التي ألفّ فيها عدد من المؤرخين كتبا ذهب أكثرها وبقي أقلها»(1).

4. الموسوعات التاريخية

ومن أهمها موسوعة «**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**» لابن تغري بردي، وهو أبو المحاسن جمال الدين يوسف ابن تغري بردي. كان جده تغري بردي أحد مماليك السلطان برقوق ومن أمراء جيشه، وهذا الاسم كلمة تترية معناها «عطاء الله».

ولد ابن تغري بردي في القاهرة سنة 813هـ، ويعد ثمرة من ثمرات الحضارة الإسلامية، إذ وضع خمسة كتب كبيرة، أشهرها هذه الموسوعة التي تقع في اثني عشر جزءاً تنتهي عند أحداث سنة 841هـ. ابتداءً من الفتح الإسلامي لمصر عام 19هـ/ 640م هـ بقيادة عمرو بن العاص، تحدّث فيه عن حكام مصر من ملوك وسلاطين، وذكر ملوك الأطراف، وذكر الحوادث المهمة في كل سنة ومن توفي من رجال الأمة وكان يذكر في ختام كل سنة زيادة النيل ونقصانه.

أما بقية مؤلفاته فهي: «حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور» وقد جعله ذيلاً لكتاب «السلوك» للمقريزي شيخ مؤرخي عصره، و«البحر الزاخر في علم

(1) مصطفى الشكعه، مناهج التأليف عند العلماء العرب، ص744.

الأوائل والأواخر» وهو موسوعة تاريخية، و«المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» وهو موسوعة في التراجم اختصره في كتاب سمّاه «الذّيل الشافي على المنهل الصافي».

5. موسوعات الدواوين

تعد موسوعة **«صبح الأعشى في كتابه الإنشا»** للقلقشندي من أكمل الموسوعات العربية في هذا العصر وهي موسوعة ضخمة تقع في أربعة عشر مجلداً كتبت خلال ربع قرن من الزمان. والقلقشندي هو شهاب الدين أحمد بن علي، ولد بقلقشندة بالقرب من قليوب سنة 756هـ وإليها يُنسب. ويعود إلى أصول عربية أصيلة إذ ينتمي إلى فزارة وهي عشيرة عربية استوطنت مصر عقب الفتح الإسلامي وتوفي القلقشندي سنة 821هـ.

ويتألف الكتاب من مقدمة وعشر مقالات، تحدّث فيها عن فضل الكتابة ومدلولها، وصفات الكُتّاب وآدابهم، والتعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وقوانينه ووظائفه، والعلوم الأدبية، والتاريخية، والاجتماعية، والشرعية، والطبيعية التي يجب أن تتوافر فيمن يعمل في هذا الديوان. وتحدّث عن المسالك والممالك على الصعيدين التاريخي والجغرافي، والمكاتبات ومصطلحاتها، والولايات وطبقاتها، وعقود الصلح، والبريد وغير ذلك من موضوعات.

وأيّا كان الأمر، فإن هذه الموسوعة تُعدّ نقلة كبيرة في مناهج التأليف الموسوعي من نطاق التعدد والشمول إلى نطاق التخصص في موضوع بذاته. ولا ريب في أنها من أفضل المصادر التي تحدّثت عن جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية في عصر المماليك.

الفصل الرابع عشر

أعلام النثر في عصور الدول المتتابعة

المبحث الأول: الخطيب الحصكفي

المبحث الثاني: القاضي الفاضل

المبحث الثالث: العماد الكاتب

المبحث الرابع: صلاح الدين الصفدي

المبحث الخامس: محيي الدين بن عبد الظاهر

الفصل الرابع عشر

أعلام النثر في عصور الدول المتتابعة

المبحث الأول

الخطيب الحصكفي (-551 هـ/1165 م)

هو يحيى بن سلامة، الملقب بـ «الخطيب الحصكفي»[1]، ولد في بلدة «طنزة»، من أعمال ديار بكر سنة 460 هـ نشأ بحصن «كَيْفَا»[2] وإليه ينسب، ثم قدم بغداد، واشتغل في الأدب على الخطيب التبريزي، ولما استكمل ثقافته عاد إلى بلاد الشام، فنزل ميافارقين، واستقرّ بها، وولي الخطابة فيها.

من أعلام مدرسة النثر المقفّى (المصنوع)، بوصفه يمثل مرحلة مهمة من مراحل تطور النثر العربي، وتحدّث شوقي ضيف عن تصنعه وتعقيده، ولاحظ أنه تلميذ غير مباشر للمعري، وذلك لأن أستاذه التبريزي كان تلميذاً له، ومن ثمَّ ذكر أن نثره «ينساق جملة في طريقة أبي العلاء، وحتى عند أبي العلاء من تشاؤم نجده عند الحصكفي»[3]، وهو ما نلاحظه. في رسالته الموسومة بـ «الكدرية». كتبها على لسان قطاتين تتناجيان.

أشاد به العماد الكاتب بقوله: هو علاّمة زمانه في علمه، ومعرّي العصر في نثره ونظمه، بل فضل المعرّي بفضله وفهمه، وبذّ الحريري برقة طبعه، وقوة سجعه، وجودة شعره، وغزارة أدبه.. له الترصيع البديع والتجنيس النفيس، والتطبيق والتحقيق...[4].
وهو بذلك يشير إلى مقوّمات صنعته الفنية، وهي السجع والجناس والإغراب.

(1) العماد الكاتب، الخريدة، قسم شعراء الشام، 561/1.
(2) بلدة وقلعة تُطل على دجلة بديار بكر (ياقوت، معجم البلدان، 265/2.
(3) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في فن النثر العربي، ص305.
(4) العماد الكاتب، م.س، 427/2.

وقد احتذى الحريري في عبثه اللغوي، فكتب مثله رسالة سينية، ورسالة من الحروف المهملة، ومقامة فقهية على غرار المقالة الطيبية أو الحربية للحريري تتضمن مائة مسألة فقهية مُلّغزة، وله مقامة يفتخر بأنه ذكر فيها مائة وأربعين كلمة غريبة[1].

فهو يعمد إلى الجناس المعقد، على نحو ما نجد في إحدى رسائله، ومنها[2]:

«.. النفس بعقود التذرّع حالية، ولقعود التعذّر حايلة، ومن الودايع المعجزة مالية، وإلى الدواعي المزعجة مايلة، و في بحار الحمد راسية، وإلى رحاب المدح سارية، تجمح إلى مواصلة القمر، وتُحجم عن مصاولة القَرِم، لتكفَّ بأظفار الأمل، وتفك من أظفار الألم، فهل كامل يُعنى، ومالك يعين، ومقتصد يُدني ومتصدّق يُدين، فالرّغبة إلى الشهب، من الغُربة في الشبه رغبة من قصد بالإلهام، مواقع السّحاب الهام».

فهو يعمد إلى العبارات المسجوعة، مستمدا تصنعه من الجناس الذي يقوم على القلب والعكس، فكل كلمة في العبارة الثانية مشتقة ومولّدة من العبارة الأولى؛ فـ «قعود» من «عقود» و«التعذّر» من «التذرّع» و«حايلة» من«حالية». ويستمر على هذا النسق في كل هذا المقطع من الرسالة، بحيث تتحقّق منه لعبة لغوية على هذا النسق:

عقود التذرع حالية.

قعود التعذر حالية.

من الودائع المعجزة مالية.

إلى الدواعي المزعجة مايلة.

وهي شعبذة لغوية استهوت معاصريه، فأشادوا ببلاغته، وبطريقته الفنية وطربوا لها أشد الطرب، على نحو ما شهد به العماد الكاتب في خريدته الآنفة الذكر.

ونراه يكتب رسالة من الحروف المهملة، وجّهها إلى أسامة بن منقذ وجاء فيها قوله:

«ممّ عراه الملل، وما عداه الأمل، حرس الله سموّه، وأدام عُلّوه، وحاطه وكلاه، وأكرمه ورعاه، وما أحالَ العهدَ – واللهِ – دهرٌ، ولا كدّر صحة المودّة أمر، ولا أعلم

(1) انظر: شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص307.

(2) انظر: رسائل الحصكفي، ورقة 19.

حالاً أحلّ الصَّد لها، وطلّ الذم الحرام ولها، وما لمؤمله بمدّة سواه، ولا عمدة إلاه، حلّ محلّ الروح، والدمع أمارة الطموح، أأطاع حاسداً أكمده الله، أم صار مُلك حدسه وهواه».

فهذا مقطع من رسالة ألّفها الحصكفي من الحروف المهملة، قلّد فيها الحريري في خطبته التي ألّفها من حروف غير منقوطة؛ ليثبت أنه لا يقل عنه مقدرة فنية في صوغ الأساليب وتعقيدها؛ وبذلك وقع من معاصريه موقعا بديعاً، ونال إعرابهم.

وقد يُظهر براعته في تصنّع الجناس وتكلفه، مما يعدّ ضرباً من العبث اللغوي، الذي استهوى معاصريه، فنراه يأتي بهذه الجناسات، بكل أنواعها من ناقص ومعكوس ومقطوع وموصول، كمثل هذا المقطع من إحدى رسائله[1]:

«فآنسَ أجمالاً تُزَمّ، وأحمالاً تُضَمّ، وأحوالاً تهول، وأهوالاً تحول، وأوجالاً تصول، وأصوالاً تجول، وسمع تنادر القُطّان بمفارقة الأوطان، وتثويب الدّاع، بوشك الوداع، وللحُداة زجل، وعلى القوم عجل، وقد بُنيت القباب، وحُثّت الركاب، وفي الخدور أشباه البدور، وتحت الأكلّة، أمثال الأهلّة، وأبدى النّوى لاعبة، وغِربانه ناعبة، والحيّ قد طُرق، والصُّواع قد سُرق، وضمن مؤذّن العير، لمن جاء به حمل بعير، يا له من عامري، يئس من عام ري».

فهذا المقطع تهيمن عليه الجناسات المختلفة، يعمد في آخره إلى الاقتباس من القرآن الكريم، ويحل بعض الآيات وينثرها.

لقد أجهد الحصكفي نفسه بهذه الجناسات التي بالغ فيها، وفي لزوم ما لا يلزم في محاولة منه لإثبات مقدرته اللغوية، دون أن نلمح وراء عبثه شيئا ذا بال ودون «أن يكون وراء ذلك رؤية فكرية أو حضارية، إلا إذا عَدَدْنا الجمود الأدبي مُعادلاً أو عاكساً للجمود الفكري والحضاري الذي دخل فيه العرب منذ أُفول نجمهم السياسي»[2].

(1) رسائل الحصكفي، ورقة 21.

(2) محمد رجب النجار، النثر العربي القديم، ص 475.

المبحث الثاني
القاضي الفاضل (-596 هـ/1199 م)

هو الوزير مجير الدين عبد الرحيم بن علي بن حسن البياني، المعروف بالقاضي الفاضل، ولد بمدينة عسقلان من أعمال فلسطين سنة 529 هـ. وقد عُني والده بتعليمه، فأرسله إلى كتاب لتحفيظ القرآن الكريم، فديوان الإنشاء بالقاهرة للتدرب على الكتابة. فلزم كبار الكُتّاب، ويقول الرواة: «إنه لما مثل بين يدي الموفق سأله: ماذا أعددت لفن الكتابة؟ فأجابه: إني أحفظ القرآن الكريم وديوان الحماسة، فأمره أن يحلّ شعر الحماسة كله»[1]. وإذ انتهى من التدرب على الكتابة، عمل عند قاضي الإسكندرية ابن حديد، وكتب عنه، ونال إعجابه.

ولم يلبث أن خدم في ديوان الإنشاء بالقاهرة في أواخر العهد الفاطمي. وبعد سقوط الدولة الفاطمية وزَرَ لصلاح الدين وأصبح كاتبه ومشيره[2]، حتى لنسمع هذا القائد العظيم يقول بكل تواضع: «لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل»[3]. وقد برز في الكتابة الإنشائية، حتى أصبح زعيمها، يقول النويري «إليه انتهت صناعة الإنشاء»[4].

كان القاضي الفاضل الساعد الأيمن لصلاح الدين طوال حكمه، فكان يكتب عنه إلى الخلفاء العباسيين والملوك والولاة، فقد علمنا أنه أنشأ رسالة على لسانه سنة 574هـ، قبل الفتح المبين، يَعجب فيها من حماسة العدو وتخاذل المسلمين، إذ يقول[5]. «وغير خافٍ عن مولانا همّة الفرنج بالقدس براً وبحراً، ومركباً وظهراً، وسلماً وحرباً، وبُعداً وقُرباً، وتوافيهم على حماسة، وهو أنف في وجه الإسلام، ومسارعتهم إلى نُصرة

---

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 408/2.

(2) انظر: ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار والأنظار، 656/7.

(3) الروضتين، 4/2.

(4) النويري، صبح الأعشى، 79/7.

(5) ابن واصل، مفرّج الكروب، 3/ 289.

أهليه بالأرواح والأموال على مرّ الأيام، ومعاذ الله أن يستبعدوا في الضلال، ونُصرف نحن عن الحق، ويضيق في التوسعة على أهله سعة المجال».

وبعد وفاة صلاح الدين بدمشق سنة 589 هـ، أبقاه ابنه الملك العزيز على حاله من الرفعة ونفاذ الأمر، ولم يزل كذلك حتى توفي سنة 596 هـ لعهد الملك العادل وكانت بينهما وحشة على حد قول ابن تغري بردي، إذ دعا على نفسه بالموت – فيما يقال – واستجاب الله دعوته فبينما كان العادل داخلاً من باب النصر كانت جنازة الفاضل خارجة من باب زُويلة[1].

كان القاضي الفاضل عليل القلب والجسد فكان «لا يتكلف مع السلطان سفراً في كل مرة، وكان العماد ينوب عنه»[2]، فضلاً عن أنه كان دميم الشكل تزورّ عنه العين، إذ «كان له حدبة ظاهرة تظهر للناس»[3]. ولكنه استطاع أن يعوّض هذا النقص، فانتهت إليه صناعة الإنشاء، وكان صاحب طريقة استمدّت من معين أصحاب التصنّع.

للقاضي الفاضل ديوان شعر مطبوع، وله مجموعة رسائل. وقد أشاد به وبفنّه كل من ترجم له، أمثال العماد الكاتب والنويري. ووضعه شوقي ضيف في الإطار الفني لمذهب التصنّع، بحيث أصبحت آثاره مثلاً أعلى للكتاب من بعده[4].

النص الأول

من العهد الذي كتبه عن الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين مُسنداً فيه الوزارة إلى صلاح الدين[5].

«... وابسط يدكَ فقد فوّض إليك أمير المؤمنين بسطاً وقبضا، وارفع ناظرك فقد أباح لك رفعاً وخفضا، واثبت على درجات السعادة، فقد جعل لحكمك تثبيتاً

(1) انظر: شوقي ضيف، عصر الدول المتتابعة والإمارات (الشام)، ص 412.

(2) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، 656/7.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، 75/1.

(4) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص 375.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، ص 496.

ودحضا، واعقد حُبَى العزمات للمصالح فقد أطلق بأمرك عقداً ونقصاً، وانفُذ فيما أهَّلك له، فقد أدّى بك من السياسة وفرضا، وصرِّف أمور المملكة فإليك الصَّرف والتصريف، وثقِّف أودَ الأيام فعليك التهذيب والتثقيف».

تبدو الصنعة البديعية في هذه الرسالة، وهي متكلفة مصنوعة على نحو ما عرفنا في الطريقة الفاضلية، فقد توالت السجعات الطويلة التي اقترنت بالطباق حينا وبالسجع حينا آخر لتضفي معاً نغماً موسيقيا على نثره. فضلاً عن أنه استخدم عنصراً آخر من عناصر التصنيع، بقدر يسير، تمثل في المصطلحين النحويين رفعاً وخفضاً، دون أن نلمح فيهما تكلفا، ذلك أنه لم يُقحمهما في النص إقحاما، وكأنهما جاءا من فلَتات الطبع، فغلبت عليهما الخفة والعذوبة.

النص الثاني

من رسالة كتبها عن صلاح الدين يهنئ فيها الخليفة العباسي الناصر لدين الله، ويبشره بفتح بيت المقدس[1]:

«فاز من بيت المقدس بذكر لا يزال الله به سميراً، والنهار به بصيراً، والشرق يهتدي بأنواره، بل إن أبدى نوراً من ذاته، هتف به الغرب بأنْ واره، فإنه نور لا تكنّه أغساق السُّدف، وذكر لا تورايه أوراق الصحف. وكتاب الخادم هذا وقد أظفره الله بالعدوّ، الذي تشظّت[2] قناته شفقا[3]، وطارتْ فرقه فَرَقا، وفُلّ سيفه فصار عصا، وصُدعت حصاته وكان الأكثر عدداً وحصى، فكلّتْ حملاته، وكانت قدرة الله تُصَفّ فيه العِنان بالعيان، عقوبةٌ من الله ليس لصاحب يدٍ بها يدان، وعثرتْ قدمه وكانت الأرضُ لها حليفةَ، وغُضّتْ عينه، وكانت عيون السيوف دونها كسيفة، ونام جفن سيفه، وكانت يقظته تُريق نُطف الكرى[4] من الجفون، وجُدعت أنوف رماحه وطالما

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 181/17.

(2) تشظّت: تطايرت شظايا.

(3) الشفق: الخوف، وتروى أيضاً شققا.

(4) نطف الكرى: قطرات ماء العين.

كانت شاخة بالمنى أو راعفة(1) بالمنون، وأضحت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث، والرب المعبود الواحد وكان عندهم الثالث. فبيوت الشرّك مهدومة، ونيوب الكفر مهتومة، وقد ضُربت عليهم الذّلة والمسكنة، وبدّل الله مكان السيئة الحسنة، ونقل بيت عبادته من أصحاب المشأمة إلى أصحاب الميمنة».

فنحن نلمس في هذه الرسالة عاطفة صادقة، تنطق عن الفرح بالنصر، إذ انتهت هذه الحرب المقدسة بظفر المسلمين ببيت المقدس، وارتفعت راية التوحيد، وزالت معالم الشرك واندحر المعتدون وتحطّمت جيوشهم، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة.

أما السمات الفنية فتتمثل في استعاراته وتشبيهاته الرائعة التي تدل على ميل الكاتب إلى التشخيص، من ذلك أنه صوّر بيت المقدس في ظل الاحتلال بالمرأة الحائض، في حين تبدو طاهرة بعد الفتح؛ ليدلل على أن الأرض المقدسة قد تطهّرت بعد تدنيس. ويُصوّر الرماح والسيوف ويشخصها، فيجعل لها أنوفاً وعيونا به.

أما أنوف الرماح فقد جُدعت وكانت تشمخ بالأمل؛ ليدلل على الذلة والمسكنة التي ضُربت على العدو، وأما عيون السيوف فقد كُسفت بالهزيمة، ثم جعل لهذه العيون جُفوناً نامت وكانت تذود النوم عن عيون المسلمين، ليدلل على اندحار العدو وغيابه. ويُشخّص الكفر بالنيوب التي أصبحت مهتومة بعد الهزيمة. ويُصوّر كيف زلت بالعدو قدمه، وكانت الأرض حليفة له ثم انتفضت عليه.

وهو يكثر من السجع كثرة مفرطة، إذ تتوالى السجعات القصيرة التي أقام بعضها على الجناس الناقص، فقد جانس بين فِرقه بمعنى جموعه وفَرَقاً بمعنى خوفاً، وبين السيوف وكسيفه وبين العنان بمعنى اللجام والعيان بمعنى الرؤية ولا شك في أن هذه الجناسات والسجعات تُضفي لونا من الايقاع الموسيقي.

وأكثر القاضي من الطباق، فهو واضح بين في رسالته كقوله: الليل والنهار، الشرق والغرب، النور والأغساق، ونام ويوقظه، وجُدعت وشامخة، الطاهرة والطامث، الواحد والثالث، والسيئة والحسنة، والمشأمة والميمنة، ولعله بهذا الطباقات أراد أن يوازن بين الماضي والحاضر بأسلوب ساخر تهكمي.

---

(1) الراعفة: الدم يخرج من الأنف.

ونراه يلجأ إلى الاقتباس من القرآن الكريم، فهو في تصوير الذلة والمسكنة، وإبدال السيئة بالحسنة، ونقل العبادة من أصحاب المشأمة إلى أصحاب الميمنة وما سوى ذلك ينظر إلى قوله تعالى:﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ ﴾ [البقرة: 61] وقوله تعالى:﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ ﴾ [الأعراف: 95] وقوله تعالى:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ [البلد: 18] و﴿ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ [البلد: 19].

والتورية واضحة في كلمة «بأنواره» وكلمة «بأن واره، فضلاً عما في هاتين الكلمتين من جناس تام.

النص الثالث

ومن هذا الطراز البديع قوله من رسالة كتبها عن صلاح الدين إلى الخليفة العباسي ببغداد يبشره بفتح بلد في النوبة:

«ولم يبق إلا مواقد نيرانٍ رحلت قلوبُهم بضرامِها، وأثافيّ [1] دُهْمٌ أعجلت المهابة ما ردّ سَغْبَهم[2] عن طعامِها، وغِربان بين كأنها في الدّيار ما قُطع من رؤوس بني حامها[3]، وعوافي[4] طير كانت تنتظر من أشلائهم فطر صيامها. وعادت الرّسلُ المنفّذة لاقتفاء آثارهم، وأداء أخبارهم، ذاكرة أنهم لبسوا الليل حدادا على التي خُلعتْ، وغُسلوا بماء الصبح أطماع نفس كانت قد تطلّعتْ، وأنهم طلعوا الأوعار أو عالاً[5]، والعقاب عقبانا، وكانوا لمهابط الأودية سيولاً، ولأعالي الشجر قضبانا..»[6].

فالرسالة تمتلئ بالاستعارات والتشبيهات الرائعة التي تتوالى خلالها السجعات الطويلة فالقصيرة، فقد استخدم أربع سجعات متساوية إلى حدّ ما (بضرامها – طعامها

(1) الأثافي: جمع أثفية وهي الحجر توضع عليه القدر.

(2) السّغب: الجوع.

(3) بني حامها: أي النوبة لسوداهم.

(4) عوافي الطير: الطير التي تطلب الرزق.

(5) الأوعال: جمع وعل وهو ما يُعرف بتيس الجبل.

(6) انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 17/ 181.

- بني حامها - صيامها)، ثم تتوالى سجعات قصيرة (آثارهم - أخبارهم - خُلعت - تطلّعت). وهو بهذا يلوّن أسلوبه بالجرس الموسيقي المتتابع، من خلال هذه المصاريع المتقاربة طولاً وقصراً.

وتبدو ظاهرة حل المنظوم واضحة في رسالته، متأثرا بالشعراء الأقدمين، كما يبدو في قوله: «وعوافي طير كانت تنتظر من أشلائهم فطر صيامهم»، وهو في هذا ينظر إلى قول الأفوه الأودي[1] (50 ق.هـ/ 570 م):

وترى الطيرَ على آثارنا رأيَ عينٍ ثقة أن ستُمار

وصورة الطير وهي تتبع الجيش وتأكل لحوم القتلى تتردّد في الشعر العربي، وأول من ابتكرها الأفوه الأودي، ثم تبعه النابغة الذبياني.

ولقد كان القاضي الفاضل يميل إلى الترسل في بعض رسائله الخاصة، فلا تُكبّله المحسنات البديعية التي كان يجهد نفسه في تدبيجها في إطار من الفن والزينة وفي هذه الحالة «لم تكن كتابات الفاضل للترف ولا للأناقة، وإنما كانت رسائله في تلك الحالة للضرورة أو للحاجة. فقد كان عليه أن يشارك السلطان في أحزانه، وقد كان عليه أن يُقوي من عزيمته على المضيّ في القتال»[2]، ولا سيّما أن الفرنجة قد قويت شوكتهم، إذ توالت عليهم النجدات من إخوانهم بالشام ومن وراء البحار، في حين تقاعس المسلمون واثّاقلوا عن الجهاد، مما أحزن السلطان وأضعف موقفه، يجزع ويذهب صبره لولا لطف الله، ولولا رسائل القاضي الفاضل[3].

فمن ذلك قوله في رسالة[4]:

«... ومعاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها، وأن يُسلّم على أيدينا القدس ثم ينصره، ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر. وإذا كان ما يقدم الله إليه المماليك قبل

---

(1) شاعر جاهلي اسمه صلاءة بن عمرو بن مالك. لُقّب بالأفوه لأنه كان غليظ الشفتين، ظاهر الأسنان.

(2) عبد اللطيف حمزة، أدب الحروب الصليبية، 194.

(3) انظر: م.ن.

(4) أبو شامة، الروضتين، 166/1.

المولى لا بُدَّ منه، وهو لقاء الله ﷻ، فلأن نلقاه والحُجّة لنا، خير من أن نلقاه والحجة علينا. فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره، وتملأ صدره. فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلم وأنتم الأعلون والله معكم».

ويحزن السلطان الناصر صلاح الدين إثر انهزام المسلمين في عكا، ووصول أنباء إليه حول المسلمين المحاصرين في عكا، واشتداد الكرب عليهم، وغدر الفرنجة بهم، فيكتب إليه القاضي، ليردّ إليه الطمأنينة والصبر، ومما قاله[1]:

«.... وقد جمع العدو لنا وقيل لنا اخشوه فقلنا حسبنا الله ونعم الوكيل، متنجزين بذلك موعد الانقلاب بنعمة من الله وفضل، فما نرجو إلا ذلك الفضل العظيم. وليس لنا إلا الاستعانة بالله، فما دلّنا الله في الشدائد إلا على الدعاء له، وعلى طروق باب كرمه، وعلى التضرّع إليه، ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[الأنعام: 43]؛ ونعوذ بالله من القسوة، ومن القنوط من الرحمة، ومن اليأس من الفرج، فإنه لا ييأس منه إلا مسلوب الرشد، مطرود عن الله، مقطوع الحظ منه، ولا حيلة إلا بترك الحيلة؛ إن علم الله من حب مولانا أنهم قد بذلوا المجهود فقد عذرهم، فيعذرهم المولى، وإن علم أنهم قد ذخروا قوة، وقصروا في نصرة كلمة الله، فيكفيهم مقت الله» ويكتب أحيانا، فيتخلص من السجع الذي عُرفت به طريقته، كما في قوله: **«وما تعلو الجنة بثمن، وما ابتلى الله سبحانه عباده إلا من يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضا، وكأنّ ما قد كان لم يكن، ويذهب التعب ويبقى الأجر، وإنما يقظات العين كالحلم».**

خصائص وسمات

يعد القاضي الفاضل أبلغ كُتّاب العصر الأيوبي، ومن أعلام مدرسة النثر المقفّى أو المصنوع في مصر وقد عرف بأنه صاحب طريقة تسمى الطريقة الفاضلية في الكتابة الديوانية.

(1) أبو شامة، الروضتين، 166/1.

وقد اتسمت بجملة خصائص وسمات، هي:

1. التصوير التشخيصي الذي يحشد له الاستعارات والمجازات والتشبيهات الرائعة، يُشخّص بها الجماد ويُجسّم المعاني.
2. العناية بألوان البديع وخاصة الجناس والطباق والتورية، وذلك حين يغلب عليه التصنّع البديعي، فإذا لم تكبله المحسنات البديعية مال إلى الترسل.
3. الإكثار من الاقتباس والتضمين وحلّ المنظوم.
4. الإطناب الذي يبدو في إكثاره من العطف والترادف وغير ذلك من أساليب التطويل.
5. الإيقاع الموسيقي الذي يتولّد من معادلاته اللفظية، وتوالي سجعاته التي جمعت بين الطول والقصر.

المبحث الثالث

العماد الكاتب (- 579 هـ/1201 م)

هو عماد الدين محمد بن محمد بن حامد، وينسب إلى أصبهان التي ولد بها يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة سنة 519 هـ[1]. وتلقى فيها علومه الأولى، وأتقن العربية والفارسية.

قدم به أبوه إلى بغداد لعهد الخليفة المقتفي سنة 534 هـ. ويشير العماد إلى ذلك بقوله: «وكان وصولي إلى بغداد في الأيام المقتفوية وفي ظلها المنشأ، وفي فضلها المربى، وفي جوارها حصل الأمن...»[2].

التحق بالمدرسة النظامية المشهورة، وتفقّه فيها، وثقف علوم العربية[3]، وإذ استكمل دراسته عاد مع أبيه إلى أصبهان سنة 552 هـ، ثم رجع إلى بغداد، واتصل بالوزير عون الدين بن هُبيرة، فولاه على بعض أعمال واسط، ثم ناب عنه في البصرة، فلما مات الوزير، سُجن فيمن سُجن من أعوانه، ولم يلبث أن أُطلق سراحه، دون أن يعود إلى مكانته الأولى.

رحل إلى بلاد الشام، فبلغ دمشق في شعبان سنة 562هـ، لعهد نور الدين بن محمود ولم يلبث أن تعرف إلى قاضي دمشق كمال الدين الشهرزوري، فأكرم وفادته، ثم قدمه بادئ الأمر إلى الأمير نجم الدين أيوب، وتعرف إلى ابنه صلاح الدين، وغدا أثيراً لديه. وقدّمه أيضا إلى نور الدين، فنال تقديره وعيَّنه على ديوان الإنشاء، وكان قد بعثه رسولاً على الخليفة المستنجد ببغداد، وفوّض إليه التدريس في المدرسة النورية بدمشق. ثم علت منزلته فجعله مشرفاً عاما على الديوان واحتفظ بهذه المكانة المرموقة حتى وفاة نور الدين سنة 569 هـ.

---

(1) العماد الكاتب، الخريدة، قسم شعراء الشام، 230/2.

(2) م.ن، قسم شعراء العراق، 36/1.

(3) م.ن.

اضطر إلى أن يعود إلى العراق، ثم عاد إلى بلاد الشام حين علم بقدوم صلاح الدين من القاهرة إلى دمشق للاستيلاء على مقاليد الأمور، والتقى به في حمص حيث قدّمه إليه القاضي الفاضل، وعرض عليه أمره، وبيّن له محاسنه، ولا سيما أنه يجيد الفارسية، فاستكتبه صلاح الدين، واحتلّ موقعا مهما، إذ أصبح الوزير الثاني ينوب عن السلطان في بلاد الشام، فكان القاضي ينقطع بمصر لمهمات، فيسدّ العماد في الخدمة مسدّه[1] وقد حفظ العماد هذا المعروف الذي بذله القاضي فنسمعه يقول: «ولولا أنني قويت به لأقويت، ولولا أنه أولاني عارفته لما عُرفت ولا تولّيت، فأنا شاكر نِعَمه عمري، وعامرٌ كرمه بشكري»[2].

وإذ توفي صلاح الدين سنة 589هـ، كتب من بعده لابنه الأفضل نور الدين، غير أنه فقد مكانته لتولي ضياء الدين بن الأثير الوزارة. ولم يلبث أن اعتزل العمل الديواني. وزار مصر حينئذ، فلما انتشر بها الوباء عاد إلى دمشق، فلزم داره حتى وافته المنية يوم الاثنين في مستهل شهر رمضان سنة 597هـ.

آثاره

العماد الكاتب أديب كبير، له مصنفات وأعمال نثرية وشعرية، وقد عكف على جمعها وإنجازها في أواخر حياته، هي:

1. خريدة القصر وجريدة العصر: ويعد مصدراً مهما لشعراء القرن السادس الهجري، تحدّث فيه عن أهل عصره، «من الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة»، فوزّعهم بحسب أقاليمهم على أربعة أقسام:
   أ. شعراء العراق وأدباؤه.
   ب. شعراء العجم وفارس وخراسان.
   ج. شعراء الشام والموصل والجزيرة، وألحق به شعراء الحجاز وتهامة واليمن.
   د. شعراء مصر والمغرب والأندلس.

(1) انظر: عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، ص 729.
(2) العماد الكاتب، الفتح القدسي، ص 251 و252.

ويبدو أن تقسيمه لم يكن موضوعيا؛ «لأنه لم يكن صورة عن الحياة السياسية والاجتماعية في هذا العصر»[1].

2. البرق الشامي: ويقع في سبعة مجلدات، تدور حول أحداث حياته منذ انتقاله من العراق إلى الشام، واتصاله بنور الدين ثم بصلاح الدين من بعده، ومكانته عندهما، وتعرض لبعض الفتوح في بلاد الشام وأطرافها، وختمه بقصيدة في رثاء صلاح الدين[2].

وصفه ابن خلكان بأنه ممتع، وذكر أنه سماه بهذا الاسم «لأنه شبه أوقاته في تلك الأيام بالبرق الخاطف لطيبها وسرعة انقضائها»[3].

3. الفتح القسّي في الفتح القدسي: ويتحدث فيه عن انتصارات صلاح الدين، إذ استهله بعام فتح بيت المقدس. وذكر أن القاضي الفاضل اقترح عليه هذه التسمية بقوله: «سمّه الفتح القسي في الفتح القدسي، فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته»[4].

وله كتب أخرى منها: «نُصرة الفطرة وعُصرة القطرة» في تاريخ السلاجقة ووزرائهم؛ و«السيل إلى الذّيل» وهو ذيل الخريدة؛ و«عتبى الزمان في عقبى الحدثان»؛ و«نحلة الرحلة وحلية العطلة»؛ و«خطفة البارق وعطفة الشارق» وتُصوّر هذه الكتب اضطراب الأحوال بعد وفاة صلاح الدين؛ و«كيمياء السعادة» وقد نقله عن الفارسية، وهو من مصنفات الإمام الغزّالي.

وله من الآثار الشعرية ديوان كبير في أربعة مجلدات[5]، وديوان صغير وجميعه رباعيات[6]. وكلاهما مفقود. ولم يصلنا من شعره سوى بعض المقطوعات الشعرية.

---

(1) عمر موسى باشا، أدب الدول المتتابعة، 734.

(2) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 75/2.

(3) ياقوت، معجم الأدباء، 19/19.

(4) انظر: العماد الكاتب، الفتح القدسي، ص 5.

(5) انظر: ابن خلكان، م.س، 75/2.

(6) انظر: أبو شامة، الروضتين، 207/1.

وقد جُمعت رسائله الديوانية بعنوان «رسائل بين الملوك الأيوبيين»، وهو مخطوط في مكتبة نور عثمانية.

النص الأول

من رسالة كتبها عن صلاح الدين إلى الخليفة العباسي ببغداد يبشره بفتح القدس[1]:

«... وأبى الخادم إلا استباحة أموالهم وأرواحهم، وحسم داء اجتراحهم باجتياحهم، وأنه لا بد من تطهير الأرض المقدسة من رجس دمائهم، وقتل رجالهم، وسبي ذراريهم ونسائهم. ولما أيسوا من النجاة، وفتحوا أبوابها المرتجة من أسبابها المرتجاة، خوَّفوا بقتل الأسارى المسلمين، وهم أكثر من ثلاثة آلاف، وأنهم يفسدون جميع ما في البلد من مال وبناء بهدمٍ وإحراق وإتلاف. وعرف أن جهلهم يحملهم على كل مكر شنيع، وأنهم تدعوهم فظاظتهم إلى كل فظيع. وبذلوا إطلاق الأسرى، وشرطوا حمل مال الفدا، وما زالوا يبتهلون ويضرعون، ويذلون ويخشعون، حتى استقرّ الأمر أنهم يفادون، وأجيبت الصخرة المقدسة عند استصراخها، وبركت البركة الناهضة إليها في مناخها، وغُسلت من أوضارها وأوزارها، بعبرات العيون، ورجع اضطرابها إلى السكون.. وزالت ضجرة الصخرة، ونعشها الله من العثرة، وبدّل بالأنس فيها ما كان من الوحشة والحسرة، والحمد لله على هذه النصرة».

يذكر صاحب الروضتين كثرة ما كان يكتبه العماد من البشارات في كل انتصار لصلاح الدين، فقد كتب سبعين بشارة في فتح القدس، تتسم كل واحدة منها بمعنى بديع وعبارة جديدة. وهذه الرسالة كسابقتها تتسم بالسهولة والوضوح. وقد جانس فيها بين «اجتراحهم واجتياحهم» و«المرتجة والمرتجاة» و«فظاظة وفظيع». و«بركت والبركة». وتتوالى فيه السجعات الطويلة التي أقام بعضها على الجناس الناقص. والطباق واضح فيها بين «اضطراب وسكون» و«الأنس والوحشة» وهو يُكثر من الكلمات المترادفة، التي تسعفه في إتمام سجعاته، وتأكيد معانيه، في مثل قوله: «وما زالوا يبتهلون ويضرعون، ويذلون ويخشعون». وهو يعمد إلى التصوير والتشخيص، وبخاصة ما يتعلّق بالصخرة المشرّفة؛ فهي تستصرخ وتجاب، ويزول عنها الضجر، وتقال من عثرتها، ويحل فيها الأنس بعد وحشتها وحسرتها.

---

(1) انظر: أبو شامة، الروضتين، 96/2.

النص الثاني

من كتاب آخر كتبه يوم الفتح القدسي[1]:

«رأوا المنجنيقات قد أنزلت الأسواء بالأسوار، وغارت الصخور للصخرة المباركة، فجدّت في إنقاذها من الإسار، وهتمت ثنايا الأبراج، وأعضل بها في العلاج داء الأعلاج، فعاينوا الحِمام، وشاهدوا الموت الزؤام. وأقامت على عصابته حدّ الرّجم، وواقعت ثنايا شرفاته بالهتم. وتطايرت الصخور في نصرة الصخرة المباركة، وحجرت على حلم السور بسفه الأحجار المتداركة. وحسرت النقوب عن عروس البلد بنقب الأسوار، وانكشفت للعيون انكشاف الأسرار. ونهضت لإصراخ الصخرة المقدسة للصخور، وطارت من أوكار الجانيق كأنها الصقور. فما أسرٌ البيت الحرام بفكاك أخيه من الأسر، وإجراء الإسلام فيه لغسل أوضار الكفر، وإنقاذ الصخرة المباركة ممن قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة..».

فالعماد في هذا النص يسلك طريقةً في الكتابة هي أدنى إلى طريقة القاضي الفاضل دون أن يبلغ شأوه في أناقة العبارة وروعة الصنعة؛ بوصف هذه الأناقة «كانت نتيجة طبيعية لطريقة الفاضل في الكتابة وضرورة قصوى من ضروراتها فالفاضل كان يُجهد نفسه وكأنه يكتب بجملة أعضائه»[2].

فنراه يصف أحجار الجانيق، وهي تتساقط على أسوار المدينة وأبراجها، فتُنزل بها الضّرر، وبأنها هتمت ثنايا الأبراج وأصابت شرفات السور بالدّمار. ويشخصها فإذا هي تقيم حدّ الرجم على الكفار، وهو بذلك يسخر ويهزأ بهم، ويشبهها بالصقور التي طارت من أوكارها. ويصوّر الصخرة بالعروس التي كشف عنها النقاب، وبالإنسان الذي تحرّر من آسريه. والعماد شديد الكلف بالسجع، إذ تتوالى السجعات التي يقوم بعضها على الجناس الناقص (الأسواء والأسوار، والعلاج والأعلاج). ويصوّر قلوب الفرنجة في قسوتها بالحجارة، ناظراً إلى قوله تعالى﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾[البقرة: 74].

(1) انظر: أبو شامة، الروضتين.

(2) انظر: عبد اللطيف حمزة، ص 190.

المبحث الرابع
صلاح الدين الصفدي (-764 هـ/1269 م)

في مدينة صفد التي تقف شامخة على سفح جبل كنعان شمالي فلسطين، ولد العالم الأديب المؤرخ صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي سنة 696 هـ. تلقى علوم الشريعة والعربية، وعُني في أول حياته بصناعة الرسم. وأخذ عن كبار العلماء في دمشق والقاهرة؛ فقد التقى في دمشق ابن نُباتة ولزمه زمنا، وإذ لقيه بالقاهرة أجازه برواية شعره. ولكنه اتُّهم بسرقة معاني شعره، وهو ما لاحظه ابن نباتة نفسه، وألّف في سرقاته كتابا سمّاه «خبز الشعير»[(1)] ليوحي بأن هذه السرقات مذمومة.

وأيّاً كان الأمر فقد أنشد الصفدي شعره لجماعة من علماء عصره. روى ابن كثير قال: «وأنشدني القاضي الصفدي ليلة الجمعة رابع عشر صفر سنة 764 هـ لنفسه فيما عكس عن المتنبي وهو قوله:

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا   فأيسر ما يمرُّ به الوحولُ

قال الصفدي:

دخول دمشقُ يكسبنا نحولا   كأنّ لها دخولاً في البرايا
إذا اعتاد الغريب الخوض فيها   فأيسر ما يمرُ به المنايا

وكذلك أعجب بمقدرته اللغوية[(2)] مع أن شعره متوسط على حد تعبير شوقي ضيف[(3)].

وكان من شيوخه في دمشق الشهاب محمود، وقد قرأ عليه ولازمه حتى خرّجه كاتبا مُجيدا. وسمع عن بعض العلماء في القاهرة، فأخذ عن ابن سيد الناس، وابن دانيال وأبي المصري. «ومن الطريف أن بعض هؤلاء العلماء جلسوا للاستماع إليه

---

(1) انظر: البداية والنهاية، 298/14

(2) انظر: ابن حجة الحموي، خزانة الأدب، 15.

(3) أدب الدول والإمارات (الشام)، 304.

حين أصبح عالماً كبيراً يجلس للدرس فيؤم مجلسه الكبار والصغار»[1] فقد اشتغل بالتدريس في أخريات حياته بالجامع الأموي، وكان يحضر مجالسه أحيانا بعض شيوخه مثل الذهبي وابن كثير، قال الذهبي: «سمع مني وسمعت منه»[2].

عُرف الصفدي بدماثه خلقه، فكان يودّه أصدقاؤه ورؤساؤه، فكان يجتمع بابن نُباتة في الجامع الأموي حيث يتذكران[3] وتحدّث ابن كثير عن مجالسه مع الصفدي هو وبعض العلماء[4].

بدأ حياته العلمية في صفد، فقد كان يكتب بخط يده ما يُوقّع به كبار الكتاب لجودة خطه، فلما انتقل إلى دمشق عينه الشهاب محمود في الديوان مساعداً له، وعمل كاتبا للسر بالقاهرة زمنا، وعُين رئيسا لديوان الإنشاء حيث واصل عمله، وتولى أيضا وكالة بيت المال، واستمرّ في هاتين الوظيفتين إلى أن توفي بدمشق سنة 764هـ[5].

آثاره

تربو مؤلفات الصّفدي على المئتين، فقد صنّف في التراجم والأدب والتاريخ وغير ذلك. وقد قامت شهرته على كتاب «الوافي بالوفيات» الذي يقع في نحو ثلاثين مجلداً، ونُشرت بعض أجزائه، وقد نقل عنه ابن تغري بدري كثيراً وقال: «إنه في غاية الحُسْن»[6].

ومن كتبه الأخرى: «نُكت الهميان في نُكت العميان» ألّفه في مشاهير المكفوفين، و«التذكرة الصّفدية» وهو مختارات أدبية، و«شرح لامية العجم» وهو شرح لا يخلو من الملاحظات النقدية، و«تمام المنون وشرح رسالة ابن زيدون»، و«نصرة الثائر على المثل

(1) انظر: مصطفى الشكعه، مناهج التأليف عند العلماء العرب، ص 590.

(2) شذرات الذهب، 200/6.

(3) انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، 295/14.

(4) انظر: م.ن، 298/14.

(5) انظر: شوقي ضيف، أدب الدول المتتابعة والإمارات (الشام)، ص 304.

(6) النجوم الزاهرة، 19/11.

السائر» وهو في النقد، و«فضّ الختام عن التورية والاستخدام» وهو في البديع والنقد. وله رسائل ديوانية، احتفظ القلقشندي بقليل منها.

النص الأول

في وصف بستان:

«فوصلنا إلى بستان قد أخذ زخرفه وتزيّن وفاضت عيونه غيرة من نازليه وتلوّن، تنساب جداول جوانبه كالأراقم، ويُصفّق النهر لرقص الغصون على غناء الحمائم، ويهبّ النسيم فينقطها من الزهر بدنانير ودراهم، قد تطاول فيه من البان كل قدّ مقصوف، وخجل فيه من الورد كل خدّ موصوف، فأجلسنا النرجس على أعينه وأحداقه، وظلّلنا الغصن بسائر أوراقه، وحيّا منثوره الأبيض والأزرق بالأصابع، وفتح جفونه النسرين وهو منا غيران فاقع. وجرى النهر بين أيدينا متواضعاً بسجوده، وشبَّب الشحرور بمزماره كما تغنّى الهزار على عوده. قد رقّ نسيمه وراق، وجذب الحمائم إلى الغناء بالأطواق، وروى حديثاً تعطّرت منه الرُّبا والمسالك، وأهدى من خيام الحب ختام المسك».

وواضح ما في القطعة من استعارات وتشبيهات، استطاع الكاتب بها أن ينقل إلينا إحساسه ببهجة الطبيعة، فالبستان يتزين ويغار، والحمائم تغني، والغصون ترقص والنهر يصفق، وما سوى ذلك من صور جعلته يعيش مع الطبيعة، فهي تُسر لسروه وتضحك لضحكة.

وتتوالى سجعاته الطويلة التي تضفي إيقاعاً موسيقيا على النص. ويجانس بين «رقّ وراق»، و«روى وربا» و«خيام وختام». والتورية واضحة في كلمة «فاقع».

النص الثاني

ووقّع لكاتب السر بدمشق ناصر الدين محمد بن يعقوب:

«إنّ مدارس العلم الشريف لها الذكر الخالد والشرف الطارف والتالد، بها تتبيّن فوارس الجلاد في مضايق الجدال، وتتجلّى بدور الكلام في مطالع الكمال، وتبدو شموس الجمال فيما لها من فسيح المجال. والمدرسة الناصرية – أثاب الله تعالى واقفها – هي الواسطة في عقودها، والدُّرة الثمينة بلا كُفء لها بين قيّم نقودها، قد تدبَّج فيها

البناء وتأرّج[1] عليها الثناء، وتخرّج عنها الحُسن، فإن له بها مزيد اعتناء. فلذلك رُسم بالأمر العالي أن يُعاد إلى تدريسها لأن العَوْد أمدح وأحمد، والرّجوع إلى الحق أسعف وأسعد».

وهو في هذا التوقيع يتكلف الجناس، لينال إعجاب رئيس ديوان الإنشاء، فيكثر من الجناس المقلوب في مثل: «جلاد وجدال»، و«كلام وكمال»، و«أمدح وأحمد»، وغير المقلوب مثل: «أسعف وأسعد». وقد أخذ عليه ابن نُباتة هذا التكلف، والطباق واضح في كلمتي «الطارف والتالد».

(1) تأرج عليها: عطّرها.

المبحث الخامس
محيي الدين بن عبد الظاهر (-692 هـ/1293 م)

هو القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر المصري، ولد سنة 620 هـ. كان كاتباً وشاعراً ومؤرخاً، ويشير ابن حجة الحموي إلى أنه كـان يـسلك طريقـة القاضـي الفاضل في الإنشاء هو وجماعة من الكُتّاب بقولـه: «وهـذه الفرقـة الـتي تقـدّمت بعـد الفاضل بالديار المصرية»[1]، فقد أكثر – مثله – من التجنيس، ولكنه فاقـه في التوريـة، فقد كان مغرماً بهما غراما شديدا، وأكثر من استخدام مصطلحات العلـوم علـى نحـو ملحوظ.

ولي ديوان الإنشاء لعهد الأيوبيين، ثم عـلا نجمـه في العـصر المملـوكي الأول، إبّان عهود بيبرس وقلاوون وابنه الملك الأشرف خليل[2] وقد سـجّل سـيرة الـسلطان قلاوون ووقائعه وأشاد ببطولاته على الفرنجة والتتار.

قام بتطوير ديوان الإنشاء في مصر إذ وضع لـه مـصطلحات جديـدة التـزم بهـا الكُتاب طوال العصر المملوكي؛ فقد كان له في قلم الرّقاع طريقة عربية حلوة»[3]. ومن ثمّ فقد أشاد به معاصروه، من ذلك قول ابن شاكر: «الكاتب الناظم الناثر، شيخ أهل الترسل، ومن سلك الطريقة الفاضلية في إنشائه»[4] وآية ذلك أنه جمع رسائل القاضـي الفاضل في كتاب سمّاه «الدُّرُّ النظيم من ترسّل عبد الرحيم».ولما أسـنّ اعتـزل عملـه الرسمي، وتولاّه ابنه. ولزم داره حتى توفي سنة 692هـ.

آثاره

للشيخ محيي الدين رسائل ديوانية وردت في «صبح الأعشى» للقلقشندي. وهو لم يكن كاتباً ديوانياً فحسب، فله رسائل شخصية.

---

(1) خزانة الأدب، ص236.

(2) انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، 110/1.

(3) فوات الوفيات، 451/1.

(4) م.ن.

وله ديوان شعر، أكثره في الإخوانيات، والغزل والوصف. وكان مؤرخاً وكاتب سيرة، فكتب سيرة الظاهر بيبرس، وسيرة قلاوون بعنوان «تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور» تحدّث فيها عن حياته وعصره وبطولاته في مواجهة الفرنجة والتتار، وكتب أيضا سيرة الأشرف خليل بعنوان «الألطاف الخفيّة من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية»، وله كتاب في التاريخ والخطط بعنوان «الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزّية القاهرة» أفاد منه المقريزي في خططه والقلقشندي في صبح الأعشى. وله أيضا في الأدب «النجوم الدُّرّية في الشعراء المصرية»، و«رسالة في الخيل»، وله مقامة أوردها الصفدي في الوافي بالوفيات.

النص الأول

في وصف شمعة(1):

«في حين ما شقّ رداء الدّجى عن ترائبه جيباً، ونشر الظلام ضفائره، وقد اشتعل رأسه من النجوم شيباً، في ضوء شمعة نشرت على الورق رداء الأصيل، وأخفت من الدُّجى سواد جفنه الكحيل، وسترت ذوائبه معصفرة، أبهج من وجنتي بُثينة لولا أنها في صفرة وجه جميل».

فالوصف يمتلئ بالاستعارات المكنية، وتتوالى فيه السجعات الطويلة التي تداخلها تصوير جميل، فالدُّجى يشق رداءه، والظلام ينشر ضفائره ويشتعل رأسه شيبا، والشمعة تنشر رداء الأصيل، وتخفي سواد الدّجى. والتورية واضحة في قوله «صفرة وجه جميل» فقد جاء بجميل مع بثينة ويريد هنا الصفة.

ولتشكيل الصورة يعمد إلى الاقتباس من القرآن الكريم، إذ نظم في قوله: وقد اشتعل الرأس شيبا قوله تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾[مريم: 4]، ليصوّر الليل الذي توشّح بالنجوم.

(1) انظر: محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، 404/2.

النص الثاني

ومن مقامة كتب بها إلى ابن القرناص الحموي:

«ودخلنا مصر فتلقّانا نيلُها مُصعِّراً خدّه للناس، وقلنا هذا الذي خرج إلينا عن المقياس، وشاهدنا ربوعها وقد فُرشت من الربيع بأحسن بُسطها، وبَدتْ كلُّ مُقطّعةٍ من النيل قد زُيّنت بما أبدته من قُرطها، وتنشّقنا رياحها الهابة بما ترتاح إليه الأرواح، وشِمنا بروق غمائمها التي لم تغادر في القلوب من القرّ قُروحا لا تتعقبه لما تُلقيه من الماء القراح، لا يكلحُ الجليد أوجه بُكرها، ولا يهتِمُ المدر ثنايا نهرها ولا يوقظ البرق راقد سَمَرها، ولا تُغير على أهلها القوانين، ولا يُحتاج إلى التّدفّي في الكوانين بنيران الكوانين. كل أوقاتها سحر وآصالها بُكر، وطول زمنها ربيع لا يُشان من اللواقح الكوالح ببرد، ولا يُشان من النوافح اللوافح بحرّ. غنيتْ بنيلها الخِضمّ عن كل «دانٍ مسفّ فُويق الأرض هيدبه»».

وواضح في أول هذه القطعة اقتباس محيي الدين بن عبد الظاهر لآية سورة لقمان: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ [لقمان: 18]، وتضمينه في آخرها صدر بيت أوس بن حجر: دانٍ مُسِفٌّ فُويق الأرض هيدبه[1].

ونراه يُكثر من الاستعارات والجناس، ويتضّح الطباق في كلمتي «يوقظ وراقد» وكلمتي «برد وحرّ».

النص الثالث

من وصف فتوح قلاوون في الشام:

«تعطيه الملوك الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، ويصطفي كرام أموالهم وهم صابرون لا مُصابرون، وكم شكتْ منه حماة تُثني بنكرها عن قلة الإنصاف، وكم خافته معرّةٌ وما من معرَّة خاف، ما زالت أيدي المماليك تمتد إلى الله بالدّعاء عليه

(1) ديوانه، ص 15 وعجزه: يكاد يدفعه من قام بالرّاح.

تشكو من جَوْر جواره تلك الحصون والصياصي، وتبكي بدمع نهرها من تـأثير آثـاره مع عصيانها وناهيك بدمع العاصي»[1].

ويتـضح مـن الـنص اقتباسـه مـن الآيـة: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: 29]، والتورية في قوله: «وما من معرّة خاف»، فقـد جـاء بهـا مـع كلمتي حماة والمعرّة وهـو يريـد هنـا الـصفة. وورّى أيـضا في قولـه: «وناهيـك بمـدمع العاصي» فقد جاء بها مع كلمة «عصيانها» وهو ويريد النهر المعروف في بلاد الشام.

ولا يخفى ما في النص من الاستعارات التي أراد بها التشخيص، وألـوان البـديع الأخرى كالجناس بين «جَوْر وجوار» و«عصيانها والعاصي» وطباق الـسلب بـين «مـا خاف وخاف».

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، 355/7.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

- ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم، (-606 هـ)، **الكامل في التاريخ**، لبنان، دار الفكر، 1978م.
- أسامة بن منقذ (-584 هـ):

أ. **كتاب الاعتبار**، حرّره فيليب حتى، الطبعة الأولى مطبعة جامعة برنستون، الولايات المتحدة، 1930م، نشرته الدار المتحدة، 1981 م، لبنان.

ب. **ديوان أسامة بن منقذ**، تحقيق أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1953.

- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين، أبو العباس، أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي (-668هـ)، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، مصر، المطبعة الوهبية، 1882م.
- ابن إياس، محمد بن أحمد (-930 هـ)، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، الطبعة الثالثة، مصر، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة، 1984.
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله بن إبراهيم الطبخي (779هـ)، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، مصر، المطبعة الأميرية، 1934م.
- البهاء، زهير (-656هـ)، **ديوانه**، شرح وتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ومحمد طاهر الجيلاوي، مصر، دار المعارف، 1977م.
- ابن التعاويذي، **ديوانه**، طبع بمصر بعناية مرجليوت، 1903م.
- ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (-874هـ):

أ. **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، مصر، دار الكتب المصرية، 1956.

ب. **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، مصر، وزارة الثقافة المصرية، 1963-1972.

- ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد (-614 هـ)، **رحلة ابن جبير (اعتبار الناسك في الآثار الكريمة والمناسك)**، الطبعة الأولى، تقديم وتعليق إبراهيم شمس الدين، لبنان، دار الكتب العلمية، 2002 م.
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (-1067هـ/ 1656م)، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، العراق، مكتب المثنى، د.ت.
- ابن حجر، شهاب الدين أحمد (852 هـ)، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، الهند – حيدر آباد، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، 1350 هـ.
- ابن حجة، تقي الدين أبو بكر (-837 هـ)، **خزانة الأدب**، مصر، مطبعة بولاق، 1273 هـ.
- ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر علي (837 هـ)، **خزانة الأدب وغاية الأرب**، الطبعة العاشرة، مصر، 1291 هـ.
- ابن خلدون، عبد الرحمن (-808 هـ)، **المقدمة**، مصر، المطبعة الهبية، د.ت.
- ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد (-681 هـ)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، لبنان، دار صادر ودار بيروت، 1977 م.
- ابن رشيق، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (-456 هـ)، **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، الطبعة الخامسة، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، لبنان، دار الجيل، 1981 م.
- ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس (-283 هـ)، **ديوان ابن الرومي**، تحقيق حسين نصار، مطبعة دار الكتب، مصر، 1973-1980.
- ابن الساعاتي، بهاء الدين أبو الحسن علي بن رستم (-604 هـ)، **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، نشرته جامعة شيكاغو سنة، 1903.

- السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين (771هـ)، 1324هـ، **طبقات الشافية الكبرى**، الطبعة الأولى، المطبعة الحسينية المصرية.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (-911هـ):
أ. **تاريخ الخلفاء**، ، دار نهضة مصر، 1976م.
ب. **حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، مصر، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، 1967.
ج. **شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان**، لبنان، دار إحياء الكتب العربية، د.ت.
د. **شرح مقامات السيوطي**، الطبعة الأولى، تحقيق سمير الدروبي، لبنان، مؤسسة الرسالة، 1989م.
- الشاب الظريف، شمس الدين محمد بن عفيف (-630 هـ):
أ. **ديوان الشاب الظريف**، لبنان، المطبعة الأهلية.
ب. **مقامات العشاق** (ملحقة بديوان التلعفري)، لبنان، المطبعة الأدبية، 1310هـ.
- ابن شاكر الكتبي، محمد (-764 هـ/ 1362 م)، **فوات الوفيات**، لبنان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، 1973 م.
- أبو شامة المقدسي، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل (-656 هـ)، **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين**، مصر، مطبعة وادي النيل، 1287 هـ.
- ابن شدّاد، بهاء الدين (-632 هـ)، **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية**، الطبعة الأولى، تحقيق، جمال الدين الشيال، مصر، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، 1964 م.
- شرف الدين الصاحب الأنصاري، عبد العزيز بن محمد (-662هـ)، **ديوانه**، تحقيق عمر موسى باشا، سوريا، المطبعة الهاشمية، 1976م.
- الشهاب الشاغوري، فتيان بن علي (-615هـ)، **ديوانه**، سوريا، تحقيق أحمد الجندي، المطبعة الهاشمية، 1976.

- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (-764هـ)، **الوافي بالوفيات**، مطبعة الدولة، القطسنطينية، نشر جماعة المستشرقين الألمانية، 1939م.
- ابن عربي، محيي الدين (-638 هـ):
أ. **ديوان ابن عربي**، مصر، مطبعة بولاق، 1271 هـ.
ب. **فصوص الحكم**، تحقيق أبي العلا عفيفي، لبنان، دار إحياء الكتب العربية، 1946 م.
- ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (-1089 هـ)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، مطبعة القدس، 1351 هـ.
- العماد الكاتب، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (-597هـ):
أ. خريدة القصر وجريدة العصر
  - **قسم شعراء الشام**، تحقيق شكري فيصل، سوريا، منشورات المجمع العلمي، 1955م.
  - **قسم شعراء مصر**، تحقيق شوقي ضيف وأحمد أمين وإحسان عباس، مصر، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1951.
ب. **ديوانه**، تحقيق ناظم رشيد، مطابع جامعة الموصل، 1983.
ج. **الفتح القسّي في الفتح القدسي**، 1322هـ، مصر، المطبعة المخبرية.
- ابن عنين، أبو المحاسن شرف الدين محمد بن نصر الله (-630 هـ)، **ديوان ابن عنين**، سوريا، تحقيق خليل مردم، منشورات المجمع العلمي العربي، 1946 م.
- ابن الفارض، عمر (633 هـ)، **ديوانه**، طبع مرسيليا، مطبعة أرنولد، 1853 م.
- ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى (-749هـ)، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، مصر، دارا لكتب المصرية، 1342 هـ.
- ابن القوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق (-723 هـ)، **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابقة**، تحقيق مصطفى جواد، العراق، المكتبة العربية، 1351 هـ.

- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي (-821هـ): **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، مصر، وزارة الثقافة، د.ت.
- أبو الفداء، المؤيد عماد الدين إسماعيل بن أيوب (-732 هـ)، **المختصر في أخبار البشر**، تركيا، دارا لطباعة العامة، 1286 هـ.
- ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر (-774هـ)، **البداية والنهاية**، الطبعة الثالثة، لبنان، مكتبة المعارف، 1981.
- المتنبي، أبو الطيب أحمد بن الحسين، **ديوانه**، الطبعة الرابعة، شرح عبد الرحمن البرقوقي، لبنان، دار الكتاب العربي، 1980.
- ابن مطروح، **ديوانه، طبع مطبعة الجوائب**، القسطنطينية، 1298هـ.
- ابن المقرّب، علي، **ديوان ابن المقرّب**، تحقيق عبد الفتاح الحلو، الأحساء، مكتبة التعاون الثقافي، مطبعة البابي الحلبي بمصر، 1963.
- المقريزي، شهاب الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (845هـ)، **الخطط المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، ، مصر، مطبعة وادي النيل، 1324هـ.
- ابن منظور المصري، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، لبنان، دار صادر، د.ت.
- ابن منير الطرابلسي، أحمد، **ديوان ابن منير الطرابلسي**، الطبعة الأولى، جمعه وقدّم له عبد السلام تدمري، لبنان، دار الجيل، 1986م.
- ابن نُباتة، جمال الدين محمد بن محمد بن الحسن (-768 هـ)، **ديوان ابن نُباتة المصري**، مصر، مطبعة التمدن بعابدين،1323 هـ.
- النويري، أحمد بن عبد الوهاب (-733هـ/ 1332م): **نهاية الأرب في فنون الأدب**، مصوّرة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة دار الكتب، مصر، د.ت.
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (-697 هـ)، **مُفرّج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق جمال الدين الشيال، مطبعة جامعة القاهرة، 1953-1957.

- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (-626هـ/ 1229م):

أ. **إرشاد الأديب لمعرفة الأدب المعروف باسم معجم الأدباء**، تحقيق مرغليوث، مصر، مطبعة هندية، 1925م.

ب. **معجم البلدان**، طبع دار صادر ودار بيروت، 1955م.

کتابخانه تخصصی تاریخ اسلام و ایران

ثانيا: المراجع

1. الأسعد، عمر، **نصوص من شعر عصور الدول المتتابعة**، الطبعة الأولى، الأردن، مكتبة المنار، 1988.
2. أمين، أحمد، **ظهر الإسلام**، الطبعة الخامسة، لبنان، دار الكتاب، العربي، د.ت.
3. أمين، بكري شيخ، **مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني**، الطبعة الرابعة، لبنان، دار العلم للملايين، 1986.
4. الأهواني، عبد العزيز، **الزّجل في الأندلس**، مصر، منشورات معهد الدراسات العربية العالية بجامعة الدول العربية، مطبعة الرسالة، 1957م.
5. باشا، عمر موسى:

   أ. **أدب الدول المتتابعة**، الطبعة الأولى، سوريا، دار الفكر الحديث، 1967.

   ب. **ابن نباتة المصري أمير شعراء المشرق**، مصر، مطابع المعارف، 1963م.
6. بدوي، أحمد أحمد، **الحياة الاجتماعية في عصر الحروب الصليبية في بلاد الشام ومصر**، مصر، دار نهضة مصر، 1972م.
7. حسن، علي إبراهيم، **دراسات في تاريخ المماليك البحرية**، مصر، مكتبة النهضة العربية، 1948.
8. حمزة، عبد اللطيف، **أدب الحروب الصليبية**، الطبعة الثانية، مصر، دار الفكر العربي، 1948.
9. الخضيري، علي بن عبد العزيز، **علي بن المقرّب العيوني**، الطبعة الثانية، السعودية، مطابع الشريف، 1992م.
10. الدروبي، سمير، **الرمز في مقامات السيوطي (مقامة الرياحين أنموذجا)**، الطبعة الأولى، لبنان، مؤسسة الرسالة، 2001م.
11. الزركلي، خير الدين، **الأعلام**، الطبعة الثالثة، لبنان، 1969م.
12. الساريسي، عمر عبد الرحمن، **نصوص من أدب عصر الحروب الصليبية**، الطبعة الأولى، السعودية، دار المنارة، 1985م.

13. سلام، محمد زغلول:

أ. **الأدب في العصر المملوكي (الشعر والشعراء)**، مصر، منشأة المعارف، د.ت.

ب. **الأدب في العصر المملوكي (فنون النثر وأعيان الكُتاب)**، مصر، منشاة المعارف، د.ت.

14. الشكعه، مصطفى، **مناهج التأليف عند العلماء العرب**، الطبعة الرابعة، لبنان، دار العلم للملايين، 1982.

15. شوقي، أحمد، **الشوقيات**، الطبعة الأولى، لبنان، دار الكتاب العربي، د.ت.

16. ضيف، شوقي:

أ. **الترجمة الشخصية**، لبنان، دار المعارف، 1956م.

ب. **عصر الدول والإمارات (مصر والشام)**، مصر، دار المعارف، 1984م.

ج. **الفن ومذاهبه في الشعر العربي**، مصر، دار المعارف، 1976.

د. **الفن ومذاهبه في النثر العربي**، مصر، دار المعارف، 1976.

17. عاشور، سعيد عبد الفتاح:

أ. **دراسات في الحياة الاجتماعية في مصر في عصر سلاطين المماليك**، مصر، مكتبة النهضة، 1959م.

ب. **محاضرات في التاريخ العباسي والأندلسي**، لبنان، كريدية إخوان، 1974.

18. كردي علي، محمد بن عبد الرزاق بن محمد، **خطط الشام**، سوريا، المطبعة الحديثة، 1925.

19. النجار، محمد رجب، ، **النثر العربي القديم (من الشفاهية إلى الكتابة)**، الكويت، مكتبة دار العروبة، الطبعة الثانية، 2002م.

کتابخانه تخصصی تاریخ اسلام و ایران
۱۳۷۷۴